

عالم الفكر

للدلتاسع عشر- العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٨٩

الترجمة والتعريب

«مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

- (١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقاً للقواعد التالية :-
 - (أ) أن يكون البحث مبتكراً أصيلاً ولم يسبق نشره .
 - (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
 - (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
 - (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطباعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
 - (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .
 - (و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

رئيس التحرير : حسن يوسف الزوي
مستشار التحرير : دكتور أسامة أمين الخولي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٩م
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الترجمة والتعريب

- | | |
|-------------------------------------|--|
| الدكتورة نجدة عبدالعزیز الطوع | التعريب : آفاق الترجمة والتعريب |
| الدكتورة سامية أحمد | ترجمة النص الأجنبي |
| الدكتور كرام السيد فهد | اللغة العربية والبيئة العلمية المنشورة |
| الدكتور فاسم السار | تعريب المصطلح العلمي |
| الدكتور عبيد عويد | الرواية الألفية الحديثة |

... ..

شخصيات وآراء

- | | |
|---------------------------|------------------------|
| الدكتور مصطفى الشار | الغزالي ونظرية المعرفة |
|---------------------------|------------------------|

... ..

مطالعات

- | | |
|---------------------------|----------------------------------|
| الدكتور جلال شوقي | مسيرة الحضارة من شكل التجريد إلى |
| الدكتور رشيد بن حدي | يقين التجريب |
| | أسئلة الشعر في زمن اللاشعر |

... ..

من الشرق والغرب

- | | |
|------------------------|--|
| الدكتور عزت قرني | الأمة والوطن والمواطن عند رقاعة الطهطاوي |
| | وعبر الدين التونسي |

... ..

صدر حديثا

- | | |
|--|-------------------------|
| تأليف : مفاتيح لطيف السيد مارسون | تاريخ مختصر لعصر الحديث |
| عرض وتحليل : الدكتور عبد الملك التميمي | حول الصحراء الكبرى |
| تأليف : أوجين دوما | |
| عرض وتحليل : الدكتور سليمان نظايه | |

مجلس الإدارة

- حسن يوسف الزوي (رئيساً)
- د. أسامة أمين الخولي
- د. رشاد محمود الصباح
- د. عبد الملك التميمي
- د. علي المشووط
- د. نوريدة الزوي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

المحرر الضيف لمحور العدد

الدكتورة نجاة المطوع

المحرر الضيف لعدد (الترجمة والتعريب)
هي الدكتورة نجاة المطوع الأستاذ المساعد
بكلية التربية بجامعة الكويت ومعاونة مساعدة
مدير الجامعة لخدمة المجتمع والاعلام (لشئون
الاعلام) .

التمهيد

تزايدت في العقود القليلة الماضية الجهود العربية لتحقيق التطوير الشامل لمواكبة الدول المتقدمة . وتستند أغلب الجهود الى الأفكار والنظريات العلمية لهذه الدول . وقد نتج عن ذلك شيوع استخدام المؤلفات والمصطلحات الأجنبية ، الأمر الذي يتطلب العمل على الحد من تفشي هذه الظاهرة في مختلف مراحل ومستويات النظام التعليمي في الوطن العربي .

وقد حظي التعريب في مجال العلوم والتكنولوجيا باهتمامات كثيرة منذ بداية النهضة العربية الليثية ، وأصبح محوراً هاماً في المؤتمرات واللقاءات العلمية على مختلف المستويات .

وتمثل اللغة العربية أحد العوامل الرئيسة والدعامات الهامة التي يركز عليها الشعور بوحدة الأمة العربية ، بالإضافة الى أنها لغة الدين الاسلامي . ومن هنا فإن استخدام اللغات الأجنبية بدلاً من العربية يؤدي الى إضعاف الكيان الثقافي والفكري في العالم العربي .

ولم ينحصر دور اللغة العربية كأداة للتعبير والتفكير على العرب وحدهم ، بل امتد نفوذها من المحيط الى الخليج ، حتى أصبحت لغة دولية للعلم والحضارة . وقد استفادت أوروبا عبر التاريخ من المصطلحات العربية العلمية وخاصة في مجالات الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية . كما تركت اللغة العربية أثراً على اللغة الأسبانية والتركية ، وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية^(١) .

آفاق الترجمة والتعريب

نبذة عبدالعزيز المطيع

أستاذ مساعد كلية التربية

(١) الحبيب محمود محمد (١٩٧٨) عملية التعريب - الأساليب ، المشاكل والحلول ، مجلة العلوم الاجتماعية ، ج ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

واستطاع العرب عبر العصور أيضاً الاتصال بالحضارات المختلفة ونقل ما لديها من تراث وعلوم وآداب وفنون ، كالنثر الإغريقي والفارسي والهندي ، وترجمته التقليد منها الى اللغة العربية ، ثم إعادة صياغتها بقلب عربي .

وهذا يقودنا الى التمييز بين الترجمة والتعريب . فالترجمة هي نقل من لغة أجنبية الى ما يقابل النص أو المصطلح العلمي باللغة العربية ، ونجاحها يعتمد على مدى استيعاب المترجم للغتين وإجادته لغير الترجمة . وقد أصبحت الترجمة أحد فروع اللغة التطبيقية والعلوم المتصلة بها مثل علم اللغة النفسي والاجتماعي . ولذلك فإن إعداد المترجم لا يقتصر على تمكينه لغوياً بل إعداده أيضاً في ميادين المعرفة المختلفة .

وقد سادت حركة ترجمة هائلة في المشرق العربي منذ القرن الماضي بين المثقفين العرب تناولت نقل الروايات والمسرحيات والقصائد الأوروبية من الفرنسية والإنجليزية الى اللغة العربية ، مما ساهم في إحداث الفهم الحضاري والاجتماعي للتعريب ، الا ان هذه الجهود اصطفت بصبغة فردية وفقاً للظروف المحيطة بالأفراد .

أما التعريب فإنه محاولة نقل الكلمات أو المصطلحات العلمية من لغة أجنبية الى اللغة العربية ، مع تحويلها قطعاً لتلائم النطق العربي ، ولغتنا تزخر منذ زمن طويل بالمصطلح المعرب . ويمكن القول إن الترجمة والتعريب أمران متلازمان ويتطلبان نمو اللغة العربية بشكل متطور لتواكب ركب الحضارة ، وبناء نبضة عربية جديدة ، ولتحقيق البعد الوطني والقومي والانساني للثقافة العربية . وهذا يؤكد أن حركة التعريب لا تنفي أهمية دراسة اللغات الأجنبية في الوطن العربي ، خاصة وإن دراستها تعتبر مطلباً أساسياً لإعداد المترجم الجيد .

وقد استطاعت اللغة العربية عبر التاريخ أن تؤدي مهامها القومية كاملة كأداة أساسية للاستيعاب والتبليغ والأبداع ، وكلفة للحياة والفكر والعمل ، الا أنها واجهت صراعات كثيرة مع لغات أجنبية ، نتيجة لهجمات أجنبية حاول أصحابها احتلالها على اللغة العربية من ناحية ، وعزلها تماماً عن مجالات التعليم والبحث والادارة والاعلام من ناحية أخرى . ولم تستطع أن تحافظ على مكانتها كلفة رئيسية للتعليم الا في مؤسسات تربوية تقليدية مثل الجامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس وجامعة القرويين في المغرب .

وهكذا تعطلت اللغة العربية خلال عهود السيطرة الأجنبية عن تأدية جوانب هامة من دورها الطبيعي كلفة قومية أولية أم ، مما ترتب عليه عزل اللغة عن مسار التطور التاريخي للمجتمع العربي ، وساد استخدام اللغة الأجنبية في التعبير عن الاحتياجات المتصلة بحياة المجتمع العربي . وبمرور الزمن اتسعت الهوة الفاصلة بين لغتنا والتطور الاجتماعي ، واقتصر استخدامها في بعض الأقطار العربية على نطاق محدود ، حتى أصبح ينظر اليها على أنها لغة متخلفة .

وقد بذلت جهود كبيرة لمواجهة هذا الوضع . وتمكنت بعض الدول العربية من الحفاظ على اللغة ، بحيث تقوم بدور رئيسي في بعض المجالات كالاداب والسياسة والاعلام والدين . وظل الاعتماد على اللغة الأجنبية والترجمة في التعبير

عن احتياجاتها الأخرى مستمراً حتى أصبحت اللغة العربية تابعة للتطور بدلاً من أن تكون مواكبة له . وخير دليل على ذلك الصعوبات التي تواجهها المجامع اللغوية العربية ، « ففي حين يتكبد المجمع اللغوي في بلد تعيش فيه اللغة القومية وضعاً طبعياً ، على دراسة ما يحدث من تعابير ومضامين جديدة في نطاق اللغة الأم لتحويرها أو تكريسها ، أو اكسابها الشرعية ضمن اللغة المكتوبة والمنطوقة ، تنكب المجامع العربية على البحث عما يقابل تعابير أجنبية قد استعملت بالفعل ، وأُشيعت في لغة الاستعمال ، ثم تجهد نفسها باستعمال المقابل العربي عوض التعبير الأجنبي بدوافع وطنية قومية لا دافع الحاجة الفعلية للتعبير^(٢) » وهكذا لم تعد اللغة معبرة عن الهوية الثقافية العربية .

إطسار التعريب العام ومفاهيمه :

ظهر العديد من المفاهيم حول التعريب نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية التي يعيشها كل بلد . ويمكننا القول بصورة عامة إن الهدف من التعريب هو أن تكون اللغة العربية أداة تقيف ومعرفة وتنظيم اجتماعي واقتصادي وتوجيه سياسي .

وفي هذا الصدد يبرز في الوطن العربي من خلال الخبرة التاريخية نموذجان للتعريب : النموذج المشرقي والنموذج المغربي . وكلا النموذجين يتفاعلان مع بعضهما في مجالات إسهام العرب ومشاركتهم في الحضارة العالمية الحديثة من خلال ادارة لغوية تمثلت باللغة العربية . ويشمل النموذج المشرقي كلا من مصر والسودان والبلدان العربية الأربعة (في القاهرة ومدمشق وبغداد وعمان) . وقد اُسم هذا النموذج بالسمة اللفظية وبالصيغة الفنية التخصصية الدقيقة . وهو يتكون من جانبين أساسيين هما : اشتقاق الترجمة العربية واستخدامها للفظ الفني والثقافي والعلمي الأجنبي من ناحية ، وإدخال اللفظ الأجنبي بذاته وبمبادئه الى اللغة العربية ، حيث يصطلح على تعميم استعماله ضمن مفردات اللغة العربية من ناحية أخرى .

وأما المفهوم المغربي للتعريب فإنه يعنى بشمول عملية التعريب وعموميتها لجميع الأنشطة داخل المجتمع .

ويمكن التمييز بين مفهومين للتعريب من حيث مجالات العمل والتفكير باللغة العربية ، فهناك المفهوم الديني الاسلامي والمفهوم التعليمي أو المفهوم الاجتماعي الحضاري والمفهوم الأدبي العلمي . ويربط المفهوم الأول للتعريب بين العربية والاسلام ، وقد التفتت العرب البلاد الأخرى بدافع ديني دعمه عامل اللغة . وبهذا أعمدت الأمة العربية في قيادة العالم الاسلامي على أصالتها الحضارية والثقافية وعلى لسانها الناطق بلغة القرآن الكريم^(٣) .

وبعني المفهوم التعليمي للتعريب اعتماد النظام التعليمي في البلاد على اللغة العربية كوسيلة للتدريس والتحصيل . وهو يستند إلى التعريب في التعليم بجميع مراحله وذلك لأنه الميدان العريض للاختبار والتعريب وبسرعة

(٢) العادوري ، عبد العزيز (١٩٨١) اللغة العربية والحركة الثقافية والحروب العرب ، المستقبل العربي . ص ٢٣-٢٤ .

(٣) نازلي معوض أحمد (١٩٨٦) التعريب واللغوية العربية في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ص ٣٤ .

ظهور النتائج وتعميم الفائدة من أجل التخطيط للمستقبل . وقد تحقق هذا المجال من التعريب في البلدان العربية ، الا أنه لا يزال بحاجة الى مزيد من العناية في الصومال والجزائر والمغرب^(٤) .

ويندرج في إطار هذا المفهوم كل من المفهوم الفوري الأفقي والمفهوم التدريجي العمودي من حيث الأساليب الفنية المستخدمة لتطبيق التعريب . ويعنى المفهوم الفوري الأفقي بنشر اللغة العربية في تعليم المواد الدراسية في مرحلة كاملة من مراحل التعليم كما هو متبع في المغرب العربي . وهذا يتطلب جهوداً ضخمة وتكاليف هائلة من أجل التدريس باللغة العربية وإعداد المعلم القادر على استخدام اللغة استخداماً سليماً بالإضافة الى توفير الكتاب المدرسي الشامل .

وقد ظهر المفهوم التاريخي العمودي للتخفيف من المطالب السابقة الذكر وهو يهدف الى تعليم مواد محدودة باللغة العربية في مرحلة دراسية متكاملة أو تدريس جميع المواد التدريسية المقررة باللغة العربية في سنة دراسية معينة ، الى تعميم اللغة تدريجياً في سنوات التعليم ، سنة بعد أخرى كما يجري في الكليات العلمية في العراق .

وهناك أيضاً المفهوم القطاعي في التعريب ، أي سيادة اللغة العربية في قطاع معين من قطاعات المعرفة كعلوم الطبيعة والرياضة ، أي نقلها فنياً ولغظياً من اللغة الأجنبية الى اللغة العربية ، أو الانحصار على تعريب لغة التعليم الجامعي أو العالي ، أو تغليب اللغة العربية على مراكز البحوث العلمية في الدول المعنية أو قصر المعاملات داخل وزارات الخدمات والمرافق العامة على استخدام اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

ولمّا يتعلق بالتعريب الاجتماعي فإنه يتطلب استخدام اللغة العربية في جميع نواحي ومستويات الحياة الفردية اليومية ، كما يستلزم استبعاد دور اللغات الأجنبية كوسيلة للارتقاء الاجتماعي أو كمؤشر للتمييز بين طبقة اجتماعية وأخرى . ويتلائم هذا المفهوم الاجتماعي للتعريب مع التعريب الحضاري ، والذي بدوره يستهدف التفتح العربي الفكري على مقومات الحضارة العالمية الحديثة من ناحية ، وتحريك الإرادة العربية من التخلف التكنولوجي والتبعية الثقافية والاقتصادية الأجنبية من ناحية أخرى . ولعله من المفيد الإشارة هنا الى التجربة اليابانية ، حيث استطاعت اليابان أن تصبح دولة عظمى من النواحي التكنولوجية والفنية والحضارية في فترة زمنية قياسية وأصبحت تنافس دول أوروبا وأمريكا من حيث أحداث التفاعل والانصهار بين حضارتها الوطنية الأصلية وبين مختلف المعارف العالمية الحديثة التي تمكن الشعب الياباني من استيعابها وجعلها جزءاً من مقومات الحضارة اليابانية ، وفي الوقت نفسه نزل هذا الشعب حرصاً على تراثه الاجتماعي المتميز وتمسكاً بهويته اليابانية .

والتعريب يعني باختصار إعطاء اللغة العربية في البلاد العربية منزلتها الطبيعية كلفة قومية تضطلع بمهمة التعبير ، بصفة رئيسة أساسية ، على كافة المضامين والمفاهيم المتداولة في المجتمع ، كما تعتمد لغة رئيسة في البحث والتعليم بجميع مراحلها واختصاصاته ، وتتخذ لغة عمل الإدارة والاقتصاد والاعلام وكافة مرافق المجتمع ومؤسساتها .

(٤) لجنة تنسيق التعريب (١٩٨٦) الدخيل في اللغة العربية للتغاطب العام ، دولة الكويت مركز بحوث الناحج وزارة التربية ، دولة الكويت ص ١ .

فالتعريب بهذا المعنى ، يهدف الى تحقيق وضع لغوي طبيعي في الأقطار العربية ، تعتمد فيه اللغة الأم لغة أساسية تماماً ، كما تعتمد اللغة الأم في مختلف البلدان التي لا تخضع لتبعية لغوية ثقافية . والتعريب بهذا المعنى أيضاً ، يمثل وجهاً من وجوه العمل الوطني والقومي ، لمواصلة حركة التحرر ومقاومة الاستعمار ، باستئصال رواسبه في مستوى الثقافة والاستعمال اللغوي ، والتعريب في هذا السياق يدخل في إطار السياسات الحكومية الخاصة باللغات ، وعلاقة اللغات بعضها ببعض والمشكلات النابعة عن ذلك .

واقع الترجمة :

تتلخص أهداف الترجمة في الوطن العربي في التأكيد على وحدة اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن حاجات العصر ، والابتكار في اللغة العربية وإغنائها وتطويرها والحفاظ على بقائها ، وإدخال اللغة العربية في قائمة اللغات العالمية من أجل استعادة هويتنا الحضارية والإسهام في الحضارة العالمية .

الا أن الملاحظ أن الترجمة الى العربية لا تزال تفتقر الى البرامج على المستويين القطري والقومي ، كما أنها لم تبين على دراسة الواقع الراهن بلغة التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، والأفاق المستقبلية في الوطن العربي ، ولم تسع لتلبية متطلبات العصر ، ودرجة النضج عند القاريء . ونتيجة لذلك فإن الترجمة ما تزال تعاني من قصور أنظمة التعليم عن تدريب المترجم المتخصص في فرع محدد من العلوم . ويكتسب هذا الموضوع أهميته من معارلته التغلب على الواقع العشوائي والمزاجي الذي تعاني منه الترجمة في الوطن العربي .

وترتبط قضية الترجمة والتعريب ارتباطاً وثيقاً بالواقع الحضاري للأمة العربية فالترجمة هي مرحلة هامة وضرورية من مراحل التعريب ويمكن أن تسبقه .

وهناك فجوة علمية وتكنولوجية تفرض وجودها على قضية الترجمة والتعريب ، وتتضح هذه الفجوة بين الدول المتقدمة التي تخطو الى الأمام بسرعة مذهلة مقارنة ببلداننا العربية . فالعلوم المختلفة تتجدد في الدول المتقدمة بمعدلات متزايدة في حين تتسم بالركود في الدول النامية ، مما يعني ركود اللغة معها .

وقد أصبحت عملية نقل العلوم والمعارف الى اللغة العربية ضرورية ، وتعتبر الترجمة الأداة الهامة لعملية النقل تلك ، إلا أنها مرحلية وليست غاية في حد ذاتها ، إذ لا يكفي نقل المعارف بمعانيها المباشرة دون معانيها الفعالة . فلا بد من تطوير عملية الترجمة لكي تقترب أكثر الى التعريب ، فالوقوف عند حد الترجمة لا يكفي .

وقد برزت اتجاهات جديدة في عمليات تنظيم حركة الترجمة في العالم العربي ، فشكّلت عدة لجان للتأليف والترجمة والنشر ، وعقدت حلقة علمية عام ١٩٧٣ لبحث قضية الترجمة والتعرف على معالمها الرئيسة بالإضافة الى جهود مكتب تنسيق التعريب في هذا الحقل^(٥) .

(٥) سفر ، محمود محمد (١٩٨٤) « منظور حضاري للفضايا الترجمة والتعريب ، تعريب التعليم العالي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ص ١٤٥ - ١٦٠ .

وبهذا فإن أولى دعائم النهضة العلمية العربية الاسراع بخطوات الترجمة باعتبارها الركيزة الأساسية في حقل علوم الشعوب المتقدمة والخسارات المتطورة علمياً الى المثقفين والباحثين والمهتمين بأمور البحث العلمي بحيث تسهل لهم الدراسة والاطلاع باللغة التي يفهمونها - اللغة الأم - فيستوعبون مقررات العلوم ويضمضون عناصرها ويقتنعون بنتائجها^(٦).

المصطلح العلمي والتعريب :

ان التعريب لا يتنافى مع استخدام بعض المصطلحات في البداية باللغة الأجنبية لأن اللفظ المفرد شيء وأسلوب التفكير ولغة التدريس والكتابة شيء آخر .

فاستخدام المصطلحات الأجنبية لا يعيق تطور العلم ، ولكن التعليم باللغة الأجنبية تدريجياً وتالياً يجد من قدرة المتعلمين الفكرية والابداعية . فهو يستفد قدرأ كبيراً من مجهودهم الفكري الذي يصرفونه في تعلم اللغة الأجنبية ومحاولة التفكير بها . واستجابة المتعلمين للغة الأم لا يمكن أن تكون كاستجابتهم للغة أجنبية مهما أتقنوها ، كما أن استجابتهم للغة أخرى غير مألفة لهم يظل محدوداً ، وقد تظل ظاهرتا التبرع والابداع أكثر وضوحاً بين أصحاب اللغة بالمقارنة بمن يذكرون بلغة أجنبية^(٧) ، والعمل على إيجاد المصطلح العلمي العربي وخاصة في مجال العلوم التطبيقية يبقى ضرورياً من أجل اغناء اللغة العربية وتطويرها الا ان هذا لا يعني ان التعريب لن يتحقق دون تعريب المصطلح^(٨) . لأن التعريب في المجال العلمي يسبق تعريب المصطلحات . اذ أن تعريب العلوم يستدعي تعريب المصطلحات وإيجادها ، واستخدامها حتى يتم الاستقرار على المصطلح الملائم ، كما أن استعمالها المستمر هو الذي يرسخها .

وقد أثبتت اللغة العربية أنها قادرة على التعبير في شتى فنون العلم ، وأنها استوعبت كل ما نقل اليها من علوم الأمم الأخرى في الفلسفة وفي المنطق وفي الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات .

وهكذا فإن الزعم بان اللغة العربية لغة تصلح للغة الأدب والشعر ولا تصلح للعلوم الطبيعية والطبية زعم غريب ، لأن كل لغة صالحة للإنتاج الفكري لغة قادرة على التعبير والاستيعاب^(٩) ، خاصة وأن لتعريب العلوم جانباً اجتماعياً خطيراً يجب الا نغفله ولا ننقل عنه لأن عزل اللغة للعربية عن تلك العلوم يعني إلقاء المجتمع العربي نفسه بعيداً عنها .

إن إحياء التراث العلمي العربي أمر له أهمية كبيرة ، ففي كتب الأقدمين آلاف الألفاظ التي نحتاج اليها كما دلت على ذلك الكتب العلمية التي تم نشرها . ومن الواجب أيضاً إشراك أكبر عدد من المختصين والهيئات والاتحادات العلمية العربية المعنية بالأضافة الى إنشاء مؤسسة عربية تتولى إصدار مجلات ونشرات علمية باللغة العربية .

(٦) السبع ، محمد مروان (١٩٨٢) و الترجمة والنبذة العلمية ، العربي ، ع ٢٨٣ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٧) لاسم ، وياض (١٩٨٢) المحاولات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي : جلد (٢) مؤسسة نول ، بيروت ، ص ١٥٤ .

(٨) للثلاثة . جيل (١٩٨٦) و التصورات المتغيرة على عرب العرب والتعريب و مجلة مجمع اللغة العربي الأردني ، ع ٣٠ ، ص ١٠ ، ص ٢٧ - ٣٨ .

(٩) لحوري ، شحادة (١٩٨٧) تعريب التعليم الطبي والصيدلي في الوطن العربي ، ص ٤١ - ٥٣ دار الزائد العربي ، بيروت ، ص ١٩ .

بعض معوقات التعريب :

تعرض عمادة التعريب الى عقبات لا يستهان بها ، فالأمل لا يتوقف على توفير بضعة مصطلحات في هذا التخصص أو ذاك ، أو الاكتفاء بترجمة كتب علمية فقط ، وإنما التعريب قضية مستمرة ومعقدة الجوانب نتيجة للتوسع المعرفي والتقني في العالم .

ويتفق المهتمون بالتعريب على أن النظام التربوي لا يزال يعاني من قصور في طرائق تدريس اللغة العربية ، فعل الرغم من تدريسها في جميع المراحل التعليمية ، غير أن الطلبة لا يمتثلون للتحدث أو الكتابة بها بصورة سليمة بسبب تركيز مدرسي اللغة على حفظ الطالب للقواعد وليس على تمكينه من التعبير الشفوي والكتابي^(١٠) .

كما أن انتشار اللهجات المحلية يحول دون استخدام اللغة العربية الفصحى بصورة مرضية ، رغم أنها القاسم المشترك بين أبناء الوطن العربي . ويستند بعض المناهضين للتعريب الى المسافة الفاصلة بين العربية الفصحى وهذه اللهجات ، على الرغم من أن الفجوة بينها تتضاءل تدريجياً منذ أوائل القرن الحالي نتيجة لتوسع التعليم^(١١) .

ولا شك أن التخلف الحضاري والعلمي الذي نعاناه في معظم الأقطار العربية والتبعة الثقافية الغربية ، يلعبان دوراً رئيسياً في عرقلة قضية التعريب ، خاصة في المؤسسات العلمية أو الجامعية أو الثقافية .

وتبذل مجامع اللغة العربية جهوداً كبيرة لتحقيق التعريب ، إلا أن الانفصال بين النظرية والتطبيق في أعمالها لا يزال واضحاً ، إذ أن الكثيرين يشكون من عدم توافر القواميس العلمية العربية الحديثة في العلوم المختلفة ، ومن عدم سرعة المجامع اللغوية في إيصال ما تنتجه من جهود الى المؤلف والطالب ، ومن قلة الدعم المالي لها^(١٢) .

ومع أن اللغة العربية صالحة لتدريس العلوم الانسانية والعلوم التطبيقية الحديثة إلا أنها تعاني من قلة المراجع العلمية والتقنية والكتب الدراسية في حقل الطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والكيمياء والفيزياء والعلوم الحياتية ، كما يعاني المتخصصون من نقص واضح في المصطلحات العلمية العربية ، وهذا يضطرهم الى الاستعانة باللغات الأجنبية ومصطلحاتها ، خاصة وأن المصطلح العلمي العربي لم يستكمل تويده بعد في الوطن العربي ، مما يؤدي الى فوضى التعريب على الساحة العربية .

ويؤدي ذلك الى تفاوت المقدرة اللغوية بين المعربين ، إذ من النادر أن نجد عالماً ضليعاً بأسرار العربية يتقن التخصص الذي يعرب له ، ومن ناحية أخرى فإن اختلاف التأثير الثقافي الأجنبي في البلاد العربية ينتج عنه اختلافات في المفاهيم والنقل والترجمة والتعبير ، أضف الى ذلك اختلاف النماذج في التعبير والتعريب بين الجامعات والمجامع والاتحادات والمنظمات العلمية ، فالبعض يترجم معنى المصطلح في ضوء المعاجم اللغوية العربية ، ويحيل البعض الى التوليد ، ويبقي آخرون الكلمة كما ينطق بها ، ولا يقبلون بها بديلاً حتى أصبح لبعض المصطلحات الأجنبية عدد من

(١٠) عطار ، أحمد عبد الغفور (١٩٨٢) : قضايا ومشكلات لغوية ، الكتاب العربي السعودي ، جدة ، ص ١١٦ - ١١٩ .

(١١) المسدي ، عبد السلام (١٩٨٤) : «الازدواجية والثباتية والزمها في الواقع العمل» ، ملحق ابن منظور : دور التعريب في تطوير اللغة العربية : ترقية العربية في تونس ، الدار التونسية للنشر ، ص ٩٥ - ١٠٢ .

(١٢) الفرحان ، اسحاق (١٩٨٤) : دور المجامع اللغوية في الحياة العلمية العربية المعاصرة ، المرسم الثقافي الثاني ، جمع اللغة العربية الأولى ، ص ١٥٤ - ١٥٨ .

المصطلحات المعربة تختلف باختلاف الأقطار العربية ، بل تختلف أحياناً باختلاف المربين في القطر الواحد (١٣) . وهكذا فإن عدم الالتزام بالمصطلحات العربية المتفق عليها وعدم توحيد المصطلح قد فوت فرصة تمنية وبدد الجهود المبذولة .

وقد تؤدي الاستعانة المستمرة بالخبرات الأجنبية ، وبخاصة في مجال العلوم الرياضية والطبيعية ، إلى عدم قدرة الأجنبي على تكيف المادة الدراسية بما يناسب الثقافة العربية والإسلامية ، مما قد يؤدي إلى هيمنة الثقافات الأجنبية على حساب التراث العربي الإسلامي .

الجهود العربية في التعريب :

اختلفت تجربة التعريب في الوطن العربي باختلاف الظروف الخاصة بكل قطر منها إلا أن العامل المشترك بينها ظل التعريب الجزئي المحلي الذي تبدأ به كل دولة على حدة ، والذي غالباً ما يصطبغ بالصبغة الأدبية قبل العلمية ، حيث تسابق المهتمون إلى نقل الأدب الأجنبي إلى اللغة العربية . وهذا الأمر مفيد لأن التعريب لن يكتسب معناه الحضاري الشامل إلا بترجمة الأعمال الأدبية والفنية . كما بذلت الجهود بهدف تعريب التعليم العالي في محاولة لنقل الدراسات العلمية من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية من أجل رفع المستوى التحصيلي للطلبة .

ومن المفيد استعراض بعض التجارب في هذا المجال ففي الأردن أصبح تعريب التعليم الجامعي أحد مسؤوليات مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه في عام ١٩٧٦ . فقد قام المجمع بترجمة عدة كتب علمية في مواضيع الفيزياء والجيولوجيا والأحياء والرياضيات والكيمياء للسنوات الجامعية الأولى مستعيناً بمشاركة أساتذة الجامعات (١٤) .

وقد واجهت هذه التجربة بعض المشكلات من أهمها ندرة الكفاءات العلمية العالمية التي وصلت إلى درجة رفيعة في تخصصها وفي اللغتين العربية والأجنبية ، وكذلك عدم منح المترجمين إجازة تفرغ من مؤسستهم . وبالإضافة إلى ذلك فإن افتقار المطابع العربية إلى التقنيات الحديثة يجعلها تعاني من البطء في الانجاز وعدم الدقة في العمل خاصة فيما يتعلق بالجوانب اللغوية والفنية . وعلى الرغم من الصعوبات الأتفة الذكر ، فقد تمخضت عن هذه التجربة نتائج مرضية تصلح لأن تكون أساساً متيناً لاستمرارها وتعميمها (١٥) .

وفي العراق تمثل تعريب التعليم الجامعي في مجموعة القوانين والقرارات التي دفعت بالتعريب إلى حيز التنفيذ . وليس التعريب في العراق حديث العهد ، ففي عام ١٩٧٠ أقدمت كلية العلوم بجامعة بغداد على اتخاذ خطوة كبيرة في مجال تعريب العلوم ، وعهد بعض الأساتذة إلى تدريس بعض المواد العلمية باللغة العربية ، كما ساهم آخرون بتأليف كتب باللغة العربية ، مما دفع بحركة التعريب إلى الأمام (١٦) .

(١٣) القهري ، عبد القادر القاسبي (١٩٨٥) : تعريب اللغة وتعريب الثقافة نحو نظرية دلالية كائنية ، المجلة العربية للدراسات اللغوية ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٧٣ - ١١١ .
(١٤) أبو حلو ، يعقوب ولطفية ، لطفى (١٩٨٤) : تقييم المرحلة الأولى في تعريب التعليم العلمي الجامعي التي تبناها مجمع اللغة العربية الأردني ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ج ١٤ ، ص ٩٣ - ٩١ .

(١٥) الحليلي ، دعد (١٩٨١) : آراءه على تعريب التعليم الجامعي ، الفصحى ، العدد ١٠٢ ، السنة التاسعة ، ص ١٥ - ١٧ .

(١٦) خليل ، ياسين (١٩٨٣) : تعريب التعليم الجامعي في القطر العراقي ، آفاق عربية ، م ٨ ، ج ٥ ، ص ٢١ - ٣٧ .

وفي أواسط السبعينات تم البدء بتعريب التعليم العالي في الصفوف الأولى اعتباراً من العام الجامعي ٧٨/٧٧ ومواصلة تطبيق التعريب على الصفوف الثانية في العام الذي يليه . وهكذا حتى يستكمل التعريب في جميع المراحل ، ورافق هذا القرار إعادة النظر بخطط التعليم والمناهج الدراسية الجامعية ، كما أفسح المجال لتأليف الكتاب الجامعي في العلوم باللغة العربية . ورافق ذلك إنشاء المجمع العلمي العراقي الذي يهدف الى النهوض بالدراسات والبحوث العلمية والمحافظة على سلامة اللغة وتشجيع الترجمة والتأليف . وتلاه تطبيق التعريب الانزامي على الصفوف الأولى من كليات الطب وطب الأسنان اعتباراً من العام الجامعي ٨١/٨٠ .

وتعتبر الجهات المشغولة عن التعليم العالي في سوريا سباقة في اتخاذ قرارها الذي يقضي بأن تكون لغة التدريس في جميع كليات العلوم الانسانية والكليات العلمية هي اللغة العربية فقط ، فيما عدا بعض الحالات النادرة في الكليات العلمية .

وباعتراف بعض الهيئات الدولية فإن الطلبة الذين تلقوا علومهم الطبية باللغة العربية لا يقلون مكانة عن خريجي الجامعات الأجنبية ، مما يؤكد أن اللغة العربية لا تقل شأنًا عن اللغة الانجليزية في قدرتها على التعبير عما هو مطلوب ، كما يؤكد المسؤولون أن القائمين على التدريس استطاعوا بكفاءاتهم العلمية ومقدرتهم على عمليات الترجمة أن ينقلوا الى طلابهم كل ما هو جيد وحديث ، وخير دليل على ذلك هي الكتب الطبية العربية المتوافرة في متناول الطلبة ، والتي ساهم في تأليفها أو ترجمتها أعضاء هيئة التدريس^(١٧) .

ومن الدراسات المهمة في مجال التعريب ، تلك التي أجريت في المملكة العربية السعودية وشملت سبع جامعات والتي هدفت للتعرف على أثر استخدام اللغة الانجليزية كوسيلة اتصال تعليمية على استيعاب الطلبة وتحصيلهم العلمي . وتدل الدراسة ان استخدام هذه اللغة في التدريس يسبب لهم صعوبات كبيرة خاصة في فهم الموضوعات العلمية بصورة مرضية ، كما توصلت الدراسة الى أن استخدام اللغة العربية في التدريس تبرز بعض المشكلات التي من أهمها ندرة المواد التعليمية الحديثة باللغة العربية وعدم وجود مركز ترجمة فعال ، وغياب العمليات البيولوجرافية المنظمة باللغة العربية ، بالإضافة الى صعوبة ملاحقة أو ترجمة المؤلفات والبحوث التي تصدر سنوياً والتي تقدر بعشرات الآلاف . وترى الدراسة أن حل هذه المشكلة يمكن أن يتم عن طريق استخدام الحاسوب الآلي طالما أن الهدف الأساسي هو تحقيق تحصيل أفضل للطلبة بغض النظر عن اللغة المستخدمة في التدريس . وتناشد الدراسة أعضاء هيئة التدريس نشر بحوثهم وإنتاجهم العلمي باللغة العربية بدلاً من اللغة الأجنبية للتقليل من هيمنة اللغة الأخيرة بالشكل الذي يصعب التخلي عنها مستقبلاً .

أما في المغرب العربي فقد استطاعت تجربة التعريب في تونس أن تقطع شوطاً في المرحلتين الأساسية والثانوية رغم الصعوبات التي واجهتها . وهي لا تزال تعاني من عدم تحقيق التعريب الشامل في المرحلة الجامعية ، فلا تزال الفرنسية اللغة الرئيسية للتدريس والبحث العلمي^(١٨) .

(١٧) خليفة ، عبد الكريم (١٩٨٤) « دور الجامعات اللغوية في الحيلة العلمية العربية المعاصرة » ، ندوة ، الموسم الثقافي الثاني ، مجمع اللغة العربية الأردني ، ٢٦ أيار ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(١٨) الفاشوري ، عبد العزيز (١٩٨٢) « معارضة لتقوم تجربة التعريب في تونس » ، مركز دراسات الوحدة العربية : التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية ببيروت ، ص ٢٢٩ - ٢٥١ .

كما قطعت الجزائر مرحلة طويلة من التعريب تناولت مختلف جوانب الحياة العلمية والرسومية ، فبالإضافة الى تعريب التعليم العام ، فقد استحدثت أقساماً معربة في الكليات العلمية ، كما عريت جهاز القضاء والجهاز العسكري وأجهزة الجيش الوطني والأعلام . الا أنها لم تستطع بعد تحقيق الانتصار الشامل في حركة التعريب بسبب تغلغل الثقافة الفرنسية في الكيان الجزائري ونقص الكفاءات العلمية وخاصة في الحقل الجامعي .

آفاق مستقبلية :

لقد أصبح توفير الظروف الملائمة لتحقيق الترجمة والتعريب أمراً ضرورياً في عصرنا الحالي وكذلك التصدي لفئة المثقفين العرب الذين لا يرحبون بفكرة التعريب خاصة وأن تمسكهم بسيطرة اللغة الأجنبية في الوطن العربي قد يدفعهم الى استغلال نفوذهم في المواقع الادارية الهامة لتشكيل في هذه التجربة ، وهم بذلك يدافعون عن امتيازات ثقافية أدركوها في ظروف معينة ، ونشأت عنها بالضرورة امتيازات اجتماعية واقتصادية .

كما أن الأمة العربية لن تتمكن من تشكيل كيان متميز يسهم في إحياء فكرها الثقافي والحضاري بدون اللغة العربية ، بحيث تصبح لغة التعليم في جميع المراحل وخاصة التعليم الجامعي الذي لا يزال يعاني من قصور في استخدام اللغات الأجنبية ، والذي بدوره ينعكس سلباً على أي إبداع أو إنتاج يمكن أن نفخر به على المستوى المحلي والعالمي .

إن التعريب لن يتم بصورة متكاملة الا بإنشاء دور الترجمة والتعريب بصورة موسعة وقد يساعد ذلك على استقطاب الكفاءات العربية المهاجرة أو التقليل منها . كما أن الترجمة ليست عملاً فورياً وآلياً بقدر ما هي عمل ابداعي ، وتحقيق هذا الجانب يتطلب إنشاء دور للنشر الى جانب تلك الدور لكي تقوم بطبع ونشر ما ينتجه المترجمون والمربون .

وعلى الرغم من أهمية الترجمة والتعريب ، الا أن هذا لا يكفي ، فالعلوم بأنواعها في تطور مستمر ، وقد يصعب على المترجم والمحرر اللحاق بهذا التطور والاستمرار فيه ، لذا فالإنتاج والتأليف الاصيل باللغة العربية يجب أن يصحب الترجمة ، عندها نكون قد أنجزنا شيئاً لا يمكن إنكاره .

وعلى الرغم مما توصلنا اليه في نطاق المصطلحات ، فإنها دون المستوى المطلوب فلا تزال المصطلحات الأجنبية تتوالد بدرجة عالية . وهذا الوضع يتطلب الرجوع الى التراث العربي لمعرفة كل ما فيه من مصطلحات ، بالإضافة الى ملاحقة المصطلحات الحديثة لادخالها في اللغة العربية .

إلا أن تحقيق التعريب لا يتوقف على اعتبارات فنية فحسب ولكنه يتطلب قراراً سياسياً ، حيث تتضافر فيه الجهود العربية لمواجهة الصعوبات من أجل فرض وضع لغوي تفضلع فيه اللغة القومية بدورها الطبيعي . وهكذا فلن يكتسب القرار السياسي مغزاه الحقيقي الا اذا تحقق توحيد الوطن العربي . فليس المهم أن نعرب فقط ، وإنما أن نعرب جميعاً .

تعرف الترجمة عامة بأنها نقل نص مكتوب بلغة ما الى لغة أخرى ، وان كان هذا النقل لا يخلو من قدر من الخيانة قد يكثر أو يقل . كما نطرح الترجمة عددا من القضايا والأمثلة لم يجد بعضها حلا أو ردا نهائيا حتى اليوم .

والترجمة نشاط مواكب لوجود الانسان فهي ، في المقام الأول ، عملية أداتية اللغة ، شفوية كانت أم مكتوبة ، وهي تنقل « رسالة » ما بين طرفين ، هما « الراسل » و « المتلقى » . ويمارس البشر هذا النشاط على مر العصور ، ويفضله تبادلوا فيها بينهم ، ويعرف بعضهم على البعض الآخر ، وأقاموا حوارا بين حضاراتهم وثقافتهم . وشمل هذا النشاط العلوم والآداب بكافة أشكالها ، لكن ، الى عهد قريب ، لم يفكر فيه من يمارسونه الا نادرا . وشهد قرننا العشرون ، بصفة خاصة ، انهماجا الى « تنظير » عملية الترجمة ، وإرسائها على أسس وقواعد علمية قد تعين المترجم على القيام بمهمته . من ثم ، وجد ما يسمى « بنظرية الترجمة » ، ومناهج الترجمة ، إلخ . . . بل أصبحت الترجمة مادة تدرس في المعاهد والجامعات ويتخذ منها الباحثون مادة لدراساتهم وأبحاثهم التي يتلون عنها الدرجات العلمية . وهكذا تحول « فن » الترجمة الى « علم الترجمة » ، وطرحنا الاسئلة حول علاقة هذا الأخير بالعالم الأخرى عامة ، واللسانيات خاصة .

وشهد قرننا العشرون أيضا تقدما علميا وتكنولوجيا هائلا ، يضيف الى اللغة كل يوم مفردات ومصطلحات جديدة ، مما أدى الى تقسيم النصوص الى مجموعتين كبيرتين : النصوص الأدبية ، والنصوص العلمية والفنية ، وإلى التفرقة ، على المستويين النظري والعلمي ، بين الترجمة الأدبية والترجمة العلمية .

ترجمة النص الأدبي

سامية أسعد

نلاحظ ، أولا ، أن النص يتميز بسمات خاصة ،^(١) نذكر من بينها :

(أ) الوظيفة التعبيرية ، كما يقول د . جاكسون R. Jakobson : فالكتاب يقدم لنا رؤيته الخاصة للعالم ، وإدراكه الخاص للواقع الذي يريد أن يصوره أو يبعثه في كتاباته . فضلا عن أنه يتحدث بلسانه هو ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ويعبر عن مشاعره هو ، وردود أفعاله وانفعالاته . هذا وتوقف قوة العمل الأدبي الذي يقدمه ، كما تتوقف وحدته ، على تماسك انطباعاته الذاتية : ومن ثم ، يمكن أن نقول إن الوظيفة التعبيرية للغة تحتل المكان الأول في العمل الأدبي .

(ب) القدرة الإيحائية : فالعمل الأدبي لا يعبر صراحة عن مضمون « الرسالة كله بل يوحي بجزء من معناه أو معانيه فقط . كما يجعل تتابع الأصوات والكلمات ، وإيقاع الجمل ، شحنة إيحائية يتحتم على المترجم نقلها ، لأنها جزء من « رسالة » النص . ولا نبالغ إذا قلنا إنها « رسالة » النص ذاته . وينسحب هذا بصفة خاصة على النص الشعري ، حيث يلعب الشكل دورا واضحا ، ويكمل الإيحاء بالمعنى كل من الأصوات ، والإيقاع والموسيقى .

(ج) إبراز قيمة الشكل : لغة النص الأدبي ليست مجرد وسيلة لتوصيل مضمون ما ، فهي غاية في حد ذاتها والشكل في العمل الأدبي جزء لا يتجزأ من المضمون ، لأن الشعر والنثر الفني يهدفان إلى إثارة انفعال المتلقي أكثر مما يهدفان إلى تعليمه : علاوة على أن الكاتب يستخدم اللغة استخداما خاصا ، وعمل أن أسلوبه ليس سوى انعكاس لشخصيته . فهو الذي يخلق الاستعارات ، ويبدع الصور الجديدة المبتكرة ، ويجمع بين الكلمات التي لا تستعمل بكثرة ، الخ . . . والكاتب يبرز قيمة الشكل لأنه يريد منا أن نرى صورة مختلفة للعالم . ونذكر في هذا السياق قول ر . فيففيه : « لا تناقض أنفسنا إذا قلنا إن نقل المترجم للشكل أصعب من صياغة القناع المبدع له . »^(٢)

وتضاف إلى هذه السمات الثلاث ثلاث سمات أخرى ثانوية :

(أ) تعدد المعاني في النص الأدبي فكليا كان العمل الأدبي غنيا تعددت معانيه وتفسيراته واختلف باختلاف قرائه ، على عكس النص العلمي أو الفني ، الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا وتفسيرا واحدا ، لأن لكل كلمة فيه معنى محدد .

(ب) عدم ارتباط النص الأدبي بزمان معين : فالأعمال الأدبية الكبرى تتخطى حاجز الزمان والمكان . وإذا كانت تترجم بصفة دورية أحيانا فمن أجل الحفاظ على معانيها بتجديد شكلها . ومن الناحية الثقافية ، تنبسط الترجمة دائما بزمان وبيئة يعينها .

Jean Delisle

(١) نعلم ، في تالوانا لهذه النقطة ، على كتاب : جان ديل

"L" analyse du discours comme methode de traduction, Editions de l'université d'Ottawa, 1984, p. 21 et ss.

Jacques Flamond

وعلى كتاب : جاك فلان

"Ecrire et traduire. Sur la voie de la creation," Ottawa, Canada, Editions du Vermillon, 1983, p. 115 et ss.

(٢) انظر :

"Problemes litteraires de la traduction," Louvain, Belgique, 1975 p. 61

(ج) نقل النص الأدبي لقيم عالمية ، شأنه في ذلك شأن أي عمل فني . وهذه الميزة هي التي تجعله يقاوم الزمن فنحن لا نقرأ الأعمال الأدبية المترجمة لأنها تشتمل على قيم جمالية فحسب ، وإنما نقرأها أيضا لأنها تعالج قضايا عامة لا تبتل كالحب ، والموت ، والدين ، وشقاء الانسان وقلقه الخ ...

وهذه السمات الثانوية أقل أهمية من سابقتها ، من وجهة نظر الترجمة . وإذا اعتبرنا هذه الأخيرة عملية تعتمد على المادة اللغوية أساسا .

لقد أبرزنا السمات المميزة للنص الأدبي ، ويمكن أن نعتد عليها في تعريفنا للترجمة الأدبية إلى جانب التفرقة بين النصوص الأدبية والنصوص العلمية والفنية ، أو النصوص « البرجماتية » ، على حد قول ج . ديليس J. Delisle . فكلما ابتعدنا عن الأدب ، واقتربنا من النصوص البرجماتية ، قرب نصيب الذاتية ، وسعت الترجمة إلى نقل المعلومات المفيدة . والمترجم الذي ينقل نصا أدبيا إلى لغة أخرى يسعى إلى هدف جمالي أساسا ، من خلال أشكال متجددة للتعبير ، في حين لا يسعى مترجم النصوص البرجماتية إلا إلى توصيل رسالة بعينها ، بأكبر قدر ممكن من الأمانة والفاعلية . هذا وتقاس درجة توصيل النص الأدبي بالتوافق بين شكله ومضمونه وردود فعل قرائه ، بينما نرى ، في النصوص البرجماتية ، أن الاعتبارات الجمالية تتراجع أمام الرغبة في مزيد من الوضوح ، والدقة في التعبير ، ومراعاة قواعد بعينها عند الصياغة .

ونادرا ما يضع الكاتب القارئ نصب عينيه ، عند صياغته للعمل الأدبي - فهو لا يتساءل عما إذا كان ذلك القارئ سيفهم هذه الكلمة أو يتذوق تلك الصورة مستقبلا ، وإنما يكتب فقط ، تاركا للقارئ والمترجم مهمة اكتشاف أعماله . ويختلف الأمر بالنسبة لمترجم النصوص البرجماتية الذي يكيف ما يريد قوله مع طبيعة الرسالة التي يريد توصيلها والذين سيتلقونها ، وذلك لأن النص البرجماتي تعليمي في المقام الأول . ولا يعني هذا أنه خال تماما من القيم الجمالية وجمال الأسلوب . وكل ما هنالك أن هذه الأخيرة لا تكفي لكي تجعل منه نصا أدبيا .

والتفرقة بين الترجمة الأدبية والترجمة البرجماتية تمكنا أيضا من تحديد موقف المترجم من كل منها فمترجم النص البرجماتي لا بد أن يكون موضوعيا ، ولا ينبغي أن تظهر شخصيته في ترجمته ، في حين يتسم موقف مترجم النص الأدبي بالذاتية ، وينبغي أن يترك بصماته الخاصة على النص ، شأنه في ذلك شأن الفنان المبدع تماماً . وعلى المترجم الأول أن يلتزم الدقة ، وأن ينقل النص الذي يترجمه بأكبر قدر ممكن من الأمانة ، مع مراعاة ترتيب عناصر الجملة بنفس الطريقة التي رتب بها في النص الأصلي ، حتى لو تناقض ذلك مع جمال الأسلوب ومنطق اللغة التي يترجم إليها . وتجدر الإشارة هنا إلى مهمة المراجع في المنظمات الدولية ، على سبيل المثال التي تتمثل في توحيد لغة المترجمين ، وطمس كل ما يمكننا من التعرف على شخصية المترجم . وغني عن البيان أن مثل هذا المطلب يقيد حرية المترجم أمام النص إلى حد كبير . فالدقة والأمانة شرطان أساسيان في ترجمة النصوص البرجماتية . يكفي أن نذكر الآثار التي قد ترتب على الترجمة الحاططة لطريقة استعمال دواء ما ، أو تشغيل جهاز كهربائي . على عكس ذلك ، يتمتع مترجم النص الأدبي بقدر من الحرية أمام النص الذي يترجمه . وحتى إذا راعى الدقة في ترجمته ، باستطاعته « التصرف » في النص بطريقة ما ، وحذف شيء هنا ، وإضافة شيء هناك ، بل باستطاعته أيضا إعادة كتابة النص في صياغة جديدة ، بدون أن ترتب على موقفه هذا

أية آثار سلبية . فما الذي يمكن أن يحدث لو أن كلمة *nuages* الفرنسية ترجمت بكلمة غيوم بدلا من كلمة سحب ؟ لا شيء طبعاً !! وحرية التصرف هذه هي التي مكنت المترجمين من الاقتباس ، والتعريب ، والتقصير ، وكلها عمليات قريبة من الترجمة بمعنى الكلمة . ونسوق هنا ، على سبيل المثال ، تعريب المنفلوطي لرواية الكاتب دي سان بيير *Saint-Pierre* « بول وفيرجينى » التي حول عنوانها إلى « الفضيلة » وترجمة حافظ إبراهيم لرواية فكتور . هيجو *V. Hugo* « البؤساء » وجدير بالذكر أن حافظ إبراهيم لم يكن يعرف الفرنسية ، وبالتالي كان لا يستطيع أن يقرأ الرواية في نصها الأصلي . فكانت أحداثها تروى له ، وكان يصوغها هو بطريقة الخاصة ، بعد احتفاظه بالأحداث فقط وتحوره تماما من النص الأصلي . ومن أبرز المترجمين الذين وقعوا ترجماتهم بأعضائهم إبراهيم ناجي ، مترجم ديوان بودلير *Beaudelaire* « زهور الشر » ، ود . طه حسين ، مترجم مسرحية راسين *Racine* « اندروماك » ، الخ ولذا التقدم العلمي الهائل الذي يثري اللغة كل يوم بمفردات ومصطلحات جديدة ، تزداد مهمة النصوص العلمية صعوبة ، بالقياس إلى مهمة مترجم النصوص الأدبية . ولندكر بأن قضية ترجمة المصطلح إلى العربية مثلا ، أصبحت قضية ملحة تفرض نفسها فرضا ، وتتطلب حلا سريعا . فمترجم النصوص البرمجية في حاجة إلى أن يكتب يوميا كماً هائلا من المصطلحات الجديدة : مكوك الفضاء حرب الكواكب ، علم الحاسبات الالكترونية ، الخ وإلى إيجاد مقابل لها في اللغة التي يترجم إليها ، وإلى خلقها أحيانا . والفنان يتحرك في مجال أضيق بكثير من مجال العلوم ، مهما كانت لغته ومهما كان خياله ، لأن تطوره أقل سرعة بكثير من تطور العلوم . ورغم كل هذا يحسد مترجم النصوص البرمجية مترجم النصوص الأدبية لأنه لا يقابل أية صعوبة في مفردات اللغة ، في حين يحسد مترجم النصوص الأدبية مترجم النصوص البرمجية لأنه لا يقابل الا صعوبات مفردات اللغة .

وقبل أن نتحدث بالتفصيل عن النص الأدبي وترجمته ، نورد بعض الأفكار الخاصة بها ونبدأ بقولنا إن النص الأدبي يجعل شحنة جمالية تضاف إلى مضمونه ، كما أنه يكتب أحيانا بلغة معقدة يصعب على المترجم التعامل معها . وعادة ما يكتب النص الأدبي بلغة بعيدة عن مستوى اللغة العادي وأشكال الصياغة المألوفة ومن ثم ، تتطلب ترجمته كفاءة حقة وجسا أدبيا وفنيا . ومعايشة المترجم للأعمال الأدبية شكل من أشكال الانسجام الذي يمكنه من نقل الأصوات والكلمات ، والجمل ، والصور ، وباختصار ، كل ما في النص من عناصر جمالية ، بأكثر قدر ممكن من الأمانة . والانسجام بين صاحب العمل الأدبي ومترجه أمر لا بد منه . وإذا كان الكاتب حياً ، يفضل أن يقابله المترجم ، وأن يعمل معا ، بطريقة ما . ويقول م . كوانترو *M.A. Cointreau* في هذا الصدد إن « الترجمة الأدبية عملية تعاون عاطفي » ولا يكفي أن يكون المترجم مترجما ممتازا لكي يوفق في نقله للأعمال الأدبية إلى لغة أخرى ، لأنه في حاجة إلى شيء آخر ، هو موهبة الفنان المبدع ذاته . ويرى البعض ، في هذا الشأن ، أن الترجمة فن أصعب من الكتابة ذاتها ، وأن الترجمة الأدبية إبداع حقيقي ، تعجز الآلة ، مهما كانت ، عن أن تحل محله . فمترجم النص الأدبي في حاجة إلى معرفة اللغة التي يترجم إليها معرفة عميقة ، وفي حاجة أيضا إلى خيال خصب يمكنه من تصور النتائج التي يستطيع أن يستخلصها من تلك اللغة . والأبداع يعني إلى حد كبير القدرة على التخيل ، بل وعلى الحلم . ويقول ا . اتكند *E. Etkind* إن « الترجمة الأدبية » « إبداع من الدرجة الثانية » ، لأن المبدع الأول هو الشاعر ، أو الكاتب الروائي أو الكاتب المسرحي . وإنصافا لمترجم النص الأدبي ، نقول إنه يجب أن يجدد اللون الأدبي الذي يتخصص فيه ، بقدر

الامكان . فترجمة الشعر تختلف عن ترجمة الرواية . أما ترجمة النص المسرحي فتمثل مجالا قائما بذاته . قال أحد المترجمين في هذه الصدد إنه يكتب الحوار المسرحي ، ثم يقرأ بصوت عال لكي يصل إلى نوع من الإيقاع يساعد الممثل على النطق بكلمات دوره . ومترجم النص المسرحي فنان أيضا ، بل كاتب مسرحي بطريقة ما : « ولما لا شك فيه أنه المترجم - المقتبس يتوحد مع الشخصيات لدرجة أن نصه يصبح صورة من النص الأصلي ، كتبت بلغة مختلفة . وهكذا ، يصبح نصه هذا تفسيراً جديداً لا يخون النص الأصلي ، ويعمل بصمات المترجم الخاصة ، بصمات إحساسه وموهبته . »^(٣)



ولنسأل الآن : ما هي الترجمة الأدبية ؟ إذا رجعنا إلى المعجم الفرنسي Le Robert وجدنا تعريفاً للترجمة عامة ، يقول إنها « نقل ما يقال بلغة ما إلى لغة أخرى ، مع الميل إلى معادلة معنى هذا القول وذلك » . ويقول نفس المعجم إن المعادلة تعني « ماله نفس القيمة أو نفس الوظيفة » . كذلك ترى أغلب المعاجم ، كما يرى أغلب القراء ، أن ترجمة النص الأدبي يجب أن تبدو كصورة أمينة للنص الأصلي ، أي أن تكون نصاً يشبهه بقدر الإمكان . وعندما يقول القارئ إنه يقرأ نصاً مترجماً ولا يشعر أنه مترجم يعبر عن هذا المطلب أصدق وأبلغ تعبير . فهو بقوله هذا يعبر عن رغبته في أن تكون الترجمة صورة يتوهم أمامها أنه أمام النص الأصلي ، لا ترجمته ، وعن رغبته في ألا تشوه الترجمة صورة الثقافة التي يعكسها النص .

وتطرح ترجمة النصوص الأدبية عدداً من الموضوعات التي لا تنفصل عنها ، والتي نذكر من بينها أولاً ، علاقة مؤلف النص بمترجمه . ولن نعرف المترجم هنا ، ونكتفي بما تقوله سيلين زنس Zins « يقف المترجم بين صفتين . وتمثل مهمته في نقل النص كاملاً من صفة إلى أخرى فهو يمسك بكائن حي على إحدى الصفتين ، وعليه أن يقوده حياً ، لا عاجزاً أو مبتوراً ، إلى الصفة الأخرى . كما أنه معرض لإغراء القارئ له فالقارئ لا يطلب منه أن يقدم له شيئاً مشابهاً للنص الأصلي فحسب بل يطلب منه أن يكون هذا الشيء مقروءاً أيضاً » .^(٤) هكذا « يمثل - بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة المترجم النص الذي تخيله المؤلف بل يعتبر الممثل الوحيد للنص ، في نظر من لا يستطيع قراءة النص الأصلي . ومن يقرأ النص المترجم مضطراً أن يصدق المترجم وما يقوله ، أو بعبارة أدق ، ما يكتبه ومع ذلك ، يغفل الناشر أحياناً ذكر إسم المترجم على الغلاف ، كما حدث للشاعر الفرنسي بودلير عندما ترجم « قصص » ادجار بو E. Poe إلى الفرنسية .

ويرى البعض أن المترجم الجدير بهذا الاسم يضع عينيه هدفاً واحداً : أن يكون قدراً ، على حد قول م كواترو ، أي يجامكي المؤلف ، ويتمتع بشخصيته ، ويكون مرآة يرى فيها المؤلف نفسه . ويرى البعض الآخر أن التفرقة بين الكاتب المبدع والمترجم أمر مسلم به ، وأنها أصبحت اليوم من القوة ، أيديولوجيا ، بحيث تعتذر تصحيح هذا الخطأ إذا اعتبرناه خطأ ولنلاحظ أيضاً أن هناك فرقاً بين الفنان المبدع والناقد ، والفنان المبدع والقارئ ، وأن هذا

^(٣) "Ecrire et traduire, sur la voie de la Creation"

(٣) جاك للامون ،

ص ١٢٣

Actes des Premières assises de la traduction littéraire" Arles, 1984, p. 54

(٤)

الفرق يرتبط بتقديس الأدب . ويتمثل دور المترجم في خلق نص أدبي انطلاقاً من نص أدبي آخر ، وهو مسئول أمام النص الأصلي وأمام مؤلفه ، حتى لو كان ميتاً ، نظراً لأن النص يمثل المؤلف . والمترجم مؤلف أيضاً ، مؤلف له صوت خاص به . لذا ، يرى البعض أنه من الأفضل أن يكون للمؤلف الواحد مترجم واحد ، يتكلم دائماً بنفس الصوت ، بينما يرى البعض الآخر أن المترجم يجب أن يكون « كالحرياء » وأن يتلون كلياً بتغير لون النص الذي يترجمه . قالت أ . W. Minkowski . في ندوة عن الترجمة الأدبية : « قرأت مؤخراً مختارات من القصص القصيرة العربية مترجمة إلى الإنجليزية كانت الترجمة جيدة ، وبالغة الدقة ، كما كانت اللغة الانجليزية التي كتب بها النص سليمة سلسلة . لكن ، كان يعيب هذه المختارات شيء واحد ، خطأ في نظري ، هو قيام مترجم واحد بترجمة قصص قصيرة لخمسة عشر مؤلفاً ، مما يولد في القارئ إحساساً بأن القصص الخمسة عشرة لكاتب واحد . قد يقال في هذا الصدد إن المترجم الجيد يستطيع أن ينوع لغته ، لكنني لست متأكدة من ذلك ، بل لست متأكدة من أن هذا شيء مطلوب على أية حال ، يكمن هنا خطراً ، ويستحسن أن نكون على وعي به ، فيها أرى . »^(٥)

والترجمة العادية عملية تشبه القراءة . ونلاحظ أن أفضل المترجمين كانوا كتاباً أدخلوا ترجماتهم في أعمالهم ، وبالتالي ، أزالوا بلغتهم فرقاً كان يبدو طبيعياً لأول وهلة ، ونشأت تفرقة تتسم بالتناقض ، مفادها أن المترجم الذي يترجم فقط ليس مترجماً ، وإنما « مقدم » للنص ، على حد قول هـ . ميشونيك H. Meschonnic . الكاتب وحده يعتبر مترجماً . وإذا كانت الترجمة نصاً أدبياً وكتابة نتجت عن عملية القراءة ، أصبحت مغامرة شخصية ، شأناً في ذلك شأن العمل الأدبي الأصلي . ويقول هـ - ميشونيك في هذا الصدد : « لا ينبغي أن نتوهم أن الكتاب - المترجم قلة بالنسبة لمجموعة المترجمين أو أن الترجمات - الابداعية نادرة بين النصوص المترجمة »^(٦) . وسواء أكان مترجم النص الأدبي مبدعاً أو لا ، يلعب دور « الكشاف » بالنسبة للمؤلف . تقول س . زنس إن « المترجم يعكس للمؤلف أشياء لم يرها لأن الترجمة تتطلب الرجوع إلى « المشهد الأصلي » (بلغة التحليل النفسي) . . . لذا قد يخضع المؤلف لعملية تفسير عندما تترجم أعماله . فجأة ، يظهر شيء آخر : اللغة الأخرى التي تحدد بالضبط المسافة اللازمة لايراض شيء لم يره المؤلف من قبل^(٧) » كذلك المشهد الأصلي الذي يجب أن يرجع إليه المترجم مشهد محرم ، من حيث المبدأ ومع ذلك - عليه أن يرجع إليه لكي يقوم بعمله . وإذا لم يفعل ذلك ، لا نستطيع أن نقول إنه يترجم ، إذ لا معرفة له بالطريقة التي يكتب بها المؤلف ، والأسباب التي تدفعه إلى الكتابة وإلا عجز عن الترجمة ، أو قدم ترجمة سيئة . ويعني هذا أن على المترجم أن يتشبع بكتابة المؤلف ، وأن يجعل أسلوب هذا الأخير ينفذ إليه .

وتتطلب الترجمة معرفة اللغة ، لكن ممارستها في مجال الأدب تجعل من المترجم وسيطاً Medium دليل ذلك ، على سبيل المثال ، أن الكاتبة الروائية الفرنسية ناتالي ساروت Sarraute قالت ، عندما مثلت عن رأيها في ترجمة أعمالها « إنها

Actes assises des Deuxiemes de la traduction litteraire, Arles, 1985, P. 70

(٥)

Pour la poetique 11, Gallimard, 1973, p. 354

(٦)

Actes de premieres assises de la traduction litteraire, Arles, 1984, p. 57

(٧)

عمل مختلف ، له بعد آخر . . . وتشكل من مادة مختلفة بما فيها من عناصر ومساوى . . . وحياة خاصة بها . . . إن النص الذي كتبته يتراجع أمام ترجمته .^(٨) وقد يدخل المؤلف بعض التغييرات على النص الأصلي بعد قراءته مترجما ، وهذا بالفعل ما فعله ص . بيكيت عدة مرات . وقالت ن . ساروت أيضا ، ردا على سؤال عن مقاومة النصوص الأدبية المترجمة للزمن : « اعتقد أن الترجمة عملية صعبة . . . لقد حاولت ترجمة تشيكوف ، ولم أوفق . . . والترجمة لا تبلى إذا نقلت الاحساس الذي يولد النص الأصلي . . . إذا التصقت به . . . عندئذ تحيا كالنص الأصلي تماما ، فيها أرى . . . بل أكثر منه . . . وإذا عجزت الترجمة عن نقل الحياة والتعبير عنها . . . صارت بالية . . . »^(٩)

والحديث عن العلاقة بين المؤلف والمترجم يقودنا إلى الحديث عن الترجمة كعملية إبداعية . يرى البعض بالفعل أن الترجمة عمل إبداعي ، لأن الكاتب لا ينتج نصه عادة دفعة واحدة ، وإنما يعيد صياغته مرات ومرات . لا فرق إذن بين الكتابة والترجمة . فكلاهما عمل إبداعي ، في حين يرى البعض الآخر أن عملية الترجمة تحتاج إلى قدر أقل من الخيال ، وأنها ، « إبداع من الدرجة الثانية » كما سبق أن قلنا بل وأنكروا تمكن المترجم من اللغة ، وقد يفوق تمكن المؤلف منها أحيانا . وي طرح هنا سؤال هام : إذا كان المؤلف لا يتقن الكتابة بلغة الخاصة ، هل ينقل المترجم النص الأصلي كما هو أم يحق له أن يدخل عليه بعض التحسينات ؟ وترد بقولنا إن المترجم يتعامل ، من حيث المبدأ ، مع كتاب متمكين من اللغة ومن فن الكتابة لكن ، قد توجد ، حتى عند الكتاب الجيدين ، أجزاء أضعف من غيرها . ولا شك أن المترجم في هذه الحالة يجد نفسه في حيرة من أمره ، لأنه يخشى دائما أن تنسب إليه رداءة الأسلوب . وأيا ما كان الأمر ، تعتبر الترجمة عملا إبداعيا بطريقة أو بأخرى ، لا سيما إذا كان المترجم كاتباً أيضاً . ولعل هذا ما جعل كاتبة ومترجمة من كيبيك تقول ، عندما طلب منها تعريف الترجمة الأدبية : « أتمنى أن يكون مترجم النص الأدبي كاتباً ، أو أن تكون له ، على الأقل ، رؤية الكاتب وإدراكه ، وأن يحل بطريقة ما محل الكاتب الذي يترجم ، لا كلماته فحسب ، وإنما إحساسه وردود فعله أيضاً . وقد يكون المترجم مترجماً ممتازاً ، لكنه أبعد ما يكون عن ترجمة الأدب ترجمة جيدة . . . لأن الأمر ، في هذه الحالة ، لا يتعلق بالاتصال بالنص ، وإنما بالاتصال بفكر الكاتب . »^(١٠)

وبعكس النص الأصلي ، لا تعتبر الترجمة إبداعاً نهائياً ، مهما كانت قيمتها . وما لا شك فيه أن ترجمة أي عمل أدبي قد تبلى ، وأن النص الأدبي الواحد قد يترجم مرات ومرات . كما يمكن أن نقول إن العمل الأدبي الأصلي يعمل في طبيته مشروع كل ترجماته المستقبلية ، إذ تعتبر ترجمته « قراءة » له ، ومن ثم ، تختلف باختلاف قرائه . وتلك هي القاعدة ، من الناحية النظرية على الأقل . لكن الترجمة الإبداعية حقاً ، ترجمة الكتاب الخلاقة ، تعطي للنص صورة ثابتة يصعب التفوق عليها ، وتبلغ بالنص المترجم مرتبة تجعله يبدو أجمل من النص الأصلي . ولا تنتج مثل هذه الحالة الاستثنائية إلا عن التعام وانسجام تام بين الكاتب والمترجم .

(٨) المرجع السابق ، ص ١٣١

(٩) المرجع السابق ، ص ١٣٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٣٤

وتطرح الترجمة الأدبية أيضا سؤالا حول إمكانية الترجمة عن طريق نص وسيط، كأن يترجم نص ياباني، مثلا إلى الفرنسية عن طريق ترجمة إنجليزية لذلك النص. وإذا كان البعض يرى أن مثل هذا النوع مشروع، فنحن نرى، مع كلير كيرون C. Cayron أن « فكرة الترجمة عن طريق نص وسيط تتناقى تماما مع الأدب، بل تعتبر إنكاراً للأدب ونفياً له. »^(١١) فنمثل هذه الترجمة قد تؤدي إلى ترجمة المعنى، لكنها لا تترجم النص.

وفي مجال الترجمة الأدبية، لا يعتبر السياق اللغوي إلا مادة خاماً لعملية الترجمة، لأن أي نص أدبي يشتمل على سياق آخر، أكثر تعقيدا، ونقصد به العلاقة بين ثقافتين، وطريقتين مختلفتين في التفكير والإحساس والتعبير. على سبيل المثال، تطرح عبارة بسيطة كمباراة « سي السيد » قضية هامة عن نقل السياق العام الذي يعتبر السياق اللغوي جزءا منه. فإذا ترجمت كلمة « سي » إلى الفرنسية بكلمة Monsieur (مسيو)، فقدت معناها، ونقلت سياق الرواية إلى سياق اجتماعي مختلف، وجعلت من شخصية الزوج المسيطر مجرد « خواجه » يقال له « مسيو »، في حين تدل كلمة « سي » في رواية نجيب محفوظ على خضوع الزوجة خضوعا تاما لزوجها، في مجتمع شرقي معين. ولعل أنسب حل يمكن اختياره في هذه الحالة، وحالات أخرى مماثلة، هو كتابة عبارة « سي السيد » بالحروف اللاتينية في النص المترجم، وهامش يشار فيه إلى ما تحمله هذه العبارة من معان في السياق الاجتماعي المصري، وإن كان المترجمون يرفضون أحيانا إضافة أية هوامش تفسيرية إلى ترجماتهم، خصوصا في ألوان معينة من الأدب. ونحن نرى أن مثل هذه الهوامش تصبح ضرورية إذا كان النص الأصلي ينتمي إلى ثقافة ضيقة الانتشار. ولندكر مثلا آخر، ترد كلمة Merde الفرنسية في كل صفحة تقريبا، في مسرحية الفريد جاري A. Jarry « أويو - ملكا ». ولا توجد في اللغة العربية كلمة يعادل معناها « المجازي » المعنى الذي تتخذه هذه الكلمة في مواقف معينة، وبالتالي، تصبح ترجمتها أمرا صعبا. ولقد اختار د. حمادة إبراهيم كلمة « نيلة » لترجمة هذه الكلمة، في ترجمته العربية للمسرحية سالفة الذكر. وحتى إذا كان قد وفق في اختياره هذا، فإن « نيلة » لا تعبر بالضبط عن معنى الكلمة الفرنسية.

وعندما يفكر مترجم النص الأدبي فيما يقوم به من عمل، من الناحية النظرية، يفكر في أغلب الأحيان في كيفية الترجمة. ونظرا للأهمية البالغة التي اتخدها علم اللسانيات في القرن العشرين، نراه يتجه في تفكيره هذا إلى ذلك العلم، لا سيما أن اللغة مادة أساسية في الأعمال الأدبية. ونساهل بالتالي عما إذا كان المترجم في حاجة إلى اللسانيات لكي يقوم بعمله. ونجيب بقولنا: من الواضح أنه لا يحتاج إليه، ما دام المترجم قد قاموا بعملهم، إلى عهد قريب، بدون أن يتعرضوا لقضايا اللغة. ورغم أن اللسانيات تبحث الطريقة التي يعمل بها المترجمون، نشعر أحيانا أن خطاييها لا يلتقيان في أي نقطة فالمترجم لا يترجم الكلمات بكلمات أخرى أو الابنية اللغوية إلى ابنية لغوية أخرى فقط، كما قد يتصور علماء اللسانيات. وإذا نظرنا إلى الطريقة التي يترجم بها الناس، أدركنا أنهم يتبعون قواعد معينة، حتى إذا كانوا لا يعون ذلك. فاللغة، أيا كانت، تتضمن ثلاثة مستويات على الأقل: قواعد النحو والصرف، والخطاب الخاص أو الطريقة الخاصة التي ينتظم بها الخطاب في النص الأدبي - وعادة ما يتوقف مترجم النص

الأدبي عند هذا المستوى - ومستوى ثالث لا يقل أهمية عن هذين المستويين ، يمكن أن نسميه « الانتظام الجماعي للخطاب » . وغني عن البيان أن النص ينتظم بطريقتين مختلفتين في اللغة التي يكتب بها واللغة التي يترجم إليها . وحتى إذا كان المترجم لا يحتاج إلى عالم اللسانيات فمن مصلحته أن يألف مفاهيم علم اللسانيات لكي يوضح لنفسه ما يقوم به من عمل ومحاول تنظيمه . ولنلاحظ أن مستوى المترجم لا يرتبط بدراسته لذلك العلم من عدمه . تقول م . باجيللو M.Yaguello في هذا الشأن : « أرى أن النشاط الترجمي قد ييم عالم اللسانيات ، فهو الذي يستطيع في الواقع ، استخلاص شيء من ظاهرة الترجمة ، إما من زاوية اللسانيات الاجتماعية ، ... أو على المستوى الفردي »^(١٢) . وجدير بالذكر أن الترجمة هي المجال الذي تلتقي فيه اللسانيات بالقضايا التي تمهما .

وطرحت علاقة الترجمة باللسانيات عندما حاول البعض وضع نظرية أو منهج للترجمة ونذكر ، من بين هؤلاء الباحثين ، هـ ميشونيك ، وج د . لدميرال J.R.Ladmiral ، وج . مونا G.Mounin ، و - ا . نيدا E.Nida ، مترجم التوراة ، الخ ورغم أن نظرية نيدا لفتت الأنظار ، فلقد أبدى فيها هـ . ميشونيك رأياً له وجاهته . يقول ميشونيك إن إسهام نيدا في نظرية الترجمة وممارستها يعد جهداً من أهم الجهود التي بذلت في السنوات الأخيرة . فلقد طرح مفهوماً جديداً للترجمة طبق فيه التكنيك التحليلي المتبع في اللسانيات التحولية والسيماطيقا البنوية . ومن الواضح أنه يريد إرساء قواعد علم الترجمة ، وإن كان يقول ، منذ البداية ، إن الترجمة الجيدة فن دائماً . وهو يتخذ من الشعر موقفين متناقضين ومتمازجين : الأول يقال إن ترجمة الشعر شيء مستحيل ، يقال أحياناً إن ترجمة الشعر يجب أن تشبه الشعر ، لكن هذا شيء صعب المثال . الثاني كثيراً يوجد خلط بين الأدب وما عداه نظراً لعدم تبيين خواص الأدب بين الممارسات اللغوية الأخرى . وهذا هو الموقف البرجماتي السائد ولولاه ، لما وجد شيء اسمه الترجمة . يقول ميشونيك في هذا الصدد : « لكي نرسي قواعد نظرية ترجمة النصوص الأدبية وتطبيقها ، يجب أن نتناول بالنقد المسلمات التي أعدها نيدا وكذلك تكنيكه ولا يعني هذا العودة إلى الدفاع عن فن الترجمة . . . فالقصد هو أن نبين أن التعارض الأساسي بين الشكل والجواب عند نيدا غير عملي في الأدب وأن نيدا لم يتنبه إلى خواص الأدب وقضايا ترجمته وأن نظريته ليست نظرية علمية »^(١٣) ، حيث إنها تستخدم أدوات حديثة للمحدث عن أقدم الأيديولوجيات الخاصة بالترجمة . بالإضافة إلى ذلك ، يرفض ميشونيك اعتبار نظرية الترجمة نوعاً من اللسانيات التطبيقية ، لأنها مجال جديد في نظرية الأدب وممارسته وهي تسهم بلا شك في تجانس الدال والمدلول الذي تنسم به الكتابة كممارسة اجتماعية .

يمكن أن نقول ، بصفة إجمالية ، إن أنواع الترجمة ثلاثة ، حتى إذا كان المترجم لا يختار نوعاً منها عن وعي :

١ - ترجمة تلبس ثوب اللغة التي يترجم إليها النص .

٢ - وترجمة تحاول أن تنقل شيئاً من خواص النص الأصلي ، وتهتم بأسلوب الكاتب ، أولاً وقبل كل شيء .

٣ - وترجمة تنتمي إلى تيار ظهر مؤخرا ، تيار الحرفية الذي ينقل النص الأصلي حرفيا ، وينقل بناءه . من نحو وصرف كما هو . والنوع الأول أقدم أنواع الترجمة . وكثيرا ما انتقدت الترجمات الأدبية القديمة لأنها تمحورت من النص الأصلي ، وحاولت إخضاع النص المترجم لقواعد الكتابة السائدة في عصرها . بعبارة أخرى اهتمت هذه الترجمات بعدم نقلها النص الأصلي بأمانة . ولتعتز على الأقل بأن هذه الترجمات كانت تخاطب أناسا يتقنون فن الكتابة . ومع زيادة التبادل الثقافي ، والتأكيد على الكتابة أكثر من التأكيد على الأسلوب ، اتجهت الترجمة في السنوات الأخيرة إلى مزيد من الأمانة ، وزاد اهتمامها باللغة ونوايا المؤلف . وتجدر الإشارة هنا إلى تأرجح الترجمة بين قطبين : الإخلاص للنص ، ومتطلبات اللغة التي يترجم إليها النص ، من آلاف السنين . ومترجم النص الأدبي يحتاج بصفة خاصة إلى شيء هام هو القدرة على تحليل النص الأدبي ، أو « الإدراك الأدبي للنص » ، على حد قول س . زنس ، التي ترى ضرورة استيفاء مترجم النص الأدبي لأربعة شروط ، هي :

- ١ - معرفة اللغة الأجنبية .
- ٢ - معرفة اللغة التي يترجم إليها النص .
- ٣ - والقدرة على التحليل والإدراك الأدبي .
- ٤ - ورؤية النص من الداخل .

واستيفاء المترجم للشروط الأول أمر ضروري ، لكنه لا يكفي لكي يكون مترجما . والشروط الثاني يمثل إحدى دعامتين تقوم عليهما الترجمة . ومن المؤسف أن تكون معرفة المترجم للغة التي يترجم إليها ، وعادة ما تكون لغته الأم ، نقطة الضعف في ترجمته ، في كثير من الأحيان . فالترجمة تفترض ضمنا معرفة المترجم للغة التي يترجم إليها معرفة تامة . لماذا ؟ لأنها ، بكل بساطة ، الآلة التي سيعزف عليها مقطوعته الموسيقية ! على سبيل المثال كيف يدرس المترجم أسلوب كاتب ما ، ومخالفتة لقواعد اللغة ، إذا كان لا يفرق بين النحو والصرف العاديين ورغبة الكاتب المتعمدة في مخالفة قواعدها ؟ ويمكن المترجم من لغته عامل هام لأن ترجمته بمثابة « رهان » على اللغة التي يترجم إليها . فعملية الترجمة تنسم بالمخاطرة . وعندما يقرر المترجم ترجمة عمل ما ، يراهن على قدرة لغته على استيعاب شكل أجنبي ، غريب عنها ، وخلفه من جديد بأدواتها الخاصة . ويستعين في هذا الشأن بذاكرة هذه اللغة وتاريخها ، وقدرته هو على الإبداع . والإدراك الأدبي هو الدعامة الثانية لعملية الترجمة . وهو مرتبط بالشروط الأول والثاني ، ويعتبر نقطة تنبض عندها إحدى المعطيات الأخلاقية الأساسية ، ألا وهي تحيز المترجم للكاتب الذي يترجم عمله والنص ذلك العمل ، وتحيزه أيضا لما يريد الكاتب أن يوصله للقارئ والمتلقى عامة ، وللوسائل التي استخدمت في هذا الصدد . على المترجم أن يتبين أولا نوعية اللغة التي استخدمها الكاتب : قديمة أو حديثة ، عامة أو فصحى ، مألوفة أم غريبة ، الخ . . . ، مما يدل على أن معرفة اللغة الأجنبية وحدها لا تكفي ، كما قلنا . وعلى المترجم أن يبادر بالدخول في المجال الأدبي ، مجال الكتابة . ويأتي بعد ذلك « الأسلوب » ، أي انتظام اللغة وفقا لقواعد معينة وإيقاع معين . فالكتابة لإيقاع . لكن ، كثيرا ما ينسى المترجمون ذلك ، وينسون أيضا أهمية الأصوات ، خاصة في النصوص القديمة المكتوبة شعرا . ولنذكر بأن الكلمة تتكون دائما من صوت ومعنى وبأن موقع الكاتب يتحدد دائما بالنسبة للغة الخاصة وبمجموعة

الكتاب والأدباء التي تمثل ثقافته . ومن ثم يتحتم على المترجم وضعه في المجال الخاص به . ، تقول س . زنس : « أرى أن المبدأ الأخلاقي الوحيد الذي يمكن تطبيقه عند نقل العمل الأدبي يتمثل في فهم النص وخواصه ، أي المكان الذي يشغله في تاريخه الثقافي .^(١٤) ولذلك ، ترفض الترجمة « الحرفية » ، التي تنقل أبنية اللغة الأجنبية ، وتعتبرها ترجمة لغوية لا ترجمة أدبية . والشرط الرابع لأي رؤية للنص من الداخل ، أصعب شيء يمكن تحديده في عملية الترجمة . لكنه أيضاً النقطة التي يتقرر عندها إبداع النص كنص ، ويتضح عندها أن الترجمة فن .

وفي نهاية المطاف ، نجد الإشارة إلى حيرة المترجم بين الترجمة الحرفية والترجمة الأدبية فكثيراً ما يتساءل عن الموقف الذي يجب أن يتخذه أمام هذا النص أو ذاك ؛ وكثيراً ما يتخذ موقفاً وسطاً بين هذين النوعين من الترجمة . قد يستفيد المترجم المتحاز للترجمة الأدبية من الملاحظات التي يبديها المتحازون للترجمة الحرفية - لأن ممارستهم أقرب إلى مفاهيم اللسانيات - ، بشأن هذه الترجمة أو تلك . والعكس أيضاً صحيح . فالذين يقتربون من اللسانيات وما يسمى بالحرفية قد يستفيدون أيضاً من حديث مترجمي النصوص الأدبية عن الصعوبات والامكانيات التي اكتشفوها أثناء الترجمة . وأبدى هـ - ميشونيك رأياً خاصاً في هذا الموضوع : عندما يجري الحديث عن « الحرفية » ، لا أسعى إلى معرفة ما إذا كان المقصود هو نقل النص حرفاً حرفاً ، أو كلمة كلمة ، لأن « الحرف » - بالفرنسية *lettre* في حد ذاته استعارة والحرفية في رأيي ليست مفهوماً فعالاً لأن موقعها النقطة التي يتعارض عندها الشكل والمعنى ، والدال والمدلول ، كما أنها لا تساعد الأدب على القيام بوظيفته . واعتقد أن ما يساعد الأدب والترجمة على القيام بوظيفتها هو بالأحرى الميل إلى علاقة التماثل ، التي تتمثل في « النقل » و « العلاقة » .^(١٥) وقد يكون النقل نقلاً إلى اللغة المترجم منها أو اللغة المترجم إليها على حد سواء ، لكن كلاً منها يتعارض جذرياً مع الآخر ، لأن النقل إلى اللغة المترجم منها يتمثل فيما يسمى « النقل » طبق الأصل *calque* ، بينما يتمثل النقل إلى اللغة المترجم إليها في الجملة الشهيرة : لا ينبغي أن يشعر المتلقي أنه أمام نص مترجم . وفيما يتعلق بالنقل في الاتجاهين ، يمكن النظر إلى الترجمة كعلاقة جديدة يتميز بها عصرنا ، وتقبل المقارنة بتطور المسرح . فلقد أراد المسرح إلغاء الاصطلاح في فترة معينة من تاريخه ، ثم جاء المسرحيون الذين أرادوا أن يبينوا أن المسرح اصطلاح . وفيما يتعلق بالترجمة ، علينا أن نبين أنها علاقة ، وأنها تطرح مشكلة ثقافية تتجاوز حدودها بكثير ، ألا وهي المفهوم الثقافي لعلاقات التماثل والاختلاف . ويشير ميشونيك أيضاً إلى الخلط بين الكلمتين الفرنسيتين *litteralite* ، أي الحرفية ، و *litterarite* ، أي الأدبية ، الذي يعتبر كارثة بالنسبة للترجمة ومفاهيمها فارغية تعني الرجوع إلى « الحرف » ، أي الكلمة ، أما الأدبية ، فتعني خواص الأدب ذاته ، ولا علاقة لها بتعارض روح النص مع كلماته ، وإن كانت السبيل الوحيد إلى محاولة التوفيق بينهما ، لا إلى إزالة ذلك التناقض بطبيعة الحال .



يتمثل النص الأدبي أساساً في الرواية ، والمسرحية ، والقصيدة . وتتطلب ترجمة كل واحد منها منهجاً خاصاً ، ووسائل خاصة ، وتقابل أيضاً مشاكل معينة . لذلك ، يمكن الحديث عن الترجمة الأدبية عامة ، كما يمكن الحديث عن ترجمة هذا اللون الأدبي أو ذاك .

^(١٤) "Actes des deuxiemes assises de la traduction litteraire," Arles, 1985, p. 51

(١٤)

(١٥) المرجع السابق ، ص ٥٥

ولتحدث ، أولا ، عن ترجمة النص المسرحي ، ولنذكر بأن أية مسرحية تتكون من عنصرين متكاملين : النص والعرض . يستخدم النص علامة واحدة ، هي الكلمة المكتوبة ، ويمكن أن تصل الرسالة التي يتضمنها إلى المتلقي عن طريق القراءة الصامتة بصوت عال ، لكن أثر كل منها يختلف عن أثر الأخرى ، بطبيعة الحال . أما العرض فيستخدم كثيرا من العلاقات السمعية والبصرية أساسا ، والكلمة واحدة منها . ومن البديهي أن تتحاور الشخصيات على خشبة المسرح ، أثناء العرض ، يكتب بعدا جديدا بالقياس إلى النص المكتوب ، نظرا لتدخل عنصر « الصوت » في الكلمة المنطوقة ونطق الممثل لها بطريقة معينة . لذلك يبادر المترجم بطرح سؤال : عندما يعتزم نقل نص مسرحي إلى لغة أخرى : هل ستخصص ترجمته للقراءة أو للعرض المسرحي ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر : وإذا كانت المسرحية المترجمة ستعرض على المسرح ، فما هو الجمهور الذي ستعرض أمامه ، وحتى إذا لم يلق المترجم ردا على هذين السؤالين ، لا بد أن يأخذ العرض بعين الاعتبار ، لا بد أن يحسب حساب عملية التواصل بين المؤلف والمخرج والشخصية ، والممثل ، والمترجم . وبالتالي يمكن أن نقول إن عليه أن يترجم الحوار الذي يدور بين الشخصيات بصوت عال ، لكي يتبين الأصوات ، وإيقاع الجمل والهجاء ، والنبرة ، الخ . . . ويقول موريس جرافيه M.Gravier في هذا الصدد : « يقع نقل الدراما من لغة إلى أخرى (وأحيانا من سياق حضاري إلى سياق حضاري آخر يختلف كل الاختلاف) في منتصف الطريق بين الترجمة بمعنى الكلمة والترجمة الفورية في المؤتمرات »^(١٦) . وبما أن النص المترجم نص منطوق ، من حيث المبدأ يجب أن يستخدم المترجم لغة شفوية ، ويصوغ الجمل بحيث يستطيع الممثل أن ينطق بها ويوصلها إلى المتفرج . وكتابة هذه اللغة الشفوية ، وبناء الحوار ، بل والعمل مع المؤلف والمخرج أمور مطلوبة بقدر الامكان . فالممثل لا يعيش في الشارع بنفس الطريقة التي ينتقل بها على خشبة المسرح . كذلك لا يمكن أن تختلط لغة المسرح ، مهما كانت مألوفة ، بلغة الحياة اليومية . وعلى المترجم أن يتذكر أيضا أن المترجم يسمح للنص مرة واحدة لا تكرر وأن عليه أن يفهمه في التو واللحظة .

وتضاف إلى كل هذا قضية مفردات اللغة وتراكيبها . على سبيل المثال ، خضعت هذه التراكيب في المسرح الفرنسي الحديث لعملية تغيير شامل شملت التلاعب بالألفاظ ، بل وكتابة المفردات ذاتها . ويمكن أن نذكر ، في هذا الصدد مسرحيات أوجين يونيسكو E.Ionesco وخطاب لوكي في مسرحية ص . بيكيت Beckett في انتظار جود وتوزيع . جل الحوار بين الشخصيات في مسرحية م . فينافير M.Vinaver « طلب الوظيفة » . في مسرحية أ . يو « الجوع والعطش » . يتحدث للبلبل ، في لحظة ما ، شبه انقسام يعبر عنه انتشار المادة وتحلل الكلمات وفقدان الذاكرة . عندئذ ، يحاول جامدا بحث ذكرى المرأة التي حلم بها وأحبها ، ويخطئ بين التواريخ وفصول السنة . وفي الفصل الثالث ، يطلب منه الرهبان أن يحدّثهم عن رحلاته ، لكن ، سرعان ما تتحلل كلماته ، وفقا لأسلوب اعتاده منذ أن كتب (الغنية الصلحاء) ، أسلوب أبرز مافيه عملية الإحصاء Enumeration التي يقول عنها . . . يوجد الإحصاء تواردا صوتيا . إنه لعبة . فالكلمات تأتي وتتجمع بحرية تامة . . . ويوجد شيء من المجانية في كل هذا »^(١٧) . وهو مثال

La traduction des textes dramatiques, in Etudes de linguistique appliquée" octobre - decembre 1973, p. 41

(١٦)

C. Bonnefoy: "Entretiens avec E. Ionesco," paris P. Belfond, 1966, p. 154

(١٧)

يتضح منه أن المترجمة^(١٨) نقلت الكلمات ، ولم تتوصل - نظرا لاختلاف اللغتين العربية والفرنسية - إلى توارد الأصوات الذي تحدث عنه المؤلف . ولو أنها فعلت لأدخلت تغييرا على المعنى يقول البطل جان : لم أر هذا . . . الريف والمدن والشوارع والجبال . . . ماذا تريدون أن أقول لكم أيضا ؟ رأيت شوارع وترعا وأحزمة ، وديكة رومية ، وبرتقالا ، وعربات نقل ، ومدافع وسكاري ، ورجالا بيضا وصغرا وسوداً ومنازل حمراء ، ومنازل خضراء ، وستائر ، وترعا ، وطبولا . . . »^(١٩) وفي « طلب الوظيفة ، » الغي م . فيثافير علامات الترتيم تماما ، ووزع جمل الحوار على الشخصيات بطريقة تجبر المتلقي على إعادة تركيبها لكي يستخلص منها المعنى . وعلى المترجم في هذه الحالة أن يراعي الترتيب الذي أراده المؤلف ، لأنه مقصود ، وألا يتدخل لإعادة ترتيب الجمل وفقا لهواه . على سبيل المثال ، يدور الحوار الآتي بين أربعة أشخاص : فاج ، وزوجته لويز ، وابنتها ناتالي ، واللاس ، مدير شؤون العاملين في إحدى الشركات :

والاس : أنت مولود في ١٤ يونيو ١٩٢٧ ، في مدغشقر

لويز : يا حبيبي

فاج : من الناحية الجسمانية

والاس : هذا واضح

لويز : كم الساعة

ناتالي : لا تفعل بي هذا

فاج : إنها مثل عليا مشتركة أقصد أن المرء لا يعمل من أجل المرتب فقط

لويز : كان يجب أن توقظني

فاج : كنت أوشك على فعل ذلك لكنك كنت تنامين في استسلام .

والاس : ماذا كان يفعل والدك في مدغشقر عام ١٩٢٧ ؟

فاج : كانت رؤيتك وأنت تسندين رأسك على ذراعك تسر الناظرين .

ناتالي : لو أنك فعلت بي هذا يا بابا

لويز : لم أدهن حذاءك

فاج : كان أبي طبيبا في الجيش

لويز : وخرجت وحدائك متسغ

ناتالي : رد علي يا أبي

فاج : في جمعية في تانا ريفا

والاس : في شركتنا

فاج : لكن لم تبق لدي أية ذكريات

(١٨) انظر (المجموع والمطبخ) ، تأليف أ . بولسكو ، ترجمة د . سامية أسعد ، مسرحيات عالية ، دار الكتب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(١٩) المرجع السابق ، ص ١٠٦

والألس : نحن نولي أهمية قصوى للإنسان

لوزير : كنت أريد أن أكون بنطلونك

فاج : هذا سبب من الأسباب التي جعلتني أرد على إعلانكم . هذا هو السبب الذي جعلني أهتم
بشركتكم . . . (٢٠)

لكن ، كيف يترجم النص المسرحي ؟ قد يكون الجواب : إنه يترجم كأي نص أدبي ! ونضيف أن هناك اعتبارات معينة لا ينبغي إغفالها في هذه الحالة بالذات . فترجمة النص المسرحي لا تعني وضع الجمل جنباً إلى جنب ، أو ترجمة نص بعينه . بل يجب أن تبدأ العملية بهضم المترجم للنص الأصلي ، وفهم معانيه ، والشحنة الاعلامية والانفعالية التي يحملها ، والتشبع « بالروح المحلية » - على حد قول الشاعر ف . هيجو - التي يعكسها . فمترجم النص المسرحي لا يكتفي بنقل مضمون الجملة التي تنطق بها الشخصية في النص الأصلي ، بل عليه أيضاً مساعدة المترجمين على حذس النوايا الكامنة وراء نص هذه الجملة . بعبارة أخرى عليه مساعدة القارئ أو المترجم ، لا على فهم ما تقوله الشخصية فحسب ، وإنما على فهم الأسباب التي تجعلها تقولها أيضاً . على سبيل المثال ، في المسرحية « الملتزمة » ، توجه الجملة بحيث تخدم نظرية بعينها يريد الكاتب الدفاع عنها . والجملة في المسرحية النفسية تساعد على رسم خطوط الشخصيات . ويجب أن يدرك المترجم كل هذا وأن يكون على وعي به عند القيام بعمله . كما يجب أن يدرك أن الحوار لا يتكون من مجموعة من الجمل فقط ، بل يعتبر كلاماً متكاملأ له منطق وإيقاع خاص به ، وأفكار وتراكيب خاصة به أيضاً . ويتضح من هذا المنظور أن الجملة ليست سوى نغمة واحدة في مقطوعة موسيقية متكاملة . ولندرك بأن للنص المسرحي ، شأنه في ذلك شأن أي نص أدبي ، موسيقى خاصة يجب أن يتنبه لها المترجم . ذات يوم سئل المخرج الفرنسي الشهير عن السبب الذي جعله يتوقف عن تمثيل المسرحيات الأجنبية ، فقال : « تتسم النصوص المسرحية الجيدة بإيقاع خاص ، عادة يعجز المترجمون عن نقله وجعله محسوساً . وأنا أحب أن أعملني أنفاس النص . ونصوص المترجمين تفتقر إليها . لذلك ، أفضل الآن تمثيل النصوص الأصلية أي النصوص المكتوبة أصلاً باللغة الفرنسية . » ولكي يتوصل المترجم إلى صياغة نص ممتاز ، يتحتم عليه الدخول في عالم المؤلف المقيم ، وامتلاكه حساً مسرحياً . ومترجم النص المسرحي يشعر أكثر من غيره من المترجمين بالقلق ، وعدم الأمان عندما ينتقل من كاتب إلى آخر . فالترجمة المسرحية تتحول ، في نهاية المطاف ، إلى محاكاة حقيقية ، بالمعنى الأسطوي لهذه الكلمة ويعني هذا أن على المترجم الاقتراب ما أمكن من الكاتب الجديد الذي يترجم له ، والاستسلام له ، بطريقة ما ومعانيه ، والتحدث معه ، والتنافس معه أيضاً .

واخذت ترجمة النصوص المسرحية ، وما زالت تتخذ الاقتباس في كثير من الأحيان مما يطرح للبحث موضوع العلاقة والحدود القائمة بينهما . ويرى م جرافيه في هذا الشأن أن الحدود التي تفصل بين الترجمة والاقتباس من ناحية ، وصياغة نص مسرحي جديد من ناحية أخرى ، حدود غير واضحة المعالم . كما يرفض وصف النصوص التي لا تبقى

عل شيء من أبنية المسرحية أو مادتها الأصلية بأنها نصوص مترجمة أو مقتبسة^(٢١). ونشير في هذا الصدد إلى ارتباط النصوص المترجمة والمقتبسة عامة بجبل معين من المترجمين، وبيئة اجتماعية محددة، مما يجعلها تلبى أكثر من النصوص الأصلية. فلقد ترجمت مسرحيات شكسبير - نذكر ما صدر منها مؤخرًا - ترجمة د. محمد عناني للمسرحية «تاجر البندقية» - إلى العربية مرات ومرات - وما زالت تترجم - كذلك مسرحيات موليير... لكن تخفي الترجمة... ويبقى نص شكسبير وموليير.

وتطرح ترجمة النص المسرحي إلى العربية سؤالاً هاماً على المترجم: إلى أية لغة عربية يترجم النص؟ فنحن نعرف جميعاً موضوع ازدواجية اللغة العربية، ووجود العامية جنباً إلى جنب مع الفصحى. ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر عن كيفية ترجمة المأساة والمهابة، مثلاً، والمسرحية الشعرية والمسرحية المكتوبة نثراً. كما نعرف أن الفصحى، لغة القرآن الكريم، عنصر توحيد بين كافة الشعوب العربية، في حين تساعد العامية على انقسامها. وما زال الجدل حول العامية والفصحى قائماً في الأدب عامة، ولم ولن يجد حلاً في القريب العاجل. وغني عن البيان أنه يتجاوز إطار الأدب والمسرح، ويخضع لاعتبارات سياسية واجتماعية محددة.

ولقد سبق أن جعل أرسطو لكل من المأساة والمهابة لغة خاصة بها. وكان الشعر من نص المأساة، أما النثر، فكان من نصيب المهابة. وعلى نفس الدرب، سار المترجمون العرب فترجموا المسرحيات التاريخية والشعرية إلى الفصحى، لغة الصفوة، واختاروا العامية في ترجمتهم للمسرحيات الكوميديّة والمسرحية الخفيفة. ولا يزال هذا الوضع قائماً حتى اليوم. ونذكر، من بين المسرحيات التي ترجمت إلى الفصحى، في المسرح المصري، «البخيل» (تأليف موليير، ترجمة مارون النقاش)، و«هوراس» (تأليف كورني، ترجمة سليم النقاش)، و«اندرموك» (تأليف راسين وترجمة أديب اسحق)، و«عطيل» (تأليف شكسبير وترجمة محمد عثمان جلال). ولم يكن المترجمون في تلك الفترة على وعي بأن اللغة التي تتكلمها الشخصيات في المسرحية سمة من السمات المميزة لها والبيئة التي تنتمي إليها. فضلاً عن أن اختيارهم للفصحى كان وسيلة غير مباشرة لإبراز الوعي الوطني.

وسرعان ما أحس المترجمون بالرغبة في الاقتراب أكثر وأكثر من جمهور المترجمين وإرضائهم. فاعتمدوا لغة متزج الفصحى بقليل من العامية، على نحو ما فعل أبو خليل القباني في سوريا عندما نقل بعض المسرحيات الغريبة إلى العربية. وكان المزج بين اللغتين - إذا جاز القول - ضرورة الرغبة في الاحتفاظ «باللون المحلي» للمسرحية وأسف الكيرون لتسليط العامية إلى المأساة، لأنها تقلل من شأن شخصياتها التاريخية، أو النبيلة. أسفوا، مثلاً، عندما ترجم محمد عثمان جلال مسرحية «استير» إلى العامية، وسمعوا استير والاسكندر الأكبر يتكلمان لغة الحياة اليومية. سمعوا استير تقول «يا أخي ويا ستي»، وكليمترا تقول: «أبوس رجلك وحل المترجمون آنذاك ازدواجية اللغة العربية باختيارهم لغة عامية قريبة من الجمهور، واتبعوا في سبيل ذلك طريقة ترجمة النص ترجمة «حرة»، أو بناء مسرحية

M.. Gravier, "La traduction des textes dramatiques," in "Études de linguistique appliquée," octobre- decembre (٢١)

1973, p. 44.

جديدة ، انطلاقتا من المخطوط الرئيسية للنص الأصلي . وهذا حدث عندما نقلت مسرحتي مولير « طيب رغم أنه »
« والشيخ متلوف » إلى العربية .

واليوم ، يرتبط السؤال عن اللغة العربية التي يترجم إليها النص بموضوع الواقع فالبعض يرى أن على الشخصيات أن تتكلم لغة تتناسب مع وضعها الاجتماعي ، وانتمائها الطبقي ، واليومية التي تعيشها لكي تكون مقنعة . بينما يرى البعض الآخر ، مثل جبرا إبراهيم جبرا ، أن اللغة العربية الفصحى أكثر ملاءمة للمسرحية التي تتناول موضوعاً تاريخياً أو أسطورياً ، لأنها تبعد عن الواقعية . وهذا ما حدث بالفعل عندما نقل جورج أبيض بعض المسرحيات المساوية الفرنسية إلى العربية كما رأى محمد مندور وغنيمة هلال أن العربية تلائم المسرحيات العالمية التي تتجنب الواقع في حين يرى سامي عبد الحميد أن الفصحى وحدها تناسب ترجمة المسرح الذهني ، لأنها تتضمن مفردات تعجز العامية عن نقلها نقلاً سليماً . ونضيف إلى هذه الآراء عاملاً يدفع المترجمين إلى اختيار آخر ويقصد به الطباعة . فهم يلجأون إلى الفصحى ، حتى لو كانت لا تناسب النص المترجم . لذلك ، ترجمت المسرحيات مرتين أحياناً . مرة بالعربية الفصحى لكي تقرأ ، ومرة أخرى بالعامية لكي تعرض على المسرح . مثال ذلك مسرحية بيتر فايس التي ترجمت إلى العربية في نص عنوانه « الغول » ، فلقد ترجمها د . يسري خميس إلى الفصحى ، ثم ترجمها الراحل فؤاد حداد إلى العامية . أما توفيق الحكيم فرأى أن استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة عند القراءة . لكن العرض يتطلب الترجمة إلى لغة يستطيع المثلون أن ينطقوا بها . ومن ثم اقترح تلك اللغة الوسيطة التي تكتب بالفصحى وتقرأ بالعامية ، على نحو ما فعل في « الصفقة » ، ونرى ، من ناحيتنا ، أن اللغة التي يترجم إليها النص لا ينبغي أن ترتبط بالواقعية ، لأن الواقعية لا تكمن في طريقة التعبير ، وإنما تكمن بالأحرى في طريقة رسم الشخصية ، والمجتمع والحياة عامة . والمهم هو أن تتكلم الشخصية اللغة التي تناسبها ، وتكون بمثابة علامة تدل عليها فلغة الفلاح تختلف عن لغة الباشا ، ولغة السادة تختلف عن لغة الخدم . وفي كثير من الأحيان يلعب اختلاف مستويات اللغة دوراً درامياً في المسرحية . على سبيل المثال ، يتكلم دون جوان وخادمه سجانا ريل بلسانين مختلفين في مسرحية مولير « دون جوان » . والفلاحون في هذه المسرحية أيضاً يتكلمون بلهجة ريفية تختلف عن لهجة أهل المدينة . وفي مسرحية ماريفو Marivaux « لعبة الحب والمصادقة » ، يتبادل السادة والخدم أزياءهم . لكن ، يحدث أن تشك سيلفيا المتكررة في زي خادماتها في شخصية دوروند الذي تنكر أيضاً في زي خادمه . ولغته هي التي تفضحه . فهي ليست اللغة التي يتكلمها أبناء ، طبقتها ، أي الخدم . وتشك سيلفيا أيضاً في اريكسان المتكر في زي سيده لأن لغته سوقية مبتذلة ولا تتناسب مع زي السادة الذي يرتديه . وكل هذا يضع المترجم أمام امرين : إما أن يترجم المسرحية كلها بلغة واحدة ، أي بمستوى واحد من اللغة ، وإما أن يفهم النص جيداً ، ويحاول ترجمته بمستويات لغوية مختلفة ، يلائم كل منها الشخصية أو الشخصيات المذكورة في المسرحية . ولا شك أن الحل الأول هو الأسهل ، وأن الحل الثاني يتطلب جهداً ، وإبداعاً حقاً ، ينشأ عنه الانسجام بين شكل المسرحية ومضمونها . وفي مجال الكوميديا تلعب هذه المستويات دوراً هاماً فطن إليه الكتاب منذ البداية . فالشخصية التي تتكلم لغة غير لغتها الأصلية - الخواجة أو التركي أو الصيغدي - تخلف أثراً كوميدياً أكيداً . ونبتق مع محمد مندور عندما قال إن الفصحى تهدم الكوميديا هداماً . فنحن لا نرى ، مثلاً ، كيف يمكن أن يترجم مسرحيات ج . فيدو G.Feydeau إلى العربية الفصحى . ويمكن أن نترجم اللهجة التي يتكلم بها أبطال

م . باينول M. Pagnol - وهي لهجة أهالي مارسيليا - إلى العامية كما يتكلمها أهالي بورسعيد أو الاسكندرية . ورغم أنني قمت بمراجعة الترجمة العربية لمسرحية الفريد جاري Jarry أ.ويو- ملكا^(٢٢) ، فأنأ أرى أن ترجمتها إلى الفصحى خيانة لنقل بالمعنى ، وأن الأفضل هو أن تترجم إلى العامية ، عامة يلعب بها المترجم ويتلاعب ، على نحو ما فعل جاري في مسرحيته . وقد يسأل سائل : كيف يمكن أن تتعايش كل هذه المستويات اللغوية في النص الواحد ؟ وزد بقولنا إن هذا ممكن ، لأن المهم هو المواءمة بين المستوى اللغوي ، والشخصية ، والموقف الذي توجد فيه ، بعيداً عن أية محاولة لنقل الواقع كما هو .



وتحتل ترجمة الشعر مكاناً خاصاً في مجال الترجمة الأدبية . فرغم أن النصوص الشعرية قد ترجمت من آلاف السنين - مثلاً ، « الألياذة » ، و « الأوديسة » ومسرحيات سوفوكليس ، الخ ... - ظل التساؤل حول إمكانية ترجمة النص الشعري قائمة ، ولا سيما أن الشعر كان خاضعاً ، فيما مضى ، لأشكال ثابتة ومربطة بعناصر ثابتة أيضاً لعل أهمها الوزن والقافية . لذلك ، كان من يقدم على ترجمة الشعر ، في أغلب الأحيان ، شاعراً ، أي فناناً مبدعاً ، يستطيع أن ينقل النص الشعري « بأمانة » مع الاحتفاظ بطابعه الخاص ، والقافية على الأقل . وتغيرت الأمور عندما تحرر الشعر ذاته من أشكاله التقليدية ، وأصبح شعراً نثرياً ، كذلك الذي قدمه الشاعر الفرنسي بولدير في ديوانه « Poemes en prose » أو شعراً حراً ، بلا قافية . وجدير بالذكر أن ذلك التغير الذي طرأ على الشعر ، في بلاد الغرب ، قد ساعد على تعرية الخلط بين الشعر والنثر الذي كان سائداً في الماضي فأصبح من غير الممكن أن نتساءل عما إذا كان يمكن ترجمة القافية ببقايتها ولنلاحظ هنا أن لكل مجال ثقافي تاريخاً خاصاً به . على سبيل المثال يقول ميشونيك إن الروس لا يفرقون حتى الآن بين ترجمة العروض وترجمة « الشعر » وعندما يترجمون الشعر الحر ، يعملون له قافية لكي يكون شعراً . وقد يقال ، إزاء هذا التغير ، إن ترجمة الشعر أصبحت ميسورة كترجمة النثر ، ما دام شكله قد تغير ، وكذلك مفهومه . والواقع هو أن ما تطور هو شكل الشعر فقط ، أما مفهومه ، فلم يتغير ، فيما نرى . ويقول ميشون في هذا الصدد إن ترجمة الشعر ليست أصعب من ترجمة النثر ، وإن الاعتقاد السائد بأن ترجمة الشعر شيء صعب ، بل ومستحيل ، لم يعد ذا قيمة ، حيث إنه يتضمن خلطاً بين الشعر والنثر ، ويرتبط بمفهوم يقول إن الشعر انتهاك لقواعد اللغة . ويبدو أن جاكبسون ، بتحليله للشكل الشعري ، قد أكد الفكرة القائلة بأن الشعر لا يترجم ، من حيث المبدأ ، وبأن النقل الإبداعي الخلاق ، أي إعادة كتابة القصيدة هو الشيء الوحيد الممكن . ويجعلنا هذا نفهم لماذا لم تدخل اللسانيات الشعر في مجالها . فهو يتجاوز حدود ذلك المجال ، شأنه في ذلك شأن الإبداع الشعري تماماً . لكن ، تدخل ترجمة الشعر في إطار نظرية الكتابة وعماستها ، لأنها ليست مجرد نقل ، بل إنتاجاً حقيقياً . يقول ف . لاروي V. Larbaud في هذا الشأن : « لكل نص صوت ، وحركة ، ولون ، وجو خاص به . وإذا أضفنا المعنى المادي والحرفي لأية مقطوعة أدبية ، وجدنا فيها معنى خافياً إلى حد ما ، شائها في ذلك شأن أية مقطوعة موسيقية . وهذا المعنى وحده هو الذي يولد فينا الاحساس الجمالي الذي سعي إليه الشاعر . وتتمثل مهمة المترجم في نقل هذا المعنى بالذات وإذا عجز عن القيام بها ، فليكتفِ بأن يكون قارئاً . وإذا أصر على أن يكون مترجماً ، فليجته إلى مادة مخطوطة أو مطبوعة ، ككتب الفلسفة

(٢٢) أ.ويو- ملكا ، تاليف جاري ، ترجمة د . هاندة إبراهيم ، مراجعة د . سامية اسعد ، المسرح العالمي ، وزارة الإعلام ، الكويت .

والتاريخ، والأبحاث العلمية، والوثائق القانونية والتجارية، إذا اقتضى الأمر... لكن ليدع فيرجيل Virgile، وكل ما هو أدب، في حاله. ولكي ينقل المترجم هذا المعنى الكامن في الأعمال الأدبية عامة، والشعر خاصة، يجب أن يفهمه أولاً، لكن فهمه لا يكفي إذ لا بد من إعادة خلقه أو إبداعه. (٢٣) وما إعادة الخلق هذه إلا إسهام المترجم الخاص.

هكذا نرى أنه يمكن الإجابة عن السؤال الخاص بإمكانية ترجمة الشعر من عدمها بقولنا إن ترجمة الشعر ممكنة. ولولا التجربة التي خاضها المترجمون على مر السنين، من الناحية العلمية، عندما نقلوا النصوص الشعرية إلى لغات أخرى، لما وصلت إلينا وإلى غيرنا أسماء الشعراء وأعمالهم. لذلك، نقصر بحثنا في ترجمة الشعر على هذا السؤال: كيف يترجم النص الشعري؟ نلاحظ، في البداية، أن آراء المنظرين اختلفت، بل تعارضت أحياناً، حول هذه النقطة، وأنهم لم يتوصلوا إلى استخلاص أية قواعد خاصة بها - وأغلب الظن أنهم لن يتوصلوا إلى ذلك أبداً -، وأنه اتضح لهم أن ترجمة الشعر تخضع لقواعد وقوانين خاصة مستمدة من الشعر ذاته. ولا نبالغ إذا قلنا إن لكل نص شعري قانوناً خاصاً وطريقة خاصة لترجمته، وإن لكل نص أو كل (قصيدة) (جوهر) يختلف باختلاف الشاعر. ويتحتم على المترجم أن ينقله. ونشير، في هذا الصدد، إلى قول جاكسون ماتيو J. Matthews: (لكل لغة أشكالها الخاصة، أشكالها الحالية الممكنة التي سبق أن اهتمت إليها الشعراء واستخدموها، وأشكالها التي لم يهتموا إليها بعد). (٢٤)

ويرى ج. موان أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها الترجمة الأدبية هي مشكلة ترجمة «الرسائل» الخاصة، أو بعبارة أخرى الأدب والشعر، وأن بنية النص لا تبين عامة إلا بالقدر الذي تؤدي به وظيفة ما وبالتالي، لا تتمثل المشكلة التي يقابلها المترجم، عند نقل القصيدة من لغة إلى أخرى، في ترجمة الشكل إلى شكل آخر أو ترجمة البنية ببنية أخرى بل تتمثل بالأحرى في ترجمة وظيفة النص الشعرية أو وظائفه، أي الأثر أو الآثار التي يخلقها في المتلقي. بعبارة أخرى، على المترجم أن ينقل شاعرية النص، لا شكله، أو شكله إذا استطاع أن يثبت أنه مرتبط بآثر ما. ويبدو إي كاري E. Cary، في هذا الموضوع، رأياً قريباً من رأي موان. فهو يرى أنه من الأفضل، عند ترجمة القصيدة، أن يحاول المترجم الوقوف على نفس الأرض التي يقف عليها المؤلف، أي الشاعر، وأن ينظر إلى القصيدة على أنها «شعر». فتحديد ماهية الشعر هي بيت القصيد في هذا المجال وهي تمثل بالفعل العبقة الأساسية التي تغف في سبيل ترجمة النص الشعري أو القصيدة. وإذا توصل المترجم إلى «جوهر» النص فنقول إنه يكون قد نجح في مهمته: «ويكون المترجم قد قدم ترجمةً رديئة للقصيدة إذا نقل معناها الحرفي أو شكلها، وكانت قيمتها الشعرية تكمن في شيء آخر غيرهما». (٢٥) ومن ثم، يجب أن يكون مترجم النصوص الشعرية كاتباً أو شاعراً إلى حد ما، أي شخصاً يفضل على الإخلاص الأعمى للنص الأصلي الإخلاص العميق له؛ بعبارة أخرى، على هذا المترجم - الشاعر - أن ينقل روح النص، لا كلماته، عليه أن يحون النص بدلاً من أن يترجمه حرفياً، وأن يلجأ إلى «المعادلة الديناميكية»، لا «المعادلة الشكلية»، كما يقول أ. نيدا. باختصار، لا ينبغي أن يستسلم المترجم لطغيان الشكل، لأنه قد يحجب عنه المعنى.

"Sous l'invocation de Saint-Jerome," Paris, Gallimard, 1946, p. 69-70 (٢٣)

"Pour la poétique II," Gallimard, 1973, p. 355 (٢٤) انظر

E. Cary, "Comment faut-il traduire?" Presses universitaires de Lille, 1985, p. 48 (٢٥)

وجدير بالذكر أن مترجم النص الشعري يعتمد على أدوات معترف بها ، ولغة شاعرية يتقبلها المتلقي وأن مهمته تتمثل أساسا في نقل النص « الشعري » إلى بلاده وعصره . ويتضح من كل هذا أن المقارنة بين الشاعر ومن يترجم له مقارنة لا معنى لها ، وأن عبارات مثل « المترجم الجيد كاتب فاشل » ، و « الكاتب الجيد مترجم فاشل » تفقد معناها بالتالي . فمثل هذا الترتيب القائم على بعض المعايير المثالية لا يأخذ بعين الاعتبار تفاعل الأبنية اللغوية والأشكال الأدبية عامة ، والشعر خاصة ، في حين ينطبق تماما على كل ما ينتمي إلى مجال الترجمة البرجماتية .

ولا شك أن شهادة الشاعر - المترجم تعتبر أفضل ما يمكن أن نعتمد عليه لايضاح المشاكل الخاصة بترجمة الشعر . ونختار هنا رأيا قويا أبداه الشاعر العربي أدونيس في ندوة عن الترجمة الأدبية عقدت في فرنسا عام ١٩٨٦ . يقول أدونيس ، الذي نقل إلى العربية نصوصا لسان جون بيرس Saint John Perse ، و ا . يونفواه Y. Bonnefoy ، وجورج شحادة :

أنا لا أحترف الترجمة ، ولست عالم لسانيات . لذلك ، أستند فيها سأقوله إلى تجربة عديدة ، تجرئني في ترجمة الشعر ، وإلى مفهومي الشخصي للغة الشعر . ولا أسأل : هل يمكن أن تترجم الشعر ، بل أسأل بالآخرى : ما هو المقصود بترجمة الشعر ؟

وإذا قبلنا الفكرة القائلة بأن لغة القصيدة ليست مجرد وسيلة ، وجدنا أن معنى الكلمة في القصيدة يكمن في « سياقها » ، وأن معنى الجملة يور بالقصيدة كلها ، وبنتها كاملة . لذلك ، يتجاوز معنى القصيدة الكلمات والجمل . ويرتب على ذلك افتقارها إلى مرجع يمكن تحديده في الواقع وافتقار معناها إلى وضوح معنى النثر .

بالإضافة إلى ذلك ، نقول إن كل لغة تفتح مجالا مختلفا أمام الحقيقة ، وإن الحقيقة التي تكشف عنها لغة الشعر في نطاق اللغة التي كتب بها ، تختلف عن الحقيقة التي تكشف عنها لغة أخرى . وبالتالي توجد طريقتان لتناول الشيء الواحد والتعبير عنه .

وإذا انطبق هذا على لغتين تنتميان إلى أسرة واحدة ، كالفرنسية والإسبانية ، فهو ينطبق بالآخرى على لغتين تنتميان إلى أسرتين مختلفتين كالعربية والفرنسية . فنحن لا نجد شيئا مشتركا بين هاتين اللغتين لكل منهما نظام لغوي وجمالي خاص بها . ولكل منهما طريقة خاصة للربط بين الكلمة والشيء ، والدال والمدلول . ولكل منهما بانها الصوتية والإيقاعية والموسيقية . ومن ثم ، ننظر كل منهما إلى « الجمال » بعين مختلفة .

كيف يمكن إذن الترجمة من إحداها إلى الأخرى ؟ هل يمكن نقل جاليات القصيدة الفرنسية إلى القصيدة العربية ، أو العكس ؟ وهل نقل خواص الشعر العربي ونسيجه الصوتي وإيقاعه إلى اللغة الفرنسية أو العكس ؟ أجيب على هذه الأسئلة بالنفي . فكل نص شعري وحدة شكل وصوت ومعنى . وعندما أنقل أي نص شعري إلى لغتي العربية ، أي إلى وحدة شكلية وصوتية مختلفة ، أنساءل : هل تظل وحدة معناها كما هي ؟ وإذا مزقت الجسد ، فأين تذهب الروح ؟ وما الذي يبقى منها ؟

لنقل إذن إن ترجمة الشعر لا يمكن أن تكون تطابقا أبدا . والذين يصرون على إيجاد هذا التطابق لا يهتمون إلا إلى عملية تشويه ، في رأيي . ولنقل أيضا إن ترجمة الشعر قضية تخص الشعر قبل أن تخص اللغات .

وأعود لسؤالي : ما هو المقصود بترجمة الشعر ؟ يتمثل رأيي الخاص في الآتي : عندما أترجم ، بوصفي شاعرا عربيا ، قصيدة لشاعر آخر مكتوبة بالفرنسية ، أجعل من هذه القصيدة قصيدة ، صورة ، في لغتي أنا وذلك عندما أحاول أن أقيم حوارا بين لغتينا ، من خلال هذه الصورة .

هذا وتعتبر أية قصيدة ترجمة لشيء ما ، ومحاولة لإيضاح الغموض ، وترجمتي لأية قصيدة تعتبر كتابة أخرى لها ، بلغة مختلفة ، وتتمثل ترجمتي لها في ترجمة طريقتها في إيضاح الغموض . وهكذا تصبح ترجمتي للطريقة التي يتحاور بها مؤلف هذه القصيدة مع العالم ، وتصيح ، في الوقت نفسه ، بداية حوار بيني وبينه ، ومرة أصنعها بلغتي أنا لأرى فيها وجهه هو ... هكذا يتضح أن الترجمة وسيلة للكشف والمعرفة ، وبمجال لإجراء حوار يكشف عن اختلاف ويقضي إلى التقاء في نص يشهد على الحوار الذي جرى بيني وبينه ، وعلى مسيرتنا المشتركة في ليل الحواس والمعنى .^(٢٦)

وليسمح لنا الغاريه بالحديث عن تجربة شخصية في ترجمة الشعر من الفرنسية إلى العربية^(٢٧) فلقد وضعنا هذه التجربة أمام عدد من القضايا الهامة ، التي نكتفي بذكر بعضها هنا :

- هل نترجم النص ترجمة حرفية ، أي نقل كلماته وجمله أم لا ؟ وهل نقلها بنفس الترتيب الذي وردت به في النص الأصلي أم لا ؟

- هل نترجم الشعر الموزون المقفى إلى شعر موزون مقفى ؟ .

- ما الذي يمكن أن نترجمه : المعنى ، أم الصور ، والإيقاع ، والموسيقى ؟

- هل ننقل النص نقلا أميناً أم نخونه بطريقة ما ؟ الخ ...

واتضح لنا أن الشعر بالذات يقبل الترجمة الحرفية ، لأن جوهره لا يتمثل في المعنى ، بل في وضع الكلمات والجمل بحيث ينتج عن انتظامها أثر وإيقاع معين . وعلى المترجم مراعاة هذا الانتظام وإيجاد مقام للصور ، والإيقاع والأصوات التي يتضمنها النص الأصلي ، مع مراعاة السياق العام للغة التي يترجم إليها النص . على سبيل المثال ، يعبر الشاعر الفرنسي عن جمال المرأة بقوله إنها « جميلة كالوردة » ، في حين يعبر عنه الشاعر العربي بقوله إنها « جميلة كالقمر » . وفي تنظيمه للنص ، يستخدم الشاعر وسائل محددة كالقديم والتأخير ، والإيقاع السريع أو البطيء ، وتوزيع عناصر القصيدة على الصفحة البيضاء . وهذا نموذج من ترجمتنا لشعر بول إيلوار :

La victoire de Guernica

(١)

Beau monde des mesures

De la mine et des champs

انتصار جرنينكا

(١)

عالم الأكواخ الجميل

عالم المنجم والحقول

"Actes des troisiemes assises de la traduction litteraire," Arles, 1986, p. 59- 60- 61

(٢٦)

(٢٧) النظر : بول إيلوار ، غنارات شعرية ، ترجمة د . سامية أحمد أسعد ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .

و الزا ، و هبون الزا ، تأليف أراجوان ، ترجمة د . سامية أحمد وفؤاد حنادة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ م .

(٢)

Visages bons au feu visages bons au froid
Aux refus a la nuit aux injures aux coups

(٣)

Visages bons a tout
Voici le vide qui vous fixe
Votre mort va servir d'exemple

(٢)

وجوه تصلح للنار وجوه تصلح للبرد
للرفض لليل للسبب للضربات

(٣)

أينها الوجوه الصالحة لكل شيء
ها هو ذا الفراغ يثبت نظرتك عليك
سيكون موتك مثالا يحتذى

وجدير بالذكر أن ترجمة الشعر تتم دائما بقدر من (الفاقد) ، قد يكثر أو يقل . ومنها كان المترجم حريصا على أن يكون أميناً في ترجمته ، (يخن) النص بطريقة أو بأخرى .

ولا يفوتنا ، في ختام هذه الدراسة ، ذكر الطريقة التي نقلت بها الأبيات الشعرية في (ألف ليلة وليلة) إلى اللغات الأجنبية . وكان ا . كاري قد أكد عليها في كتابه عن كيفية الترجمة . عرف الغرب كتاب (ألف ليلة وليلة) عندما نقله ا . جالان A.Golland إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وقدمه في إطار سحر الجمهور آنذاك ، لأنه أدخل على النص المترجم بعض المحسنات البيعية ، وحذف منه كل ما يمكن أن يكون فاضحا . وعندما أعاد ماردروس Mardrus ترجمته عام ١٩٠٠ ، أعاد إليه الأجزاء التي كان جالان قد حذفها منه . وفي عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ، قدم ريتشارد بورتون ترجمة تشيع فيها روح القصص الشرقية وكان قد عاش في الشرق وعرف البلاد العربية معرفة جيدة . لذلك ، رسم الأحداث التي تعيشها الشخصيات ، ولم يحذف منها شيئا ، وأكد على الأجزاء الشائكة في النص الأصلي وقدم للقارئ هوامش وثائقية تعينه على القراءة . وتوجد كذلك ترجمة روسية قدمها سالييه Salie ، في أكثر النصوص إخلاصا للنص الأصلي ، وإن افتقرت إلى الحيوية والمرح اللذين يشيعان في النص الأصلي . وتجدر الإشارة إلى إن المترجم الروسي نجح فيما لم ينجح فيه أحد من المترجمين من قبل ، ألا وهو نقل أبيات الشعر إلى النص المترجم بنفس البحر الذي كتبت به في النص العربي . وهكذا ، قدمت كل ترجمة لكتاب « ألف ليلة وليلة » صورة تتفق مع ذوق عصرها وإمكاناته . فلقد ترجم ماردروس أبيات الشعر الواردة في النص الأصلي لأنه أدرك أن وجودها بين مختلف أجزاء النص يعطيها مذاقا خاصا ، في حين حذفها جالان بكل بساطة . وعندما كان هذا الأخير يدرك أنها لازمة لفهم النص ، كان يلخصها بقدر الامكان ، ويدخلها في النص في شكل نثر عادي .

ومترجم القصيدة يمكن أن يترجمها نثرا أو شعرا . . . بشرط أن يحتفظ بجوهرها أي بالعناصر المكونة لشاعريتها ، وألا يترجمها كما لو كانت نثرا ، على حد قول نيدا .



والحديث عن الترجمة الأدبية قد يطول . . . لكن ، تأتي لحظة تضطر فيها إلى التوقف مؤقتا عن الحديث . وقبل أن نفعل ، نعرب عن أملنا في أن تحتل الترجمة الأدبية ومحتل نقل النصوص الأدبية من العربية واليهيها مكان الصدارة في الاهتمامات الثقافية للبلدان العربية ، بحيث يتصل الحوار بين الآداب المختلفة ، وتضيق الفجوة التي تفصل بينها ، ونهيء الظروف لوجود أدب عالمي حقا ، بفضل فن الترجمة .

المراجع

- J.R. Ladmiral : "Traduire : theoremes de la traduction," Paris, Payot, 1979 (١)
- Meta, "Prisme de traductions litteraires," Presses de l'Universite de Montreal, vol. 31, no 3, september 1986 (٢)
- (٣) ابراهيم زكي غوريشيد : الترجمة ومشكلاتها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥
- G. Mounin : "Les belles infideles", Paris, Editions des Cahiers du Sud, 1955 (٤)
- "Les Problemes theoriques de la traduction," Paris, Gallimard, 1963.
- G. Steiner : "Apres Babel," Paris, A. Michel, 1978 (٥)
- "Revue d' Aesthetique," "la Traduction," no12, 1986 (٦)
- H. Meschonnic : "Traduction et litterature" dans "Dictionnaire des litteratures de langue francaise," Paris, Bordas, (٧)
1984.



أن اللغة نحيا بأهلها قبل أن نحيا بتركيبها، وتحظى بالصدارة عندما يكون أهلها قد سبقوا العالم في التطور الحضاري. ولعل مؤلفات ابن سينا والفارابي وابن يونس وابن الهيثم وجابر والخوارزمي وابن النفيس والزهراوي وغيرهم من أعلام الحضارة الإسلامية العظيمة، لندل أعظم دلالة على صدق ما نقوله، فالمطلع على هذا الإرث الحضاري الرائع يدهش لاسلوبهم العلمي الأخاذ ولغتهم العربية الرصينة التي كتبوا بها الرسائل والموسوعات وسطروا بها التجارب والبحوث في الفلك والجبر والهندسة والطب والجغولوجيا والجغرافيا وعلوم الحياة والكيمياء... وغير ذلك من مجالات العلوم المختلفة... لقد طوع هؤلاء العباقرة لغتهم العربية لمصطلحات العلوم الكونية والطبيعية والأحيائية، فأنشجوا حضارة عالمية هي بحق «حضارة القمة».

كذلك فمما لاشك فيه أيضاً أن استعمال اللغة العربية يتيح فرصاً أفضل للإبداع في المجالات العلمية مثلما يحدث ذلك في مجالات الآداب والفنون. وضع هذا بتجارب الزمان المتوالية التي مرت بها الأمة العربية الإسلامية العريقة. لكننا نرى قريباً من خطفت أبصارهم مظاهر اللذنية العُربية دون لبائها، ركزوا لمقولة مكلوبة اخترعها الأعداء وروجوها في البلدان العربية والإسلامية التي احتلوا ردهاً من الزمان، ثم اصطنعوا لهم أثناباً من أهلها يشيعون هذه المقولة ويغرسونها في عقول الأجيال المتلاحقة من شباب الأمة، تلك المقولة المكنوية هي أن العربية إن صلحت أن تكون لغة فقه وأدب وشعر، فانها لا تصلح أن تكون لغة علم أو لغة طب أو لغة صناعة أو تجارة، وذلك لافتقارها الى الألفاظ العلمية والتعابير الدقيقة التي تتطلبها العلوم الحديثة وتستلزمها التكنولوجيا المعاصرة.

اللغة العربية ولهجة علمية لمنشودة في عالمنا الإسلامي

سكريم السيد غنيم

عضو هيئة التدريس بكلية العلوم جامعة الأزهر
عضو اتحاد الكتاب - جمهورية مصر العربية

إن بحثنا الحالي ينتهي بنتائج أهمها أن هذه الثمرة التي قُذِّت بها لغة الضاد العظيمة مصدرها عجز ذلك الفريق من المدعين عن إثراء لغة أمهم ، بل ضعفهم عن دراستها ومعرفتها، بيد أنهم يسقطون هذا العجز على اللغة العربية تبريراً لتقصيرهم لإزاءها ونكوصهم عن النبوض بها في عصرنا الحالي.

إننا إذا أخذنا النوايا وشحذنا الحمم وأمضينا العزائم على النبوض بالأمة العربية الإسلامية في عصرنا الحاضر كي تصعد لتستلسم قمة الحضارة كسالف عهدها، فلا بد أن نتخذ من لغتنا العربية مقوماً أساسياً، ولعل هذا سيتأكد وضوحه في بحثنا هذا الذي نوجهه إلى أهل الحل والعقد، إلى أولى الأمر، إلى من بأيديهم الإعداد لنهضة علمية حضارية قادمة إن شاء الله في عالمنا الإسلامي.

الفصل الأول

تأثير اللغة العربية في اللغات الحية الأخرى

لقد غزت اللغة العربية أصقاعاً شتى من العالم، ودخلت إما مختلفة، وأثرت في لغاتها، وقد استقبلت اللغات التركية والأيرانية والانجليزية والإيطالية والأسبانية وغيرها من اللغات مفردات كثيرة من اللغة العربية، مما يدل على أن العربية كانت ولا تزال لغة حية قادرة على استيعاب مصطلحات التقدم وألفاظ التكنولوجيا المعاصرة بكافة جوانبها.

يأخذنا د/ قاسم السارة إلى عصور النهضة العربية الإسلامية فيوضح أن اللغة العربية عرفت بسمتها وثرائها، وبما تملك من وسائل النمو والتطور من اشتقاق وبجاز ونحت وتعريب . . . وقد استطاعت بفضل ذلك أن تستوعب الثقافات والعلوم حين قام النقلة والمترجمون في عصور الإسلام الأولى بترجمة كتب اليونان والفرس والمهند والاعريق إلى العربية ، حتى أصبحت اللغة العربية حينذاك، ولمدة عدة قرون، لغة العلم والمعرفة التي يستعملها العلماء والمؤلفون في جميع أقطار المعمورة، من الأندلس غرباً حتى أقصى بلاد ما وراء النهر شرقاً، وصح وصفها بأنها لغة العالم المتحضر. هذا يوم أن كان العرب سادة العالم ولهم زمام المبادرة في السياسة والفكر والعلم والاقتصاد والأخلاق والفن، كانت لغتهم سيدة الموقف بلا منازع، وقد استطاعت أن تدفن الهيروغليفية والفارسية القديمة واللغات الأخرى التي طال بها الزمن لأكثر من ثلاثة آلاف سنة.

يقول د/ علي مظهر أن من يتتبع الألفاظ العربية التي دخلت غيرها من اللغات، يرى أنها لم تترك لغةً من لغات أوروبا إلا ولها فيها أثر، في الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والانجليزية والغالية القديمة وفي الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوروبا، وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية، وفي الإيطالية وبعض لهجات فرنسا وإيطاليا. كما أن عثر الباحثين في جهات البلطيق في شمال أوروبا على سكة إسلامية عربية هي من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوماً من الأيام . وفيما يلي نعرض لبعض الآثار العربية في بعض اللغات العالمية الحالية.

تأثير العربية في الانجليزية: صدر معجم ويسترن الانجليزي سنة ١٩٣٥ بمراجعة د/ فيليب حتى، وقد ضم (٦٠٠) ألف كلمة مأخوذة من اللغة العربية، منها ٥٠٠ كلمة من اللفاظ المستعملة في الكتابة والاخبار العاديه، والباقي في الشؤون الفنية. ولعل من يطلع على المعاجم الانجليزية الشهيرة ومنها معجم ويسترن الدولي الثالث الجديد "Webster's Third New International Dictionary" يلاحظ الآتي: فمن الناحية الدينية نجد كلمة «الله» Allah ماثية في المعاجم، وهي تختلف أئما اختلاف عن كلمة إله God ، وكلمة «قاضي» Cadi على الرغم من وجود كلمة Judge وكذلك لفظة «الهجرة» Hejra ، وهي في الانجليزية Migration، وأخيرا «الشيطان» في العربية والتي نُقلت الى الانجليزية Satan . وقد تنوع هذا في مجالات أخرى، مثلا في علم الفلك نجد مصطلح «فم الحوت» يُدَكَّرُ في الانجليزية بلفظه العربي هكذا Fomalhaut ، وفي علم الرياضيات نجد «الصفر» Cipher ، و«الجبر» Algebra ، وهما مصطلحان عربيان. وفي علم الكيمياء نجد «القلي» Alkali ، و«الامبيق» Alembic - وهي اداة التقطير، ولفظة «الكيمياء» من أصل عربي، كذلك فلفظة Alcohol هي في الاصل الغول ثم تُرجمت «الكحول» من الانجليزية.

حتى في أيامنا الحاضرة نجد للغة العربية آثاراً واضحة في اللغات المعاصرة، فمصطلحات «ثوب» Thoub ، «العود» Oud ، و«ذائي» Pedayee ، شائعة الاستخدام في لغة الصحافة الانجليزية المعاصرة.

قدّر الأستاذ أنيس القدسي الالفاظ العربية التي دخلت الانجليزية فوجدها تناهز المائة والأربعين كلمة، في بحث قدّمه لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في أحد مؤتمراته، وهنا اجتهدات أخرى وصل الإحصاء فيها الى عشرة آلاف كلمة انجليزية من أصل عربي، كما ورد في كتاب المرحوم الدكتور سليمان أبو غوش، الذي صدر عام ١٩٧٧م.

تأثير العربية في الفرنسية: أشار أنور الجندي الى أن بير جيرو قد قدم معالجة لهذا الموضوع، وأكد أن العرب هم أصل العلم الحديث، وبخاصة في علوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك، وكانوا هم همزة الوصل مع الشرق، بواسطة فارس والروم، وكانوا نقلة علوم الملاحة والتجارة الى الغرب. . الخ، وكل هذه التأثيرات بارزة فيها نجد في لغتنا من اللفاظ مقترضة، ثم قدّم جيرو قائمة من ٢٨ كلمة دخلت من العربية الى الفرنسية في العصور المختلفة، وقد وضعها بعناية على تواريخ اقتراضها. ومن هذه الالفاظ:

Jupe	جبة	Calife	خليفة
Sucre	سكر	Mascara	قناع - مسخرة
Emir	أمير	Cubebe	كباب
Coton	قطن	Chemise	قميص
Emiral	امير البحر	Gazelle	غزال

تأثير العربية في الألمانية: تشهد المستشرق الألمانية د/ سجيريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) بذلك، وغلاً كتابها بالكلمات التي ترى أنها عربية الاصل في اللغة الألمانية، وتأتي في فهارس الكتاب بملحق ضم أكثر من ٢٥٠ كلمة، بعضها مشترك مع قائمة بير جيرو الفرنسية.

تأثير العربية في الإسبانية والبرتغالية: لقد كان للغة العربية أثر بعيد في اللغة الإسبانية وكذلك البرتغالية، لأن اللغة العربية استمرت ثمانية قرون في الاندلس أقامت خلالها حضارة ضخمة. وأحصى العلامة دوزي والعلامة انجليان هذه الكلمات في كتاب سماه «مفردات الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية»، طبع في لندن ١٨٦٩م، وقد أجرى الأسبانيون عددا من التصنيفات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧٪ من كلماتهم عربيا.

تأثير العربية في الإيطالية والصلقية: أشار د/ لويجي رينالدي الايطالي الى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً في اللغتين الصقلية والإيطالية، وأنه لا يزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقية تفوق الحصر، دخلت اللغة بطريق المدينة لا بطريق الاستعمار.

المقارنة بين العربية واللاتينية: نقلاً عن الأب انطون صالحاني اليسوعي (مجلة المشرق ٢٣/٢/١٩٢٥م) وساطع الحصري (في كتاب «آراء في اللغة والادب»)، يقول الاستاذ أنور الجندي: . . . وجملة الراي في ذلك أن اللغة اللاتينية مانت لغة للشعب بموت الدولة، وبقيت لغة للكنيسة والعلماء، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر، ولم تكن اللاتينية لغته الاصلية وإنما كانت لغات أخرى كالصقلية والسكسونية والجرمانية، وكلها امتزجت بلغة اليونان، فلم تثبت تلك اللهجات الا بتأدي الزمن وتنوع الكتابة وفتح المدارس وتآليف الكتب.

يضاف الى هذا ان اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله، وهي لم تستطع التغلب على «اليوغانية»، لأن اللغة اليغانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة الرومان، فلما انتشرت الامبراطورية الى شطرين كانت اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب..

هذا فضلا عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة أرسقراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة الممتازة، ولم تتغلغل في طبقات العوام.

وهكذا رأينا بالدليل والبرهان كيف استطاعت العربية أن تؤثر في اللغات الحية الاخرى تأثيرا جعلها معربة وثرية، وهذا دليل قوتها وأصلانها، وقدرتها على مسايرة اللغات الأخرى في التعبير عن العلم والفن.

الفصل الثاني

حملات التغريب الحاقدة وتدهور اللغة العربية

بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي، وامتدت على أيدي كُتّاب ومفكرين أجنبي، ثم حمل لواءها كُتّاب من بلادنا. يذكر أنور الجندي من الكتاب والمفكرين الأجانب مستر ولكوس حينما ألقى خطابه عام ١٨٩٢م في نادي الأزيكية بالقاهرة جعل عنوانه ولم لم تُوجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟، وأجاب عن هذا السؤال بأن السر في تأخرهم هو واللغة العربية، وأن المصريين لو اتخلوا لهم لغة «اقليلية» كما فعلت بريطانيا مثلا (مع اللغة اللاتينية التي أودعت المتاحف الآن) لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا. وتابعه في القاهرة القاضي ويلمور عام ١٩٠١م بجملة أخرى دعا فيها إلى ما أسماه ولغة القاهرة واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية. وقد ذكر أنور الجندي من الأجانب الذين كانوا يدعون إلى نبذ العربية في بلاد المغرب العربي المستشرق هاسنيون الذي دعا عام ١٩٢٩م إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وامتد نطق حملته جغرافيا حتى شمل ليس فقط بلاد المغرب العربي بل كذلك سوريا والبلاد العربية التي كانت تزح تحت نير الاستعمار الفرنسي. ثم تابعه في الحملة المستشرق م. كولان الذي كان يدعو إلى العامة في بلاد المغرب العربي.

ولقد ترك هؤلاء الأجانب ذيوالا من أبناء العرب، يهجون نهجهم في الحملة الحاقدة على اللغة العربية والتثليل من قدرتها والتقليل من قدرها، وكان من هؤلاء في أواسط هذا القرن العشرين، لطفي السيد وسلامة موسى وعبدالعزیز فهمي في مصر، والخوري مارون غصن في سوريا، وغيرهم كثير، وكانوا يدعون إلى استخدام العامة في التعبير نطقاً وكتابةً والاستعانة بالحروف اللاتينية. يوضح صاحب (العربية لغة العلوم والتقنية) أن محنة العربية لا تمثل في حشود الألفاظ والمصطلحات الوافدة من عالم الحضارة، إلى عالمها الذي يبدو متخلفاً، ليس ذلك فحسب، بل إن محنتها الحقيقية هي في انهزام أبنائها نفسياً أمام الزحف اللغوي الداهم، واستسلامهم في مجال العلوم للغات الأجنبية، بحيث تكونت في العالم العربي جبهة عنيدة تمهّد للإبقاء على العربية بمعزل عن مجال العلوم والتكنولوجيا، قناعة بعلاقة هشة مع لغة الحضارة، فما دامت صفوة المشتغلين بالعلوم تعرف الانجليزية فلا بأس من عزل العربية، بل وقتلها.

هذا مع أن هناك شبه إجماع على ثلاث نقاط:

أولاً: إن العربية قادرة على استيعاب العلوم، وأنه لا يمكن لأي مجتمع أن ينهض ويتحضر إلا من خلال لغته، ومن ثم لن ينهض العرب إلا بواسطة العربية.

ثانياً: إن معركة أكثر المشتغلين بالعلوم باللغة الانجليزية لا ترقى إلى مستوى معرفة أهلها أنفسهم، فهم يستخدمون لغة لا يحسنونها، ويمولون لغتهم التي يمكن أن يحققوا بها مستوى أداء أفضل، فيزدادون ضعفاً على ضعف.

ثالثاً: ان مستوى استيعاب الطلاب في الكليات العلمية لما يتلقونه بالانجليزية ضعيف، وهو أضعف قطعاً عما لو تلقوا موادهم بالعربية على أيدي أساتذة يحسنونها.

يذكر الأستاذ عبدالرزاق البصير أنه حضر إحدى جلسات مجمع اللغة العربية الاردني، واستمع من رئيسه د/ عبدالكريم خليفة حديثاً يدعو الى الحزن والألم... يقول د/ خليفة (ان بعض اساتذة مادة الرياضيات في جامعة اربد ترجوا الكتب المختصة في هذه المادة والمقررة على الطلاب في السنة الأولى واخذوا يلغون منها دروسهم عليهم، فكان نجاحهم باهراً لأن استيعابهم لهذه المادة كان قوياً جداً، ولكن الغريب في الأمر ان عميد تلك الكلية قد تغبر وجيء بهميد آخر، فأمر بأن تلغى الكتب المترجمة الى اللغة العربية، وأن توضع مكانها كتب باللغة الأجنبية، ولا تسلم عما حدث من ارتباك في نفوس الطلاب، وفي هذا دلالة على ان هناك من يسعى لابعاد اللغة العربية عن التعليم الجامعي، وهو امر لا يجوز السكوت عنه).

أما في تركيا فقد نجحت الأتاتوركية في تحويل الحروف العربية التي تكتب بها اللغة التركية الى اللغة اللاتينية، ولكن هل ادى هذا الى ما كان يرنو اليه كمال اتاتورك واشياعه من نهوض وتقدم وتحضر؟ الجواب: لا، فالدولة لا تزال من الدول التابعة حضارياً للتكنولوجيا الغربية، والذي حدث فقط هو ابعاد «اللغة» عن متناول الفرد، وعجزه عن قراءة «القرآن»، إذن فهي حلة تهدف الى سلخ الفرد التركي من دينه وابعاده عن دستور ربّه بابعاده عن لغة القرآن.

ويتأسف د/ الناعوري على هؤلاء المتشددین في محاربة اللغة العربية في الجامعات العربية، فقد استطاعوا حتى الآن ان يجمدوا العربية في جامعاتهم، ويمنحوها الحياة والازدهار للغات الأجنبية، وهذا عكس ما يحدث في جميع الامم والشعوب التي تحرص على ان تكون السيادة للغاتها القومية دون سواها، في كل جانب من جوانب حياتها العلمية والعملية والادارية والتقنية. وقد أكد د/ الناعوري على ان هذا التصرف يعد مظهراً من مظاهر التخلف في العالم العربي، حتى في اعلی مستويات الثقافة عندنا.

لقد ادى ادعاء الذين بأيديهم الامر وكبار اصحاب الأقلام والمراكز الادارية والثقافية في بلادنا، بأن اللغة العربية أصبحت لغة الشعر والادب والتعبير عن خجلات النفس، وليس لديها القدرة على مسايرة ركب الحضارة الحديثة وعلى استيعاب مصطلحاتها، ومن هنا فلابد للطلاب العربي ان يتلقى دروسه بلسان اجنبي، ادى هذا الاتجاه الى تدهور اللغة العربية في عقر دارها. ولعلنا اذا فصلنا البحث في الأسباب التي تكمن وراء الدعوة الى التغريب واتهام اللغة العربية بالقصور نعرض لما يلي:

١ - يدّعي دعاة التغريب في بلادنا، والحاقدون علينا من الأجانب، ان لغتنا العربية قاصرة عن التعبير عن القضايا العلمية المتجددة وعن استيعاب مواليد الحضارة الحديثة لاسيما وان مخاضها في بلاد اجنبية غربية هي او شرقية، ومعنى آخر فهم يطلقون على العربية «لغة دينية» او لغة «أدبية» وليست «لغة علمية». والدكتور شاهين يرد

على هذه الفرية في حوار اعلامي اجرته معه مجلة الامة فيقول: الخطأ اولا في المصطلح، فالذين يتممذون استخدام «لغة الدين» و«لغة العلم» لا يفهمون المصطلحات، لأن اللغة لغة، تستخدم في كل الاهداف التعبيرية التي يريدوها المتكلم، سواء اكانت اهدافا دينية ام اهدافا علمية، لا يختلف الامر... ولكن الصواب ان يقال: الاسلوب الديني والاسلوب العلمي، ولكل اسلوب طابعه الخاص، وقواعده فيها يُسمى بـ «التركييب». اما القول «بلغة الدين» فهي عبارة يقصد بها مستعملوها التعبير عما يكونونه من عداوة للاسلام والعربية. ولسنا بحاجة الى دليل على صلاحية اللغة العربية للتعبير عن العلوم، فذلك هو الواقع، ولكننا بحاجة الى ان نبين موطن الالتباس في القول بان هنالك لغة دينية، ولغة علمية، فهذا (سخف) وانما القول بأن هناك اسلوبا علميا، واسلوبا دينيا هو الحق، فطبيعة اللغة او التركييب اللغوية تتصل دائما في خواصها بخواص المعنى الذي تعبر عنه، ان كان صارم الدلالة، مجددا تماما، او كان معنى يتدخل فيه ما يسمى بالمجاز او الاستعارة... فاللفظ في المجال الادبي والانساني يقوم على الغموض احيانا، وعلى الوضوح احيانا، ويؤخذ الغموض فيها يسمى بوسائل التعبير: التشبيه والاستعارة والكنية وما الى ذلك... اما الاسلوب العلمي فهو شيء مختلف، فلا يقرأه كل الناس، بل يقرأه العلماء، ويستطيع اي عالم ان يعرف ما يعقل اي عالم آخر عندما يقرأ معادلته وتراكيبه وإفكاره العلمية بدقة شديدة جدا، كما يتجنب الاسلوب العلمي ما يسمى بالمجاز او الاستعارة او الكناية.

٢- كذلك يدعى هؤلاء عدم مواعاة رسوم حروف العربية الهجائية للحياة الحديثة.

٣- ويدعون أيضا جود اللفظ في معناه.

٤- كذلك كانت الدعوة الى اللهجات العامية وانشاء لغات منها من أهم أسباب تدهور اللغة العربية.

٥- ولعل خضوع البلاد العربية والاسلامية للحكم الاجنبي عنها، سبب قوي في انصراف ابناء العربية عن استخدام لغتهم في الكليات العلمية خاصة وفي التعليم عامة، يقرر عبد الرزاق البصير ان خضوع الامة العربية تحت ظل حكم اجنبي، ادى الى ضعف وعيها الى درجة اصحبت لا تقدر ما يعنيه ضعف لغتها من اثر على وجودها، فلما جاء الاستعمار الاوربي زاد في تعميق هذا الداء في نفوس الكثيرين، لأنه يدرك بأن أهم عناصر قوة الامة وعزتها يأتي من قوة لغتها. وقوة اللغة تنشأ من ترجمة العلوم اليها وتعليم ابنائها بها، لأن ذلك يخلق في الامة اعتزازا بلغتها، فانه اذا لم يتأكد في نفوس ابناء الامة ان لغتهم قادرة على استيعاب ما يجد في الحياة انهدمت او ضعفت على الاقل ثقافتهم بلغتهم، مما يجعلهم ينصرفون الى غيرها من اللغات الاجنبية. ويؤكد عبد الرزاق البصير ان امة يصل حالها الى هذه الدرجة يصبح شأنها ضعيفا، مما يجعلها هدفا للغزو الثقافي.

وهناك عدة اسباب اخرى عرضها د/ مصطفى شعبان في تعقيب له على بحث في اللغة العربية بعنوان (من قتل اللغة العربية؟)، وجاء فيه ان من الاسباب التي أدت الى تدهور اللغة العربية حتى أضحت مشكلة عندنا:

أ- فكرة التعليم الكمي لا الكيفي: خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية. هذه الظاهرة ادت الى خلق جيل من انصاب المتعلمين يعلم جيلاً من الجهلاء... وينطبق هذا التحليل بصورة خاصة على اللغة العربية وخريجي مدارسها.

ب- الاستهتار باللغة: واعتبار العلم بها عبياً والعالم بها متخلفاً، لا يجوز الاهتمام به.

ج- الإلحاح الدائم من وسائل الإعلام اليومية على استخدام لغة عربية معينة: في ألفاظها وقواعدها. والمطابع والإذاعات تمضغ هذا الكلام وتبثه على اسراع الناس وابصارهم كل لحظة، حتى أصبح العامة يحسبون هذه الغثاثة هي السليم، وإن ما غيرها (كتباً صفراء) لا يجوز لعاقِل متحضر ان يقرأها.

د- أصبح يسيطر على وسائل الاعلام جيل ممن يجهل اللغة العربية، وبالتالي فلسان حالهم يقول للمشاهد وللمستمع ان العربية الحققة لغة عيبة قديمة لا تصلح للحضارة والتقدم والبناء الحديث.

ان الغيورين على اللغة العربية لم يقدموا لرجال العلوم واساتذة التكنولوجيا ما يشبع رغبتهم وبسرعة تجري مع معدل ما تقذفه الاكتشافات وما تأتي به الاختراعات وما تتناقله وسائل الاعلام وسبل الاتصال من منتجات التطور العصري السريع فه عالم التكنولوجيا - أقصد منتجات لفظية ومصطلحات علمية - فاعمال هؤلاء الغيورين على العربية لا تزال تخبر في بطء وتكيل حركتها في كثير من الأميال قيود الروتين في المجامع والهيئات المعنية في كثير من الدول العربية، حتى لا يسمع بما انتهى اليه هؤلاء العلماء.

وإن سمع ففي سرعة لا تتفق وسرعة الاختراعات ومسيرة التقدم المدهش حالياً.

الفصل الثالث

خصائص العربية وعوامل بقائها حية عبر العصور

لغة العلم هي اللغة التي يستطيع بها أفراد الأمة استيعاب ما هو متاح من علم وأفكار، والتي تمكنهم بمرونتها وديقتها وسلاستها من تأصيل علمهم والإضافة إليه والإبداع فيه، وهذا ما حدث بالفعل للغة العربية في عصور النهضة العلمية في القرون الخوالي. ولقد لخص د/ هدارة سيات اية لغة كي تكون لغة للعلم في النقاط التالية:

١- الوضوح: الذي لا يحتمل اللبس، فالغرض الاسامي للغة العلم هو تفسير ظاهرة او شرح طريقة، ولا يمكن تحقيق ذلك بلغة غير صريحة وواضحة او بكلمات مبهمه غير محددة المعنى.

٢- سلامة البنيان اللغوي والإيجاز حتى يمكن ان تعيه الذاكرة في يسر، وحتى يتحقق للغة هذه الميزة لا بد وان تحتوي على عناصر هي:

أ- الرموز: وهي عادة من حروف الهجاء تُستخدم للتعبير عن اشياء متعارف عليها، كرموز العناصر الكيميائية ووحدات القياس وغير ذلك، فنجد مثلا الدكتور عبدالصبور شاهين يورد من معجم (المصطلح) تأليف حسن السعران، ومن معجم المصطلحات العلمية لعبدالعزيز محمود وآخرين، ومن موسوعة الثقافة العلمية باشراف د/ انور عبدالواحد، جدول العناصر الكيميائية ومنه العناصر الآتية:

العنصر	رمزه	وزنه الذري	رقمه الذري
ذهب	ذ	197	79
أليروجين	يد	I	I
نحاس	نح	63 ½	29
زرنيخ	ز	75	33
يود	ي	127	53
حديد	ح	56	26
رصاص	ر	207	82

ب- المعادلات الرياضية: وهي صيغ رمزية للتعبير عن علاقة معينة او قانون.

ج- الرسوم: وهي اشكال تخطيطية توضح بنية معينة، كالدوائر الكهربائية او الانشاءات المعمارية او التصميمات الهندسية او الاتحادات الكيميائية.

٣- المصطلحات: والمصطلح العلمي هو كلمة او اكثر يتم الاتفاق على تخصيصها لتعني مفهوما محددا. ويوضح د/ عمر فروخ ان وضع المصطلحات موحدة هو امر من الامور الهامة، فلا يجوز ان يدل المصطلح الواحد على مدركين ولا ان يكون للمدرك الواحد مصطلحان او اكثر.

٤- القصد الى حقيقة الامور وعدم العناية الكبيرة بالشكل: واذا كنا قد اكدنا على ان الوضوح سمة من سمات لغة العلم، فان الامر يستلزم منا شيئا من التفصيل، فهناك نفر كثيرون يؤلفون في العلم كما يؤلفون في الادب والشعر: يبدأ أحدهم بترجمة للاديب وقال فلان وقال فلان، وقد يكون القولان متضادين، ثم يحاول المترجم للاديب او للشاعر او لرجل السياسة استعراض آرائه المختلفة، ويحاول ان يوفق بين المتناقضات منها، او استعراض اختلاف آراء الناس فيه. لكن هذا - على حد قول الدكتور عمر فروخ - ليس من سمات لغة العلم. فما دام عندي قول في وجه من وجوه العلم لابن سينا مثلا، فأنا الغي كل قول لغير ابن سينا في هذا الباب من آراء ابن سينا واذا كان تاريخ العلم قريبا من تاريخ الادب، فان تقرير العلم يختلف عن تقرير الأدب. وكذلك فالجدال - كما يجري في الفلسفة وفي الفقه ونحوها - كما يقال في اللغة والنحو، وتسويغ الآراء - كما يقال في السياسة والاقتصاد، ليست من لغة العلم.

٥ - المنطقية: لغة العلم تحتاج الى منطق، وهو كما يعبر عنه د/ فروخ التوالي الصحيح لحدوث الاشياء او سبق الاسباب على النتائج ونسبة الفروع الى الاصول.

٦ - شمولية صفة العلم: فصفة العلم ليست وقفاً على جوانب المعرفة الانسانية في عالم الاعداد وعالم الطبيعة، بل يمكن ان تطلق على كل فرع من فروع المعرفة الانسانية اذا سلك الانسان في بحثه مسلك الدقة والوضوح والمنطق.

٧ - سمات أخرى للغة العلمية: يورد د/ شاهين سمات أخرى للغة العلمية، اولى هذه السمات: الحرص على تجنب الصور البلاغية، كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكتابة، والتورية في اللغة العلمية، فهي لغة دلالتها مباشرة، لا تعرف هذا التفنن الذي ينم عن المهارة الشخصية، والذي يقصد به تحميل التعبير، واخفاء الحقيقة، وتزييف الواقع بالمبالغة والتناقض، ذلك ان دقة العلمية تقع وسطاً بين الإفراط والتفريط، وهما طرفا المبالغة، ومبى الصور البلاغية. ليس معنى ذلك ان تخلو اللغة العلمية تماماً من كل اثر للوسائل البلاغية، فهي قد تلجأ لبعض انواع التشبيه لغرض الايضاح، كتشبيه افريقيا على الخريطة بعنقود العنب، وكتشبيه ايطاليا بالحذاء، وكتشبيه فوران سائل ما بغوران سائل آخر، وتتمثل حدقة الاسد في اتساعها ليلا باتساع حدقة القط، فهذا كله يساعد على توضيح الفكرة العلمية، وهو لا يخفي حقيقة ولا يزورها.

وثانية تلك السمات ما يمكن ان نطلق عليه: وحدة المفهوم التركيبي للجملية العلمية، فاذا وصف كاتب علمي النار بانها حراء، او ذات لون بنفسجي وجب ان يراد من ذلك ما يدل عليه من خصائص لون اللهب ونوع الوقود الذي اشتعلت به النار، دون ان يفهم منه التقابل بين لون النار ولون ثوب المحبوب، او خديه، فهذا طريق، وذاك طريق أخرى.

وثالثة هذه السمات التزام التعبيرات المحددة لغويا او رياضيا، فاذا اراد عالم ان يعبر عن بعد احد الكواكب عن أرضنا فيجب ان يتعد عن التعبيرات الغامضة وغير المحددة، كأن يقول: انه يبعد عنا سنوات ضوئية كثيرة، او مئات الملايين من الأميال، فهذا اسلوب يليق بالخطباء والمتحدثين في البرامج التلفزيونية، اما العالم فيلتزم بكتابة الأرقام المحددة، لأنها تعني عنده نتيجة علمية تتصل بوسيلة الاتصال بالكوكب، واثر ذلك على المناخ الارضي، والمجالات المغناطيسية، وغيرها من مشكلات علوم الفضاء.

وبعبارة أخرى يجب ان تتحقق المطابقة التامة بين المفهوم العلمي واللغة المعبرة عنه، وهذا ما يُطلق عليه في فن البلاغة (المساواة)، في مقابل: (الايجاز والاطناب)، المستخدمان كثيرا في اللغة الادبية.

فهل تتمتع لغتنا العربية بهذه الصفات حتى تكون لغة العلم والتقنية؟ ان هذا هو ما سيتضح بجلاء حينما نقف على أهم خصائص هذه اللغة الحية العريقة والتي نوجزها فيما يلي:

أولاً : العربية لغة القرآن :

يرى المستشرق المسلم د / عبدالكريم جومانوس ان اللغة العربية منذاً هاماً أبقي على روعتها وخلودها هو « الاسلام » ، فلم تنل منها الاجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة ، على نقیض ما حدث للغات القديمة كاللاتينية ، حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

وقد كان لاسلام قوة محوّل جارية أثّرت في الشعوب التي اعتنقت حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عمیق في خيال هذه الشعوب فاقبست آلاف من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء .

ثانياً : الوضوح والسهولة والمرونة والتطور :

يوضح المفكر الاسلامي الاستاذ أنور الجندي أن اللغة العربية تملك من المرونة ما لا تملكه لغة حية أخرى ، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الاسلام . ولولا تطور اللغة العربية الدائب ما استطاعت الاجيال الجديدة ان تفهم لغة أجدادهم ، والمرونة التي تنطوي عليها لغة الضاد لم تنشأ جزافاً وإنما هي نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية ، حيث ان ما تتميز به من موسيقية واضحة وقابلية للتزاج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

في بحث له حول جانب واحد فقط من جوانب عظمة اللغة العربية ، شرح الدكتور احمد بسام سامي مميزات العربية في النطق ، وحتى يأتي شرحه واضحاً مبيناً على أساس علمي اتخذ من اللغة الإنجليزية (وهي لغة متشرة في تدريس العلوم في العالم الآن) أساساً للمقارنة في هذا البحث . وهذه بعض المتقطعات التي تهمننا منه في دراستنا الحالية :

الحروف : المعروف أن الإحصاء النظري ، لا العملي ، لحروف اللغتين العربية والانجليزية يظهر تقارب عدد حروفها ، فهي ستة وعشرون في الانجليزية ، وثمانية وعشرون في العربية ، أو تسعة وعشرون إذا عدنا الهمزة حرفاً ، وهو الأفضل لأن الألف مجرد حرف ساكن ، أما الهمزة فحرف صائت حلقى كالعين والحاء والهاء ، فالاختلاف واضح وقوي - هذا هو الإحصاء النظري ، وهو إحصاء ناقص ونخاضع عن الواقع العجلى للغة .

إن حركات الفتحة والضمّة والكسرة في العربية ليست في حقيقتها - على ضوء واقع اللغة الانجليزية - إلا حروفاً ساكنة بحروف الانجليزية (a, o, e) ، وأن التنوين فيها ايضاً حرف آخر مركب من ألف قصيرة ونون ، أو واو قصيرة ونون ، أو ياء قصيرة ونون ، أو اذا شئنا الاختصار ، هونون تضاف الى أحد السواكن القصيرة الثلاثة - أي الحركات - في آخر الاسم المتكررة أو العلم المنصرف ، إذا وصفنا الألف والواو والياء بأنها المقابل الطويل لهذه السواكن القصيرة .

وتصل الانجليزية الى تلك السواكن الطويلة بتكرار القصيرة ، فالحرف (O) ساكن قصير فيها يتحول الى ساكن طويل بتكراره كما في (boot) أو بإضافته إلى ساكن قصير آخر مجانس له كما في (four) ، وإن كانت الانجليزية لا تمكث قاعدة نهائية للتمييز الكتابي بين الساكن الطويل والساكن القصير ، فقد يتحول القصير كتابة إلى طويل لفظا كما في (for) التي لا يختلف لفظها عن (four) ذات الساكنين المتجانسين - أو الساكن الطويل - بينما لا يحقق اجتماع الساكنين في بعض الكلمات أي طول لأحدهما ، سواء أكانا متجانسين أم شبه متجانسين ، كما في (curtain ، أم متجانسين كما في (does) .

ولكن المقارنة النظرية بين اللغتين تظهر أن هناك تسعة عشر حرفا انجليزيا من أصل ستة وعشرين لها ما يقابلها في العربية وهي : أ - ب - ت - ث - ج - د - ذ - ر - ز - س - ش - ف - ك - ل - م - ن - هـ - و - ي (y) . وهناك ستة حروف عربية أخرى خشنة تقابل في الانجليزية - وفي العربية نفسها أيضا - ستة حروف رقيقة ، وكأنَّ الحروف الأولى تضمخيم لهذه الأخيرة ، كما يظهر لينا يلي :

- | | | |
|--------------|------------|-------------|
| ١- ت ط | ٢- د ض | ٣- (th) ذ ظ |
| ٤- (s-c) س ص | ٥- (k) ك ق | ٦- (h) هـ ح |

وإذا كان هذا الاختلاف بين الحروف الرقيقة والحروف الخشنة لا يعني أية مشكلة لابن العربية فقد يكون ثمة مشكلة حقيقية أمام المستقبل على تعلّم العربية من غير العرب ، إذ ليس من السهل على اللسان الأوربي ، مثلا أن يُخسّن الكاف (k) لتصبح قافا عربية ، ولكن هذا ، من جانب آخر ، ليس من الصعوبة بحيث يكفي لوُسّم العربية بصعوبة النطق ، فليس مطلوبا من المستقبل على تعلّم العربية أن يلفظ القاف ، أو أي حرف عربي آخر ، كما يلفظه العرب تماما ، على الأقل في السنوات الأولى من دراسته ، فكيف إذا كان العرب أنفسهم غير متفقين ، منذ الأزل وإلى الآن ، على طريقة واحدة للفظ القاف ، وكذلك معظم الحروف الأخرى ، ولا سيما الحروف الستة التي نحن بصدد الحديث عنها الآن ؟ وهذا ، في رأينا ، ما يؤكد الحديث الشريف « نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف » .

ثم لا يبقى أمانا إلا أربعة حروف عربية يمكن أن ندرسها ، - بداية - بوصفها فاصلا حقيقيا واضحا ، وثقيلًا على اللسان الأوربي ، وهي الحاء (وقد اقترحنا - مع بعض التجاوز - أن يكون المقابل الخشن للهاء) ، والخاء والعين والغين .

ويواصل د / سامي كلامه في هذا البحث « المقارن » القيم فيشير إلى استجواب حصل عليه من طلابه الانجليز حيث كان يدرّس في قسم اللغة العربية بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد في العام الجامعي ١٩٨٣ - ١٩٨٤ ، فيقول : يجمع المقبلون على تعلّم العربية من الطلاب الانجليز أن أبرز الجوانب سهولة في العربية هو الوحدة القائمة فيما بين اللفظ والاملاء ، وتبني هذه الوحدة على ثلاثة أسس :

- ١- تقليد الاملاء العربي شبه التام بالألفاظ المنطوقة ليكون صورة صادقة ودقيقة عنها .

٢- وجود صورة نطقية واحدة لا أكثر للحرف العربي، مع الاستفادة أحياناً من قواعد علم اللغة العام في تعويد الحرف تبعاً لسياقه ضمن الكلمة أو الجملة.

٣- عدم ارتباط العربية بنظام نثري محدد، ومن ثم عدم حاجتها إلى قواعد إملائية لضبط مثل هذا النظام.

وبعد أن ترسل الباحث في كلامه عن تقارب الحروف وتباينها في اللغة الانجليزية ومقارنته ذلك في اللغة العربية، دُلّف في حديثه إلى « النظام النثري » فقال: « ولكن أهم ما يميز العربية من الانجليزية على الإطلاق هو النظام النثري الذي يشكل أساساً هاماً لا يستغني عنه من أسس الانجليزية، بينها لا تلتفت إليه العربية، ولا تأبه بوجوده، ورغم اختلاف اللهجات العربية اختلافاً شديداً بين المشرق والمغرب والشرق والجنوب، ووضع النثر، مثلاً على المقاطع الأخيرة من الكلمات في بلاد المغرب العربي عامة، فهذا لا يشكل عائقاً في فهم الشعوب العربية بعضها لهجات بعض - عند استعمال الفصحى طبعاً - لأن النثر - كما أشار الدكتور ساعي - ليس من أسس العربية، والخالط فيه لا يشكل أي ضرر على اللفظ أو المعنى.

ثم يبيّن بعض الثغرات في اللفظ الانجليزي ويخصّ منها: توالي السواكن، استطالة الكلمة استطالة يشغل بها اللسان، ثم توالي الحروف المشابهة مخرّجاً أو اجتماعها بكثرة في الكلمة الواحدة، ولا سيما الحروف الصغرى كالسين والشين والزاي.

وقد يقول قائل: ان اللغة الانجليزية لغة عالمية راقية لا تدينها اللغات الأخرى في تداولها وعالميتها، قواعد بسيطة لا بأس بها ومؤيدوها وعشاقها أكثر من الكثير، وقد نجحت في السيطرة على العالم. ولكن يجب على هذا القائل أن يتساءل: هل يعود نجاح هذه اللغة إلى مقومات المعاصرة وعناصر السهولة التي تملكها، أم إلى عناصر خارجية؟ يجيب الأستاذ الجندي بالتأكيد على الشق الثاني وذلك لأن الجوانب التي تعيب اللغة الانجليزية وتقلل من شأنها وتجعلها صعبة المراس عند الإمعان ليست بقليلة. فهي في أكثرها قائمة على الشواذ وتعتمد على السماع، كما أن عماد اللغة نفسها يدور على نبرات صوتية كاتمة وجرس رنني لا يخضع لأداء صوتي محدد وقواعد محددة. وقُلْ نفس الشيء في إملاء الانجليزية، حيث يغزو نقص بعض القواعد والضوابط من البداية إلى النهاية... وهكذا فإن اللغة الانجليزية التي تحمل صفة « المعاصرة » ولقب « أرقى لغة » لا تطاولها في عالميتها لغة، هي لغة لا تحمل من مقومات المعاصرة وإمكانية مواكبة العصر إلا ما هو أقل من القليل. وهذا يؤدي بنا إلى حكم واحد هو ان الانجليزية ليست في ذاتها معاصرة، وإن معاصرتها وعالميتها مؤبنة لمنحنيات الزمان وتنوعات التاريخ التي ترتفع طوراً بأقوام وتنحدر طوراً بآخرين.

ثالثاً: درجة التنظيم:

في هذا الجانب من عبقرية اللغة العربية، يوضح د / تمام حسان عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ان العربية بنية جامعة مانعة، شأنها في هذا الطابع شأن كل اللغات، ومعنى كونها جامعة أنها غانية بنفسها عما عداها، فلها

من أصولها وقواعدها ومعجمها ما يتيح لها أن تكون أداة للتواصل بين الناس ، دون أن تفتقر الى أصل أو قاعدة من لغة أخرى ، ومعنى كونها مائعة أنها ترفض قبول هذه العناصر التي استغنت عنها بكمال ذاتها .

فهي ترفض ان تصنف الى أقسام الكلم فيها ، أو الى ضائرها أو أدواتها أو قواعدها ، شيئا جديدا . فتأبى مثلا أن تقدم الصفة على الموصوف ، أو أن تستخدم في الجملة الاسمية فعلا مساعدا ، وهلم جرا ، ولو حدث شيء من ذلك لانبهأت البنية وتحطمت ، ولم تُعَد النتيجة صالحة لأن تُوصف « بالعربية » .

وهذه البنية العربية نظام كلي ، مكون من أنظمة فرعية ، على نحو ما نرى جسم الانسان جهازا أكبر مكونا من أجهزة فرعية ، كالجهاز الهضمي والدوري والتنفسي والعصبي والإفرازي . . . الخ ، يتضافر بعضها مع بعض بأداء الوظائف الخاصة التي يصل الجسم الانساني بمجموعها الى التوازن الحيوي المشدود وهذه الأجهزة الفرعية لا استقلال لأحدها بوجود خاص ، ولا يبرر تناول أي واحد على حدة إلا لاداة الشرح والتفسير في سياق تشريحي أو فسيولوجي . أما في واقع الحياة فإن فصل واحد منها عن غيره يقضي على البنية كلها ، فيموت الإنسان بما فقد من وظيفة حيوية كانت لهذا الجهاز الفرعي .

كذلك تمثل العربية نظاما مشتملا على أنظمة فرعية ، كنظام الأصوات ونظام المقاطع ونظام النبر ، ونظام التنعيم ، ونظام المباني الصرفية ، والإعراب والمطابقات ، والروابط ، والأدوات ، والرتب ، والتضام الذي يتمثل في الافتقار والاختصاص والتنافي والتوارد . . الخ .

رأبما : الاقتصاد والإيجاز :

وقد أفاض في هذا الجانب أستاذنا الدكتور حسان أيضا ، فقد بينَ تميز العربية في اقتصادها بظاهرتين : ظاهرة تعدد المعنى للمعنى الواحد (سواء تعدد المعنى النحوي أو تعدد المعنى المعجمي) ثم ظاهرة النقل (سواء في النحو أو في المعجم) .

تتناهى الألفاظ والأنماط التركيبية ولا تنتهي المعاني ، ومن ثَمَّ يصبح على العربية أن تعبر بالقليل المتناهي عن الكثير غير المتناهي ، فإذا تحقق لها ذلك فقد تحقق لها الاقتصاد بعينه . ولقد عمدت العربية الى اصطلاح بعض الوسائل التي تمكنها من تحقيق هذه الخاصية ، ولعل أشهر هذه الوسائل :

أ - ظاهرة تعدد المعنى للمعنى الواحد : تعدد المعنى النحوي : إذا قلَّت الألفاظ والأنماط وكثرت المعاني فأتوَّى باللفظ أو النمط الواحد أن ينسب إلى عدد من المعاني ، وقد تحقق ذلك في النحو بواسطة معاني الصيغ ومعاني الأدوات . كان تصلح « استغفل » للطلب كاستخرج ، والصيرورة كاستحجر ، واعتقاد الشيء على صفة ما كاستصغر ، والمطاوعة كاستقام ، والانتخاذ كاستشعر ، وحكاية الشيء كاسترجع ، وقوة العيب كاستهتر ، والاستحقاق كاستحصد ، وكان تصلح « تفعل » للمطاوعة كتكسر ، والصيرورة كتحجر ، والانتخاذ كتوسد ، والتدرج كتجرع ، والتكلف كتصبر ،

ولهلم جرا . وسترى كيف تتعدد المعاني النحوية للادوات ، كأن تصلح « ما » للنفي والموصولية والتعجب والمصدرية الظرفية والشرط والزيادة والإيهام ، أو تصلح « أن » للشرط والنفي والتخفيف ، « من » الثقيلة (أي التأكيد) والزيادة ، وكان تصلح اللام الحارة لعدد من المعاني كما تصلح للامر .

تعدد المعنى المعجمي : اما تعدد المعنى المعجمي فحسبك ان تنظر في أي معجم يخطر ببالك وسترى لكل كلمة مفردة عددا من المعاني التي يمكن لها أن تؤدبها بحسب ما ترد فيه من الجمل . انظر مثلا الى اختلاف معاني لفظ « ضرب » في الجمل الآتية : ضرب الأب ابنه - ضرب الله مثلا - ضرب له موعدا - ضرب له قبة - ضرب في الأرض - ضرب خمسة في ستة - ضرب النقود - ضرب على العود - ضرب العيار الثاري - ضرب التليفون . فهذه معاني عشرة ، وهناك غيرها لمن شاء أن يكون أكثر إحصاء وحضراً ولعل في ذلك ما يشير الى خاصية الاقتصاد في العربية .

ب - ظاهرة النقل :

النقل في النحو : لقد فطن النحاة الى بعض مظاهر النقل في النحو ، فأشاروا الى العلم المنقول عن الفعلية كيزيد ، أو الوصفية كصالح أو المصدرية كنصر ، كما فطنوا الى نقل ثقل التركيب الجبري الى معنى الدعاء ، ونقل التركيب الاستفهامي الى الإنكار أو التقرير أو العرض أو التحضيض . ولكهم كذلك طبقوا ظاهرة النقل دون إشارة الى هذا المصطلح في حالات أخرى ، كقولهم في « ما » التمجيدية أن أصلها الاستفهام وقد أشربت معنى التعجب (أي نُقلت الى التعجب) ، غير أن ظاهرة النقل في النحو أوسع انتشارا من ذلك ، ولكن المقام لا يتسع هنا لبيسط القول فيها ، ومن ثم نورد إشارات عابرة تمثل لها . وهكذا نرى النحاة يتناولون بعض مظاهر النقل تحت مصطلح « النقل » وبعضها تحت « الإشراب » ، وبعضها تحت « النباة » كما في الأدوات .

النقل في المعجم : فهو ما نسيمه المجاز ، فالمجاز « نقل » بحكم التعريف ، لأنه نقل اللفظ من معناه الحقيقي الى معنى آخر ليس له بحكم وضعه ، وذلك بواسطة علاقة فنية تربط بين اللفظ ومدلوله المجازي ، والقرينة تمنع أي توهم لأن يكون المدلول المجازي مقصورا على الحقيقة .

ج - الميل الى التركيز :

من مظاهر الاقتصاد في العربية غير ما تقدم ميلها الى التركيز ، ويتجلى ذلك في أمور منها نبذ استعمال الأفعال المساعدة في التعبير عن علاقة الإسناد في الجملة الاسمية ، لأن العربية تفضل أن تعبر عن هذه العلاقة بقرائن أخرى كرفع المبتدأ والخبر ، وتعريف المبتدأ إلا عند أمن اللبس وتقديمه على الخبر ألا أن يدعو الى عكس ذلك داع من المعنى نحو « في الدار رجل » أو من المبنى نحو « أين زيد » ؟ ، أو في الدار صاحبها . ويتجلى التركيز أيضا في الإضمار بمعنييه كليهما : المعنى الذي يكون فيه الإضمار ضد الذكر ، والمعنى الذي يكون معه ضد الإظهار ، وبما يتجلى به التركيز بقابلية التلخيص والتحويل ، وهي مما كشفت عنه الدراسات الحديثة في حقل اللغة ، وإن أشار اليه القدماء بالقول إن تلخيص الكلام بواسطة العدول عن ذكر ما يسلم المعنى بتقديره ، ويدعو الفهم السليم الى هذا التقدير .

أما ما كشفت عنه الدراسات الحديثة ، ولم يشتمل عليه كلام القدماء ، فهو تلخيص البنية المفروطة (وتسمى السطحية) للبنية الملحوظة (وتسمى العميقة) .

د- إمكان الاستغناء بالأصناف عن المفردات :

إمكان الاستغناء بالأصناف عن المفردات مظهر اقتصادي في لغتنا يشهّل به فهمها وتناولها بالدرس ، ويتضح في أمرين : أحدهما التصنيف ، والثاني التقعيد ، وواضح أن المقصود بالتصنيف تحديد الأصناف (أي الأبواب) ، وأن المقصود بالتقعيد تجريد القواعد .

هـ- الاقتصاد في الجهد :

وما يتجلى به الاقتصاد في بنية العربية طلب الخفة ، أو ما يسمى في الدراسات الحديثة : « الاقتصاد في الجهد » وهو يعدّ أساساً لبعض الظواهر الصياغية في العربية : كالتأليف والإدغام ، والمناسبة الصوتية ، والإبدال ، والتخلص من التقاء الساكنين وغير ذلك .

خامساً : توفر وسائل النمو العقلي :

من أهم هذه الوسائل : الاشتقاق والإلصاق .

أ- الاشتقاق : وضع د / شاهين تعريفاً للاشتقاق نصه : « هو استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس قياس مطرد » وحين تدخل الحركات على الصوامت فإنها تخضع لنظام معين ، هو ما يعرف في اللغة بالقياس المطرد في صوغ المفردات . وبعبارة أخرى : تكون الحركات مع الصوامت ما يسمى بالمقاطع ، التي هي من حيث الكمية أكبر من الصوت ، وأصغر من الكلمة غالباً ، وقد يتساوى المقطع مع الكلمة ولا سيما في الأدوات .

المقطع بالتعريف العلمي هو : (تقسيم طبيعي فوق البسيط للحدث اللغوي يتفق مع إيقاع النفس ، ومع تقاليد اللغة في بناء ألفاظها .

وهذه الأشكال الأساسية الثلاثة للمقطع العربي : الأول : المقطع الصغير ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة . الثاني : المقطع الطويل المقفل ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة + صامت . الثالث : المقطع الطويل المفتوح ، ويتكون من صامت + حركة طويلة .

هذه المقاطع الثلاثة هي التي يتكون منها الكلام العربي المتصل ، ولا بد لكل كلام متصل عربي أن ينتهي في التحليل الأولي للصيغ إلى هذه المقاطع ، كلها أو بعضها .

وهناك صورتان مقطعتان تردان في النطق ، في حالة الوقف غالباً ، هما : الرابع : المقطع المديد المقفل بصامت ويتكون من صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل النطق بالفعل (كان - Kaan) والخامس : المقطع المديد المقفل بصامتين ، ويتكون من : صامت + حركة قصيرة + صامتين ، مثل النطق بكلمة (قدر - qadr) .

وقد أطلق اللغويون على عملية تقليب الصوامت لتعطي جذورها الممكنة وصف (الاشتقاق الكبير) ، وأطلقوا على عملية تغيير أحد صوامت الكلمة لخلق مادة جديدة وصف (الاشتقاق الأكبر) .

وإذن يتحصل لدينا للاشتقاق ثلاثة أنواع :

الأول : الاشتقاق الأصغر ، وهو (أخذ الكلمات من المادة بواسطة إقحام الحركات في الصوامت) ، سواء اقتصرنا على هذا الإقحام ، وهو ما يسمى بالتحول الداخلي ، أو أضفنا إليه استخدام طريقة الإلصاق .

الثاني : الاشتقاق الكبير ، وهو (الحصول على جذور مختلفة من مادة ذات صوامت مشتركة بواسطة التقليب) .

الثالث : الاشتقاق الأكبر ، وهو (الحصول على تنوعات من الجذور بواسطة تغيير أحد الصوامت الأصلية) .

ومن أجل هذا توصف اللغة العربية بأنها لغة اشتقاقية ، لأنها تتوصل كلماتها عن طريق استخدام المادة بجميع صور الاستخدام .

فنحن عن طريق الاشتقاق الأصغر نحصل من المادة بالشروط السابقة على : صيغ الأفعال الثلاثة : الماضي والمضارع والأمر ، كما نحصل على صيغ المشتقات وهي اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وأفعال التفضيل ، وأسماؤه الزمان والمكان واسم الآلة ، وفعل التعجب والمصدر الصريح ، والمصدر الميمي ، واسم المرة ، واسم الهيئة .

ولابد من الإشارة إلى أن اللغة العربية تتميز بهذه الطريقة في الاشتقاق على اللغات الأوروبية ، فلم تعرف اللغات الأوروبية هذا (التحول الداخلي) في الحركات ، بل اقتصر على طريقة تسمى (طريقة الإلصاق) .

ب - الإلصاق : ويقصد به أن يضاف إلى أساس الكلمة زائدة في صدرها تسمى سابقة : (Prefix) ، أو في عجزها تسمى لاحقة : (suffix) ، أو في وسطها تسمى حشوا (infix) ، ويغلب على اللغات الأوروبية الاعتياد على السوابق واللاحق في صوغ الكلمات ، ويقل - إن لم ينعدم - استعمال الحشو ، أي : التدخل في قلب الكلمة بالتغيير أو بالاضافة ، وكل ذلك يطلق عليه مصطلح (الإلصاق) Affixation .

فالكلمة في الفرنسية مثلا ذات نواة ثابتة مكونة من صوامت وحركات معا ، مثل sable ثم يضاف إليها ، أو يلصق بها لواحق مثل : sable (er) ، ومثل sabl (e) ، سوابق مثل : en — sabler ، وذلك بإدماج السابقتين . أو هما معا مثل : des — en — sable — ément ، غير أن النواة الأصلية لا تخمس أية صورة من الصور الاشتقاقية وهذا يحصلون في الفرنسية أو في الإنجليزية على جميع المشتقات .

أما في العربية فاننا نستخدم إلى جانب (التحول الداخلي) عملية (الإلصاق) فندخل على المادة بعض السوابق واللاحق والدواخل أو الحشو ، في شكل مقاطع كاملة ، تحمل بالقوة معنى وظيفة لغوية ، وبذلك نحصل على قدر وفير من الكلمات .

وقد عرفت العربية حروفا خاصة تستعملها في زيادة البنية ، تسمى (حروف الزيادة) وهي مجموعة في العبارة : (سألتمونيها) ، ومن هذه الحروف زوائد فعلية كالمزة والسين والتاء والنون ، وزوائد اسمية كالميم والهاء ، وزوائد مشتركة كالألف والواو والياء واللام . على أن هذه الحروف لا تزداد مجردة ، بل لابد من اقترانها بحركات مناسبة لتصبح مقاطع كاملة ، ثم تضاف في موقعها ، واحدا أو أكثر ، لتحقيق البنية الاشتقاقية المرادة . وهذا الذي نقرره هو خلاف ما جرى عليه الصرفيون ، فقد تصوروا دائما حروف الزيادة مجردة عن الحركات ، وهو نقص في البيان لا ينبغي التغاضي عنه .

ولا ريب أن الالتصاق يحتاج إلى مزيد إيضاح لتحديد دوره في تنمية موارد اللغة العربية .

وعملية الالتصاق لا تبتعد كثيرا عن عملية التركيب ، من حيث كونها جمعا بين عناصر مختلفة في تكوين واحد ، غاية ما هنالك أن التركيب يقوم على أساس الجمع بين عناصر مستقلة ، ذوات دلالة ، أما الالتصاق فهو جمع بين عنصر ذي دلالة ، وعناصر أخرى لا دلالة مستقلة لها ، بل هي مجرد حروف تظهر معانيها في غيرها ، وهي في الواقع أقل شأنًا من حروف المعاني التي تؤدي وظيفتها في التركيب مع احتفاظها باستقلالها الشكلي .

ولقد كان من الممكن من الناحية التنظيمية المحضة اعتبار الحركات المتغيرة وحدات صرفية (الظاهرية) دالة على الوظيفة الاشتقاقية ، كالفاعلية أو المفعولية ، إلى جانب الصوامت اللواصق ، لولا أن الخصائص الصوتية للغة العربية قد فرضت أن يعالج جانب الحركات في إطار مفهوم (التحول الداخلي) ، لأن الحركات لا تكون بذاتها مقطعا عربيا ، ويبقى جانب الصوامت في أشكالها المقطعية ليعالج تحت مفهوم (الالتصاق) ، باعتباره داخلا في التنظيم المقطعي .

هكذا يتضح لنا من خلال استعراض خصائص اللغة العربية أنها لغة حية على أعلى مستوى بما تملكه من (استراتيجيات) عالية ، بين اللغات الأخرى ، فهي لغة القرآن أي مفتاح الإسلام ، فكل المسلمين مطالبون بتعلمها واستعمالها وإن كانوا من غير العرب ، وهي اللغة العالمية التي تتمتع بالوضوح والسهولة وسلامة البنيان والإيجاز والقصد إلى حقيقة الأمور ، وهي اللغة التي تمكن أبناءها من استعمالها - إذا فهموا أصولها وعرفوا قدراتها - وتوفر لهم المقدرة على اشتقاق الألفاظ والصاق الكلمات ونحت المصطلحات .

كفيع يستطيع أبناء العربية اليوم أن يجعلوا من لغتهم مقوما أساسيا لاهتمامهم العلمية وحضارتهم التقنية المنشودة ؟ وهل قام بذلك العرب والمسلمون في سالف الزمان ، حتى نفتدي بهم ونترسم خطاهم ؟ نعم كانت الحركة العظمى للترجمة والتعريب التي شرفت بها عصور النهضة الحضارية لا سيما العصرين الأموي والعباسي حين ازدهرت العلوم وتقدمت الفنون وارتقت المعارف وانتشرت أشكال الحضارة .

الفصل الرابع

الحركة المعظمى للترجمة والتعريب في العالم الاسلامي

أولاً : العصر الأموي :

إن أول ترجمة ذات طابع علمي ، وقعت في الاسلام كانت على يد خالد بن يزيد بن معاوية المتوفي (٨٥هـ - ٧٠٤م) الذي تخرج في علوم الحكمة على رهبان مدرسة الاسكندرية كمريانوس ، واسطفانوس ، وبذل العطايا والهبات وبذل المال ، لأهل الحكمة ورؤساء الصنعة والمترجمين الذين قاموا بنقل كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات ، ويقول ابن النديم : « لقد كانت له عجة للعلوم ، . . فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر ، وقد أجادوا العربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل كان ، أي في الاسلام .

ولم يكشف هذا الأمر بالنقل والترجمة ، بل أسهم في التأليف بنفسه ، حيث سُميت تأليفه بأنها أول تأليف في مجال الحكمة . ثم جاء الخليفة مروان بن الحُكم فوجه بعض همته الى النقل فترجم له ما سر جويه البصري كتاب اهرؤن بن اعين القس من السريانية ويُعدُّ من الكتب النفيسة التي تناولت الحكمة وغيرها .

وسار عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) على منوال والده في الاهتمام بالنقل والترجمة ، حتى ليعُدَّ هذا الخليفة أبرز خلفاء بني أمية اهتماماً بالتعريب والترجمة ، حيث وجَّه همته الى ترجمة الدواوين الى العربية ، لأن دواوين مصر كانت ما زالت بالقبطية ، ودواوين الشام بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ، وبذلك وضع لبنة قوية في صرح بناء القومية العربية ، وتأصيل التعريب .

ولما كانت خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ) عثر على اهرؤن في خزانة موروثات الخلافة ، فأخرجه ، وحثَّ المسلمين على قراءته والانتفاع به لما له من أثر كبير في التفكير الفلسفي ، واحتوائه على ألوان من الحكمة ذات القيمة في بناء الحياة الفكرية .

ومما يُذكرُ بالثناء ما قام به أبو العلاء سالم ، كاتب هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) من نقل رسائل ارسطو ، وكان سالم هذا ممن يجيدون العربية واليونانية ، حتى أنه أعاد النظر فيها سبق ترجمته وأصلح كثيراً من أخطائه .

ثانياً : العصر العباسي :

جاء العصر العباسي فأخذت الترجمة فيه طابع الشمول والغزو- كما عبَّر بذلك الدكتور عفيفي - فبعد أن كانت في نطاق رغبة الخلفاء لإشباع نهمهم العلمي ، أصبحت سُنَّة من سنن الدولة ، ومنهجاً من مناهج الأفراد والأسر ، وذلك عندما كثر اختلاط العرب بأبناء الدول المفتوحة من الخليج الى المحيط ، فاستشعروا الحاجة الى علوم ومعارف

لم تكن لهم بها صلة ، أو كانت ولكنها كانت صلة ضئيلة ، فأرادوا الاستزادة منها ، فقرأوا العلماء والأطباء والحكماء ، وأهل الفنون والأدب ، والحساب والفلك ، وأجزلوا لهم العطاء .

فهذا أبو جعفر المنصور (١٣٥ - ١٥٨ هـ) ثاني الخلفاء العباسيين كان مولعاً بالطب والنجوم والفلك والهندسة فكاتب ملوك الروم يطلب منهم ما لديهم في هذا الشأن فبعثوا اليه كليات اقليدس في الهندسة ، وفي الطبيعيات ، وفي ذلك يقول المسعودي : « كان أبو جعفر المنصور أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية ، منها كتاب : كليلة ودمنة ، وكتاب السندهند ، وتُرجمت له كتب أرسطوطاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطي لبطليموس ، وكتاب الارثاطيقي ، وكتاب اقليدس ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى عملها .

وكان جورجيس (١٦٠ - ٧٧٧ م) رئيس أطباء جنديسابور قد استقدمه المنصور ليكون طبيبه الخاص ، لما شاع عنه من مهارته الطبية ، وكان يجيد اليونانية والفارسية ، فقام بترجمة كثير من كتب الطب اليوناني والفارسي ، وسار أولاده وتلاميذه كبختيشوع وسرجيس على نهجه في الترجمات الطبية .

وسار الرشيد على منوال أسلافه ، فحينما افتتح عمورية وأنفرة انتخب من أبنائها فريقاً من العلماء والتراجمة وجعلهم في حاشيته ، وطلب اليهم أن يبتناروا عيون الكتب التي وُجدت في مكتبات هاتين البلدتين ، فاحتاروا الكتب النادرة التي لا توجد عند غيرهم من الأمم في ميدان الطب والفلسفة والفلك ، ونقلوها الى بغداد ، وأمر الرشيد آنذاك أبا زكريا يوحنا بن مسوية (٢٤٤ هـ) أكبر أطباء عصره أن يري هذه المنقولات ، وأن يعنى بترجمتها وأن يختار في سبيل إنجاز هذه الترجمة من يعاونه من أحسنوا اللغات الى جانب العربية .

كما طلب الرشيد الى طبيبه الخاص منكه الهندي ان يتولى نقل الكتب من الهندية الى العربية ، فنقل عدة كتب تبحث في الطب على طريقة الهنود ، ومن أسهم في النقل معه ابن دهن الذي كان يشرف على بيارستان البرامكة .

ولما آلت الخلافة الى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) سار سيرة والده ، بل أشرف على الذروة ، حيث وجه همه الى الترجمة والتأليف ، حيث كان يميل بطبعه الى كتب الحكمة ولا سيما كتب الفلسفة والمنطق ، لأنه كان معتزلي النزعة ، مؤيداً لسلطان العقل ، وحرية الرأي ، ومن ثم أكثر من ترجمة هذا اللون ، لأنه رأى فيه خير معاون على دعم العقل ، وتحكيم المنطق ، مما دعا الى بروز علم الكلام واستوائه فتأله متاهجه وقضاياه المعينة . ولقد وصف صاعد الأندلسي مدى ازدهار هذه الانتفاضة الفكرية ، واعتادها على حركة الترجمة والتعريب فقال : لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع عبدالله المأمون ، ثم ما بدأ به المنصور ... فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه ، بفضل همته الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم ، وأحفهم بالهدايا الخطيرة ، وأسألم صلتهم بما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وإبقراط ، وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فانتار له مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حصص الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفتحت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره .

حقاً ، لقد كان « بيت الحكمة » في بغداد بمثابة أكاديمية علمية تنقسم الى أقسام متعددة للنقل حسب اللغات ، وفيها قسم للتأليف وآخر للبحث . وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمت الى اللغة العربية حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست نحو (٤٠٠) كتاب ، منها (١٤٩) في الطب فقد ترجم من كتب جالينوس (٥٣) كتاباً ، ومن كتب روفس (٤٣) كتاباً ، ومن كتب أبوقراط (١٠) كتب ، ومن كتب ديسقوريدس كتابان ، ومن كتب فولس الاجانيطي كتابان ، ... الخ :

أساليب الترجمة والتعريب في هذه الحركة العظمى :

أولاً : الترجمة اللفظية : وفيها يعتمد المترجم الى النص ، ويقوم بنقله كلمة بكلمة وحرفاً بحرف ، وهذه الترجمة الحرفية مردولة لأن الترجمة تأتي مفككة ليس بين كلماتها كبر ارتباط أو سياق يحكم وحدتها ، فضلاً عن أن كثيراً من الكلمات الفنية ليس لها مصطلحات تقابلها في العربية ، أضف الى هذا أن التعابير ذات الصيغة المجازية لا يتيسر لترجم أن يقوم بنقلها بعينها إلى اللغة المترجم إليها ، لأن ثمة فارقاً كبيراً بين الحقيقة والمجاز . وكان على رأس هذه الطريقة : يوحنا بن البطريق ، وعبد المسيح الحمصي ، والخطير في هذه الطريقة ان الترجمة كانت تتم أولاً من اليونانية الى السريانية ، ثم تنقل من السريانية الى العربية ، ففي هذه الدورة - ولا شك - يقع ابتعاد عن الاصل المترجم عنه .

ثانياً : الترجمة المعنوية : ويعتمد فيها الكاتب أو المترجم الى تفهم عبارة النص ثم يقوم بترجمة فحواها الى العربية ، وهو بذلك يكون أكثر سداداً لأن المقصود ليست الألفاظ ، ولكن المقصود هو الفكرة الدقيقة التي يريد بها المؤلف ، وكان عميد هذا الاتجاه : حنين بن اسحاق .

حين كانت تند إلى العرب ألفاظ وكلمات من اللغات المجاورة ، لم يكن يوسعهم أن يطردوها بعيداً عن ألسنتهم ، ولقد حدد أبوحيان وسائل تعاملهم معها بما يلي :

- (١) تغيير بعض الألفاظ الوافدة وإلحاقها بأبنية كلام العرب .
- (٢) تغيير بعض الألفاظ الوافدة وعدم إلحاقها بأبنية كلام العرب .
- (٣) ترك بعض الألفاظ دون تغيير .

كذلك فقد نقل شحادة الخوري عن الأمير العلامة مصطفى الشهابي تعديده للمسالك الشتى التي اتبعها المسلمون في عصور نهضتهم العلمية العظمى فيما يلي :

- (١) تحويل المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد .
- (٢) اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد .

(٣) ترجمة كلمات أعجمية بعمانيها .

(٤) تعريب كلمات أعجمية وعددها صحيحة .

وإنما للفائدة ، فإن د / شاهين درس هذه المسألة وكانت خلاصة ماتوصل اليه الآتي :

المعاملة الأولى : معاملة اللفظ الأعجمي كاللفظ العربي .

المعاملة الثانية : أن يتركوه على حاله في لغته وينطقوه كما هو .

ولقد كان العرب يغربون الحروف الأعجمية الى حروف عربية ، وبما لوحظ مثلا أنهم كانوا يبدون صوت الباء فاء والهاء قافا او جيم ، فيقولون في بسة : فستق ، وفي بالوذة : فالوذج ، ويقولون في paradius : فردوس : وفي استبره : استبرق ، وربما قلبوا الخاء هاء كما في (دراخمة) التي صارت : درهم ، وهناك أمثلة كثيرة على ابدال اصوات أخرى ، ولكن المتبع للتبدلات الصوتية يجد أنها لم تحر في لسان الأقدمين على قاعدة مطردة ، ويبدو أن العامل الذي يتحكم فيها متغير في كثير من الاحوال ، ومن ثم لم تطرد قاعدتها ، غير ان هناك مقاييس عامة استقر عليها الأقدمون يمكن الاحتكام اليها في معرفة اللفظ الأعجمي ، سواء عرب أم بقيت له عجمة ، ومن ذلك أنهم قالوا :

١ - لم تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية ، فمتى جاءت في كلمة فاعلم أنها معربة ، ومن ذلك كلمة (جرندق) : اسم .

٢ - لا تجتمع الصاد والجيم في كلمة عربية ، فاذا اجتمعتا في كلمة فهي معربة ، مثل : الجص . وليس في كلام العرب زاي قبلها دال ، ولذلك قالوا في مهنلز : مهندس .

٣ - ليس في أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ، وما جاء من ذلك معرب ، مثل نرجس .

٤ - ليس في كلام العرب وزن فعالان ، كخراسان .

٥ - ولا وزن فاعيل ، كقاييل وهابيل .

٦ - ولا وزن فعاوليل ، كسراويل .

ولايب أن أوزان الكلمات الأعجمية أكثر من أن تحصى ، لأن الأعجمي واد من لغات كثيرة ولكل لغة نظامها الصرفي الذي يميزها عن غيرها ، فهذه الضوابط إذن تعتبر من قبيل التمثيل لاعل سبيل المحصر .

ويستطيع من شاء أن يرجع في أمر المعرب في اللغة قديما الى المراجع التي تخصصت في دراسته ، ومن ذلك كتاب « المعرب » للجواليقي ، وشفاه الغليل فيها في كلام العرب من الدخيل ، للشهاب الخفاجي ، « والطراز المذهب في الدخيل والمعرب » لمحمد تهاني ، « والدليل الى مرادف العامي والدخيل » لرشيد عطية .

ولقد بقيت مشكلة التعريب محصورة في اطار هذه الافكار الى ان ضعفت العربية في مواجهة اللغات الحديثة ، وأصبح لزاما على أثباتها ان يعالجوا نقاط ضعفها ، وان يعينوها على مواكبة التغيرات المعاصرة .

فحين جاء المجمع اللغوي بالقاهرة ليعالج هذه المشكلة أصدر قراره الذي يقول : « يميز المجمع ان يستعمل بعض الالفاظ الأعجمية - عند الضرورة - على طريقة العرب في تعريبهم » .

وإنما قال : عند الضرورة - لأن المجمع في قرار آخر يفضل اللفظ العربي القديم على المغرب الا اذا اشتبه العرب ، كما سبق ذكره .

نتائج حركة الترجمة والتعريب الاولى في العالم الاسلامي :

لقد نمت اللغة العربية على أيدي المسلمين في عصور النهضة العلمية العظمى بفضل ما أوتوا من اقتدار على الاشتقاق والتعريب ، فأفسحت العربية صدرها للعلوم الأجنبية عنهم ، ولو تقاعسوا أو وجدوا أو اكتفوا بما سمع عن كان قبلهم ، لفصرت اللغة عن أداء المعاني العلمية ولفقدت اللغة العربية ألوانا من أسرار المعاني ومن المصطلحات العلمية التي اشتملت عليها الكتب المترجمة فيما بعد . ولقد كانت هذه التجربة الاولى في العالم الاسلامي نبراسا لقدرة اللغة العربية على التوسع والأغتناء وعلى التعبير عن دقائق العلوم ، وقد أضحت لغة العلم قرونا عديدة من الزمن .

ولقد لخص لنا د / عفيفي أهم النتائج المتحصلة من هذه الحركة بل النهضة العظمى كما يلي :

١ - رحب أفق الثقافة العربية فوسع علومنا وفنوننا وفلسفات لم يكن لها علم من قبل ، أو كانوا على الملأ ضئيل ببعضها ، فأفادوا سعة وعمقا وخبرة .

٢ - بلغ التطور درجة ملحوظة في العصر العباسي الذي يعتبر أزهى عصور الترجمة والنقل وأقيمت من أجلها الدواوين ودور الحكومة والمدارس ، وكثر استقدام العلماء من متعددي اللغات فمن اليونانية الى السريانية الى الفارسية الى القبطية الى الهندية ، حتى اذا استقر الأمر بانتهاء دور الترجمة ، كانت حضارة العرب تفتحت ، وأبنت ثراها ، وأخذت تملأ مسامع العالم المعمور يومئذ ، حتى قال العالم (ليبري Libri) : « احذفوا العرب من التاريخ ، يتأخر عصر التجديد في أوروبا عدة قرون » .

٣ - أصابت اللغة العربية في قاموسها غنى ، بما دخل اليها من مصطلحات وتعابير جديدة في مختلف العلوم والفنون ، وهذا يدل على مرونتها وقدرتها على الاستيعاب والضمم وتجاوبها مع التقدم العلمي .

وأفادت غنى في أدبها وتشريعها من حيث المقاييس والقيم ، واعتناء المقدمات والنتائج والمنهج المنطقي في التقسيم والبراهين .

٤ - لقد كان العرب على ميعاد مع القدر ليحملوا عبء الفكر الانساني ويسيروا به قرونا عديدة ، فبمجرد أن اطلموا على العلوم والثقافات الأجنبية التي ترجمت ، انطلقوا يطبقونها ويشرحونها ، ويقتنونها ويضيفون إليها جديدا نتيجة الممارسة والتجربة والاستقصاء والملاحظة .

فأتاحت لهم هذه التجربة الفريدة من حملهم هذه الرسالة العلمية أن يتركوا بصابتهم شاهدة ، وأن يسجلوا عملهم على صفحات التاريخ ، وأن يتقدموا بالعلم والفنون والثقافات خطوات على طريق الحضارة .

٥ - لقد أثمرت هذه الكنوز التي نقلوها ، وهذه الثقافات الأجنبية التي أضيفت الى التراث العربي ثمرتها المرجوة ، فأحدثت تطورا كبيرا في العقلية العربية ، ووافقت الفكر الانساني وخطت بالحضارة الاسلامية خطوات نحو الرقي والازدهار .

٦ - لقد قدم المسلمون للانسانية خدمة جليلة بنقل هذا التراث الانساني والمحافظة عليه من العبث والدمار حيث كان مصيره الضياع لولا أن قبض الله له العرب ، ولم يفعلوا به ما فعله الفرنجة في اسبانيا عندما أجلوا المسلمين عنها أو ما فعله المغول والتتار عندما هاجموا البلاد الاسلامية ، ودعوا بالتراث العربي والاسلامي في البحر وحرقوه .

٧ - ان التراث العلمي الذي قدمه لنا المترجمون من نقل أو تأليف يحسن بنا أن ننظر اليه في شيء من الحيلة ، لأن الترجمة أحيانا لاتكون دقيقة ، كما أن التأليف قد لاتكون تأليف خالصة ، وإنما هي نقول وتلخيصات .

الفصل الخامس

التجارب المعاصرة في بعض الدول

بعد أن أوضحنا تأثير اللغة العربية في اللغات الحية الأخرى ، ثم بينا جوانب من الحملة الحاقدة على لغتنا العظيمة ، وعرضنا لأهم خصائص هذه اللغة وهي التي أبقت عليها حية عبر العصور ، وكذلك أصبح واضحا أمام كل ذي عقل وبصر مدى مقدرة العربية على استيعاب مصطلحات التكنولوجيا المعاصرة ، أضحت أمر التعريب ضروريا إذا أردنا نهضة علمية مرموقة في مستقبل أمتنا العربية والاسلامية بوجه عام ، ولعل التجارب التي قامت بها بعض دول العالم وتشعوبه في الاعتداد على لغاتها من الأدلة الدامغة على امكانية القيام بهذه المهمة المصيرية ، وعلى ارتباط اللغة بحركات التقدم العلمي والحضاري عموما .

التجربة اليابانية : من المعروف ان العلوم نوعان : علوم أساسية ، وعلوم تقنية (تكنولوجيا) ، ومن المعلوم أيضا انه ليس في وسع أمة ما ان تعيش عيشة محترمة وتضمن استقلالها وتصون كرامتها ما لم تتضلع بالعلم ، سواء منه الاساسي أو التقني ، وربما كان النوع الثاني وما يتصل به من الامور الفنية في التصنيع والزراعة أجدى وأنفع من النوع الاول في النهضة المادية للأمة ورفع مستواها المعاشي .

أوضح د / فاضل الطائي أن اليابان قد فطنت الى منافع هذا النوع من العلم وتأثيره الكبير في رفع الحياة المعاشية لسواد شعبها فأعازته اهتماما يليق بما له من فوائد جمة ورعته رعاية يستحقها فارسلت بعوثها الى الأمم التي برزت في العلوم التطبيقية كالدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية آنذاك لدراسة هذا النوع من العلم ، كما أوغدت القليل من بعوثها لدراسة العلوم الأساسية . ولما عادت بعوثها بدأت بصنع الآلات الزراعية الحديثة وبناء المعامل التي تستخدم مواردها الطبيعية ولم يكن التصنيع والبناء بجديدين بل نقلت ماهو معروف في أوروبا وأمريكا الى بلدها وأفادت منه فائدة كبيرة في الحفاظ على دخلها القومي أولا ثم استغلال الأيدي العاملة استغلالا يضمن رفع مستواهم الاقتصادي والاجتماعي ، كما صيرت من خاماتها الطبيعية موارد تجارية تدر عليها الربح الكثير . وخلصا القول ان اليابان قد اعتمدت في ابان نهضتها على التقليد والنقل لما كان موجودا في الأمم التي سبقتها في المضمار الحضاري المادي . وعندما اطمانت الى مستوى شعبها المعاشي ودخلها القومي تبنت الاهتمام بالنوع الثاني اي التكنولوجيا من العلم . فتعاون علماءها من النوعين الأساسي والتقني وانطلقت الى العالم بنهضة قومية وفي فترة قصيرة جدا كانت موضع دهشة الأمم الأخرى واعجابها ، وجعلت من لغتها الرسمية أداة مستعملة في شتى العلوم ومختلف المجالات ، حتى أننا نرى بحوثهم منشورة باللغة اليابانية وان كانوا يلحقونها بملخصات باللغة الانجليزية .

التجربة الصينية : اذا كانت اليابان قد عنيت منذ بداية نهضتها العلمية والتكنولوجية بالتكوين الأساسي لمبادئ العلوم ثم تدرجت صاعدة من خلال لغتها القومية ، التي أكسبتها الامتلاك الحقيقي للقاعدة التكنولوجية ، بالرغم من الصعوبة الاسطورية التي تواجه الفرد في ممارسة تلك اللغة ، حيث إن حروفها يبلغ عددها عشرة آلاف حرف فان عدد حروف اللغة الصينية أكثر من اليابانية فهي تحتوي على ٤٤٤٤ حرفا ، وبالرغم من ذلك فقد ابتكرت بما يشبه الاعجاز آلة الكتابة التي تستطيع ان تستوعب تلك الحروف ، واستطاعت أن توحد اللغة الصينية حيث كانت تنجز الى ٣٠٠ لغة ، ثم استطاعت أن تلغي من قاموسها « اللغة الانجليزية » في مختلف أنواع العلوم والتكنولوجيا .

التجربة الفرنسية : لقد تخلصت فرنسا من عقدة تدريس العلوم بالانجليزية ، حين اتخذت الدولة قرارها بـ « فرسة العلوم » وخاصة العلوم الطبية منها ، وشجع القرار بنجاح التجربة ، واستقرت العلوم بالفرنسية ونهضت فرنسا حتى أصبحت اللغة الفرنسية لغة عالمية في تعلم الطب حيث انتشرت في بلاد كتونس والجزائر على سبيل المثال .

التجربة الروسية : استطاعت روسيا ان تغضي عن الأمية وان تنقى اللغة الروسية من الالفاظ الأجنبية ، وأن تدخل بتخطيط علمي وبشكل حاسم اللغة الروسية في مختلف أوجه العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، حتى تمت للروس السيطرة اللغوية على لغة التعامل « العلمي والايديولوجي » - على حد تعبير مجلة شئون عربية ، العدد ٢٨ - ، فأصبح في كل مجال من مجالات التقدم العلمي والرفقي التكنولوجي أسماء روسية متميزة وعلماء بارزون ينافسون كثيرا من أضرابهم في مختلف دول العالم ، ولعل بحوثهم التي ينشرونها باللغة الروسية للدليل على إصرارهم على نشر هذه اللغة وافرارهم لغة للرفقي والتقدم بعد ان كانت اللغة الانجليزية هي الاداة المستعملة في العلوم والتقنية عندهم قديما . ولكننا يجب ألا نغفل جانباً على درجة كبيرة بل وخطيرة من الأهمية في النهوض والرفقي العلمي ، وذلك هو جانب

الترجمة ، فلقد تبين (لينين) في أوليات - هذا القرن - بعد الثورة البلشفية - انشاء جهاز للترجمة الضخمة أربى العاملين فيه على مائة ألف مترجم لنقل العلوم الغربية الى اللغة الروسية ، وقد كان يشرف بنفسه على هذا الجهاز الخطير الذي حقق المعجزة ، ومازالت أجهزة الدولة السوفيتية تستخدم أكثر من مليوني مترجم لجميع لغات العالم منها واليهما .

التجربة الفيتنامية :

لفيتنام في مجال « فنتمة » العلوم تجربة جديرة بالتأمل والدراسة ، فلقد احتج الأطباء في فيتنام بعدم امكانية « فنتمة » كلية الطب لأن المصطلحات الطبية تتميز بعموميتها والفاظها الخاصة بها ، وطلبوا من « هوشي منه » أن يمهلهم خمسة أعوام لذلك العمل ، ورفض « هوشي منه » ذلك الحل المتباطيء ، وحسم القضية بقوله : تستطيعون ان تقوموا بالدراسة بشكل متواز ، بمعنى ان تقوم الدراسة باللغة الفرنسية - لغة العلوم آنذاك عندهم - وفي نفس الوقت تتعلمون الفيتنامية ، على أن تجري الامتحانات في نهاية السنة باللغة الفيتنامية . ونجحت التجربة ، وتخلصت فيتنام من عقدة الخواجة في نهضتها العلمية المعاصرة .

حتى اليهود لهم تجربة : فاستطاعت التجربة اليهودية أن تعيد احياء اللغة العبرية بالرغم من تعدد الألسنة واللهجات ، وأن يجعلها اللغة الأولى للتعلم في مختلف الكليات العملية والنظرية على السواء ، فالطب والهندسة والعلوم تدرس بالعبرية بالرغم من أنها لغة ميتة ،

فهل لنا تجربة ؟

الفصل السادس

تجربتنا في تعريب العلوم المعاصرة ومشكلاتها

هناك فرق كبير بين حركة الترجمة والتعريب الأولى في العالم الاسلامي وبين الحركة أو النهضة التي نحن بصدها ، ويعني آخر - حسب تعبير د/ عادل العوا أستاذ الهندسة بجامعة دمشق - فإن القياس على ماحدث في عصر المأمون حين أنشئ بيت الحكمة قياس غير دقيق ، فالترجون في بيت الحكمة كانوا يترجون عن ثقافات وحضارات في حالة سكون ، ثقافات ثلوية في الكتب يمكن - بعد وقت طويل أو قصير - أن تتم ترجمتها كاملة ، أما نحن في وضعنا الراهن فلاحق تيارات ثقافية وفكرية تمور بحركة علمية مذهلة في تطورها وتقدمها .

فالعربية في العصر الحالي تواجه طوفانا من المصطلحات العلمية ، تواجهه أكثر ما تواجهه من اللغة الانجليزية ، ولايجب أن نغفل هذه الحقيقة ، وان كانت اللغة الفرنسية في بداية هذا القرن ذات انتشار عالمي ، فالانجليزية هي بلا شك صاحبة الحظ في أيامنا الحالية ، وكان مما زاد الانجليزية توسعا وامتدادا هو سيطرتها على أكثر القارة الأمريكية تقريبا .

إذن على العربية أن تواجه هذا الطوفان بمرونة كبيرة حتى تستطيع أن تستوعب محدثات العصر ومصطلحات علومه ومكتشفاته وغترعاته ، وأصبح الأمر يميل على المترجمين أن يجدوا وسائل لاستيعاب كل جديد يظهر في عالم التكنولوجيا والتقدم ، وليست هذه الوسائل سوى (التعريب) على أن يأتي ترتيبه في التطبيق بعد نفاذ الوسائل : القياس - الاشتقاق - النحت ، فحين يستنفد العربي هذه الوسائل فإنه لا محالة يلجأ إلى التعريب لمعالجة المادة الأجنبية .

إن المصطلحات العلمية في تزايد مستمر بل إنها لتتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان فيزيد عددها يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى ، حتى أضحي مجرد حصرها مشكلة تعرض للفنيين والمتخصصين ، وأضحت دور النشر تفرج علينا بين الحين والآخر بمعاجم تتفاوت أحجاماً وأشكالاً ، وتختلف في لغاتها وطرائقها ، فمنها ما يصدر بلغة واحدة ، ومنها ما يصدر بلغتين ، ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر فملاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو مستحيلاً لأسباب ، ليس أقلها شأن أن العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات ، وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين ، وأن الكثير منها إما رأى النور وعرفته الإنسانية في مطلع هذا القرن ، بل وبعد أن تنصّف ، فمن أين تأتي الجذور العربية لهذه المستحدثات والمستعذات والنظريات التي لم يكن للعرب بها علم .

إننا نكلف العربية شططا ، ونكلف أنفسنا جهداً لا طائل محته ، إن نحن صممنا على التنقيب في بطون المعاجم عن أصول عربية للميكروسكوب والترموتر والالكترون والنيوترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوف ، فما علينا إلا أن نبحت وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فيها ونعمت ، والأفني التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية في كل علم وفن ، ويسعنا ما وسع الأقدمون من استعمال أريثاطيقا وميتافيزيقا وجومطريا واسطرونوميا وغيرها .

إن للتعريب في عائلتنا العربي خاصة والاسلامي عامة بعدين : أحدهما اجتماعي والآخر لغوي ، فاما الاجتماعي فيقول فيه الدكتور عبي الدين صابر ، المدير العام لليونسكو العربي ، في حديث له إلى جريدة (الشرق الاوسط ١٢ / ١٩٨٢) : إن التعريب ليس قضية لغة ، بل هي قضية حضارية أساسية تواجهنا حالياً ، اللغة ليست ألفاظاً ، بل فكري وبالتالي لابد من تطوير المجتمع العربي ، واستيعاب حضارة العصر ، وذلك لا يتم إلا عبر اللغة كوسيلة وكأداة ، اليابان مثلاً ، وهو مثل تقليدي - أوجدت شخصيتها عبر لغتها الخاصة ، وقد أصبحت اللغة اليابانية لغة تكنولوجية حديثة ، أي لغة لها عمق تاريخي وثراث ضخم ، من حقها أن تكون مثل اللغات الأخرى . بالنسبة للغة العربية ارتبطت كثيراً بالتراث ، خاصة التراث الاسلامي ، هذا العامل أغرى الغرب على غزابة اللغة العربية ، الاستثمار حين أسس المدارس الحديثة حرص على إبعاد اللغة العربية ، وقد أنقصت عن المجالات الإدارية والاقتصادية والتقنية ، وبالتالي أصبحت معرفة اللغة العربية لاتجدي نفعاً في المجتمع العربي ، وهذا وضع شاذ ، لقد حورت اللغة العربية في عقر دارها ، أساتذة اللغات في الغرب هم أفضل الاساتذة ، ولا أود أن أتحدث عن وضع أستاذ اللغة العربية في المدارس العربية .

الغرب أراد أن يدفعنا لاحترار الذات ، لأننا للأسف احتقرنا لغتنا ، وكما ترى فإن قضية التعريب مرتبطة بمجموع الكبرياء القومي .

هل هناك فرق بين الترجمة والتعريب ؟

أحياناً تكون الترجمة العربية لنص أجنبي ترجمة حرفية ، من حيث الأساليب ، فقرأ الأسلوب فنحس أنه أسلوب أجنبي على الرغم من أنه مكتوب باللغة العربية ، أما إذا أضفى المترجم على النص الأجنبي صفة العربية على العلوم ، أي أعطاه صبغة عربية ، فإنه يكون قد عربّه ، وبالتالي فالتعريب أشمل وأجود من الترجمة . أما من حيث المفردات ، فالتعريب هو اختضاع اللفظ الأجنبي لأوزان عربية كما سيتضح في موضع قادم في القسم الحالي .

يفرق الدكتور عادل العوا بين الترجمة وبين التعريب بقوله : نقوم بترجمة كتاب أو نص من أي لغة إلى اللغة العربية مثلاً ، فهذه ترجمة . والترجمة هنا هي عملية نقل المعرفة ، وهنا ينشئ سؤال : ماذا أريد من هذه الترجمة ؟ فإذا كنت أريد من نقل هذه المعرفة أن أتبع الفرصة لثقافتنا العربية لكي تتجاوز مع ثقافة جديدة ، أن تتلاقح معها ، لتنمو ثقافتنا وتزدهر ، وتصبح أكثر قدرة على الاسهام في الثقافة العالمية ، وفي النهضة العلمية العالمية ، فهذا هو التعريب . إذن فالتعريب مصطلح يجب أن يطلق على ماقصده من عملية الترجمة ، وهو أن نجعل الثقافة العربية المعاصرة على المستوى المعروف عالمياً ، وأن نمغي بها قدماً ، بحيث نساهم في تقدم المعرفة الإنسانية بشكل عام .

ومن الباحثين من فصل القول أكثر في هذه المسألة فأوضح للتعريب ثلاثة معاني :

المعنى الأول : يدل على استخدام العرب الفاظاً أعجمية على طريقتهم في النطق واللفظ ، وهو مصطلح قديم . وعن هذه الطريقة دخلت اللغة العربية آلاف الألفاظ الأعجمية التي سميت « دخيلة » وسوف نفصل قولنا فيها بعد قليل .

المعنى الثاني : يقصد به الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وينصرف إلى ترجمة العلوم والآداب والفنون وسائر الترجمات الأخرى . . . وهكذا تكون كلمة « تعريب » هنا مرادفة لكلمة « ترجمة » ، وكلمة « مغرب » بمعنى « مترجم » . ويعكس التعريب ، في هذا السياق كلمة « التعميم » ، أي نقل الأثر من اللغة العربية إلى أية لغة أعجمية أي غير لغة العرب .

المعنى الثالث : وهو أن نجعل اللغة العربية لغة حياة الإنسان العربي كلها ، لغة الفكر والشعور ولغة العلم والعمل ، بها يعبر عن مكونات نفسه وخلجات قلبه وموضات فكره ، بها يتعلم ويعلم ، ولا يتقص من مقامها عنده تعلمه لغة أخرى أو أكثر ، إنها أداة للتفكير وأداة للتعبير .

وخلاصة القول أن التعريب عبارة عن ترجمة لكنها غير جافة كما أنها قابلة لاحتضان كلمة بنطقها في لغاتها الأصلية، ولاخرج في استخدام ألفاظ أجنبية تكتب بالحروف العربية اذا عجزنا في البحث لها عن مقابل في العربية .

هل هناك فرق بين التعريب والتدخيل ؟

في مرحلة البناء الحضاري والاتصال بالثقافات التي كانت سائدة حول العرب دخلت ألفاظ عديدة اللغة العربية فأداتها وأغنتها ، ففي الجاهلية أخذ العرب عن « الفارسية » ألفاظا كثيرة مثل : الابرق والسندس والديباج والزرجس ، ومن « الهندية » أخذوا : الفلفل والقرنفل والكافور والشطرنج ، ومن اليونانية أخذوا : الفردوس والقسطاس والقفطار والتريق ، ومن السريانية أخذوا : الكنيسة والكهنوت والناقوس والفدان والناطور ، ومن العربية : التوراة والأسباط والشيطان وجهنم ، ومن لغة الحبشة : النجاشي والمبر والتابوت ،

يوضح صاحب كتاب (العربية لغة العلوم والتقنية) هذا الفرق بقوله : (تدخيل) الألفاظ - كلمة من اشتقاقنا ، نضعها في مقابل (تعريب) الألفاظ ، فقد وجدنا ان اللغة تقبل بعض الألفاظ دون أن تمسها بأذى تغير ، وقد رمز لها المعجم الوسيط بالرمز (د) ، وجاء تتبعنا لألفاظ هذا الرمز مؤكدا أن اللغة قبلت من الدخيل أكثر مما قبلت من طريق التعريب ، أو هكذا بدا لنا .

ثم أتبع كلامه بعرض طائفة من الألفاظ الدخيلة في العربية مصحوبة بتعريفاتها التي جاءت في المعجم الوسيط (من مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة) وكان منها :

اردواز : حجرصلصالي

اسبيرين : استيل حمض الساليسيليك

الماس : حجر كريم هو أنفس الأحجار

انزيم : نوع من افراز الخلايا الحية

بلدوم : بيت تحت الارض للسكنى

بلهارسيا : مرض

بنسلين : مضاد حيوي

بنك : مصرف

جرافيت : معدن فحمي حديدي

جرانيت : حجر صلب ذو ألوان مختلفة

جلسرين : سائل لزج عديم اللون - حلو المذاق

جيلاتين : مادة شبة زلالية تستخرج من عظام الحيوان بالغليان

وقد أشار الى كثرة التدخيل في مجال المصطلحات العلمية خاصة النوع الخاص بـ « المسميات الجديدة » . أما عن نطاق استعمال الالفاظ الدخيلة فيقول : لقد كثر التدخيل في مجال المصطلحات العلمية ، من هذا النوع الخاص بالمسميات الجديدة ، حتى لقد نجد الفاظا دخيلة تشرحها المعاجم بالفاظا دخيلة أخرى كما جاء في معجم المصطلحات العلمية .

غير أن ذلك لا يخفى على المشتغلين بالعلوم ، ومن حسن الحظ انه ليس من عناصر اللغة عامة ، فهو محصور داخل مجال الاهتمام به ، ولذلك سأخارج أوزان الكلمة العربية ، طويل البنية ، حتى ليزيد عدد حروفه الى عشرة ، على الرغم من أن بنية الكلمة العربية لاتزيد عن خمسة في الاسماء المجردة ، او سبعة في المزيدة ، كما لاتزيد عن اربعة في الافعال المجردة أو ستة في المزيدة .

إذا وجد اللفظ الدخيل مقابل عربي مهجور ، لم يلق عناية من أهله فلم ينتشر على ألسنة الناطقين بالعربية (مثل هاتف أو مسرة بدلا من « تليفون » ، برق بدلا من « تلفراف » ، مأساة بدلا من « تراجيديا » ، وملهاة بدلا من « كوميديا ») فإما هو العمل ؟ يجب صاحب الكتاب بقوله : (هذه الكلمات كلها تحتاج الى مزيد من التنوع الثقافية لتنتشر على ألسنة أبناء العربية بدلا من الدخيلة ، فقد لاحظت المجمع اللغوي ، ولاشك ، إثارة الجاهل للفظ الدخيل فأجاز استعماله ، لكن ذلك لا يمنع من اهماله ، مع تقدم الوعي القومي واللغوي .

وإذا كان التدخيل أيسر الوسائل لمواجهة سيل بل وطوفان المصطلحات والكلمات الواردة اليها من العالم المتقدم حديثا ، فهو له أضرار ؟ يجب صاحب الكتاب بقوله : ان الحياة الحديثة تواجهنا يوميا بالكثير من الالفاظ ، التي يتعين علينا أن نستعملها ، ولاريب أن التدخيل هو أيسر الوسائل لاستعمال اللفظ الجديد ، ولكنه أشبه بالعملية الرديئة التي تطرد العملة الجيدة ، والعملية الجيدة هنا هي المقابل الاصيل عند الترجمة ، أو التعريب عندما لانجد وسيلة الى الترجمة ، غير أن بعض المتفقين يختصرون الطريق ، ويدخلون اللفظ الأجنبي ، دون أن يحاولوا ، ولو طلاءه بلون عربي ، وتلك آفة يجب أن نعمل على معالجتها وتلافي آثارها المخربة في كيان اللغة العربية .

هذه جملة من المشكلات التي تواجه حركة التعريب المعاصرة سواء على المستوى الاعلامي والثقافي أو على مستوى التعليم الجامعي ويتخذها المعارضون لتعريب العلوم والبحث العلمي ذرائع لهم في دعوهم الشائنة ، نعرضها ثم نقدم اقتراحات العلماء والباحثين من أجل تذليلها والعمل على ازالتها ، كما سيظهر في الفقرات القادمة :

١ - قلة ذات اليد وضعف الامكانيات المادية اللازمة للنهوض بحركة التعريب المرغوبة على مستوى الأمة العربية .

٢ - ردود الفعل التي تنوقها ، كأن تقوم الدول المتحدثة بالانجليزية مثلا بمقاطعة الرسائل الجامعية والبحوث العلمية التي تصدر بالعربية .

٣ - عدم تسهيل اجراءات حضور باحثينا وعلماننا ومندوبينا الى المؤتمرات العلمية العالمية .

- ٤ - عدم قدرة أبنائنا المتبعثين على استيعاب المواد العلمية في الخارج بلغات أجنبية .
- ٥ - عدم قدرة الأساتذة العرب الحاصلين على الدكتوراه والدرجات العلمية الأخرى من جامعات غير عربية ، وقد تلقوا علومهم وأجروا أبحاثهم بلغات أجنبية ، على متابعتهم البحث العلمي باللغة العربية .
- ٦ - كذلك فإن قدرة أولئك الذين حصلوا منهم على درجاتهم العلمية من جامعات عربية تستخدم لغات أجنبية للدراسة والبحث فيها ، قدرة لانسعف العقل على اخراج ملكاته باللغة العربية .
- ٧ - الأساتذة غير العرب ، الذين يتمتعون الى جنسيات متعددة ، ولكنهم يدرسون لأبنائنا باللغة الأجنبية السائدة في الجامعات التي يعملون بها .
- ٨ - عدم وجود الكتب العلمية الدراسية والمرجعية باللغة العربية أو ندرة هذه الكتب .
- ٩ - عدم وجود وسائل نشر ، وكذلك وسائل توزيع ، جيدة لدى الهيئات والجهات التي تحاول القيام بحركة تعريب في بلادنا العربية .
- ١٠ - عدم وجود اختراعات واكتشافات علمية عربية في فترة التخلف العلمي الذي أصاب الأمة الإسلامية والعربية (من ١٥١٧م وحتى الآن) ، وبالتالي عدم قدرة أصحاب العربية على التعامل مع المصطلحات المتدفقة عبر قنوات الاتصال من الدول المتقدمة في شتى مجالات المعرفة .
- ١١ - تشتت جهود الهيئات المهمة بحركة التعريب وعدم الوحدة والتنسيق بين جهودها ، مما يبطئ عملية التعريب بشدة .
- ١٢ - ظهور مشكلة توحيد المصطلحات التقنية .
- ١٣ - إغفال التراث العلمي العربي ، مما أدى الى تعريب ألفاظ أجنبية هي في الأصل عربية فحين عربناها أصبحت ألفاظا عربية مشوهة .

ضرورة توحيد الترجمة العربية للمصطلحات والوحدات والرموز والنوايت :

اختلاف الترجمة للمصطلح الواحد : تبرز ضرورة توحيد الترجمة العلمية للمصطلحات في كافة البلاد العربية ، اذا علمنا أن كل بلد من هذه البلاد يجتهد علماءه بوضع ترجمات معينة ومختلفة لنفس المسميات ، ولعل أهم أسباب هذه الاختلافات تعدد المشارب والثقافات التي اكتسبت في عصور الاستعمار الأوربي ، فمثلا تأثر أهل مصر والعراق والأردن بالثقافة الانجليزية ، بينما تأثر أهل سوريا ولبنان وتونس والجزائر بالثقافة الفرنسية . فأتى ذلك في ترجماتهم للكلمات والمصطلحات . ولكي يتضح الأمر نضرب الأمثلة التالية : كلمة «Pendulum» ترجمها العراقي بـ «رقاص» ، وترجمتها سوريا بـ «نؤاس» ، ترجمها الأردن «حقلار» وعربتها مصر بـ «بنلول» . كلمة «Alga» ،

ترجمت في مصر وفي العراق بكلمة « طحلب » ، وأما في سوريا ولبنان فترجمت بكلمة « أشنة » ، والكلمة الأخيرة تطلق في مصر على اللفظ Lichen . كلمة Endosperm ، عُرِبت في مصر بـ « اندوسبرم » ، وترجمت في بعض البلدان العربية إلى « سويداء » . كلمة Nucellus ، ترجمت إلى « جوية » في البلاد العربية ، ولكنها عُرِبت في مصر إلى « بويصلة » إلى غير ذلك من الامثلة .

شروط واجبة في القائمين على الترجمة والتعريب : لقد أدى هذا الاختلاف في تعريب وترجمة المصطلحات العلمية إلى وضع عدد من الشروط التي يجب أن تتوفر في المساهمين في وضع هذه المصطلحات وهي ستة حتى الآن ، عرض الأمير مصطفى الشهابي منها ثلاثة ثم تقدّم د/شاكر فحاح بالشروط الرابع ، وقد وضع د/مذكور شروطا خامسا ، ثم رأى د/السارة إضافة شرط سادس إلى مجموعة هذه الشروط . أما الشروط فهي :

١ - الاختصاص بعلم أو فَن ، وممارسته نظريا وعمليا ، ولهذا لا بد لمن يجشم نفسه عناء وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية من أن يقتصر في عمله على الألفاظ المتعلقة بعلم اختص به وأطلع على دقائقه .
٢ - إتقان لغة واحدة على الأقل من لغات أوروبا .

٣ - التمكن من معرفة اللغة العربية معرفة تقف على أسرارها ، وعلى ما حوتها ومعانيها ، ولا سيما الكتب العربية القديمة التي تناولت العلم الذي يعالج وضع مصطلحاته .

٤ - العمل في نطاق جمع ، أو جامعة ، أو منظمة متخصصة ، وأن يجوز كل مصطلح على القبول من الهيئات العامة في تلك المجموع والمنظمات . بل إن هذه المجموع والمنظمات كثيرا ما تعتمد إلى إرسال ما توصلت إليه من قوائم المصطلحات العلمية الجديدة إلى العلماء والادباء في كل الاقطار العربية الاخرى ، وتنتظر منهم أن يمدوها بملاحظاتهم وآرائهم .

٥ - (شرط في إجازة المصطلح) : ولا يمكن أن يؤدي تعاون العالم المتخصص في العلوم أو الرياضيات مع اللغوي المتمكن من أسرار اللغة العربية إلى نتائج مشابهة الا عندما يقوم عالم متمكن من علمه بتفهم أسرار اللغة العربية ويتفهم أسرار اللغات التي ينقل عنها .

وعموما تكاد مشكلة المصطلح في تعريب العلوم تكون مشكلة محلولة ، فقد فُتد الأستاذ الخوري مزاعم المعارضين لتعريب التعليم الطبي في البلاد العربية بحجة أنه لا تتوفر في اللغة العربية جميع المصطلحات الطبية ، بل قد تتضارب المصطلحات بين قطر وآخر . . . وإذا كنا قد أشرنا آنفا إلى وجود مثل هذا التضارب فإنه بالإمكان تداركه وإزالته ، وقبل أن نتحدث في ذلك نسوق تنفيذ الأستاذ الخوري لمزاعم المعارضين لتعريب العلوم وبالدات الطبية منها :

(١) إن تراثنا الطبي العربي القديم يشتمل على مصطلحات طبية كثيرة لم نفذ منها حتى الآن في مجالات

التأليف والترجمة ، وإذا كان نفر من أطباء مصر ودمشق وبيروت قد رجعوا الى التراث في اعتراف بعض المصطلحات ، فإنه رجوع غير كامل ، ومن الممكن الرجوع إليه من أجل إيجاد مصطلحات جديدة .

(٢) إن الكتب التي ألفت في الحقبة الأخيرة أو ترجمت عن اللغات الاجنبية ، والمجلات الطبية العربية التي تصدر في أقطار عربية عديدة ، وما تشتمل عليه هذه الكتب والمجلات لتدل بوضوح على أن وضع المصطلح ليس أمراً مستعصباً وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد مستمر (قد أوضحنا في السطور الماضية شروط وضع المصطلح) .

(٣) إن المجال يظل متسعاً لإيجاد مصطلحات جديدة بالطرائق المتعددة وهي الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب (وقد فصلنا القول فيها سابقاً) ، ولا يسعنا إلا الإشادة بالجهود التي بذلتها وتبذلها مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وعمّان ولجان المصطلحات في داخل الجامعات وخارجها وكتب تنسيق التعريب بالرباط .

هذا وليس المهم وضع المصطلح فحسب ، بل المهم استخدامه بشق أشكال الاستخدام في المحاضرة والحديث والترجمة والتأليف ، لأن استخدام اللفظ هو سبيل حياته وشيوعه وهذا لا يكون إلا بتعريب التعليم محاضرة وترجمة وتأليفاً ويحناً .

(٤) قامت بعض الهيئات الآتية الذكر باصدار معاجم طبية في القرن الأخير ، حصرها الأستاذ الخوري في اثنين وخمسين معجماً منذ قبل سنة ١٩٠٠ وحتى سنة ١٩٨٠ م ، وكان آخرها صدوراً هو المعجم الطبي الموحد الذي صدر في عدة طبعات في بغداد والقاهرة والموصل .

المبادئ الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية

قائمة المكتب الدائم للتعريب : نظم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي في ١٨ - ٢٠ فبراير عام ١٩٨١ م ندوة بالرباط لتوحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة أقرت المبادئ الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية ووضعها وهي :

١ - ضرورة وجود مناسبة ، أو مشاركة ، أو مشابهة ، بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ، ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي .

٢ - وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد .

٣ - تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد في الحقل الواحد ، وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك .

٤ - استقراء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه ، أو ما استقر منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث ، وما ورد منه من ألفاظ معربة .

- ٥ - مسايرة المنهج الدولي في اختيار المصطلحات العلمية :
- أ - مراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينها للمشتغلين بالعلم والدارسين .
- ب - اعتماد التصنيف العشري الدولي لتصنيف المصطلحات حسب حقولها وفروعها .
- ج - تقسيم المفاهيم واستكشافها وتحديد تعريفها وترتيبها حسب كل حقل .
- د - اشتراك المختصين والمستهلكين في وضع المصطلحات .
- هـ - مواصلة البحوث والدراسات ليتيسر الاتصال بدوام بين واضعي المصطلحات ومستعملها .
- ٦ - استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية طبقاً للترتيب التالي : التراث
فالتوليد بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت .
- ٧ - تفضيل الكلمات العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعربة .
- ٨ - تجنب الكلمات العامة إلا عند الاقتضاء بشرط أن تكون مشتركة بين لهجات عربية عديدة ، وأن يشار إلى
عاميتها بأن توضع بين قوسين مثلاً .
- ٩ - تفضيل اللفظة الجزلة الواضحة ، وتجنب النافر والمحظور من الألفاظ .
- ١٠ - تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به .
- ١١ - تفضيل الكلمة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والإضافة والتنشئة والجمع .
- ١٢ - تفضيل الكلمة الدقيقة على الكلمة العامة أو المبهمة ، ومراعاة اتفاق المصطلح العربي مع المدلول
العلمي للمصطلح الأجنبي دون تفيد بالدلالة اللفظية للمصطلح الأجنبي .
- ١٣ - في حالة المترادفات أو القرابة من الترادف تفضل اللفظة التي يوحى جلرها بالمفهوم الأصل بصفة
أوضح .
- ١٤ - تفضيل الكلمة الشائعة على النادرة أو الغريبة ، إلا إذا التبس معنى المصطلح العلمي بالمعنى الشائع
المتداول لتلك الكلمة .
- ١٥ - عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها ،
وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها ، وبمسن عند انتقاء المصطلحات من هذا النوع أن تجمع كل الألفاظ ذات المعاني
القرابة أو التشابه الدلالة وتعالج كلها مجموعة واحدة .
- ١٦ - مراعاة ما اتفق المختصون على استعماله من مصطلحات ودلالات علمية خاصة بهم ، معربة كانت أو
مترجمة .

١٧- التعريب عند الحاجة وخاصة المصطلحات ذات الصيغة العلمية كالألفاظ ذات الأصل اليوناني أو اللاتيني ، أو أسماء العلماء المستعملة ومصطلحات ، أو العناصر والمركبات الكيميائية .

١٨- عند تعريب الألفاظ الأجنبية يراعى ما يأتي :

أ- ترجيح ما سهل نطقه في رسم الألفاظ المعربة في اللغات الأجنبية .

ب- التغيير في شكله حتى يصبح موافقاً للصيغة العربية مستساغاً .

ج- اعتبار المصطلح المعرب عربياً ، يخضع لقواعد اللغة ، ويجوز في الاشتقاق والنحت ، وتستخدم فيه أدوات الابداء والإلحاق ، مع موافقته للصيغة العربية .

د- تصويب الكلمات العربية التي حُرِّفَتْها اللغات الأجنبية واستعمالها باعتدال أصلها الفصح .

هـ- ضبط المصطلحات عامة والمعرب منها خاصة بالشكل حرصاً على صحة نطقه وأدائه .

هذا على الرغم من أن د/ شاهين قد قدّم عدة ملاحظات حول عدد من فقرات هذه القائمة رأى فيها عجزاً أو تقصيراً أو غموضاً ومن أراد التفصيل فليرجع الى كتابه (العربية لغة العلوم والتقنية) .

المعاجم العلمية :

أما مقدمات المعاجم العلمية كمعجم حتى الطبى ومعجم الحيوان للمعلوف والمعجم الطبى الموحد ، والمعجم المرئى ، ومعجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ، ومعجم المصطلحات العلمية والفنية والمهندسية ، ومعاجم أخرى كالمرور والعصري وغيرها ، فقد حوت خطة كل واضع لمعجمه ، وما تبه وما تحاشاه والأسس التي سار عليها في ترجمة المصطلحات العلمية . ونختار من هذه المقدمات مقدمة الأستاذ أحمد شفيق الخطيب رئيس دائرة المعاجم بمكتبة لبنان وواضع معجم المصطلحات العلمية والفنية والمهندسية ، وقد اخترناه بالذات لأنه اجتهد فاحطاً في بعض اجتهاده ، فلنعرض بعض فقرات هذه المقدمة ، ثم نتبع هذا العرض بتعقيب علّم من أعلام اللغة المعاصرين وهو د/شاهين .

يقول الأستاذ الخطيب : « ولكي تصبح لغتنا قادرة على تأدية المسميات المعربة بشكل صحيح علينا أن نتساهل في لغة المصطلحات العلمية والتكنولوجية بالأمور التالية :

١ - جواز الابتداء بالسكان .

٢ - كذلك يجدر بنا التساهل في أمر التقاء الساكنين ، سواء أكان الأمر مقتضراً على ساكنين اثنين ، أم على عدة سواكن ، فنقول : مورس ، وبويل ، وباوند ، ورتجن ، وكنتستون ، وبايت . الخ .

٣ - إضافة الحروف الثلاثة «ب» (مهموسة) ، «ف» (مجهورة) ، «ج» لتؤدى لفظ الحروف اللاتينية G.V.P. (حين تلفظ كالجيم المصرية) ، فنقول : تلفزيون ، وفلظ ، ويبسين ، ونابالم ، وأنجستروم ، وجاليوم ... الخ ... وبذلك تصبح لغتنا قادرة على تأدية الألفاظ الأجنبية بصورة مقبولة ، فنسد الطريق على دعاة التحول الى الحرف اللاتيني أو سواه من سبل تحديث اللغة .

أما ملاحظات د/شاهين على هذا فهي :

١ - ليست هناك لهجة عربية قديمة كانت تنطق بالسكان في بداية الكلمة ، فذلك ادعاء على القدماء ، لا يشته دليل ، وأما اللهجات الحديثة فقد تأثر بعضها باللغات الأجنبية إبان فترة الاستعمار أو التأثير بالثقافة الفرنسية ، وبخاصة في الشام وفي بلاد شمال افريقيا ، ولا ينبغي ان نتخذ هذه الانحرافات الطارئة على اللهجات ذريعة إلى تحريف اللغة الفصحى ، بدعى تحديثها ، ذلك أن تحريك أول الكلمة قضية تتصل ببنية العربية في أوزانها المختلفة التي يستحيل تغييرها .

٢ - إننا لابد أن نفرق بين مفهوم (التعريب) الذي يعتبر التغيير ، حتى في أدنى صورة - شرطاً من شروطه ، وبين مفهوم (التدخيل) الذي يقبل اللفظ على علته ، وكما هو في لغته الأصلية .

والتعريب يصير اللفظ عربياً ، وملاكاً جديداً للغة ، والتدخيل لا يعدو أن يكون إيراداً للألفاظ الغربية في ثنايا التركيب العربي ، ولا حرج على من لا يستطيع النطق بكيفية ما - أن ينطق كيفما استطاع ، لكنها تكون حالة فردية ، لا قاعدة اجتماعية ، أو سلوكاً جماعياً .

٣ - على أننا لا نجد صعوبة في نطق الكلمات التي ساقها الخطيب بالإسكان - مُحَرَّقة الأوائل - فمن الممكن أن نقول : كلورات ، وكروم ، وغرافيت .. الخ . دون أن تتغير ألسنتنا ، ودون أدنى التباس في دلالة الكلمة .

٤ - وتأتي مشكلة السواكن في آخر الكلمة ، وحين تكون الكلمة ساكنة الآخر فإن العربية تميز اجتماع ساكنين ، كما في الوقف على كلمات مثل : وَرْدٌ ، وَيَخْرُ ، وَهَمْ . وعلى ذلك فلا صعوبة في نطق كلمات مثل : مورس ، وبويل .

أما حين يراد النطق بثلاثة صوامت سواكن فهذه هي الصعوبة في اللسان العربي ، وإن كانت سهلة في اللسان الافرنجي ، ولكننا نسأل عن الغرابة في نطق كلمة باوند : باوند ، وكذلك رنتجن ، وكنتغستون .. الخ . حين تكون الكلمات على لسان عربي ؟ ولهذا اللسان - كما قرنا - خصائصه التي تميزه عن سائر الألسنة . أم تُرْأنا مضطرين إلى أن ننطق في عكاة الأجانب الى آخر المدى ، وتتأذى خصائصنا أيضا الى آخر المدى ؟

٥ - وتبقى هذه الحروف «ب» (المهموسة) ، «ف» (المجهورة) «ج» وهي لا تمثل في نظرنا مشكلة ، سواء نطقت باعتبارها أصواتاً أجنبية ، أو نطقت باعتبارها أصواتاً معربة ، ونحن الى التزام موقف الأصالة ، فإن

التفريط يستدرجنا دائماً خطوة بخطوة الى ما يطمح اعداء العربية أن يبلغوه منا ، بعد أن أفلست مخططاتهم في هدم اللغة والقرآن بالمواجهة الصريحة .

كذلك فقد علق د / فاضل الطائي على معجم الكيمياء الذي أصدره المكتب الدائم لتنسيق التعريب بجامعة الدول العربية ، مؤجلاً واضعياً على بعض التقصير في الدقة الخاصة بترجمة عدد من المصطلحات ، فمن أراد الوقوف على تفاصيل هذا الأمر فليرجع الى كتابه (لمحات علمية) طبع ونشر المجمع العلمي العراقي .

مجهودات المجامع اللغوية والعمل على تنسيقها :

تقوم المجامع اللغوية الأربعة في العالم العربي بمجهودات عمودة في مجال الترجمة العلمية أو التعريب ، كما أن اتحاد هذه المجامع يقوم بالتنسيق - الى درجة ما - بين هذه المجهودات وإن لم يصل هذا التنسيق إلى الدرجة المرغوبة . فمجمع اللغة العربية بالقاهرة مثلاً يقدم خدمات جليلة إذ خصص وقتاً وجهداً لا بأس بها لترجمة المصطلحات العلمية الى اللغة العربية ، فقد جند لهذا الخبراء من الأساتذة المتخصصين في شكل لجان تتعقد بصفة دورية ثم تعرض ما تقرر على أعضاء المجمع في صورة مجلس ثم تعرضه مرة أخرى على هيئة المجمع في صورة مؤتمر ، حين يعقد المجمع مؤتمره السنوي ليناقش ويقر ما أنجزه المجلس من أعمال طيلة العام . وينشر المجمع ما يتوصل إليه من تعريب وتزجئة للمصطلحات العلمية الوافدة من العالم المتقدم تقنياً ، وذلك في صورة نشرات تحوي كل منها ما أقره المجمع من ترجمة أو تعريب أو تدخيل للمصطلحات العلمية الحديثة حتى وصلت إلى أكثر من (١٥٠) ألف مصطلح علمي .

فيما يلي من فقرات تعرض جزءاً من مجهودات مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عِلْمَيْنِ فقط هما : علم الحياة ، وعلم الجيولوجيا .

ففي علم الحياة : أقر مجمع اللغة قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليذ والأعيان من نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

Phylum	شعبة	Subkingdom	خويلم	Kingdom	عالم
Subclass	طوبئة	Class	طائفة	Subphylum	شعبية
Family	فصيلة	Suborder	رتيبة	Order	رتبة
Subtribe	قبيلة	Tribe	قبيلة	Subfamily	فُصَيْلَةٌ
Species	نوع	Subgenus	جنسية	Genus	جنس
Race	سلالة	Variety	ضرب	Subspecies	نوع
		Individual	فرد	Strain	عرة

وقد أزيلت هذه الأسماء التي اتفق عليها وأقرها مجتمعنا الموقر ، أزيلت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفي كتب المواليد ، وأصبح اليوم كل اسم عربي يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها ، وواضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تُعد من أسماء المعاني ، وأنها تُرجمت الى العربية ولم تكن الصعوبة في الترجمة ولكن في تخصيص كل حلقة باسم عربي واحد راجع ، وهذا ما أقره المجمع . وهو قرار خليق بأن يُتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى في هذه المسميات وذلك لأن فيه خلاصاً من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد .

وقد أقر المجمع القواعد الآتية في ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان :

الأولى : ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع في حلقات التصنيف العليا وهي الشعب والطوائف والرتب .

الثانية : أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذي تُنسب إليه .

الثالثة : أجناس المواليد التي ليس بها أسماء عربية تُعرب أسمائها العلمية إذا كانت منسوبة الى الأعلام ، وتُترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها في كلمة عربية واحدة سائفة وإن لم يكن ذلك ممكناً رجع تعريبها .

الرابعة : لاجال للتعريب في الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعت أو صفات تُترجم ترجمة في جميع اللغات الحية .

الخامسة : يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا في الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب .

السادسة : لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجي في تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما ، وفي اللجوء إليها تشويه للغة العربية .

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية في الدراسات العليا وفي حالة احتمال أى لبس .

فمثلا لا مجال للتعريب في الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات في رتب الحيوان ، كذلك لا مجال للتعريب في غشائية الأجنحة وحوشغيات الأجنحة وذوات الجنائحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات ، وكذلك النباتات الزهرية واللا زهرية وذات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها .

فهذه جميعا ترجمات معقولة مستساعة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا ، وكذلك نقول في الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والزرجسية والسحلبية والحجازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والجرذل والقطن وما إليها .

أما النوع ، فينبغي إن دُلَّ على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمي كاملا ويتعين ذلك في الحالات التي تختلف فيها التسميات ، فالبطاطس في مصر هي البطاطا في سوريا ، والخوخ هو الدراق ، والكثيرى هي الأجاص ، بل إن الديس والبطوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد ولكنه يعرف بأسماء مختلفة في الجهات المختلفة ، ففي كل هذه الحالات وفي مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الأزواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية .

وفي الجيولوجيا : وفي المصطلحات الجيولوجية نسعنا العربية بالفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضخالة والملوحة والعدوية والبرى. والتفتت والتشقق والانفصال والانقسام وما إلى ذلك فإذا بها معطاء كأجل ما يكون العطاء .

فنجدهم النور والغسق والدغش والغنى والظلام . كما نجد الضُحُل والغائر والعميق والسحيق ، وفي مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها ، بالنسبة للحركات الأرضية :

Fault, Faulting	صدع وتصدع	Joint, Jointing	فاصل وتفصل
Thrust, Thrusting	دسرة ، ودسر	Fracture, Fracturing	شق ، تشقق
Slipping	انزلاق	Cleavage	تفلق
Creeping	زحف	Sliding	تزحلق

وفي باب الطي :

Plicate, Plicating	ثنية وثني	Fold, Folding	طيّه وطي
Dome, Daming	قبة ، تقب	Corrugation	تعرّج

وفي درجات ملوحة الماء نقول :

Brackish Water	ماء مسوس	Fresh Water	ماء عذب
Hypersaline Water	ماء زعاق	Saline Water	ماء ملح
		Brine Water	ماء أجاج

وفي باب ما يشبه :

Crystalloid	بلوراني	Colloid	غراواني
Saccharoid	سكراني	Metalloid	فلزاني
Deltoid	دلتاني	Spheroid	كرواني

وفي موضوع البرّي والسحج والنحات والتآكل :

Erosion	النحات	Abrasion	البرّي أو السحج
		Corrosion	التآكل

ونقول : صواعد : Stalagmites

وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم ترسبت في أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى أعلى . وهوابط :

Stalacites

وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى أسفل . وهي صيغ عربية سليمة ما أظن أن الاقدمين قد استعملوها .

وفي مراتب ومراحل الزمن الجيولوجي نقول : الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة اللحظة .

١- الدهر : Eon : أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجي لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف وأكثر من ملايين السنين ، مثل دهر الحياة الظاهرة .

٢- الحين : Era : أطول مراحل العمر في الزمن الجيولوجي ويقاس بعشرات الملايين وقد تصل الى بضع مئات الملايين من السنين ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل وأجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته ، مثل حين الحياة القديمة .

٣- الحقب : Period : المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة وتقدر بعشرات الملايين من السنين مثل الحقب الكربوني .

٤- العصر : Age : أطول مرحلة من مراحل الحقب. ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين . ويتميز كل حقب بترتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية العصر .
مثل Eocene

٥- البرهة : Hemero : مرحلة من الزمن الجيولوجي يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يبلغ مداها أكثر من مليون سنة ، وهي أطول مرحلة ينقسم إليها عصر من العصور الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل في الاهمية الجيولوجية كثيراً مع نهايتها .

٦ - اللحظة Moment : أقصر مراحل الزمن الجيولوجي وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

وتبقى نقطة الضعف الوحيدة في عمل هذا المجمع اللغوي وغيره من المجامع الموجودة في بعض البلاد العربية ، وهي عدم وجود سلطة لفرض ما نقره من مصطلحات ، فهي تخرجها وكأنها تخرجها لنفسها . فلا توجد سلطة ملزمة للمؤسسات العلمية والتربوية لتستخدم المصطلح بمجرد صدوره . هناك نقطة أخرى هي ضعف الترابط الفعال بين مجامع اللغة العربية الموجودة في البلاد العربية . وإضافة الى ما يضيفه هذا الضعف من بعثرة الجهود فإنه يعد إحدى صور التمزق الذي يعاني منه المسلمون .

كذلك فهناك عتاب يوجهه الأستاذ المفكر أنور الجندي الى هذه المجامع اللغوية لأنها استجابت للدعوات المريبة الى تطوير اللغة وقواعدها ورسومها ، وهو تطوير يختلف أصحابه في تسميته ، ولكنهم لا يختلفون في حقيقته ، يسمونه تارة « عهدياً » ، وتارة « إصلاحاً » ، وتارة « تجديدًا » ، ولكنهم في كل الأحوال وعلى اختلاف الأساء يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد ، فضمنت لجلينا وللأجيال المقبلة أن تسرح بفكرها وتجرح في معارض فنون القول وآثار العبقريات الفنية والعقلية ، لا تحس بقيود الزمان ولا المكان ... فإذا تحللنا من القواعد النحوية والقوانين الضابطة والأصول التي صانت هذه اللغة طيلة القرون الماضية ، تبليت الألسن حتى تصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربي والفكر الاسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دراسي الآثار ومفسري التلاسم .

مجهودات مجامع وهيئات أخرى :

الى جانب مجامع اللغة التي تبدو بمجهوداتها واضحة في إخراج عدد من النشرات يضم الترجمات والتعريفات المتفق عليها من قبل لجان متخصصة تضم ذوى الخبرة في هذا المجال ، توجد مجامع أخرى ، ذكر د/ منتصر منها « المجمع المصري للثقافة العلمية » ، وهو كان صاحب فضل في هذا المجال عبر السنوات الماضية من حيث نشر الثقافة العلمية باللغة العربية ، وإذاعة المحاضرات ونشر الكتب ، ولقد استحق أعضاؤه ومؤسسه - في نظر د/ منتصر على الأقل - كل تقدير ، فقد أسهموا بأوفى نصيب في خدمة اللغة العربية وتطويرها للتعبير العلمي . ويجب التنويه بعقّم هذا الدور في أيامنا هذه ، فلا كتب تصدر ولا نشرات تطبع ولا دورات ثقافية تعقد ، ولا ميزانية كافية توجد ، اللهم الا المؤتمر السنوي وكتابه قليل الصفحات الذي يطبع محتوياً على عدة محاضرات تُلَقَّى على نفر قليل ممن يحضرون هذا المؤتمر السنوي ، فعلى المسؤولين وعلى القيومين أن يعيدوا الى هذا المجمع شبابه ويستعيدوا مجده وخدمته ويعملوا على استئناف نشاطه .

كما ان هناك اتحادات علمية أخرى تقوم ببعض الدور في مجالات الترجمة والتعريب وخدمة اللغة العربية وتطويرها للعلوم الحديثة والتقنية ، نذكر منها على سبيل المثال : اتحاد أطباء العرب (ولدنيا من مطبوعاته « المعجم

الطبي الموحد) ، الاتحاد العلمي المصري ، الاتحاد العلمي العراقي ، وهو أنشط من زميله في القاهرة ، واتحادات علمية أخرى لا يعرف القارئ عنها شيئاً إلا بالبحث والتقصي ، والمسؤولية في هذا التعميم يقع الجزء الأكبر منها على عاتق رجال هذه الاتحادات والمجامع .

كذلك فقد أنشأت جامعة الدول العربية عدداً من اللجان المتخصصة في مجالات الترجمة والتعريب ، ولعل أشهرها في الآونة الأخيرة : « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي » بالرباط (المغرب) وهو تابع للمنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم ، وهي إحدى منظمات الجامعة .

ولا يفوتنا أن نشيد بجهود مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في هذا المضمار ، فقد قامت بإصدار ثلاثة قواميس في الكيمياء ، ومشروع المؤسسة يشتمل على خمسة معاجم باللغة العربية والفرنسية والانجليزية لشرح المصطلحات ظهر بعضها الآن وسيظهر الباقي تباعاً ، وقد وعدت المؤسسة بالالتزام بقواعد وضع المصطلحات التي أقرتها المجامع اللغوية .

لكن هناك مشكلة تبدو في الأفق وتضاف إلى قائمة المشكلات التي يجب البحث لها عن حلول ، تلك هي ما يراه « المجمعيون » ولا يفق بمطالب « الجامعيين » ويلبى حاجاتهم المعيشية ، سواء فيما يتعلق بمنهج وضع المصطلح أو أولوياته . فالمجمعيون يسرون في عملهم بإيقاع هادئ وفق مناهج محددة ، قد يستغرق الوفاء بمتطلباتها وقتاً طويلاً ، بينما يجد الجامعيون أنفسهم أمام ضرورات عاجلة ملحة ، حيث يتطلب الوفاء لمنهج دراسي محدد وضع مصطلحات جديدة لم يتطرق إليها المجمعيون بعد .



ثبت بأهم المراجع والمصادر

أولاً : الكتب :

- الجراري (عبد الله بن عباس) : تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لأوروبا. دار الفكر العربي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٦١ .
- الجندي (أنور) : سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الاسلامية . مكتبة التراث الاسلامي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٤ .
- أشواة على الفكر العربي الاسلامي . اقية الصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- المعاصرة في إطار الأصالة . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
- أهداف التفسير في السام الاسلامي . الأستاذة العمامة لندعيرة بالأزهر الشريف ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
- الحسن (محمد) : الإسلام للمتمن . المختار الاسلامي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ .
- حوى (سيد) : الإسلام . مكتبة رعية بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .
- حسين (د/عبد كامل) : بحث في الطب والاقرباين . ضمن بحث كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية . اقية الصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
- الحطبي (أحمد شفيق) : معجم المصطلحات العلمية والفنية والمهنية (الجزءى - عرب) . مكتبة لبنان بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٤ .
- خليل (د/عبد الدين) : حول اعادة تشكيل العقل السلم . كتاب الآلة بقر (٤) ١٩٨٣ .
- الدفاع (د/عل حيداه) : لمحات من تاريخ اخسارة العربية والاسلامية . مكتبة الخاتمي بالقاهرة/ دار الرقاصي بالرياض ، ١٩٨١ ، بدون رقم طبعة .
- الدرراش (د/أحمد السيد) : تاريخ العلوم عند العرب . دار المعارف بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ . ديكسون (د/جون ب .) : العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث . ترجمة شبة للترجمة بالونيكو . العدد (١١٢) من سلسلة عالم المعرفة بالكويت ، ١٩٨٧ .
- رغوان (عبد عبد النعم) : الطريق لمودة الخلافة الراشدة ويمت أمة الاسلام العلمي . مكتبة القدسي بالقاهرة ، ط الأخيرة ، ١٩٨٥ .
- زحلان (الطوان) : العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي . مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ .
- سبيع (عبد العظيم عبد العزيز) : حاضرم العالم الاسلامي . مكتبة السلام المالية بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .
- شاعين (د/عبد الصمد) : العربية لغة العلم والثقافة . دار الاعتصام بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٢ .
- الشهابي (الأمير مصطفى) : مصطلحات العلوم الزراعية . مكتبة لبنان بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ .
- الطائي (د/فاضل أحمد) : لمحات علمية . مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٨ .
- عبد الحميد (د/حسن) : أزمة المثقفين تجاه الاسلام في العصر الحديث . دار الصحوة بالقاهرة ط ١ ، ١٩٨٤ .
- عبد السلام (د/عبد) : المسلمون والعلم . ترجمة د/عندو المرسلي . دار الغد بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- عبد الشيع (عبد) : المسلمون والاسلام . دار اغلال بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٧ .
- عبد (سيري) : العرب والمخاطرة العلمية الحديثة . دار الأفاق الجديدة بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ .
- عبد (د/عبدالله) : المسلمون وتجدييات العصر . دار الفكر العربي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥ .
- العراقي (المجمع العلمي) : المجمع الموحد للمصطلحات العلمية . ١٩٧٦ - ١٩٧٩ .
- المجمع العلمي الموحد . اتحاد الأطباء العرب ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
- العربية (مجمع اللغة) : المجمع الوسيط . إعداد وإشراف بلان متخصصة في المجمع بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٢ .
- مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع بالقاهرة ، ١٩٧٧ .
- جز الدين (د/يوسف) : تراننا والمعاصرة . دار الإبداع الحديث ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
- الصمري (د/أكرم ضياء) : التراث والمعاصرة . كتاب الآلة بقر (١٠) ١٩٨٥ .
- عفيقي (د/عبد الصادق) : تطور الفكر العلمي عند المسلمين . مكتبة الخاتمي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ .
- عريس (د/عبد الحليم) : لغة التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- عريس (د/عبد الحليم) : تفسير التاريخ علم اسلامي . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

- الغزالي (الشيخ محمد) : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية . كتاب الأمة بنظر (١) ١٩٨٢ .
 غنيم (داكلم السيد) : التخلف العلمي في أقطاب الإسلام . القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨ .
 : حطارتنا العلمية وواجبنا نحو أعلامها . دار الصحوة بالقاهرة ، تحت الطبع .
 : قضية العلم والحركة عند المسلمين . الزعماء للإعلام العربي بالقاهرة ، تحت الطبع .
 كرم (أنطونيوس) : العرب أمام تحديات التكنولوجيا . سلسلة عالم المعرفة بالكويت (٥٩) ١٩٨٢ .
 لوب (جاء) : العالم الثالث وتحديات اللغة . سلسلة عالم المعرفة بالكويت (١٠٤) ١٩٨٦ .
 المبارك (د/ مازن) : اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي . دار الفلاس ببيروت ، ط ١ ، ١٩٧٣ .
 مرسى (د/ محمد عبدالعليم) : كرامة في العالم الإسلامي - مسألة التزيف البشري وهجرة العقول . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
 مطلوب (د/ أحمد) : دعوة إلى تربية العلوم في الجامعات . دار البحوث العلمية بالكويت ، ط ١ ، ١٩٧٥ .

ثانياً : الدوريات والمجلات :

- أنور (محمد تكري) : عرض كتاب أسلمة المعرفة للدكتور أساميل راجي القاروني . الفصيل (١٠٤) ١٩٨٥ .
 بدوي (أ. د) : السيد محمد : دراسة الواقع الفكري أساس لحل مشكلات اللغة العربية في مجال التعليم . دراسات عربية وإسلامية (العدد ٤١) ١٩٨٣ .
 البصير (عبدالرزاق) : تربية التعليم في الجامعات . العربي (٣٢١) ١٩٨٥ .
 تكريفي (د/ عثمان) : قضية تربية التعليم الجامعي . العربي (٣٤٨) ١٩٨٧ .
 التوال (عبد الكريم) : لغة الحضارة بين العلوم والفنون . الفصيل ٥٠ (٤٦) ١٩٨٤ .
 جاد الكريم (حسن محمود) : أسلمة العلوم . الأمة (٥٢) ١٩٨٥ .
 جبة (محمد بن علي) : حل تلمذ التكنولوجيا الغربية مصالح البلدان الفقيرة ؟ الرمي الإسلامي (٧٢) ١٩٨٧ .
 التوال (عبد الكريم) : لغة الحضارة بين العلوم والفنون . الفصيل ٥٠ (٤٦) ١٩٨٤ .
 جاد الكريم (حسن محمود) : أسلمة العلوم . الأمة (٥٢) ١٩٨٥ .
 الجندى (الاستاذ أنور) : تحديات متجددة في اللغة العربية . الضياء ٢١ (٨) ١٩٨٧ .
 حسين (أيبيك) : تأثير اللغة العربية في اللغة الاندونيسية ودعوة الشباب المسلم للحفاظ على لغة دينهم الحنيف . الاصلاح (١٢٨) ١٩٨٨ .
 السارة (د/قاسم ط) : منهجيات حيازة المصطلح العلمي . الفصيل (١٢٤) ١٩٨٧ .
 ساهي (د/أحمد بشام) : اللغة العربية بين اللغات - دراسة مقارنة باللغة الانجليزية . الفصيل (٩٨) ١٩٨٥ .
 شاهين (د/عبد الصبور) : قدرة العربية على استيعاب علوم العصر . الأمة (٦١) ١٩٨٥ .
 الشيخ (ياسين إبراهيم) : لغتنا بين العجز وإثبات الذات . الأمة (٦٢) ١٩٨٥ .
 عون (د/سامي) : اللغة والتبويض العلمي . آفاق علمية ١٥ (١٣) ١٩٨٨ .
 فريخ (د/عمر) : لغة العلم . بحوث مؤتمر الدورة ٤٧ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٨٠ .

مقدمة :

لعل التعريب والقضايا المتعلقة به من أكثر القضايا المعاصرة إلحاحاً ، وأكثرها مدعاة لاهتمام العلماء والباحثين العرب ، ولئن كان التعريب مشكلة قديمة قَدَّمَ الوجود العربي المستقل في ماضيه ، فإنه أيضاً يشكل تحدياً حضارياً واهناً يستهدف الوجود العربي المستقل في حاضره ومستقبله . واليوم يتفق المثقفون العرب على أن التعريب ضرورة قومية تساهم في تكوين الروابط المشتركة لأفراد الأمة العربية ، وتوثق من عرى الأواصر بينهم في الثقافة والفكر والشعور المشترك وهو ضرورة اجتماعية ، تهدف لتعميم التعليم العالي على جماهير الشعب ، ويتجاوز الفئات (الفوقية) الصغيرة التي تنصنع الازدواج اللغوي في العلم وفي الحياة الخاصة واليومية على أبسط مستوياتها^(١) والتعريب أيضاً ضرورة تربوية إذ يعمل من لغة الجامعة لغة الجماهير ويعطي لحُرَيجي الجامعات الفرص المواتية لممارسة علومهم النظرية ، وإبداع إنتاج علمي جديد في مجالات الحياة اليومية ويسهل لهم الاشتراك في الخطط الاجتماعية ...

تعريب الاصطلاح العلمي "إشكالية المخرج"

قاسم السارة

والتعريب أخيراً ضرورة علمية ، إذ يسهّل الاتصال بين المعلم وبين طلابه ويؤمن جو نقاش علمي خالٍ من الحرج والتكلف ... إذ هو القاسم المشترك بين جميع أعضاء هيئات التدريس أينما أهلوا علمياً من جهة ، وهو القاسم المشترك بين الطلاب والأساتذة من جهة أخرى ... ولذلك كله ، ولأسباب أخرى كثيرة فقد دلت الدراسات الميدانية الحديثة على أن أصليح لغة للتعليم هي اللغة التي « يفكر » بها الطالب ... وأن

(١) : إبراهيم حشاد : تعريب العلوم في التعليم العالي ، المطبعة العربية للعلوم والمداد (٨) السنة (٤) أيار ١٩٨٩ ، ص ٨ .

الطلاب يحتاجون إلى وقتٍ طويل جداً لتفهم أي نص علمي بلغة ثانية^(١)، مما يشكل عتياً على اقتصاد البلد بكامله^(٢)، الأمر الذي دفع اليونسكو إلى تبني قرارات توجب استعمال اللغة الأم في التعليم العالي كلما كان ذلك ممكناً^(٣) مع تعلّم لغة حيّة أخرى تُعين الدارس على الإطلاع المستمر على التقدم العلمي .

ولقد أدّى التدريس بلغات غير العربية إلى تحوّلف عام بين العرب ، لأن الإبداع لا يمكن أن يكون بغير اللغة الأم ، كما أدّى إلى تحفّهم في مجال استيعاب اللغة العربية ذاتها . . . وإلى حرمان تلك اللغة من النمو المطرد المتمثّل في نحت الألفاظ للتعبير عن المفاهيم الجديدة^(٤) ، ونظرة عجل إلى تاريخ أمتنا العربية تكفي لاقناعنا بأن تعريب العلوم واكب أيام نهضتها وعزتها وسيادتها^(٥) وأن أباهم التخلّف والضعف والتمزق هي التي توقعتنا في شرك التبعية الثقافية والعلمية . . .

أصل المشكلة :

لعل كل من يتتبع تاريخ العلوم عند العرب يوافق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي فيما ذهب إليه من أن القرن التاسع عشر قد طلع على البلاد العربية وقد انقطع سند العلوم ، وبطل إعمال الفكر . . . وأن العرب أثبت كانوا في غفلة عن الغرب ، قلياً يعرفون مآثاه في نهضته خلال أربعة قرون سلفت^(٦) ورغم أن الدولة العثمانية قد شهدت حركة إصلاحية منذ مطلع القرن الثامن عشر يُبأن حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) وخلفائه من بعده فإن حظّ الولايات العربية من تلك الإصلاحات كان ضئيلاً من جهة^(٧) كما وُجّهت تلك الإصلاحات إلى ترسيخ اللغة التركية في التعليم من جهة أخرى^(٨) ثم مالبت أن أصيبت اللغة العربية بنكبة حقيقية في نهاية حكم الدولة العثمانية تمثّلت ببعزلها عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة ، وبفرض اللغة التركية في المدارس بدلاً منها ، وترسيخ فكرة عجز اللغة العربية عن استيعاب مواد أي علمٍ حديث^(٩) بين جماهير الطلبة والمثقفين آنذاك . . . حتى إذا جاءت النهضة العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وجد المتنورون من العرب أنفسهم في مواجهة الحضارة الغربية ، والتي أخذت تغلّهم بظلالها وتفرض عليهم سياتها ، ولم يجدوا أمامهم خياراً سوى الأخذ بالكثير مما قدمته لهم . . مع محاولة التمسك بما يستطيعون الاحتفاظ به من الإرث الحضاري القديم الذي يفخرون به ، وكان عزاءهم في ذلك أن الحضارة المعاصرة لها صفة عالمية^(١٠) ، يمكن لأي أمة أن تتعرّف بها . . . وهنا واجه المثقفون

(٢) محمد علي كامل : معالجة التعريب في العلوم الهندسية ، اللسان العربي ، المجلد ١٥ ، الجزء ١ ، ص ١٣٠ - ١٤٤ .
(٣) إدريس الكتّان : دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وحرية اللغات الأجنبية في البلدان الأفريقية : دراسة البنك الدولي للتنمية والبنية التحتية في المغرب ، اللسان العربي ، المجلد ١١ ، الجزء (١) ص ٣١٩ .

(٤) مقررات مؤتمر التعريب : مجلة اللسان العربي ، المجلد ١١ ، الجزء الثاني ، الجزء ١ ، ص ٢٠ - ٢٢ ، كاتون الأول - ١٩٧٣ ، ص ٢٧٠ .

(٥) زغلول النجار : مقدمة كتاب أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ ، (الطبعة الأولى) ، ص ٦ .

(٦) د. قاسم سار : المحاولات تعريب المصطلح العلمي ، مجلة الفيصل ، العدد ١١٨ ، ص ٦ .

(٧) عبد كبر علي : الإسلام والحضارة العربية (الجزء الأول) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - (الطبعة الثانية) ١٩٥٠ ، ص ٢٧ .

(٨) د. عبد الله العمر : مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان ٩٤/٩٣ (نحو / آب ١٩٨٩) ، ص ١٠ .

(٩) د. حسني سبيح : مجلة جُعب اللغة العربية بدمشق - المجلد الستون (الجزء الرابع) - تعريب علوم الطب ، ص ٢٣ .

(١٠) د. عائشة عبد الرحمن : اللغة العربية وعلوم العصر ، اللسان العربي ، المجلد ١٣ ، ص ١٥ .

(١١) د. إبراهيم السامرائي : نظرات في تدريس العربية في جامعات الوطن العربي ، مجلة المرقا ، دمشق ، العدد ٣٣ ، ص ٢٧٠ (آب ١٩٨٤) ، ص ٩٠ وما بعدها . .

العرب التحدى الذى قدمته لهم حضارة الغرب بشكل مفاهيم جديدة على الثروة اللغوية التي اكتظت بمفرداتها ضيائه، وحفلت بمعانيها المعجمات وكتب اللغة، وكان على « الطليعة » من مفكرى العرب أن يسموا بجِدِّ ودأب لمعالجة هذه المشكلة الشائكة، مشكلة المصطلح العلمي ...

المصطلح العلمي :

إنَّ مشكلة صياغة المصطلح العلمي وتعميمه والاتفاق عليه مشكلة قائمة في جميع اللغات الحية^(١٢) بل هي في الأمم المتقدمة أكثر وضوحاً وحلّة منها في غيرها من البلاد .. إذْ « تنقذ » معاهد البحوث والدراسات في الدول المتقدمة كلَّ يوم، بل كلَّ ساعة، سيلًا من المفاهيم العلمية الجديدة التي تحتاج « لمصطلحات » تعبر عنها بدقة وأمانة ونوعية .. ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بعد وعي تامٍّ للحقيقة العلمية الجديدة التي تبحث عن مصطلح يمثلها^(١٣) ثم إدراك عميقٍ للأصول اللغوية ووسائل نمُوها وتطورها ...

ورغم أنَّ « المصطلح » يمثل « الشكل » فقط للمفاهيم العلمية الجديدة فإنه كثيراً ما يمس جوهر الحقيقة العلمية المراد التعبير عنها، بشكل أو بآخر حتى أصبح من الأمور المسلم بها اليوم أنَّ من أهمِّ العقبات التي تواجه نهوض تعريب التعليم العالي في شتى الأقطار العربية هي العثورُ على مصطلح عربيٍّ ملائمٍ^(١٤) للكلمات والمفاهيم العلمية الجديدة القادمة من البلاد الأجنبية . فالمصطلح هو الوسيلة الرئيسة لتكوين وتنظيم وتطوير المعارف^(١٥) وهو كالاسم العلم للائنسان المتحضّر في مجتمعه ... يدل بشكل نوعيٍّ وفريدٍ و « رسميٍّ » على مفهوم واحد .. وعلم « المصطلح » بمفهومه الحديث علم معقد، يشترك فيه جملةٌ علوم مثل علم اللغة، والمنطق، وعلم الوجود، وعلم المعلوماتية، وحقوق التخصص العلمي والأدبي والفني كلٌّ على حدة، أحياناً، وبلاشتراك فيما بينها أحياناً أخرى .. وكل ذلك الاشتراك يُخدم تنظيم العلاقة بين « المفاهيم العلمية » وبين المصطلحات اللغوية التي تعبر عنها^(١٦).

ولعل كل التعريفات الحديثة والمعقّدة للمصطلح لا تخرج عن ما أورده الزبيدي في تاج العروس في قوله « الاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص » وفي ذلك إشارة إلى أهمية « اتفاق » العلماء المشتغلين في الحقول العلمية وفي الدراسات اللغوية على إعطاء كلمة ما دلالةً جديدةً، وأنَّ « اتفاهم » هذا يخلع على الكلمة معنىً جديداً قد يغيّر الى حدٍّ ما المعنى المجعومي ويكسبها دلالةً جديدةً قد تختلف عن الدلالة اللغوية المتعارف عليها سابقاً ..

(١٢) د. عبد الكريم البالي : مجري في تعريب المصطلحات العلمية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٥٢، الجزء ٤ تشرين أول ١٩٧٨.

(١٣) د. حسني سبيح : تعريب علوم الطب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠ الجزء ٤ ص ٦٣٢.

(١٤) د. شاكر النحام : قضية المصطلح العلمي وموقعه في نطاق تعريب التعليم العالي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠، الجزء ٤، ص ٦٩٢.

(١٥) د. صبيح الصالح : دراسات في لغة اللغة، ص ٣٤٩.

(١٦) د. علي القاسمي : (ندوة كلية الآداب في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس حول المصطلح التقني ٢٠-٢٢ نوفمبر ١٩٨٦) مجلة الوحدة، السنة الثالثة، العدد ٢٨ كانون ثاني ١٩٨٦، ص ٣٢٩.

فالمصطلح لفظ موضوعي، تواضع عليه المختصون بقصد أدائه معنىً بدقّة ووضوح شديدتين، بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ أو السامع لسياق النص العلمي^(١٧)... ولكن هذا التحديد الذي يتم بتناية قصوى لا يعني استقصاء المصطلح العلمي لكل دقائق المفهوم العلمي الذي يعبر عنه، أو إحاطته إحاطة جامعةً بدقائق المفهوم المسئى به... بل يكفي الاتفاق بين المختصين على ذلك، مع وجود علاقة أو ملازمة بين لفظة المصطلح وبين دلالة... سواءً أكانت العلاقة حقيقية أم مجازية، من قريب أو من بعيد^(١٨)... فلا تفاق هو الأصل وما سواه تبع له... وهكذا تكسب الكلمة العربية القديمة الأصيلة، أو المولدة المُحدثّة - اشتقاقاً أو نبتاً - شحنةً دلاليةً تخرجها من طور الضياع والمطالة في سطور المعاجم إلى طور من النشاط والحياة والانتشار في صدور العلماء والذويغ عبر أعلامهم وكلماتهم...

ومنذ بداية عند النهضة العربية أصبح الاهتمام بصياغة المصطلحات العلمية الشغل الشاغل للعلماء العرب في شتى أنحاء الوطن العربي، إن على الصعيد الشخصي الفردى أو على الصعيد الرسمي المؤسسي... ولئن اتسمت تلك الجهود بالجدية فإنها كانت في غالب الأحيان ارتجالية ومتسرعة، وبعيدة عن الوفاة منهجية واضحة محددة، إذا كان هناك منهجية واضحة محددة آنذاك، الأمر الذي وسم الكثير من المصطلحات بسمه وشخصية، مستمدة من مصدر الثقافة العلمية التي ينهل منها أصحابها، فرنسية، أو انجليزية أو ألمانية.. وما يزيد الأمر تعقيداً أن المصطلح كثيراً ما يكون في اللغة الأصلية غارقاً في ظلمات الإيهام المجازي أو التشبيه التمثيلي^(١٩)... ولا عجب أن يتحدّ رواج بعض المصطلحات في حدود القطر العربي الذي ظهرت فيه ولا تتخطاه إلى أقطار عربية ولو كانت مجاورة له، ولتتمتع بنفس الصفات الجغرافية والمناخية... فلا اختلاف واضح بين أسماء العلوم (فضلاً عن المصطلحات) التي نسمعها في سورية وبين تلك التي نسمعها في لبنان أو الأردن أو العراق مثلاً...^(٢٠) ولعل أهم سبب لذلك الاختلاف هو تعدد مصادر النقل، فالذين ينقلون عن الانكليزية تختلف مصطلحاتهم عن أولئك الذين ينقلون عن الفرنسية^(٢١) أو عن الألمانية أو الروسية... وتهدف مراجعتنا هذه إلى استقراء المنهجيات التي سنّها واضعو المصطلحات لأنفسهم، ومدى وفائهم لها في أعمالهم المعجمية وفي أعمالهم العلمية الأخرى من تأليف أو ترجمة...

أولاً أعمال ومنهجية النقلة الأوائل

وإذا قلنا صفحات الكتب العلمية التي نقلها المترجمون الأوائل أو ألفها العلماء العرب في العصر العباسي، نجد أنهم اعتمدوا في النقل على طرق عدة..

١ - ترجمة المفردات الأعجمية لفظاً بلفظ، كلها وجدوا في العربية ما يقابل اللفظ الأعجمي...

(١٧) د. جؤر عبد النور: المعجم الأمي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى: آذار/ ١٩٧٩.

(١٨) د. تمام حسان: نحو تنسيق أفضل للجهود الرامية إلى تطوير اللغة العربية، اللسان العربي، المجلد ١١، الجزء (١)، ص ٢٩٧.

(١٩) فعل سبيل المثال يقال بالفرنسية Tout-à-Pegout في مقابل المجازي الصحة للغة والعرف الصحي، أو: الإصحاح..

(٢٠) د. عبد المجدي الصبياني: العربيت وتنسيقها في الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤ (الطبعة الثالثة)، ص ٧٣ وما بعدها.

(٢١) د. حسيب سبيح: نظرة في معجم كاترل: كثير اللغات، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٥٧ الجزء ٤، ص ٥٥٨.

٢ - الاشتقاق وهو من أهم الطرق وأخصبها .

٣ - المجاز ، فاستعملوا الفاظاً بينها وبين المعنى الجديد اتصال من تشبيه أو اتصال سبب أو بعضية أو كليّة أو عموم أو خصوص أو إضافة أو اشتغال ...

٤ - النحت ، وهي نوع من الاختصار والتركيب يمزج فيه لفظان أو عدة ألفاظ أو أهم حروفها فيتولد عن ذلك لفظ واحد جديد ولكن النحت عند النقلة الأوائل كان قليلاً ومقدار ماتسمح به اللغة العربية ...

٥ - التعريب . وذلك بنقل المفردات الأعجمية بلفظها وذلك إلى حين ... حتى يُسرَّ الله هذه المفردات الأعجمية من يصيغ لها مصطلحاً عربياً .^(٢٢) أما عن أسلوب النقل للتخصص العلمية فقد كان للمترجمين في العصر العباسي طريقتان^(٢٣)

- أحدهما هو أن ينظر الناقل إلى كلمة مفردة من الكلمات الأعجمية وماتدل عليه من المعنى فيثبتها وينقل إلى الأخرى كذلك ، حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه وهذه الطريقة رديئة لوجهين :

* أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات الأعجمية ولهذا يقع في خلال هذا النقل كثير من الألفاظ الأعجمية على حالها

* والثاني أن خواص هذا التركيب والنسب الإنسانية لا تنطبق نظرها من لغة أخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات

- والطريق الثاني في الترجمة هو أن يأتي بالجملة ، فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء تساوت الألفاظ أم خالفتهما ... وهذا الطريق أجود .

فاذا عرفنا أن الذين تولّوا نقل علوم اليونان إلى العربية في عصر الخلفاء العباسيين كانوا من النسطوريين والكلدانيين والأعاجم ، وهؤلاء كانوا علماء أكثر منهم أدباء ، وإن كانوا تعلموا العربية فانهم لم يتفقهوا فيها ولم يتقنوا آدابها فإننا لن نستغرب أن نجد ما عرّبه مشحوناً بالألفاظ الأعجمية مع أن لها في العربية مرادفات .. وأنهم لم يجروا في التعريب على غلط واحد يصح اتباعه إلا في أحوال معينة بل نجدهم صوروا الكلمات اليونانية بصور شتى ، يصعب على قارئها رجوعها إلى أصولها .. ولم يذكر أحد منهم أو من أئمة اللغويين أي قواعد لما يُعرَّب من الكلمات الأعجمية ..^(٢٤)

(٢٢) محمد السوسي : مشكلة وضع المصطلح ، من كلمة التي ألفها في ندوة استراتيجية التربية والتعريب التي انعقدت في الجزائر - الماصمة بين ٨-١٠ أيار ١٩٧٥ ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء (١) ، ص ٩ .

(٢٣) د. أحمد عيسى بك : التهذيب في أصول التعريب ، ص ١١٣ .

(٢٤) د. محمد شرف : معجم العلوم الطبية والطبيعية (الطبعة الثانية) المجلد ١ ، ص ١٢ .

لقد قام علماء العرب والمسلمين بترجمة الكتب الفلكية عن اليونان والكلدان والفرس والهنود ، فكان أول كتاب ترجموه هو « مفتاح النجوم » المنسوب إلى « هرمس الحكيم » ، من اللغة اليونانية ، قبل سقوط الدولة الأموية بسبع سنين ثم ركز علماء العرب والمسلمين في العصر العباسي على الترجمة والتعليق والشرح على المؤلفات اليونانية العلمية وخاصة كتاب « المجسطي » لبطليموس في علم الفلك وحركات النجوم . . . وكتب سقراط وأرسطو طاليس وأفلاطون في المنطق^(٢٠) . . . وأهم الكتب التي ضمت علوم الحضارات والأمم السابقة .

ويجمل القول في سبيل الترجمة الأوائل والعلماء الأوائل في حضارتنا العربية والإسلامية أنهم توخوا « البيان والإيضاح » ولم يتوقفوا أمام قضية المصطلحات ، بل كان كل مصطلح لايسهل عليهم نقله بلفظ عربي أصيل بادروا إلى تعريبه تعريباً لفظياً . . . دون أن يحول ذلك دون نقل نص علمي يروته إلى العربية ، أو دون تأليف كتاب بالعربية^(٢١) تاركين للأجيال من بعدهم مهمة صياغة مصطلح مثيل لتلك الكلمات . . .

ولعل أحسن مثال يصور لنا طريقة نقل الكتب إلى العربية في ذلك الوقت هو ما ذكره « ابن جليل » عن نقل كتاب ديوسقوريد في النبات من اليونانية ، فقد ترجم مدينة السلام أيام جعفر المتوكل ، وكان المترجم له اصطف بن بسيل الترجمان ، وتصنع الترجمة حينئذ بن سحق فصيحها وأجازها . .

فما علم اصطف من تلك الأسماء اليونانية في وقته له أسياً في اللسان العربي فترجم بالعربية ، وما لم يعلم له أسياً في اللسان العربي تركه على اسمه اليوناني أكثالا منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسر به باللسان العربي . ثم ورد هذا الكتاب إلى الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر ، كما ورد لعبد الرحمن الناصر كتاب ديسقوريدس مصوراً ومكتوباً بالأغريقية من ملك القسطنطينية أرمنيوس على سبيل الهدية ، ثم أرسل له براهب يُسمى نيقولا له معرفة بالأغريقية . . فتتمكن من تفسير ما كان مجهولاً من أسماء عقاقير ديسقوريدس بالتعاون مع العلماء العرب الموجودين في بلاط عبد الرحمن الناصر ومن له خبرة بعلوم النبات . . .^(٢٢) وهذا ما يشير بوضوح إلى تسامح النقلة الأوائل في نقل الألفاظ الأعجمية إلى العربية ، وبدون حرج أو شعور بالنقص . . مالم يكن لهذه الألفاظ مقابل شائع في العربية . .

ثانياً - أعمال المؤلفين العرب في العصور التالية حتى عصر النهضة :

وقد امتدت هذه الظاهرة إلى المؤلفين ، الذين لم يجدوا مهراً من استعمال الألفاظ الأعجمية في كتبهم فأوردوها على سبيل التعريب . . فقد لحص البيروني طريقته في نقل المصطلحات في كتابه « تحقيق المألّه من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » حيث يقول : « وأنا ذاكر من الأسماء والموضوعات في لغتهم مالا بد من ذكره مرة واحدة يوجبها التعريف ، ثم إن كان مشتقاً يمكن تحويله في العربية إلى معناه مالم أملّ عنه إلى غيره إلا أن يكون بالهندية أخف في

(٢٠) . د. علي عبد الله الدفائع : أثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ (الطبعة الأولى) ، ص ١٩ - ٢١ .

(٢١) . د. محمد حليم أحيات : تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية في ربيع القرن الأخير ، ندوة اتحاد الجامعات العربية ، الرباط ١٩٨٥ ، ص ١٩٥١ .

(٢٢) . محمد السوسي : مشكلة وضع المصطلح ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء (١) ، ص ١٠ - ١١ .

الاستعمال فيستعمله بعد غاية الثقة منه من الكتب ، أو كان مقتضبا شليدا الاستعصار فبعد الإشارة إلى معناه ، وأن كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الأمر فيه ... »

وقد كان نقل الأسماء الأعجمية المعربة أكثر تواتراً في الكتب العلمية منها في كتب الأدب والفلسفة ... ففي علم النبات مثلاً نطالع مقاله النباتي ضياء الدين بن البيطار في مقدمة كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » : « وذكرت كثيراً منها (الأدوية) بما يُعرف به في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطوة كالألفاظ البرية واللاتينية وهي أعجمية الأندلس إذ كانت مشهورة عندنا » . إلا أن كتب الأدب هي الأخرى لم تخل من المبررات . . فقد حفل الجزء الثاني عشر من كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) من تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ^(٢٨) (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ) - (١٢٧٨ - ١٣٣٣ م) بذكر أصناف الطيب والبخورات والغوالي والتدود والأدهان والنضوحات ، كما حفل بأسماء النبات والأدوية والمقائير . . واستند المؤلف مادته العلمية من كتب الأطباء والمترجمين القدامى . . وجاء بالكثير من الأسماء معرباً عن لفظه الأعجمي مثل السقنور ، والدارصني ، والأباريز ، والإسفيداج ، والخلونجان . . على أن هذه الألفاظ الأعجمية لم تكن لتنفق عقبه بين القاريء وفهم النص بوضوح ويسهولة ... فمن يقرأ في كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م يجد أن جملة مايجوه من فصول وأبواب مفهومه لفارثنا المعاصر رغم مرور حقبة « طويلة » من الزمان ...

ولناخذ مثلاً على وضوح أسلوبه ويسر تفهّمه فصلاً من الكتاب الرابع ^(٢٩) :

« فصل في الكسر مع الجراحة : وإذا اجتمع كسر وجراحة فليرقق المجرّ بالجبر وفقاً شديداً ، وليبعد الجبارير عن موضع الجراحة ، وليضع على الجراحة ماينبغي من المراهم وخصوصاً الزنقي . . وقوم يأمرّون بأن يُبتدأ بالشد من جانبي الجرح ، ويترك الجرح مكشوفاً ، وهذا يحسن إذا كان الجرح ليس على الكسر نفسه ، ثم يجب أن يكون عليها ستر آخر يغطيها عن الهواء ... »

إلا أن الأمر يختلف عندما يتحدث الشيخ الرئيس عن السموم ومعالجاتها والأدوية المنقّدة ، والأدوية المركبة من تراكبات ومعاجين وإبراجات وتبادروسات وجوارشانات وسفوف ولعوق وأشربه وريوب وسكنجيات وأقراص وأدهان ومراهم وضادات ... إذ يواجه القاريء هنا الكثير من الألفاظ الأعجمية التي تحتاج للتوضيح والتفسير . وإذا قرأنا له نصاً آخر عن الأدوية القلبية نجد على سبيل المثال الفصل العاشر ^(٣٠) : « إن الأدوية التي تُفَرِّح إما أن تُفَرِّح بشيء من اللعل المعروفة كالشراب الذي هو أكسير السرور ومغناطيس الفرح . . أو تنويرها أي الروح أو تسطيعها كاللؤلؤ

(٢٨) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة والأشياء القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ، مقدمة الجلس الثاني عشر .

(٢٩) ابن سينا : القانون ، الجزء الثالث ، دار الصياد ، بيروت ، ص ٢٠٣ .

(٣٠) ابن سينا : من مؤلفات ابن سينا الطبية ، كتاب الأدوية القلبية مصادر وعلاجات في تاريخ الطب العربي (٥) معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ومعهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تحقيق الدكتور محمد زعيم البابا ، ١٩٨١ ، ص ٢٤٢ .

والابريسم بما فيها من الشف. أو جمعها ومنعها من أن يسرع إليها التحلل مثل البليج والهيلج الكابلي والكهرياء والبسد بقبضها... وإما لتعديل مزاجها بالتسخين مثل الدونج أو بالتبريد مثل ماء الورد والكافور. أما إذا توفرت سميات عربية للمقابلات الأجنبية فإن العلماء العرب كانوا يفرحون بها ويؤثرون بها كتبهم ويفخرون بأنبائها ويعملون على إذاعتها ونشرها.. قال أبو الريحان البيروني في مقدمة كتابه الصيدنة: «وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازد انت وحلت في الأئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها (...). والمجى بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية»^(٣١).. ولا عجب أن ظهرت في شتى ميادين العلوم مصطلحات عربية أصيلة لا تزال تستعمل إلى اليوم في فروع العلوم التطبيقية المختلفة، وفي العلوم البحتة أيضا فمن المصطلحات في العلوم البحتة (غير العملية أو التطبيقية) ظهر مصطلح الجذر، والمال (س)، والمفرد (س)، والكعب (المال × المفرد) (س)، ومال المال (س)، ومال (س)، ومال الكعب (س)، وكعب الكعب (س)، والأعداد التامة والزائدة والنقصية والمتحابة، والجبر والمقابلة... الخ^(٣٢) وقد تناقلت الأجيال المتعاقبة من العلماء العرب هذه المصطلحات، ونقلتها بدورها إلى العصور الحديثة، محافظين - كعادتهم - على الضبط العلمي الدقيق، وذكر المصادر والأسانيد التي وردت اليهم تلك المصطلحات عبرها... فكان كل مؤلف يورد في مقدمة كتابه سلسلة الكتب التي طالعها، وما أخذ عن كل كتاب منها... والأصلة على ذلك كثيرة... فدادود الانطاكي المتوفى عام ١٠٠٨ يذكر مصادر كتابه «التذكرة» والمساهمين في وضع مابعد من مصطلحات والمعربين لها، والمؤلفين في مفرداتها، فيقول «فنحن»^(٣٣) كالمقتبس من تلك المصاحب ذبالة، والمغترفين من تلك البحور بلاة، وأول من ألفت شمل هذا النمط ويسط للناس فيه ما انبسط ديسقريدوس اليوناني في كتابه الموسوم بالمقاتلات في الحشائش ولكنه لم يذكر إلا الأقل حتى أنه أغفل مآثر تداوله، وامتلأ الكون بوجوده كالكمون والسقمونيا والغاريقون (...). ثم «روفس» فكان مآذره قريبا من كلام الأول (...). ثم «فولس» فاقصر على مايقع في الأحكام خاصة على أنه أحل بمعظمها (...). ثم «أندروماخس الأصغر» فذكر مفردات الترياق الكبير فقط (...). ثم رأس البخل الملقب «بجالينوس» وهو غير الطيب المشهور فجمع كثيرا من المفردات ولكنه لم يذكر إلا النافع دون باقي الأحوال... ولم أعلم من الروم مؤلفا غير هؤلاء... ثم انتقلت الصناعة إلى أيدي النصارى، فأول من هذب المفردات اليونانية ونقلها إلى اللسان السرياني «ديودرس البابلي» ولم يزد على مآذروه شيئا... حتى أتى الفاضل العرب والكامل المجرب «اسحق بن حنين النيسابوري» فعرّب اليونانيات والسريانيات وأضاف إليها مصطلح الأقباط لأنه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية... واستخرج مضار الأدوية ومصطلحاتها ثم تلاه ولده حين فصل الأغذية من الأدوية فقط، ولم أعلم من النصارى من أفرد هذا الفن غير هؤلاء... وأما النجاشة فلمهم كثير من الكتابات، ثم انتقلت الصناعة إلى الاسلام، وأول واضع فيها الكتب من هذا القسم الإمام محمد بن زكريا الرازي، ثم مولانا الفرد الأكمل والمتبحر الأفاضل الأمل الحسين بن عبدالله بن سينا رئيس الحكماء فضلا عن الأطباء فوضع الكتاب الثاني من القانون وهو أول من مهّد لكل مفرد سبعة أشياء (...). ثم

(٣١) د. علي عبد الله الدفوع: أثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك، مؤسسة الرسالة، بيروت (الطبعة الأولى)، ١٩٨١، ص ١٧٢.

(٣٢) د. علي عبد الله الدفوع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، دار الرسالة، ١٩٨٦، (الغدة).

(٣٣) دادود الانطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للمعجب المعجب، دار بهر الانطاكي، الكلية العلمية، بيروت، ص ١٩.

ترادف المصنفون على اختلاف أحوالهم فوضعوا في هذا الفن كتباً كثيرة من أجلها مفردات ابن الأشعث وأبي حنيفة ،
والشريف بن الجزار ، والصائغ ، وجرجس بن يوحنا ، وأمين الدولة ، وابن التلميذ ، وابن البيطار وصاحب
مالايسع (....) وأجل هؤلاء الكتب الكتاب الموسوم بمنهاج البيان صناعة الطبيب الفاضل يحيى بن جزله رحمه الله
تعالى ... وأظن أن آخر من وضع في هذا الفن الحاذق الفاضل محمد بن علي الصوري ...

والحق أن داود الأنطاكي كان يقف عند كل مفرد من مفردات كتابه ليعرّف قارئه على اسمه الأصلي وما آل إليه
من تغيير في اللغات الأخرى ، وبخاصة أثناء تعريبه : فالأس : باليونانية أموسير والطينية مؤنس والفارسية مرزيبان
والسريانية هوسن والبربرية احماص والعبرية احماد والعربية ريحان ويحصر مرسين وبالشام : البستاني ، وقف وانظر ،
والبرني ، واليونانية مرسى أعزبا يعني ريحان الأرض ... ثم ينتقل لوصفه وذكر فوائده الطبية ... والاستفداج
مُعرب من الفارسية بالبربرية النحيب ، واليونانية سميوتون والعبرية باروق ، والسريانية اسقطيف ... والهندي
باراجي وعندنا اسبيداج .. والمراد به المعمول من الرصاص ... وصننته ... «أفيون : يوناني معناه المسبت ،
هو عصارة الخشخاش ، والبربرية الترياق والسريانية شقيقل أى المعبت للأعضاء ... وهو ما يؤخذ من
الخشخاش ... وفي كتاب «قاموس الأطباء وناموس الألبا» وهو صنعة مدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري
المتوفى ١٠٤٤ هـ - ١٦٣٤ م وهو أحد أعلام الطب في القرن الحادي عشر للهجرة ، إذ ذكر في ختام هذا الكتاب أنه
فرغ من تأليفه في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين بعد الألف ... ففي مقدمته تحدث عن المادة
التي اشتمل عليها الكتاب : (٣١) « وهذا الكتاب الذي لمْ أُسَبِّحْ إلى مثاله ولمْ يُنَسَّجْ على منواله لما اشتمل عليه من ذكر
أنواع المفردات من المعدن والحيوان والنبات ، وما يحتاج إليه كل فرد منها من معرفة ضبط لفظه بما ذكره أئمة اللغة
بأصح ضبط بيان ، ومن معرفة ماهيته ، ونوعه وطبيعته ، وقوته ومنافعه ، ومضرته ، وإصلاحه ، وبذله ، وكيفية
ما يُستعمل منه بحسب الإمكان ، ومن ذكر أسماء المركبات وضبط كل فرد منها مع بيانه ، ومن ذكر صفة تركيب
بعضها كالترياق أيضا حالما خفي من غامضه على الأذهان ، ومن ذكر الأوصاف المتعلقة بغالب الأعضاء وضبط كل فرد منها مع
مع ذكر تعريفه وتشريحه وتوضيحه بأوضح بيان ، ومن ذكر الأمراض وضبط كل فرد منها مع ذكر تعريفه وسببه وعلامته وعلاجه بحسب
الوقت والزمان » ثم يتطرق إلى ذكر المصادر التي استقى منها مادة كتابه فيعدها :

* الأزهري : صاحب التهذيب في اللغة ، وتفسير الألفاظ ، والتعريب في التفسير وشرح
شعر أبي تمام .

* ابن سيده : صاحب المحكم في اللغة والمخصص في اللغة ، وشرح الحماسة .

* ابن المكرم (ابن منظور) : صاحب لسان العرب ، وكتاب سرور النفس بمدارك الخواص الخمس ...

(٣١) مدين القوصوني المصري : مصورات جميع اللغة العربية بدشقي ، دمشق ١٣٩٩/١٩٧٩ ، بالورقة ٣ .

* ابن مكنون : صاحب «المشوف المعلم في بين العباب والمحكم» في اللغة وشرح الكافية

لابن الحاجب وشرح الهداية ، وطبقات اللغويين والنحاة .

* الشيخ الرئيس ابن سينا : ومن تصانيفه كتاب الشفا وكتاب القانون

* علاء الدين القرشي : صاحب كتاب شرح القانون والمهذب والموجز وشرح الهداية للشيخ

ابن سينا . .

* محمود أبو الشنا الكازوري الشيرازي : صاحب شرح كليات القانون ، وشرح حكمة الاشراق للسهروردي وشرح

المفتاح للسكاكي وشرح الكافية لابن الحاجب . . .

* ابن الكتيبي : صاحب مالا يسع الطبيب جهله .

كما كتب ابن البيطار (١١٩٧-١٢٤٨) م كتابه «الجامع في الأدوية المفردة» الذي ضمَّ شرحاً مفصلاً لما يزيد على ألف وأربعمئة نبتة طبية ، مبتدئاً بذكر أسائها ، وطرق استعمالها ، وهو يقول في مقدمة كتابه . «وقد استوعبت فيه جميع مافي المقالات الخمس من كتاب الأفضل» «ديسقوريدس» بنصّه ، وهذا ما فعلته أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في المقالات الست من مفرداته بنصّه ثم ألحقت بقولها من أعمال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية مالم يذكرها ووصفت فيه عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين مالم يصفاه . . .»^(٣٠) وذلك ينطبق إلى حد بعيد على المؤلفات التي ظهرت في القرون التالية مثل «أقرباذين القلاسي» صنعة بدرالدين محمد بن بهرام القلاسي السمرقندي المتوفى حوالي عام (٥٦٠ هـ - ١١٦٥ م) والذي ذكر مؤلفها في مقدمته : «^(٣١) وانتخب هذه الفوائد والتقطتها من الكتب المشهورة المعتمد عليها وهي القانون والحايوي والكمال والمنصوري والذخيرة والكفاية وفردوس الحكمة وأمثالها . . . وأوردت فيه ذرواً من نسخ الإمام قوام الدين قدوة الفضلاء صاعد المهي ومن نسخ الإمام الفاضل شرف الزمان المارستاني ، وأعلمت كل باب نقلته أو أقله بعلامة دالة عليه ، فالقاف علامة القانون ، والحاء علامة الحايوي والقاء علامة فردوس الحكمة والكاف علامة الكامل والميم علامة المنصوري والذال علامة الذخيرة . . .» وهكذا كانت النتيجة النهائية أن طغت المصطلحات العلمية لأسماء النباتات والأدوية المنقولة بواسطة «التعريب» على تلك المنقولة بأسلوب الترجمة اللفظية أو الاشتقاق أو النحت . . فعل سبيل المثال ، لقد أحصى الدكتور مهتد عبدالأمير الأعمس (وهو طبيب أسنان) الأدوية المفردة في كتاب «القانون في الطب» لابن سينا فوجدها ٨٠٤ لفظة منها مايزيد على ٤٠٠ لفظة معربة^(٣٢)

(٣٠) زهير محمد مكنون : شمس العرب تنطق على الغرب ، نقله عن الأتاني فاروق يعضون ود ، كمال صوفي ، بيروت (الطبعة الثانية) ١٩٦٩ ، ص ٣٢٣ .

(٣١) أرباباين القلاسي : دراسة وتحقيق الدكتور محمد زهير البابا ، جامعة حلب ، معهد التراث العلمي العربي ، ١٩٨٣ ، ص ١٨ .

(٣٢) مهتد عبد الأمير الأعمس : الأدوية المفردة في كتاب القانون في الطب لابن سينا ، الأندلس للطباعة والنشر للتوزيع ، بيروت ، ص ١٩٨٤ .

ثالثاً - عصر النهضة

١ - تجربة القطر المصري

في

القرن التاسع عشر

طلع القرن التاسع عشر على مصر ولم يكن فيها معهدٌ واحدٌ تُدرّس فيه أية لغةٍ من اللغات الأجنبية . بل كان أفراد الجاليات الأوروبية يعيشون في أحياء خاصة بهم^(٣٨) واستغل الأجانب من حلاقين وصانعي أحذية وعمال مقاهي سداجة الجمهور ، وعملوا على استعمال أساليب الشعوذة والنصب حتى ذهب المؤرخون للقول عن تلك الفترة إنَّ أئى أجنبي كان ينزل بأرض مصر وليس له مهنة يتقنها كان يُعَيَّن صيدلياً أو طبيباً^(٣٩) . حتى إذا كانت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٨٩ ، اصطحبت معها مطبعة وأحضرها بونايرته من مدينة روما وكانت مستعدة لأن تطبع مايروم بها طبعه بالفرنسية واللاتينية واليونانية والعربية والفارسية والسريانية^(٤٠) وقام بعض العلماء الفرنسيين المرافقين للحملة الفرنسية ببعض الأعمال العلمية فالعالم «دي جنت» قام بالأحصاء الطبي وحرر الطبيب «براون» رسالةً في تشخيص الرُمَد الصديدي وعلاجه ، وكتب «براتوليه وديكونتر» بياناً عن خواص بعض النباتات وألف رئيس الأطباء رسالة في علاج الجدري ، وعهد بها إلى المترجم الأب وأنطون ووفاتيل زاخووهبه لترجمتها إلى اللغة العربية ، ثم طُبِعت في مطبعة الحملة ، ووُزعت على المشايخ وأرباب الشأن في بلاد مصر وعلى سبيل المحبة والهدية ، ليتناقلها الناس وليستعملوا ماأشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العُضال^(٤١) كما أُسِّس بونايرت المعهد العلمي المصري عام ١٧٩٨ ، وبلغ عدد أعضائه ثمانية وأربعين عضواً ، وكانت له نشرة تصدر كل ثلاثة أشهر ، ونُشرت أعماله في أربعة مجلدات^(٤٢) وخلال إقامة الحملة الفرنسية في مصر بدأت بإعداد بعض الشباب لتعلم اللغة الفرنسية ، ولما انسحبت عن بلاد مصر ، خرج معها بعض هؤلاء الشباب ، ولحقها بعد فترة قصيرة بعضهم الآخر بهدف إتمام دراساتهم في باريس ، وبعد تطور أحداث الثورة الفرنسية وسقوط بونايرت لم يلبث أن عاد بعض هؤلاء الشباب إلى مصر ، وساهم في حركة ترجمة العلوم إلى اللغة العربية مثل الأب أنطون زاخووهبه ...

ولما بدأ محمد علي باشا بتثبيت أقدام حكمه في مصر ، وانجذبت نيته لإنشاء جيش حديث فيها يشبه الجيوش الأوروبية في التنظيم ، استقدم إلى بلاده عدداً كبيراً من الأطباء الأوروبيين لتقديم خدمات طبية منظمة لعناصر الجيش ... ثم ما لبث أن أنشأ مدرسة للطب قرب مشفى الجيش في «أبي زهيل» . كان كل أعضاء هيئة التدريس فيها من الأوروبيين ، بينما كان كل الطلاب من العرب الأزهريين .. وكان على الدكتور «كلوت» المكلف بإدارة

(٣٨) سابع المحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٣ .

(٣٩) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الفرجة والحركة الثغالية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٧ .

(٤٠) د. أمين سامي باشا : تقويم النيل وعصر محمد علي باشا (الطبعة الأولى) ١٩٢٩ / ١٩٢٨ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (الجزء الثاني) ج ١٥ حرم ١٢١٣ /

١٧٩٨ ، ص ١١٤ - ١١٧ .

(٤١) أمين سامي باشا : تقويم النيل . (الجزء الثاني) حوادث شهر شبان / ١٢١٤ ، ص ١٥٠ .

(٤٢) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الفرجة والحركة الثغالية في مصر في عهد محمد علي ، ص ١٦٠ .

المدرسة الطبية أن يضع خطة للتغلب على الحاجز اللغوي القائم بين الطلاب والمدرسين ، وقد لخص الدكتور كلوت هذه الخطة في كتابه «لمحة عامة عن مصر» ورسّ خطاوات لتعريب المؤلفات العلمية والتقنية . . . فبالنسبة لتعريب المحاضرات ، كان الأمر يتم على النسق التالي :

كان الأستاذ يلي دروسه على الطلاب بواسطة مترجمين . . . وفي غالب الأحيان كان هؤلاء المترجمون يُمنّ لاجلهم لهم المواد التي عليهم ترجمتها وليس لهم مقدرة على تأدية معاني الكثير من المصطلحات التقنية بشكل كاف وكثيراً ما يستغلق عليهم فهم ونقل المسائل العلمية التي يقومون بترجمتها . لذا فإن الأستاذ يُجِدُّ المترجم بالشروح والتفسيرات اللازمة لتسهيل مهمته ولكي يتأكد الأستاذ من حُسْن فهم المترجم لمادته كان يطلب إليه أن يُعيد ما ترجمه إلى اللغة العربية بلغة أخرى يتقنها مثل الفرنسية أو الإيطالية . . . وبعد موافقة الأستاذ تُجَلِّ الدروس المترجمة على الطلاب باللغة العربية ، ثم يقوم الأستاذ بشرح الدرس ، وبالإجابة عن أسئلتهم . . . عن طريق المترجم . . . ويقصد تعريف المترجمين على المصطلحات التقنية أُلْحِقَ بعض المترجمين بالمدارس الطبية والعلمية الأخرى كتلاميذ يتلقون العلوم مباشرة من الأساتذة . . . وأُنشِئت مدرسة لتعليم الطلاب اللغة الافرنسية . . . وصَدَرَ تنبيه من محمد علي إلى الأساتذة الأجانب بضرورة تعلُّم اللغة العربية خلال السنة الأولى من عملهم في مصر^(١) . . . ولئن وَجَدَ بعض المدرسين الأجانب صعوبة في تعلُّم العربية فقد نبغ بعضهم في الترجمة والكتابة بها مباشرة ، مثل الدكتور «بيرون» Perron الذي طالب أن أصبح ناظراً للمدرسة الطبية ، بعد أن تتلمذ على يد المشايخ الأزهرين الذين كانوا يعملون محررين ومصححين للكتب المترجمة . . . وساهم في إخراج أول معجم طبي عربي فرنسي هو الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية^(٢) .

أما خطوات تعريب الكتب العلمية والتقنية فقد كانت أكثر دقة وإحكاماً إذ استطاعت تجاوز بُعد المترجم عن إتقان علوم اللغة العربية رغم إجادتهم اللغات الأجنبية التي يترجمون فيها ، والواقع أنه باستثناء بعض الأعمال الأولى التي كانت على درجة غير مرضية من الضبط العلمي ومن الدقة اللغوية ، فإن جميع الأعمال التي أُنتِجَت كانت مستوفية حقاً من الضبط العلمي والصحة اللغوية في نفس الوقت ، وذلك بفضل الحظلة الرشيدة والمراقبة الدقيقة لتنفيذ تلك الحطة . . .

فقد تم اختيار نخبة من رجال الأزهر الشريف ، من ذوي الدراية بعلوم اللغة وكُلِّف هؤلاء الرجال بمراجعة النصوص المترجمة وتصحيحها ، وإعادة كتابتها بلغة سليمة واضحة^(٣) . . . وكان لزاماً على المصحح أن يجتمع مع المترجم لمناقشة عبارات الكتاب المترجم ، العبارة تلو الأخرى ، وإذا لم يجد المصحح العبارة سليمة أو شك في صحتها يقتضي الأمر الرجوع إلى الأصل وإعادة النظر في الترجمة حتى يستقيم الأمر . . . ويعتمد المصحح والمترجم على ما بين

(٤٣) أمين سامي باشا : تقييم النيل ، الجزء الثاني ، ص ٤٥٥ .

(٤٤) د. جمال الدين النبال : تاريخ الترجمة ، ص ٢٠ .

(٤٥) د. جمال الدين النبال : تاريخ الترجمة ، ص ١٧٣ .

أبيدتها من معاجم لغوية وكتب طبية عربية قديمة... وبعد كل ذلك العناء قد تحوّل النصوص المترجمة إلى لجنة ثانية للرجعة والتصحيح لإبداء الرأي والسماح بطبع الكتاب^(٩١) وكثيراً ما يُطلب من المترجم نفسه أو من مترجم غيره أن يعيد ترجمة النص العربي إلى اللغة الأجنبية ذاتها أو إلى لغة أجنبية ثانية ليطلع عليها الأستاذ المتخصص بتدريس المادة فإذا وجد أن الأفكار سليمة ، وأن المترجم متفهم للعبارات ، أجاز تحرير وطبع النص العربي... وتهدف هذه العمليات التي تبدو للوهلة الأولى معقّدة ومكرّرة إلى التأكيد من تفهم المترجم لعناصر النصوص العلمية... ومن المفيد التنويه إلى أن نوعاً من التخصص قد فرض على المترجمين والمصحّحين والمحرّرين... فالعاملون في مدرسة الطب من هؤلاء لا شأن لهم بتصحيح أو تحرير الكتب المترجمة في المدارس الأخرى إلا إذا كان هناك حاجة ماسة لذلك... وهكذا نشأت طبقة جديدة متفرغة لتصحيح ومراجعة الكتب العلمية المترجمة أُطلق على أفرادها والمصحّحون والمحرّرون^(٩٢)... إلا أن هذه الصورة المعقّدة أصبحت أكثر بساطة بعد أن أوفد محمد علي البعثات العلمية إلى بلاد أوروبية عامّة ، وإلى فرنسا خاصة... إذ كان الموفدون طلاباً في الأزهر الشريف ، وكان لهم دراية بعلوم اللغة العربية وما إن أمضوا سنواتهم الأولى وتعلّموا اللغات الأوروبية حتى وافتهم تعليمات من محمد علي بالعمل على ترجمة الكتب التي يدرسونها «أولاً بأول» ، وإرسال الترجمات إلى مصر^(٩٣) كما وُزعت تعليمات مشابهة على ضباط الجيش المصري تطلب منهم حتّى طلاب السنة الثالثة من المدارس الحربية على ترجمة الأشياء المفيدة من اللغة الفرنسية إلى العربية حتى إذا عاد الطلاب إلى مصر ، لم ينتظر محمد علي حتّى يصلوا لمقابلته في العاصمة بل كان يصدر اليهم الأوامر بترجمة بعض الكتب في الفترة التي عليهم أن يقضوها في الحجر الصحي والكارنتينا^(٩٤) ويروي المؤرخون أنه لما عاد أعضاء بعثة عام ١٨٢٦ استقبلهم محمد علي في ديوانه بالقلعة وأعطى كلّ واحد منهم كتاباً فرنسياً في المادة التي درسها في أوروبا ، وطلب منه أن يترجم ذلك الكتاب إلى اللغة العربية وأمر بحجزهم في القلعة ، وألا يؤذّن لأحد منهم بمغادرة القلعة حتّى يتم ترجمة ما عهد إليه بترجمته...^(٩٥) بل إن هؤلاء الموفدين لأئلقون بالوظائف الحكومية مالم ينجزوا ترجمة كلّ ما يُطلب منهم وما هو لازم للمدارس الملكية ، ويحتاج إليه في المكاتب السلطانية^(٩٦).

إن أكثر الأمور لفناً للنظر في الترجمة المصرية أنها تجربة مؤسسية وأكاديمية تحت رعاية وتشجيع الحكومة ، وإشرافها وتوجيهها ، واعتمدت على أكثر فئات الشعب تنوّراً ومعرفةً أنتدب وهم مشايخ الأزهر وطلّبه... وفي ظلّ هذه المؤسسات ظهرت أولى المؤلفات الحديثة في العلوم^(٩٧) وأصبح لدى المدارس لوائح لتنظيم التعليم في مصر منذ عام ١٨٢٦ وتنصّ هذه اللوائح على أن يجتمع المدرّسون والمترجمون في «غرفة الترجمة» بالمدسة يشتغلون بالترجمة

(٩١) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الترجمة ، ص ٩٢ .

(٩٢) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الترجمة ، ص ٢٠٧ .

(٩٣) أمين سامي باشا : تعليم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤١٤ ، أحداث ٢١ ربيع الآخر ١٢٤٢ / ١٢ نوفمبر ١٨٢٧ .

(٩٤) تعليم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤٩٤ .

(٩٥) تعليم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤٩٤ .

(٩٦) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الترجمة ، ص ٩٤ .

(٩٧) د. جمال الدين الشبال : تاريخ الترجمة - ملاحق الكتاب وتضم قوائم بأسماء وصفات تلك المؤلفات .

ساعتين قبل الظهر وساعتين بعد الظهر ... وفي غرفة الترجمة هذه تكامل ظهور «مسرد» للمفردات التقنية الأجنبية وما يقابلها من المصطلحات العربية الجديدة ، زاد عدد كلماته على ستة آلاف كلمة .^(٥٧)

ويعتقد الكثير من الباحثين أنَّ هذه الهيئات قد وُفِّت توفيقاً كبيراً في ترجمة أسماء كثير من المصطلحات الحديثة ، وأسماها الآلات ولأزال قسم كبير منها يُستعمل حتى الآن في كتب العلوم الحديثة مثل الأنبيوه ، البودقه ، الجفنه ، المخبار ، المرشح ...

الا أن الترجمة من مختلف الفنون والعلوم ولدت شعوراً بالحاجة الى «معجم» شافٍ للألفاظ الاصطلاحية» كما ذكر «رفاعة الطهطاوي» في مقدمة كتابه «المعجم» ودعا غيره للاقتداء به : «ولو وضع المترجمون نظير ذلك في كل كتاب تُرجم في دولة اغنياء ولي النعم الاكرم ، لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستخذة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك»^(٥٨) ، ويقول رفاعة في مقدمة كتابه «فوائد المفاهيم» شارحاً طريقة تعريبه للألفاظ الأعجمية سواء أكانت أسماء بلدان أم أشخاص أم أشياء : «وعزيناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى أنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا كثيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية» ... وكان رفاعة يكتب اللفظ المعرب بحروف عربية مراعيًا طريقة نقله باللغة الفرنسية ، ثم ينص على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة «الأزهرية» القديمة ، ثم يشرح معنى اللفظ بجملة واحدة أو جمل عدة مثل قوله :

«أوبرا ، أوبره : يضمُّ الهمز وكسر الباء الفارسية التي تقرأ بين الفاء والباء ، فراء مفتوحة ... وتُطلق على نوع مخصوص من الأشعار ...»

وقد حافظ رفاعة على تنفيذ تدبيل كتبه بقوائم للمصطلحات التقنية في كتبه التي ترجمها مثل «مبادئ الهندسة» و«التعريفات الشافية لمريد الجغرافيا» وغيرها ... ثم مالبت أن أخذ طلابه في مدرسة اللسان بطريقته فظهر معظم كتبهم وفي آخرها ملاحق مرتبة ترتيباً «أبجدياً» لشرح الأعلام والألفاظ الاصطلاحية الواردة في تلك الكتب^(٥٩) وامتد أثر رفاعة إلى المدارس الأخرى فاتبع أساتذة المهندسخانة طريقته فأصدروا نبذة تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية في ٣٨ صفحة وتَمَّ تكليف بعض الأساتذة لوضع قاموس في العلوم الرياضية . وعندما أصدر الدكتور برون كتابه «الجواهر السنية في الأحوال الكيميائية» ألحقه بذيل (١١٩ صفحة) لشرح الآلات الواردة في الكتاب ورَتَّب هذا الذيل على حروف المعجم الشيع التونسي مصحح الكتاب . كما ترجمت مدرسة الطب قاموساً

(٥٣) د. جمال الدين النبال : ص ٦٧ .

(٥٤) د. جمال الدين النبال : ص ١٨٩ .

(٥٥) د. جمال الدين النبال : ص ١٩٠ .

صغيراً من تأليف Nysten^(٥٦) أما عن المنهجية التي سلكها هؤلاء الرواد في اختيار صياغة المصطلح العلمي فيلخصها الأستاذ الدكتور حسني سبيح في معرض حديثه عن تعريب الطب بقوله: ^(٥٧)

- «سلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم ؛
- أحياوا من مصطلح الطب العربي الإسلامي مارأوه واقفاً بالغرض .
- واجتهدوا في وضع مقابلٍ بالعربية لما جُذ من مطلحات .
- أما ما لم يبتدوا فيه الى لفظٍ عربيٍّ مناسب فلجؤوا فيه إلى التعريب» ...

وإذا أردنا أن نتعرف بشكل مفصل على منهجية صياغة المصطلح العلمي في ذلك الوقت فلا بد من استعراض التجربة التي شغلت أساتذة ومصححي ومحرري مدرسة الطب وعلماء الأزهر طيلة ربع قرن من الزمان لاعداد أول معجم للمصطلحات الطبية والعلمية ... وهو «الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية» .

الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية

هو أول معجم عربي - اجنبي متخصص بالمصطلحات الطبية ، أُنتج في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولعلنا من أضخم المجامع المتخصصة إذا لم يكن أضخمها على الإطلاق ، إذ ساهم في إعداده عشرات من الأساتذة الأجانب في مدرسة الطب مع عشرات من مشايخ الأزهر الفضليين باللغة العربية ، واستغرق العمل فيه قرابة ربع قرن ... الا أن لهذا المعجم القِيمَ نهايةً حمزة^(٥٨) ..

ظهرت الحاجة الماسة لوجود معجم مصطلحاتٍ علميةٍ بعد تأسيس محمد علي باشا للمدارس الطبية والهندسية والعسكرية ، واستقدام الأساتذة الأوربيين للتدريس فيها ، ونشاط حركة الترجمة من اللغات الأوربية الى العربية وقيام بعض الأساتذة بالتأليف أو بالترجمة للمقررات والمناهج السائدة في الدول الأوربية ... وقد بدأت حركة الترجمة على يد المترجمين السوريين المقيمين في مصر ، والذين كانوا يتقنون اللغات الأجنبية أكثر بكثير من اتقائهم اللغة العربية وقواعدها ... مما جعل الأعمال الأولى هزيلة وعرضةً للانتقاد ، فبادر المسؤولون لتلافي ذلك بالعمل على تعيين مصححين لغويين ومحررين مختارين من مشايخ الأزهر ذوي الدراية بعلوم اللغة ... تُعرض عليهم ترجمة كل كتاب ، وكثيراً ما يجتمع المترجم والمصحح مع المؤلف لينذكروا حول ترجمة كلمةٍ طبيّةٍ ويعودون الى ما بين أيديهم من معاجم أجنبية ، وعربية ، وكتب عربية قديمة قبل أن يتفقوا على الشكل النهائي للترجمة ... ويُعرض المترجم والمصحح للمواضيع الاختصاصية في العلوم الحديثة ازداد لديهم الشعور بالحاجة لوجود معاجم متخصصة في المصطلحات العلمية وقد عبر عن ذلك الشيخ «رفاعة الطهطاوي» كبير مترجمي عهده وراعي مدرسة الألسن في مقدمة

(٥٦) د. جمال الدين الشيال : ص ١٩٢ .

(٥٧) د. حسني سبيح : تعريب علوم الطب ، جميع اللغة العربية بمدشق ، المجلد ٦٠ ، الجزء ٤ ، تشرين أول ١٩٨٥ ، ص ٦٥ .

(٥٨) ونحن إذ نتعرض لهذا المعجم فالتا لنفس من الفئات والوسائط الحديثة بأمر تعريب المصطلح العلمي أن تبادر لإظهار هذا الكثر الثمين الى حيز الوجود .

أول كتاب له طُبِعَ في مطبعة بولاق وهو كتاب «المعادن النافعة» (١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢) فكتب في مقدمته : «وقد قُشِرَتْ مفرداته على حسب ماظهر في بالفحص التام ، وما تُفسر منه حفظت لفظاً ورسماً كما يمكن كتابته ، وربما أدخلت بعض تفسيرات لطيفة ... والعذر لي إذا زلّ قدمُ ترجمتي في بعض التفسير لأن اللغة الفرنسية لم يُفَضَّ ختامها إلى الآن بقاموس شافٍ مترجم» وعندما قدم الشيخ رفاعة كتابه الثاني «فلاذد المفاخر» في السنة التالية (١٢٤٩ - ١٨٣٣) رأى أنَّ يُذِيلَ الكتابَ بمسردٍ صغيرٍ يحتوى على الألفاظ الغريبة الواردة فيه وشرحها . وقد رأى في ذلك خللاً مؤثراً ريثما يظهر معجمٌ متخصص بالمصطلحات العلمية ، ودعا غيره من المترجمين أن يهتجوا بهجه ... فتبعه في ذلك كثيرٌ من تلامذته خريجي مدرسة الألسن ... وبعض الأساتذة الأجانب ... في مدرسة الطب ، بدأ الأساتذة والمترجمون بترجمة قاموس طبي صغير سبق أن تُرْجِمَ إلى التركية من تأليف الفرنسي Nysten ... إلا أنَّ القائمين على ترجمته شعروا بأنه لن يفي بغرضهم ... ففكروا عن إكمال فباذر ناظر المدرسة الطبية الدكتور «كلوت» إلى احضار «قاموس الغواميس الطبية» Dictionnaire de Dictionnaires de Medecine من فرنسا ، وهو من تأليف فابر Faber ويتألف من ٨ أجزاء ويشتمل على جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية ... وتعاونت مدرسة الطب بكل هياتها على ترجمة هذا المعجم إلى اللغة العربية تحت إشراف الدكتور برون Perron مدرس الكيمياء فيها والذي أصبح ناظراً لها خلفاً للدكتور كلوت ... وكان برون يتقن اللغة العربية بعد تتلمذه على أيدي الكثير من المستشرقين في فرنسا قبل مجيئه للعمل في مصر ، وعلى يد بعض مشايخ الأزهر بعد استقراره في مصر ... وتم توزيع مسائل هذا المعجم الضخم على معلمي المدرسة ، وهم من خريجي البعثات العلمية إلى فرنسا ... والذين كانوا قبل إيفادهم من طلبة الأزهر الشريف المتفهمين لجباية اللغة العربية ... فاجتهد كل منهم في ترجمة الجزء الذي أُعطيهِ وبدل جهده في توقيع كل لفظة منه على المعنى المناسب لها ... كما تم توزيع مسائل القاموس المحيط على أفراد الهيئة التعليمية وعلى المصححين والمححرين ، وتقاسموا أجزاءه ، ليراجع كل منهم الجزء الذي بيده ويتقي منه كل لفظ دلٌّ على عرض أو مرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو حيوان ... كما كُتِفَ النابهون من مشايخ الأزهر مثل الشيخ عمر التونسي ، باستخراج التعاريف الطبية من كتب الطب القديمة مثل القانون لابن سينا ، والتذكرة لداود الأنطاكي ... ومراجعة كتب اللغة الأخرى مثل فقه اللغة للشعالبي ، وغتار الصحاح ، كما ضُمَّ لنتاج ذلك كله أسماء الأطباء المشهورين على مر الأزمان ... وأساءه العقاقير المعروفة حتى ذلك الوقت ... وأخيراً ضُمَّ القاموس بين مفرداته الألفاظ المعربة عن اللاتينية أو الفرنسية أو الفارسية ... وتم ترتيب مفردات هذا المعجم . بعد مراجعته وتهذيب عباراتها على حروف المعجم ولكن الانتهاء من ذلك وافق وفاة محمد علي باشا ، وخشي المشرفون على اعداده من ضياع هذا المعجم ، لاسيما أن الحركة العلمية قد خلدت في عهد خلفه عباس الأول فكان ذلك ذريعةً أتاحت للدكتور كلوت اصطحاب مخطوطة المعجم إلى باريس وتقديمه هدية إلى المكتبة الأهلية Bibliothèque nationale في ٩ أيلول ١٨٥١ وبعد أكثر من نصف قرن ، فُكِر بعض المتورين في مصر بالاستفادة من هذا الكنز الثمين ، فأرسلت نظارة المعارف في طلب نسختين مصورتين من هذا المعجم (١٩١٠) وعهدت إلى الدكتور أحمد عيسى بالاشتراك مع الدكتور فارس غر بالإشراف على طبعه . ولكن الدكتور فارس غر تقاعس عن ذلك فقام الدكتور أحمد عيسى بنشر مائة صفحة فقط لم يتجاوز فيها لفظة (أزدران) ثم توقف ... وقد طُبِعَت هذه الصفحات المائة في مطبعة المتكطف وعلى نفقة دار الكتب الخديوية عام

١٩١٤ م ١٣٢٢ هـ وفيها لم يقف جهد الدكتور أحمد عيسى على نشر النص العربي كما تركه واضعوه بل أعاد ترجمة كل لفظة إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية ... وبقي المعجم منسياً في دار الكتب ينتظر من يُعنى بنشره وإحيائه ... والغريب أن الدكتور «محمد شرف» عندما وضع معجمه الطبي لم يحاول أن يفيد من الشذور الذهبية ولم يذكره في مراجعته المتعمدة لديه ولعلّه لم يكن متوفراً بين يديه ... بينما استفاد من مراجعته الأستاذ «أحمد الزين» في تحقيق وإظهار كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين التويري (٦٧٧-٧٣٣) ولاسيما في السفين الحادي عشر والثاني عشر وهما يبحثان في النبات والطيب والأدوية المفردة والمركبة ... (وصدر هذا الكتاب تحت إشراف وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ..)

وهكذا مر منهج النقلة في دولة محمد علي بمراحل متعددة ..

- ١ - حاول المترجمون إحياء ألفاظ علمية كثيرة مستعينين بما وصلت اليه أيديهم من معاجم ، وكتب عربية في الطب والكيمياء والنبات ...
- ٢ - وإذا وجدوا أن اللفظ العربي القديم قد أحمله المتكلمون بالعربية أنفسهم وبالموا لاستعمال اللفظ الجديد أو قريباً منه ... فَضَّلُوا اللفظ الجديد على اللفظ القديم ... ونقلوه كما هو ، ورسوموه بحروف عربية ...

وقد أثمرت هذه التجربة التي استمرت زهاء سبعين عاماً ثروة علمية هائلة .. فقد أحصى الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي» (١٣٥) كتاباً علمياً غير عسكري مترجماً إلى العربية بين عامي ١٨٣٢ - ١٨٥٣ مع (٦٦) كتاباً آخر في العلوم العسكرية ... وقد جوت هذه الكتب عشرات الألوف من المصطلحات العلمية الجديدة ... وقد وضع «عمود رشدي البقلي» معجماً باسم «قاموس طبي فرنسائي - عربي» طُبِعَ في باريس سنة ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م يقع في ٣٥٨ صفحة ويشتمل على نحو ٧٠٠٠ لفظة ...

٢ - تجربة الجامعة الاميركية في بيروت في التعريب : (١٨٦٦ - ١٨٨٣)

يمثل لبنان منذ أقدم العصور مكان اللقاء بين الحضارات ، وقد أصبح في القرن الثامن عشر قبلةً للجمعيات التبشيرية التي أعلنت أنها تهدف لتنوير الأفكار ... حتى زاد عدد تلك الجمعيات عن ثلثين جمعية ... فأنشأوا المدارس^(٥٨) وعلم أفرادها اللغات الأجنبية^(٥٩) ، وشجّعوا على تأسيس الجمعيات العلمية والأدبية^(٦٠) ، وتجاوزت

(٥٩) محمد كرد علي : عبط الشام ، الجزء السادس ، ص ٢٥ .

(٦٠) د. مديحة السطفي : التعليم الأجنبي في البلاد العربية ، شؤون عربية ، العدد ٢٢ ، كانون الأول ١٩٨٢ ، ص ١٣ - ٢٦ .

(٦١) توفد الدين بيهيم : طرافق في أوائل ، مجلة الأدب ، (الجزء الأول) السنة الرابعة كانون ثاني ١٩٤٥ ، ص ١٥ .

(٦٢) عيسى إسكندر المرفوع : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الأول العدد ٤ نيسان ١٩٢١ ، ص ١٠٥ .

(٦٣) محمد كرد علي : المعاصرون ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ص ١ .

جهود تلك الجمعيات الحماس إلى التنافس ، فعندما افتتح المبشرون البروتستانت الأمريكان في بيروت الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٦ والتي أصبحت فيما بعد جامعة بيروت الأمريكية ، هب منافسوه المبشرون الكاثوليك لإنشاء مدرسة طيبة فرنسية عام ١٨٦٧ باسم جامعة القديس يوسف^(١) ويبدو أن هؤلاء المبشرين واضطروا إلى تدريس جميع العلوم باللغة المحلية استجابةً للمشاعر الوطنية السائدة آنذاك ، والتي كانت تدعو لاصطناع اللغة العربية لغة علم وتعلم ...^(٢) والطريف في أمر الكلية السورية الانجيلية أن العربية لم تقتصر على التدريس بها فحسب ، بل شملت شؤون الإدارة والأمور القرطاسية الأخرى ... حتى أن الدولة العثمانية تساهلت معها في بادئ الأمر بقبولها اللغة العربية في أداء امتحانات الخريجين في استانبول ومن أجل منح الترخيص وحق الممارسة لمهنة الطب في البلاد العثمانية ، وقد بقي التدريس باللغة العربية حتى عام ١٨٨٣ ... وقد وضع أساتذة الكلية عدة كتب باللغة العربية في فروع العلم المختلفة ...^(٣) وأهمها مايجوبه الجدول المرفق المأخوذ عن كتاب ..

Arabic & Islamic, Historical, Educational and Literary Studies

(موضوعات عربية وإسلامية في الدراسات التاريخية والتربية والأدبية ، الدكتور عبد اللطيف الطيباوي ،

لندن ، ١٩٧٦) :

قائمة بائتين وثلاثين كتاباً من الكتب غير الدينية التي طبعت بالعربية لتستعمل في الكلية السورية البروتستنتية

(الجامعة الأمريكية بيروت) الآن

- ١٨٧٤ ١ - الدروس الأولية في الفلسفة العقلية
- ١٨٦٩ ٢ - أصول الكيمياء
- ١٨٧٢ ٣ - رسالة الرازي في الحصبة والجذري
- ١٨٧٣ ٤ - رسالة في اللوغاريتمات ومساحة المثلثات
- ١٨٧٤ ٥ - أصول علم الهيئة
- ١٨٧٤ ٦ - التشخيص الطبيعى
- ١٨٧٨ ٧ - أصول الباثولوجيا
- ١٨٥٢ ٨ - المرأة العرضية في الكرة الأرضية
- ١٨٥٣ ٩ - الروضة الزهرية في الأصول الجبرية
- ١٨٥٧ ١٠ - كتاب الأصول الهندسية
- ١٨٥٧ ١١ - محيط الدائرة في العروض والقافية
- ١٨٨٦ ١٢ - النقش في الحجر (ثمانية أجزاء منها مقالات مبسطة في العلوم)
- ٩ ١٣ - كتاب النفاثس
- ١٨٨٢ - ١٨٦٩ ١٤ - كتاب نظام الحلقفات في سلسلة ذوات الفقرات (جزآن)

(٦٤) د. أحمد شريك الشطي : تاريخ الطب وآبائه وأعلامه ، مطبعة جامعة دمشق ، ص ٤٩٠ .

(٦٥) د. شاذي القسام : مقدمة للمصطلح ويومله في نقاش تعريب التعليم العالي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٩ ، الجزء ٤ ، ص ٦٩٤ .

(٦٦) د. حسني سبيح : تصغير وتكريف ، المجلة العلمية العربية ، دمشق العدد ٩٠ ، آذار ١٩٨٦ ، ص ٧ .

- ١٥ - مبادئ التشريح والفيسيولوجيا والمهيجين ١٨٧٠
- ١٦ - مبادئ علم النبات ١٨٧١
- ١٧ - المصباح الوضاح في صناعة الجرّاح ١٨٧٣
- ١٨ - الأقرباذين أو المواد الطبية^(٣٧) ١٨٧٤ - ١٨٧٦
- ١٩ - نباتات سوريا وفلسطين والقطر المصري ويواديها ١٨٨٤
- ٢٠ - التوضيح في أصول التشريح ١٨٧١
- ٢١ - مختصر في أعضاء الجسد البشري ووظائفها ١٨٧٣
- ٢٢ - أصول الفيسيولوجيا ١٨٧٧
- ٢٣ - أطلس في التشريح والفيزيولوجيا ١٨٧٨
- ٢٤ - كفاية العوام في حفظ الصحة وتبديل الأسقام ١٨٨١
- ٢٥ - النهج القويم في التاريخ القديم ١٨٨٤
- ٢٦ - إيضاح نحو اللغة اللاتينية وصرفها ؟
- ٢٧ - تعليم القراءة اللاتينية ؟
- ٢٨ - أصول التحليل الكيمي ١٨٧٦
- ٢٩ - الهواء والماء ١٨٧٩
- ٣٠ - العروس البديعة في علم الطبيعة ١٨٧٣
- ٣١ - الظواهر الجوية ١٨٧٦
- ٣٢ - سر النجاح ١٨٨٠^(٣٨)

منهجية صياغة المصطلحات :

استمدت الأساتذة في الجامعة الانجيلية مصطلحاتهم من الكتب العربية القديمة ، واستفادوا مما وضعه أساتذت المدارس المصرية كما قاموا بترجمة طائفة من المصطلحات ، ترجمة تطابق الأصل الانكليزي ...^(٣٩) ووقف الكثيرون منهم إلى جانب التعريب (نقل اللفظ الأجنبي الى العربية كما هو أو بتبديل طفيف)^(٤٠) وظهر بين خريجي الجامعات أعلام ساهموا في دفع حركة تعريب المصطلح العلمي مثل فارس نمر ويعقوب صروف اللذين أصدرتا عدداً من المجلات ذات الطابع العلمي .. وأمين المعلوف الذي أصدر معتجماً الحيوان ، والمعجم الفلكي ، ومعجم النبات .. وطرس البستاني الذي بدأ بإصدار الأجزاء الأولى من دائرة معارف البستاني^(٤١) والدكتور مرشد خاطر ذي الأيادي البيضاء في حركة التعريب التي قامت ولاتزال مزدهرة في جامعة دمشق الى اليوم ..

(٣٧) نشر قسماً قسماً ابتداء من ١٨٧٤ في مجلة « أخبار طبية » التي حررت لها يد مجلة « الطبيب » .

(٣٨) مفاد غلوسي : التعريف والتقدم للكتاب ، مجلة جمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الثاني والخمسون ، الجزء الثاني ، ٤١٥ ، ٤٢٢ .

(٣٩) د. حسي سبيح : المصدر السابق له .

(٤٠) عيسى اسكندر المعلوف : مجلة جمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد (٢) .

(٤١) الأعلام ، غير الدين الزركلي .

٣- معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف-

في أوائل العشرينات من هذا القرن وضع الدكتور محمد شرف معجمه الطبي تحت اسم «معجم انجليزي عربي في العلوم الطبية والطبيعية ...» وهو- كما رَسَمَ له واضعُه - معجمٌ شامل وواسع ، ويَحْتَضِرُ له أن يُعَدَّ أبداً لكل ما ظهر بعده من معجماتٍ طبيةٍ أعجميةٍ عربيةٍ ... وقد جاءت الطبعة الثانية منه عام ١٩٢٩ في ألف صفحة من القطع الكبير، تحوى كل صفحة عمودين وصدر تلك الطبعة بمقدمةٍ مستفيضةٍ شرح فيها منهجه في وضع المصطلحات العلمية وقد ذكر في المقدمة بأنه تَقَيَّدَ بالقواعد السبعة التالية: (٣)

القاعدة الأولى : الألفاظ الفرنسية أو الأعجمية التي عرفنا لها ما يقابلها أو يرادفها بالعربية ويؤدّي معناها تأديةً

صحيحةً مميزةً أثبتناها برادافاتها هذه . مجتنبين الألفاظ الحوشية والوحشية . بشرط التحقق من ورود هذه الألفاظ في معاجم العربية ودواوينها أو كتب الأدب وغيرها ، أو تواتر سماعها وإن لم تذكرها هذه المصادر المؤلفة من عهد بعيد . ولم ننقص هذا المنهاج إلا إذا عرض عارض اضطربنا للشذوذ ، نذكر من ذلك :

* لم نستعمل فعلاً فرنجياً إلا إذا لم نجد له فعلاً عربياً يقابله فقلنا : بِشَرٍّ وَمَغْطَرٌ كما قالوا من قبل كَهَرَبَ

* إذا شاع استعمال أحد الأسماء الفرنسية أو الأعجمية المألوفة ، وكان أدلّ على المعنى المراد من الكلمة العربية المبعوثة نَحْيَرْنَا الفرنسي وفضلنا استعماله ، مع ذكر اللفظ العربي للاستئناس .

القاعدة الثانية : الألفاظ والمفردات التي لم نفع على مفردات لها في العربية ، ولكننا رجحنا وجود مرادفات لها فيها ، كَمَا نَفَرَحُ كل جهل في البحث والتنقيب عنها في مختلف المطان التي نظن وجودها فيها مهما كلفنا الوصول إليها من عناء ... والمعجم مشحون بأمثال ما ظفرنا به .

أما الألفاظ التي لم يُعَرَفْ لها مرادفات في العربية فقد- نَحْيَرْنَا لها الألفاظ : من العربية الفصحى اعتقدنا أنها تؤدّي تأديةً حسنةً - أو اشتقنا لها من أصولها مقابلاً .

- أو جعلنا لها ألفاظاً مأخوذةً من مضاد المعنى ...

- وإذا تعمّر ذلك رجعنا الى معاني الألفاظ وأصول اشتقاقها ، وترجمناها ترجمةً دقيقةً بما يفيد ذلك ، مع المحافظة التامة على أصول المعاني .

القاعدة الثالثة : الأعلام الفرنسية التي شاع استعمالها في العربية حافظنا على تصويرها بالرسم الذي رُسمت به من قديم ... والأعلام التي عُرِيت قديماً للفظ خالف لما تُلَفَّظ به الآن عند أهلها وَكُنِيتَ بهجاءً واحد بالاجماع تابعتا السلف في تصويره ، أمّا ما عدا ذلك فقد صَوَّرناه كما يلفظه أهله ، أو بأقرب ما يكون من لفظه الأصلي وتوثيقنا حسن التطبيق والصدق في النقل ، وراعينا قوام العربية .

القاعدة الرابعة : الفكرات حديثة العهد بالوضع ، والتي لا وجود لمرادفات لها في العربية ، وَعُرِيت من قبل ، وشاع استعمال الألفاظ العربية بصورة معينة أثبتناها كما هي . ولم نحاول وضع ألفاظ أو صور أخرى أُنشأ مِنْ اللبس وتشويش الأذهان . مثال ذلك أوكسجين وإيدروجين ... أمّا إذا لم نَعْرِ على تعريف سابق شائع الاستعمال عَرَبْنَا لللفظ وفقاً لمهاجنا العام ... وقد جارينا في ذلك أهم الغرب المتقدمة في الحضارة بحفاظتها على الأسماء التي وضعها المبتدعون والمخترعون لما ابتدعوا وأحدثوا ... فنجد مثلاً الأسماء العلمية للحيوانات والنباتات واحدة في سائر اللغات الحية تنفيذاً لرغبة الاتفاق الدولي المعروف ... غير أننا في بعض المواضع وَجَدْنَا أَنَّ من الفكرات العربية ما هو أحكم من الفرنسية وأرق بالمقصود في تادية المعنى فآلئها .

الأسماء الكتابية :

الزّمنّا أَنَّ نجاري علماء الغرب بالنسبة الى ترجمة هذه الألفاظ التي تَفَقَّد دلالتها إذا عُرِيت ... فأبقينا الأصول على حالها كما أبقينا حروف الإلحاق ، لأن لكل حرف من هذه الحروف معنى خاصاً تواضعوا عليه ليُدلَّ على تركيب خاص ، ولا مصلحة لنا في إيجاد مُعَرَّبَات لهذه الأسماء الجديدة ، فهي تدخل في سائر اللغات على حالها .

القاعدة الخامسة : كذلك تابعتا علماء الغرب في تصوير المفردات العلمية الأخرى التي لم يُعَرَّف لها مرادف عربي ، سواء أكانت أسماء حيوانات أم نباتات أم حشرات أم أعضاء من أجسامها ...

القاعدة السادسة : أمّا المعاني سواء أكانت حقيقية أم مجازية فلم نجد أدنى صعوبة في إيجاد أوضاع تؤذيها .

القاعدة السابعة : الألفاظ الفرنسية المأخوذة من أصل عربي أو فارسي وتعدّ رسمها أرجعناها إلى أصولها القديمة . ويبدو أنه اتبع منهجية متكاملة في صياغة المصطلحات العلمية الواردة في معجمه ، تتمثل في تحقيق الشروط الثمانية التالية (٣٧)

١ - أن تكون الألفاظ العربية المختارة صحيحة الأصل ، قوية المنشأ ومن أحسن ما يمكن إيواده لمقابلة الألفاظ الفرنسية .

٢ - أن يكون مقابل اللفظة الفرنسية - بقدر المستطاع - لفظة عربية واحدة بسيطة ، بحيث لو احتاج الكاتب إلى أن ينسب إليها أو يضيف إليها لفظاً أو أكثر يسهل عليه ذلك .

٣ - أن تفيّد الألفاظ المختارة المعاني المطلوبة بأقل ما يكون من الوقت والكلفة أو بمجرد سماعها أو قراءتها ، بدون إجهاد الفكر وإسراف القوة لتفهّمها ، مع ذكر الفوارق بين المترادفات أو أشباه المترادفات وتخصيصها ، وعدم الضنّ بها على الألفاظ الفرنسية أو العربية بالمعاني المختلفة التي تؤدّيها ...

٤ - التحويي الوضع والاشتقاق مناحي العرب ، فلا نخالف القواعد التي جاء بها الذين هداهم الله لعلوم اللغة ...

٥ - تُغيّر الألفاظ السهلة المأخوذ والتّلفّي ، وإثبات العذب المسحّ على المُستقلّ ، وتفضيل ما كان موافقاً للذوق العصري المصقول ورفض استعمال ما شنع تألفه ، والإقلال مما طال وأمل بكثرة حروفه الحلقية الثقيلة أو تطلّب الكلفة في التّلفظ به .

٦ - أن تكون المعاني صحيحة والألفاظ المختارة مخصصة على المراد منها بحيث تكون كالسمة المميزة للموسم ، أو الرسم المختار للمرسوم والحُدّ المميّز للمحدود وأن تكون أسماء النبات والحيوان والمعادن مطابقة تمام المطابقة للتسمية العلمية الحديثة ، مع بيان الفروق متى وجدت بين التسمية الحديثة والقديمة وذلك منعاً لفقد الاتصال بالمؤلفات العربية القديمة ...

٧ - ضبط الألفاظ بالشكل حرصاً على سلامة اللغة وحتى لا يغلث على القارئ فهمها ...

٨ - أن أخطئ في طريقة قديمة تُتبع لتصوير الكلمات المعربة والأعلام الفرنسية بالحروف العربية ...

أما عن أسلوب التأليف والمصادر التي اعتمد عليها فقد ذكرها بأسهاب وبمعنا منها المصادر العربية القديمة والحديثة وفي ذلك يقول :^(٧٤)

« كنتُ كلما طالعت كتاباً أو ديواناً أو معاجم العربية المختلفة المؤلفة قديماً أو حديثاً استخرجتُ منه المفردات والألفاظ المطلوبة ، شئتُ أمام كلّ لفظ مرجعه وأسانيده ومواضع نقله ومواطن أخذه بالأرقام والاختراعات احتياطاً للذقة العلمية واستظهاراً على كل معترض ... ولما استنفدت قراءة دواوين اللغة والشعر والمعاجم والموسوعات العربية وأخذتُ بغيري مما عُرِف وألُف في علوم الطب والطبيعات قديماً وحديثاً ولم يبقَ بين كتب الأدب والشعر والعلوم مما تتناوله الأيدي أو كان مكنوزاً في الخزائن العمومية إلّا وأجلتُ فيه نظري ، تجمّع لديّ زهاء (٤٥,٠٠٠) تذكرة بدأت في ترتيبها على حروف المعجم الأجنبية . وأكثر ما أخذتُ من دواوين الشعر وكتب اللغة التي كتبت في موضوعات مخصوصة من أمثال :

(٧٤) د. محمد شرف : المصدر السابق ، المقدمة .

- ١ - كتاب خلق الانسان ، وكتاب النبات ، وكتاب النخل والكرم ، وكتاب الوحوش وكتاب الخيل وكتاب النعائم للأصمعي ... وكتاب المطر لأبي زيد ، ورس العربية للثعالبي .
 - ٢ - كتاب الشجر لأبي عبد الله الحسن بن خالويه الهمداني .
 - ٣ - حياة الحيوان الكبرى للإمام محمد الدميري .
 - ٤ - طبائع الحيوان - تعريب أحمد فارس الشدياق - طبع ماطلة .
 - ٥ - الحيوان للجاحظ .
 - ٦ - كتاب التعريفات للجرجاني .
 - ٧ - مجلة لغة العرب للكرمي ، ومجلات نجعة الرائد لليازجي ، والطبيب والبيان والضياء ومجلة المجمع العلمي العربي الدمشقي .
 - ٨ - مفاتيح العلوم للخوارزمي - طبع ليدن .
 - ٩ - الكثاف للتهانوي طبع الجمعية الآسيوية الهندية بكلكتا .
 - ١٠ - كتاب الآلات والخيال هيرون والآلات المفرغة الهواء للفيلون البيزنطي
 - ١١ - شرح إشارات ابن سينا للرازي ، والمنصوري في الطب لمحمد بن زكريا الرازي ورسائل ابن سينا طبع ليدن .
 - ١٢ - أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيغاثي
 - ١٣ - كتاب المختار في الطب تصنيف الأمام شمس الدين بن هبل .
 - ١٤ - طبقات الأطباء لا بن أبي أصيبعة
 - ١٥ - كتاب الحشائش لديسقوريدس اليوناني تعريب اصطفن وإصلاح حنين بن اسحق .
- وهكذا نجد أن عمل الدكتور محمد شرف يقارب المنهج المأخوذ به اليوم الا أن المتصفح للمعجم يلاحظ للوهلة الأولى أن واضعه كثيراً ما يضع مقابل اللفظ الانكليزي عدة ألفاظ عربية .. وكأنه أراد بذلك أن يترك لغيره ولن يأتي بعده من العلماء العرب فرصة اختيار ما يروونه أو في بالمعنى وأقرب للمراد ...^(٣)

رابعاً - * التجربة السورية في القرن العشرين *

من المؤكد أنه لا يمكن المرور على ذكر تعريب العلوم في سورية دون التعرض لأحداث الثورة العربية وقيام أول حكومة عربية في دمشق (٣٠ أيلول ١٩١٨) والتي قامت بتأسيس وافتتاح (المدرسة الطبية العربية) في دمشق في ١٢ كانون الثاني ١٩١٩ . وقد تولى التدريس في هذه المدرسة فريق من الأطباء والصيادلة العرب ومنهم أستاذ سابق في مدرسة الطب العثمانية في أسطمبول وهو الأستاذ ميشيل شامندى الدمشقي ، ومنهم الأستاذ مرشد خاطر من خريجي المدرسة الطبية الفرنسية في بيروت ومنهم الدكتور عبد الرحمن شهنيدر من خريجي الكلية الأمريكية في بيروت ...

(٣٥) د. محمد شرف : المصدر السابق ، المقدمة .

وهكذا قُدرَ للمؤسسة الطبية العربية ومنذ أيامها الأولى أن تنهل من مصادر مختلفة^(٣٦) وانضم الى هؤلاء الأساتذة بعض من كان يساعدهم من العرب مثل الأطباء جميل الحاني وأحمد الحياط والصيدي الكيماوي عبد الوهاب القنواطي ...

ونظراً لاختلاف مشارب هؤلاء الأساتذة فانهم لم يكونوا على مستوى واحد في معرفة العربية ، فبينهم المجلون الذين يُعدون - بحق - رواد التعريب في بلاد الشام ، وبينهم من هو أقل علماً بالعربية .. الا أن هؤلاء سرعان ما تلافوا ما فاتهم من نقص في ممارسة الفصحى ، حتى أصبح المعهد الطبي العربي في دمشق ومن بعده كلية الطب في جامعة دمشق مضرب المثل في التدريس بالفصحى لغة واصطلاحاً^(٣٧) ... ولم يقتصر جهود الحكومة العربية في دمشق على إنشاء المعهد الطبي العربي ، بل انها سارعت لنشر استعمال المصطلحات العلمية بين أوساط المثقفين والمختصين واشترط اتفاق العربية قبل تعيينهم في وظائفها^(٣٨) ، فمُنذُ بداية عهدها أصدرت رئاسة ادارة الصحة بدمشق أول مجلة طبية باللغة العربية أُطْلِقَ عليها اسم « الصحة العمومية » تناول على صفحاتها الطبيب « حكمة المرادي » سلسلة من المواضيع تحت عنوان « اللغة العربية والطب » عالج فيها عشرات المصطلحات الطبية العربية المأخوذة عن الفرنسية والتركية ... واستمرت بالصدور حتى أواخر العهد العربي^(٣٩) ورغم سيطرة « الانتداب » الفرنسي على البلاد منذ تموز عام ١٩٢٠ فان مسيرة التعريب في المعهد الطبي العربي استمرت ، وأُضيفَ اليها الجهود الجديدة في معهد الحقوق الذي أسس عام ١٩٢٣ ، وفي عام ١٩٢٤ تم اصدار مجلة المعهد الطبي العربي التي رأس تحريرها الدكتور مرشد خاطر ، وحُدثت أهدافها « بخدمة اللغة العربية الشريفة والوصل بين الطب العربي القديم والطب الحديث » . وعُرِضَت على صفحاتها الألفاظ والمصطلحات العلمية للبحث والنقاش والتخصيص من قبل الاختصاصيين واللغويين في سورية وفي الأقطار العربية الأخرى ... واستمرت المجلة بالصدور حتى عام ١٩٤٧^(٤٠) . وفي عهد الحكومة العربية في دمشق أيضاً أُلّف الأستاذ ساطع الحصري في دمشق الشام وكان وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٠ لجنة اختصاصية رسمية للنظر في أمر الاصطلاحات العلمية . وقررت اللجنة أن تنظّم نشيئة Fiche خاصة لكل كلمة على حدة ، يُدرَجُ فيها :

- منشأ الكلمة واشتقاقها .
- ما يقابلها في اللغات الأوربية الحية .
- ما استُعملَ من الكلمات العربية مقابلها في الكتب المطبوعة في مصر وسورية وتركيا .
- ما كان يُستعملَ مقابلها أو في معاني مقاربة لها في الكتب العربية القديمة .
- ما يوجد في القواميس من الكلمات الملائمة لمعناها ...

(٣٦) د. محمد ميثم الحياط : تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية ، اتحاد الجامعات اللغوية العربية ، ندوة الرباط ١٩٨٥ ، ص ٣٩ .
 (٣٧) د. حسني سبيح : تصدير واكتراث ، المجلة الطبية العربية - دمشق العدد ٩٠ آذار ١٩٨٦ ، ص ٧ .
 (٣٨) سيد الأندلسي : حاضري اللغة العربية في الشام ، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة البذل العرية ، ١٩٦٢ ، ص ٦٤ - ٦٥ .
 (٣٩) د. حسني سبيح : تعريب علوم الطب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء ٤ ، المجلد ٦٠ ، تشرين أول ١٩٨٥ ، ص ٦٥٦ .
 (٤٠) د. حسني سبيح : المعجمات الطبية وتوحيد المصطلح الطبي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء ٢ المجلد ٥٩ ، نيسان ١٩٨٤ ، ص ٢٣٦ .

فتختار اللجنة أوفق الكلمات ، ثم تعرضها على كبار المشتغلين في اللغة والعلوم في البلاد العربية المختلفة ، وتعيد النظر في الأمر بعد ورود الأجوبة ومناقشتها وتتخذ قرارها النهائي بعد هذه التدقيقات والمخايرات والمناقشات كلها^(٨١) . كما توجه الأستاذ ساطع الحصري إلى مصر للاستعانة بالكتب المدرسية المطبوعة فيها ، والاستفادة من طرائق التدريس المرعية في مدارسها والمصطلحات العلمية المستعملة فيها^(٨٢) . وبعد استقلال سورية ، وتضاعف الجهود المبذولة في تعريب العلوم ، شُكِّلت في كلية الطب « لجنة المصطلحات الطبية » مؤلفة من الأساتذة : مرشد خاطر ، أحمد حمدي الحياض وعبد صلاح الدين الكواكبي .. وقد قامت بترجمة معجم « كليرفيل كثير اللغات » وأصدرته عام ١٩٥٦ في ألب صفحة (١٤,٥٣٤) من المفردات . واختير مرجعاً وحيداً للمصطلحات الطبية^(٨٣) . ثم قام الدكتور حسني سبيح بالنظر والتعليق على هذه المصطلحات في سلسلة مقالات بلغ عددها ستاً وسبعين مقالة ، صَدَرَتْ مُنْجَمَةً على مدى عشرين عاماً في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ثم صدر مجموعها في كتاب أربى عدد صفحاته على الألف بعنوان : « نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات كليرفيل »^(٨٤) .

ثم عمل الأستاذان مرشد خاطر وأحمد حمدي الحياض على إخراج معجم فرنسي-عربي موسع طُبِعَ السفر الأول منه عام ١٩٧٤ بعد أن أعاد النظر فيه الأستاذ الدكتور محمد هيثم الحياض تحت عنوان « معجم العلوم الطبية » .. ويقع هذا السفر في ٦٠٤ صفحات ، في كل ثلاثة أعمدة ويتضمن المواد من حرف الـ A إلى حرف E^(٨٥) .

ومنذ عام ١٩٦٠ بدأت نقابة الأطباء في سورية بإصدار « المجلة الطبية العربية » والتي جعلت من أهدافها « أن تنبئ المجلة بما لا يقبل الجدل صلاحية اللغة العربية للتعليم الطبي والأبحاث الطبية المختلفة » ولاتزال المجلة تصدر كل ثلاثة شهور حتى أيامنا هذه .. وقد أتبع أساتذة جامعة دمشق سبيلاً واضحة وطريقاً صحيحة في وضع المصطلحات العلمية ، تتمثل بالقواعد التالية مرتبة بدقة^(٨٦)

- ١ - البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد نقله .
- ٢ - البحث عن لفظ قديم يُقَرَّبُ معناه من المعنى الحديث فيبدل معناه قليلاً ويُطْلَقُ على المعنى الجديد .
- ٣ - البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة قواعد الاشتقاق في اللغة العربية .
- ٤ - اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يُصاغ صياغة عربية ... ومن البديهي أنه لا ينبغي العمل بهذه القاعدة الا عند العجز عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد ...

(٨١) ساطع الحصري : آراء وأحاديث في اللغة والأدب (حول الاصطلاحات العلمية) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ .

(٨٢) ساطع الحصري : آراء وأحاديث في اللغة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، (٢) .

(٨٣) خالد الفارس : جامعة دمشق في عاها المائتين ١٩٠٣ - ١٩٨٣ ، المجلة العربية لبحوث التعليم العالي - العدد الأول قوز ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .

(٨٤) د. حسني سبيح : المبدوء السابق له .

(٨٥) د. محمد هيثم الحياض : معجم العلوم الطبية ، جامعة دمشق ١٩٧٤ ، المقدمة .

(٨٦) د. جميل صليبا : تعريب الاصطلاحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، للجلد ٢٨ ، الجزء ١ ، ص ١٨ .

وهكذا لم نَحْظْ بِالْمُؤَلَّفَاتِ الطَّبِيبَةِ فِي الْمَعْدِ الطَّبِيبِ الْعَرَبِيِّ وَجَامِعَةِ دِمَشْقَ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ قَدِيمًا مِثْلَ التَّيْبَانِ أَوْ الْبَادِزْهَرِ تَعْرِيبًا لِمَا يُقَابَلُ : Contre-Poison والْيَاغْنُجِ تَعْرِيبًا لِمَا يُقَابَلُ : Etiquette وَالْأَسْفِيدَاغِ تَعْرِيبًا لِمَا يُقَابَلُ : Ceruse ... (٨٧)

وَمِنْ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا أَسَاتِذَةُ جَامِعَةِ دِمَشْقَ فِي تَعْرِيبِ الْمَصْطَلَحَاتِ

- ١- المصادر التراثية القديمة ، والمعاجم ، والكتب العلمية العربية القديمة^(٨٨)
- ٢- المصادر التركية ، فتركيب الطب الذي جرى في أواخر حكم الدولة العثمانية كان تمهيدا لاستعراب الطب لَأَنَّ الْأَلْفَاظَ الْمُسْتَعْرَبَةَ فِي الْمَصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْتُرْكِيَّةِ قَرِيبَةً جِدًّا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ^(٨٩)
- ٣- مَا تَرَكَ أَسَاتِذَةُ الْمَدَارِسِ الْمَصْرِفِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ مُؤَلَّفَاتٍ وَمُتَرَجِمَاتٍ بَلَّغَتْ الْمِائَتَيْنِ ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى الْوَلَفِ الْمَصْطَلَحَاتِ ، وَمَعْظَمُهَا مَأْخُوذٌ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ^(٩٠)
- ٤- الْمُؤَلَّفَاتُ وَالْمُتَرَجِمَاتُ الْعِلْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي وَضَعَهَا أَسَاتِذَةُ الْكَلِيَّةِ السُّورِيَّةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ (الْجَامِعَةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ الْيَوْمَ) وَمَعْظَمُهَا مَأْخُوذٌ عَنِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ^(٩١)
- ٥- جُهُودُ أَسَاتِذَةِ كَلِيَّةِ الطَّبِّ أَوَّلًا وَالْكَلِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْأُخْرَى الَّتِي أُسِّسَتْ فِي أَوَّلِ لَحَاقَةٍ ... وَقَتَّلَتْ هَذِهِ الْجُهُودُ بِمَا نَشَرَهُ أَسَاتِذَةُ كَلِيَّةِ الطَّبِّ فِي مَجَلَّةِ الْمَعْدِ الطَّبِيبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مَقَالَاتٍ عِلْمِيَّةٍ وَمِنْ مَنَاقِشَاتٍ حَوْلَ بَعْضِ الْمَصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ .. وَفِيهَا أُلْفُوا مِنْ تَصَانِيفٍ لِلتَّدْرِيسِ وَمَا تَرْجُوهُ مِنْ مَعَاجِمَ عِلْمِيَّةٍ ... وَمَا وَجَّهَ إِلَيْهِمْ مِنْ نَقْدٍ لِأَعْلَاهُمْ ...
- ٦- جُهُودُ رِجَالِ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقَ ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ عَضْوَةِ الْمَجْمَعِ ، وَالْعَمَلِ فِي التَّدْرِيسِ الْجَامِعِيِّ ...
- ٧- جُهُودُ لُجَانِ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِالْقَاهِرَةِ ... وَمَقَرَّرَاتُ مُؤْتَمَّرَاتِهِ السَّنَوِيَّةِ وَمَا تُصْنَدِرُهَا مِنْ مَصْطَلَحَاتٍ فِي خِلَافِ الْإِخْتِصَاصَاتِ .
- ٨- الْجُهُودُ الْفَرْدِيَّةُ الَّتِي قَامَ بِهَا بَعْضُ النَّابِغِينَ فِي وَضْعِ مَعَاجِمَ عِلْمِيَّةٍ مِثْلَ مَعْجَمِ شَرَفِ الْبُطِّي ، وَمَعْجَمِ الْأَلْفَاظِ الزَّرَاعِيَّةِ لِلْأَمِيرِ مُصْطَفَى الشَّهَابِيِّ وَمَعْجَمِ الْخِيَوَانِ لِأَمِينِ الْمَعْلُوفِ ...

(٨٧) الْحَكِيمُ مِيثِيلُ شَامْسِي الدِّمَشْقِيُّ وَد. مُحَمَّدُ صَالِحُ الدِّينِ الْكُرَّانِي : مَوْجِزُ فِي مَبْهَتِ السُّمُومِ ، لِلطَّبِيبَةِ الْبَطْرِيكِيَّةِ بِدِمَشْقَ ١٢٤٨ / ١٩٣٠ .

(٨٨) د. أَحْمَدُ حَنِّي الْخِطَّابُ : مَعْجَمُ الْمَعْلُومِ الطَّبِيبِ ، جَامِعَةُ دِمَشْقَ ١٩٧٤ ، لِقَدَمَةٍ .

(٨٩) د. حَسَنِي سَبِيح : تَعْرِيبُ عِلْمِ الطَّبِّ ، مَجَلَّةُ جَمْعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِدِمَشْقَ ، الْمَجْلَدُ ٦٠ ، الْجُزْءُ ٤ ، ص ٦٥٦ .

(٩٠) الْأَمِيرُ مُصْطَفَى الشَّهَابِيُّ : الْمَصْطَلَحَاتُ الْعِلْمِيَّةُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقَ (الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ) ١٩٦٥ ، ص ٤٩ .

(٩١) د. جَبَلُ صَالِحِيَا : مَحَاضِرَاتُ فِي الْإِتِّهَامَاتِ الْفِكْرِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَتَرْجُمَا فِي الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، مَعْدِ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَالِيَةِ ، الْقَاهِرَةُ ١٩٥٨ .

٩ - الجهود العربية المتمثلة بمقررات المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم أو إحدى اللجان المنشقة عنها مثل مقررات لجنة المعجم الطبي الموحد .

وإذا أخذنا مثالا على ذلك « نظرة في معجم كليرفيل كثير اللغات » الذى كتبه الأستاذ الدكتور حسني سبيع على مدى ربع قرن تقريباً على صفحات مجلة المجمع العلمي فإننا نجد المصادر التي اعتمد عليها هي : ...

« المصادر العربية »

- * المقررات والمصطلحات الصادرة عن مجمع اللغة العربية في القاهرة .
- * المصطلحات الواردة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .
- * لسان العرب .
- * تاج العروس .
- * المختص .
- * المعجم الوسيط .
- * معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي .
- * معجم الحيوان - أمين العلوف .
- * مقررات لجنة المعجم الطبي الموحد .
- * معجم شرف الطبي .
- * محيط المحيط .
- * أقرب الموارد .
- * معجم دوزى .
- * كامل الصناعة .
- * متن اللغة .
- * قاموس سعادة الانكليزى - العربي - القاهرة - ١٩١٠ .
- * مفردات ابن البيطار .
- * حياة الحيوان الكبرى .
- * فقه اللغة للعالي .

المصادر الأجنبية

- 1- Dorland's Illustrated Medical Dictionary.
- 2- Stedman's Medical Dictionary.
- 3- Blakiston's New Gould Medical Dictionary
- 4- M- Gainier et V. J. Delamar. Dictionnaire des termes techniques de Medecine
- 5- Dictionnaire Encyclopedique Quillet
- 6- Amanyila Dictionnaire Francaise de Medecine et de Biologie
- 7- Dictionnaire de Medecine Flammarion!
- 8- Larrousse

وعلى كثرة هذه المصادر فلا بد من الاقرار بأن السلاح الأول الذي تسلح به الأستاذ الدكتور حسني سبيح والأساتذة السوريون في جامعة دمشق في إنجازاتهم في حقل التعريب هو إيمانهم العارم بالتعريب لدرجة جعلتهم يتغلبون على جميع المصاعب التي واجهتهم ، مثل ضعف العديد منهم في اللغة العربية ، وإقبالهم - في دأب عجيب - على استكمال ما نقصهم ... حتى استقام لهم - جميعاً - الإمساك بأعنة اللغة ^(٩٢) .

وبفضل كثرة المصادر ، وسعة الاطلاع ، والممارسة اليومية وبالإستخدام اليومي للمصطلحات في التدريس وبالعامل ، أنتج أساتذة جامعة دمشق أن (يرجّحوا) أو يفضلوا اختيار مصطلح على آخر ^(٩٣) ... وغالباً ما يكون للترجيح وجه مقنع مثل :

١ - مرادفات ترجمت عن بعض اللغات بشكل يغاير الحقيقة العلمية التي يراد التعبير عنها ... وقد سمح للأساتذة اختيار ما يروونه مناسباً من هذه المترادفات مستأنسين بما يقابلها في اللغات الأجنبية الأخرى ... والأمثلة هنا إختصاصية ...

٢ - اعتماد بعض المصادر لكليات تخالف الشائع والمألوف مثل ترجمة مجمع القاهرة (Arterial Hyper tension) بـ «تضغط شرياني» بينما الشائع «قرط ضغط الدم» ^(٩٤)

٣ - قد يُرجّح لفظ على آخر لاصالته ، أو لانه أحسنُ جرساً أو وقعاً أو لانه أقوى دلالةً على المعنى المقصود ...

(٩٢) د. محمد هيثم الخياط : تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية في ربيع القرن الأخير ، ندوة تعريب التعليم العالي والجامعي في ربيع القرن الأخير ، اتحاد الجامعات اللغوية العربية (ندوة الرباط ١٩٨٥) ، ص ٤١ .

(٩٣) د. مازن مبارك : دور اللغة العربية في التعليم العالي والجامعي مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم ، دمشق ١٩٧١ ، الكتاب الثاني ، ص ٥٤٤ .

(٩٤) د. حسني سبيح : نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات ، مجلة اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٧ ، الجزء ٤ (تشرين أول ١٩٨٢) ، ص ٥٥١-٥٥٨ .

خامساً - * جمع اللغة العربية بدمشق *

يُعَدُّ جمع اللغة العربية بدمشق أحد الثمرات الطيبة التي أعطتها الحكومة العربية في دمشق، إذ عندما قامت هذه الحكومة في أواخر عام ١٩١٨ واجهت أمامها اللغة التركية سائلةً على الصعيد الرسمي في البلاد، فأُسْرِعَتْ بتحويل اللغة الرسمية للدواوين والدوائر إلى العربية، واستحدثت في سبيل ذلك دروساً خاصةً بالموظفين لتعليمهم الانشاء العربي، وعهدت الى الأدباء العرب بمراجعة الكتب العربية القديمة، ونشرت الحكومة المصرية التي كانت تصدر بالعربية بغية إيجاد المصطلحات العربية المناسبة، كما أسست «الشعبة الأولى للترجمة والتأليف» في ٢٨/ تشرين الثاني ١٩١٨ لتنسيق تلك الجهود... وقُوِّضَتْها صلاحية الاستعانة بمن تراهم أهلاً لهذه المهمة المقدسة من داخل سورية وخارجها... ثم ضُمَّت الى هذه الشعبة «أمور المعارف» وتم تشكيل «ديوان المعارف» برئاسة الأستاذ محمد كرد علي في ١٢ شباط ١٩١٩ ثم ما لبث أن أُعْطِيَ الجمع العلمي العربي صفةً مستقلةً برئاسة مؤسسه الأستاذ محمد كرد علي في ٨ حزيران ١٩١٩...

سارع الجمع لمراسلة دوائر ودواوين الحكومة ومعاهد التدريس، وطلب منهم أن يَنْبِئُوهُ بما يحتاجون اليه من الألفاظ وضعاً وتعريباً، على أن ترسل من جانبها ممثلاً اختصاصياً يشترك في أبحاث الجمع ويوضح مفهوم الألفاظ في جوها الفني الخاص بها... وقد اعتمد أعضاء الجمع في تعريب الألفاظ الواردة اليه مراجع موثوقة، مثل تاج العروس، المختص، الصحاح، أساس البلاغة، تهذيب الألفاظ، فقه اللغة للثعالبي، غريب الحديث لابن قتيبة، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، الزهر للسيوطي، لسان العرب لابن منظور... واستعان الجمع بالقدرة اللغوية لأعضائه المؤسسين وأضاف اليها علوم الاختصاصيين وحاطتهم بالمفاهيم الفنية للألفاظ العلمية، ودعا أساتذة معهدي الطب والحقوق للتعاون مع أعضائه في التعريب ووضع المصطلحات العلمية والفنية^(٩٥)

اختطَّ جمع اللغة العربية بدمشق لنفسه خطة واضحة في وضع المصطلحات الفنية والألفاظ العربية الصحيحة للمسميات الأعجمية تتمثل بما يلي: ^(٩٦)

- ١ - إذا كانت اللفظة مما عرفه العرب واستعملوه فيجب البحث عنها ونشرها.
- ٢ - إذا كانت مما استُحدثت بعد عصور الاستشهاد، ولم يكن في ألفاظهم ما يشبهها بأقل ملايسة نُظِرَ فيها... فإن وافقت الأوزان العربية استُعملت كما هي. والاغتر بمض حروفها أو حركاتها لتوازن العربية ويسهل التلفظ بها جرياً على قاعدة التعريب.

(٩٥) أحد النسخ لتفاصيل تاريخ الجمع والجزءات: تاريخ جمع اللغة العربية بدمشق، مطبوعات جمع تاريخ الجمع والجزءات دمشق.

(٩٦) محمد كرد علي: مجلة جمع اللغة العربية بدمشق - المجلد ٢، الجزء ١٢ كانون أول ١٩٢٢.

مميزات أعمال المجمعين وأساتيد الجامعة في دمشق

ولعل الميزة الفريدة التي تتسم بها منهجية صياغة المصطلحات العلمية في دمشق هي خضوع المصطلحات للاستعمال اليومي منذ اليوم الأول لولادتها الأمر الذي يتيح للعاملين الاختصاصيين الحكم عليها ، واختيار الاستمرار على استعمالها أو استبدالها بما هو أصح منها . . . كما قام أساتيد الجامعة في دمشق وهم غالباً من أعضاء مجمع اللغة بدمشق بالكثير من الدراسات حول المصطلح ، ومنهجية صياغته ، وسبل توحيد ، وطرق تعميمه . . . فصدرت كتب ودراسات متخصصة في هذه المواضيع ، فأصدر الشيخ طاهر الجزائري (من الأعضاء المؤسسين لمجمع دمشق) كتابه التقريب في أصول التعريب ، وأصدر الشيخ عبدالقادر المغربي وهو أيضاً من الأعضاء المؤسسين لمجمع دمشق والمتنخبين في مجمع القاهرة منذ تأسيسه عام ١٩٣٤ كتابه الاشتقاق والتعريب عام ١٩٤٧ ، وأصدر الأمير مصطفى الشهابي وهو أيضاً (من أعضاء مجمع دمشق والقاهرة . . . وترأس مجمع دمشق) كتابه « المصطلحات العلمية والفنية في العربية في القديم والحديث » وظهر كتاب الدكتور حسني سبيح « نظرة في معجم كليرفيل كثير اللغات » وفيه آراء نقدية صائبة مدعومة بالحجج المنقولة عن أمهات كتب اللغة في العربية وفي الانكليزية والفرنسية . . . فقد حُددَ محاور نقده لمفردات معجم كليرفيل قائلا^(١) : « المواد التي كان لي مقال فيها لا تخرج عن الفئات التالية :

١ - مرادفات اللجنة معناها العلمي ، فترجمتها بغير مدلولها وهي في الغالب مصطلحات اختصاصية يتعلق معظمها بأمراض الجملة العصبية أو الأمراض العقلية ، وما هذه سبيله كنت أقول فيه : الصحيح كذا وكذا مستندا في الاستدلال الى المراجع المختصة ، ومستأنساً - في بعض الأحيان - بما جاء في الترجمة الانكليزية أو الألمانية لمعجم كليرفيل هذا فمثلاً تَرَجَّمَتِ اللجنة الكلمة الفرنسية stéréotypie بـ « طباعة بالحروف المصنّعة أو بالحروف الموقّبة » . . . بينما الصحيح « التُمطِية »

٢ - مصطلحات باينت في بنيتها أو صيغتها ما أقرّه مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فكنت أذكر ما أقرّه المجمع مكتفياً بذلك إذا كان اللفظان متقاربين ومَرَّجِحاً أحدهما إذا ما بدا لي وجهاً للترجيح فمثلاً تَرَجَّمَتِ اللجنة الكلمة الفرنسية Colloidal بـ (شبري) وأقرّ مجمع القاهرة ترجمتها بـ غراواني - كما تَرَجَّمَتِ اللجنة Hypertension arterielle بـ فرط توتر شرياني ، وأقرّ مجمع القاهرة ترجمتها بـ تضغط شرياني . . .

٣ - مصطلحات خالفت فيها اللجنة الشائع والمألوف من المصطلح الصحيح بلا سَوْغٍ مثل ترجمتهم لـ Coma بـ تسبيخ والصواب الشائع سبات ولـ Putrefaction بـ تَدْعُص والصواب الشائع تَفْسُخ

٤ - مصطلحات رَجَّحَتْ في كلٍّ منها لفظاً آخر ، اما لاصالته أو لانه أحسن جرساً أو وقعاً ، أو لانه أقرب دلالة على

(١٩٧٠ د. - حسني سبيح : نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السابع والحسون ، الجزء الرابع - تشرين أول ١٩٨٢ ، ص ٥٥١ - ٥٥٨ .

المعنى المقصود، وما كان من هذا القبيل كنت أقول فيه أفضّل أو أُرَجِّح كذا وكذا ... مثل ترجمة اللجنة للكلمة الفرنسية Allergie بـ تحايوب والمفضّل البرجييه أو أريجيه .

٥ - مصطلحات رأيتُ من المفيد أن أثبت ترجمتها عن الانكليزية إذا كانت مغايرة لما جاء في الترجمة عن الفرنسية ... وذلك لأن الانكليزية هي السائدة اليوم في كلية الطب بخلاف ما كانت عليه في السابق ، إذ كانت السيادة للفرنسية فقد ترجمت اللجنة العبارة الفرنسية trou de conjugaison بـ ثقبه اتصال ، وكان لابد من ذكر الترجمة الانكليزية لها وتعني « ثقب ما بين الفقار . »

وبالرغم من تقدم وريادة الأستاذ الدكتور حسني سيج في تدريس الطب بالعربية ، ومعاصرته لمشكلة المصطلح العلمي في ممارسته اليومية أستاذاً محاضراً ، ومؤلفاً ومعايشته لتطورها كعضو عامل في مجمع اللغة العربية بدمشق على مدى أربعين عاماً ١٩٤٦ - ١٩٨٦ (٨) ... فإن المتصفح لأعماله لا يعلم بعض الملاحظات ذات الأهمية ... إذ يظهر فيها تعارض واضح مع المنهجية التي يدعو إليها :

* فالأستاذ حسني سيج قد لجأ الى التعريب في بعض المواضع التي كانت المفردات العربية القديمة شائعة ومشهورة ... فعربَ goitre بـ «غوتو» وصوابها دراق (٩) وعربَ thymus بـ تيموس وصوابها توتة (١٠) .

* وفي مواضع أخرى لجأ إلى نقل المصطلح الأجنبي بجملة طويلة :

فنقل Hyperuricuria بـ «زيادة اطراح حامض البول في البول» ونقل Fibroblast بـ «أرومة الخلايا للنسيج الضام» ونقل marsupialisation بـ «تثيت أو خيط جدران الكيس بحافة الشق»

* وقد يعثر الدارس لكتبه على أكثر من لفظ عربي في مقابل لفظة أجنبية يعنيها فـ Addiction تارة نجدناه عنده «استحواذ» وأخرى «ولع» و catabolism ينقلها بلفظة «انتقاض» أما عندما ينقل catabolic effect فيوردها على أنها تعني «تأثيراً مبدداً» وكذلك بالنسبة لـ anabolism ينقلها على أنها «إبتناء» أما anabolic effect فهي عنده «تأثير بناء» و Polydipsia يشير إليها مرة أنها «غَلَلٌ» ، وأخرى أنها «سُهاف» ، وثالثة أنها «عَطاش» و Idiopathic ينقلها بـ «تلقائي» مرةً وأحياناً «أساسي» . ومرةً ثالثة «بدني» ...

و Diabetes عنده «ديابيط تفه» وأمام العبارة الأجنبية Diabetes Insipi dis و«داء سكري» مقابل العبارة الأجنبية Diabetes Mellitus و«طليمة الديابيطس» نقلا لقولهم Pre-Diabetes ...

و Dehydration ينقلها تارةً «نقص تيمه» وأخرى «تخفاف» وينقل Basal metabolic rate برقم «التطور الأساسي» بينما ينقل Diseases of metabolism و«بأمراض التقلاب» وينقل Hyperglycemia بـ «فرط سكر الدم» تارةً و

(٩٨) د. قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سيج ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٩ - ص ٩٥ .

(٩٩ ، ١٠٠) يعني بالعرباب هو : كما وردت في المعجم الطبي الموحد .

« فرط غلوقور الدم » تارة أخرى وينقل Provoquer بحرُض أو أخذت أو حثَّ وينقل re education لـ تدريب أو تأهيل

* وقد نجد الكلمة العربية الواحدة تُستخدَم عنده للدلالة على أكثر من مدلول أجنبي ، فكلمة تلقائي وحدها استعملها لنقل أربعة معانٍ متباينة هي : Sporadic و Essential و Spontaneous وأمام اللواحق لم نجد للأستاذ الدكتور حسني سبج موقفاً واضحاً يدل على منهجية محددة ، فهو ينقل Hypophosphatemia بـ «تدني مقدار فوسفات الدم» بينما ينقل «Hypoxemia» بـ «نقص أكسجين الدم» . وينقل Thermophobia كراهة السمخونة بينما ينقل chromophobe بـ «نافرة من الصباغ» وينقل Micro organism بـ «الأحياء الدنيا» بينما ينقل Micropsia بـ «الرؤية المصغرة» . . . وينقل Hyper تارة بـ فرط مثل (Hyperuicemia) الذي نقله بقرط اليوريسميا

وتارة أخرى بـ «زيادة» كما في نقله «Hyperuricuria» بـ «زيادة اطراح حامض البول في البول» وينقل dystrophia بـ «سوء التغذية» بينما ينقل Lipodystrophy بـ «اضطراب التغذية الشحمية» ، و genital dystrophy بـ «سوء النمو التناسلي» وعند كتابة الألفاظ والمسميات الأجنبية بالحروف العربية على سبيل «التعريب» لا نكاد نجد للأستاذ منهجية واضحة ، فنراه يعرّب Paraldehyde بـ «بارالدييد» ويعرّب Formaldehyde بـ فورمالدهيد ويعرّب Parathion بـ باراسميون (جرباً على اللفظ في العامية الشامية ويعرّب glucose تارة بـ «غلوقوز» وأخرى بـ «غلوكوز» ونادراً بـ «جلوكوز» . . .

وقد يتجاوز ذكر الكلمة المعربة ، ويكتفي فقط بذكر الكلمة الأجنبية بحروفها الأجنبية فيقول مثلاً : ان التأثير السام للغول الميتلي في البدن يعود الى تحوله الى (Formaldehyde) . . .

إلا أننا نجد الأستاذ الدكتور حسني سبج لم يُسرف في استعمال النحت ، كما رأينا في أعمال وصفاته الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي والأمير مصطفى الشهابي . . . وهذا موقفٌ يُعْمَدُ له ، إذ نجده يسرع لاقتراح استبدال (فو- ترقوي) التي وضعتها لجنة «معجم كليبر قيل غديد اللغات» ترجمةً لـ Sus-clavaiclair بـ (فوق الترقوة) واستبدال كُرفية ترجمة لـ Lymphocyte بـ (كريفه لمفاوية) كما نجد له اعتماداً على نقل المعنى دون التقيد بالحرفية المخلة بالمقصود من الكلام ، فقد أشار الى خطأ ترجمة للعبارة الفرنسية Toute-a-l'Egout بـ «الكل الى الكنيف» واستبدالها بـ «نظام المجاري» . ولم يجد الأستاذ الدكتور حسني سبج بأساً من اللجوء الى التعريب حين يعدم اللفظ العربي الأصيل ، أو المعرّب القديم أو المولّد الشائع . . . فلا يرى في نقل اللجنة للفظ ayle بـ عطريل صواباً ويفضل تعريبها كما هي بـ «أريل»

سادساً : * مجمع اللغة العربية بالقاهرة *

.. صدر مرسوم إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢ تحت اسم «مجمع اللغة العربية الملكي» ثم ما لبث أن عُدِّلَ اسمه عام ١٩٣٨ الى «مجمع فؤاد الأول للغة العربية» وأصدر المجمع العدد الأول من مجلته في مطلع عام

١٩٣٥... وقد خصّص مجمع القاهرة جانباً غير يسير من وقته وجهده أعضائه لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية ، ورسم لصياغة المصطلح منهجية واضحة ، وأسلوباً متميزاً في العمل إذ كان أعضاء المجمع يستمعون بالخبراء وأساتذة الجامعات في حقول اختصاصهم ، ويعقدون معهم اجتماعات دورية منتظمة للتوصل الى ما يروونه مناسباً من المصطلحات ثم تعرّض هذه المصطلحات على أعضاء المجمع في «مجلس المجمع» لاقراءها ومناقشتها وعرضها على «المؤتمر العام» الذي يعقد مرة كل عام... أما عن أساليب صياغة المصطلح العلمي فقد حدّثتها قرارات المجمع بدقة.. وثاني أهمية تلك القرارات من أنها برهنت على حيوية العربية ومرونتها وقدرتها على مواجهة متطلبات العلم والتكنولوجيا فأجازت الاشتقاق من الجامد وكان ممنوعاً ، وتوسّعت في المصدر الصناعي ، واستحدثت صيغاً للدلالة على الآلة والمكان والزمان ، وسلّمت بجواز النسب إلى الجمع كما يُنسب إلى الفرد... وأقرّت ألفاظاً واستعمالات حديثة^(١) ومن أهم تلك القرارات^(٢) :

١ - القياس

في المصادر الثلاثية

قرار فعالة للحرفة :

يُصاغ للدلالة على الحرفة أو شبيهاً من أيّ باب من أبواب الثلاثي مصدرٌ على وزن فعالة بالكسر كالقِرَاسَة من غَرَسَ والطَّيْاسَة من طَيَّعَ

قرار فَعْلَان للتقلّب والاضطراب :

يُقاس المصدرُ على وزن فَعْلَان للفعل اللّازِم مفتوح العين إذا دلّ على تقلّبٍ أو اضطرابٍ : فَوَسَّان من ناسٍ مَوْجَّانٍ من مَاجٍ وَبَيَّضَان من بَيَضَ

قرار فَعَال للمعرض :

يُقاس من الفعل اللّازِم المفتوح العين مصدرٌ على وزن فَعَال للدلالة على المرض : كَسُمَال من سَقَلٍ وَخُرْج من خَرَجَ

قرار المصدر الصناعي :

إذا أريد صنعٌ مصدرٌ من كلمةٍ يُزاد عليها ياء النسبة قلوياً ، حمضية ، سمية ، عطرية ، خشبية

قرار فَعَال للنسبة الى الشيء :

يُصاغ فَعَال قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء : خَبَّاز ، طَحْنان

(١٠١) د. إبراهيم مدكور : مثل جمع اللغة العربية بهذه المحسبي (الدهلي) سرد للدكتور عثمان خطيب ، دار الفكر ، ١٩٨٤ ، ص ١٢ .

(١٠٢) الامير مصطفى الشهابي : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٢ ، الجزء ٤ ، ص ٥٧٩ .

قرار اسم الآلة :

يُصاغ قياساً من الفعل الثلاثي على وزن يَفْعَل وَيَفْعَلَة وَيَفْعَلَة على الآلة التي يُعالج بها الشيء .

قرار المولّد :

المولّد هو اللفظ الذي استعمله المولّدون على غير استعمال العرب . . .

ومايهما هو القسم الذي جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجازٍ أو اشتقاقٍ كاصطلاحات العلوم والصناعات أو غير ذلك ، وحكمه أنه عربي سائغ وكلام المولّدين هو الألفاظ التي لم يضعها أو يصطلح عليها عرب الجاهلية وصدر الاسلام . أي أنها تلك الألفاظ التي استُعملت بعد أواخر القرن الثاني الهجري في الأمصار وبعد أواسط القرن الرابع الهجري في جزيرة العرب .

٢ - قرار التعريب :

يُميز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في ترميمهم . والتعريب يعني ادخال اللفظ الأعجمي في اللغة العربية أي كتابته بحروف عربية واعطائه حكم اللفظ العربي . . سواء أمكن جعله على وزن من الأوزان العربية أم لا

« نحن مهما نبالغ في تجنب التعريب ذاهبين الى ايجاد ألفاظ عربية بوسائل الاشتقاق والمجاز فهناك ألفاظ أعجمية في العلوم الحديثة :

- * لا بد لنا من تعريبها .
- * ومن هذه الألفاظ الأعجمية مالا يحوز الا تعريبها كأسماء نباتات جهلناها العرب وكشف النباتيون العلماء عنها حديثاً . ثم سموها بأسماء أعلام تنويعاً بتلك الأسماء .

- معظم العلماء الحريصين على سلامة اللغة يرون في نقل الألفاظ الأعجمية الى لغتنا العربية الرجوع الى الوسائل الآتية على التتابع ، وهي الترجمة ، وإذا تعذّر الاشتقاق أو المجاز فالتعريب . ومن الواضح أن التعريب يأتي في المرحلة الثالثة أي عند الضرورة اليه .

- كلّ لفظٍ علميٍّ أعجميٍّ يحتاج الى دراسة خاصة لمعرفة أصله لفظ عربي أو يقابله .

- مجال التعريب يكون واسعاً في نقل أسماء أعيان المواليد من نبات وحيوان وجماد التي لم تعرفها العرب ، وأسماء الأدوية والعقاقير والمركّبات الكيميائية والآلات العلمية والأطعمة والأشربة والألبسة الخاصة الأعجمية . أما أسماء المعاني العلمية فإن مجال الترجمة والاشتقاق يكون فيها أوسع من مجال التعريب .

٣- الأصول العامة

- ١- يُفَضَّلُ اللفظ العربي على المعرَّب القديم إلا إذا اشتهر المعرَّب .
- ٢- يُنْتَظَقُ بالاسم المعرَّب على الصورة التي نطقت بها العرب .
- ٣- تُفَضَّلُ الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة ، إلا إذا شاعت .
- ٤- تُفَضَّلُ الكلمة الواحدة على كلمتين فأكثر عند وضع اصطلاح جديد إذا أمكن ذلك ، وإذا لم يمكن ذلك تُفَضَّلُ الترجمة الحرفية .
- ٥- الاصطلاحات العلمية والتقنية والصناعية يجب أن يُقْتَصَرُ فيها على اسم واحد خاص لكل معنى .
- ٦- الموافقة على جواز النحت عندما تلجأ إليه الضرورة العلمية .

وهكذا فإنَّ جميع القاهرة الذي جعل أول وأهم أهدافه هي « المحافظة على سلامة اللغة العربية » جعل الأوليّة للألفاظ الأثيلة ثم أجاز التعريب عند الضرورة القصوى ، ولم يعط رخصة « التعريب » إلا بعد العناء ، واستقصاء المصادر اللغوية والعلمية العربية القديمة واستفاد وسائل الاشتقاق والمجاز ... وبعد الانتفاع بما تتيحه الصور والمعاني من قرائن وملابسات^(١٣)

ورغم دقة المجمعين وجلبتهم في الدرس ، والتعمُّق في البحث والالتزام في المبادئ التي قرروها واستقرت لديهم ، فإنَّ بعض الألفاظ التي أقرُّوا نقلها لم تكن تخلو من ملاحظات ...

فقد أقرَّ المجمع نقل « Toxin » الى العربية بـ « تُكْسِين » على سبيل التعريب رغم شيوع كلمة معربة قديماً ومشهورة هي « ذيفان » وقد ينقل اللفظة الأجنبية الواحدة بعدة ألفاظ مختلفة ... فمثلاً نقل كلمة maceration بـ « نقع » تارة ، وبـ « عَطَن » تارة أخرى ، وبـ « هروء » تارة ثالثة . وفي نفس الوقت أقرَّت نقل كلمة « Infusion » بـ « نقع » أيضا ... كما نقل كلمة Trans fusion بـ « (إصفاق) أحياناً وبـ « تَصْفَق » أحياناً أخرى ... رغم شيوع « نقل الدم » ونقل Lancette بثلاث ألفاظ (في مواضع متفرقة) ، ويُبَضِّع ويَقْصِد ويَبْطَأ ... إلا أن كل هذه الملاحظات ليست بذات قيمة أمام غياب سلطة المجمع ، وعدم استطاعته فرض ما يضعه من مصطلحات في حقول العلم المختلفة على الدارسين والباحثين في الجامعات العربية عامة وفي الجامعات المصرية خاصة ... وهكذا لم يستطع مجمع القاهرة الذي وُلِدَ أكثر من مائة ألف مصطلح منذ انشائه إبطال تلك المصطلحات الى من يستعملها ... وبالعكس ، فإن الكثير منها - بالرغم من جودته - مات في الرفوف وبين السطور لعدم الإلزامية^(١٤) .

(١٣) منصور فهمي : جميع مصر واللغة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٢ ، الجزء ١ ، ص ٥٩ .

(١٤) عبد العزيز عبد الله : استراتيجيات التعريب ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء ١ ، ص ٦ .

سابعاً * مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي *

عندما اكتسب مكتب تنسيق التعريب صفة التبعية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الأسكو»، أصبح له أهداف محددة تتمثل فيما يلي^(١٠٠):

١ - تنسيق الجهود الرامية لتطوير العربية .

٢ - تتبع حركات التعريب وإثراء اللغة بالمصطلحات المنشقة .

٣ - الإعداد لمؤتمرات التعريب ، وللمندوات ..

٤ - متابعة نشاط الجامعات ..

٥ - التعاون مع الجامعات والمؤسسات العلمية .

٦ - نشر المعاجم التي توافق عليها مؤتمرات التعريب ، والتي تُعقد كل ثلاث سنوات .. وقد حُدّد المكتب لعمله منهجية واضحة تتمثل في « أن يُصنّف المصطلح بلغتين أجنبيتين معاً هما الانكليزية والفرنسية ، ويُوضّح أمامه جميع المصطلحات التي عُرِبَ بها ، منسوبة كل منها إلى صاحبه إن كان مجعماً علمياً أو أستاذاً لغوياً مشهوداً له بالتفوق أو معجماً معروفاً ، ونشر ذلك على شكل معجم ألفبائي الترتيب يوضع تحت أنظار العلماء العرب لمدة لا تقل عن ستة أشهر ، ثم يدعو المكتب الى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد في ظل الجامعة العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، بالعواصم العربية على التوالي فيتدارسون المعجم وينقدونه ، ويختارون المصطلح الذي يريدون فيصحب شبه الزامي » ..^(١٠١)

وتقرر اختيار مسؤول عن الشؤون العلمية والفنية ، يعمل في الوقت نفسه رئيساً للخبراء الذين يتقنون لغات عديدة ، ويعملون على الاتصال بالجامع اللغوية العربية والجامعات ، وبعض الأفراد المتخصصين ويجمعون المصطلحات الصادرة عنهم ويعرضونها على مؤتمرات التعريب ولجانته المتخصصة لقبولها أو تعديلها أو رفضها .. إلا أن هذه المنهجية كانت سبباً في إحداث هوة كبيرة بين المكتب وبين الجامعات والجامعات والمؤسسات العربية الأخرى المعنية بالتعريب .. إذ عمل المكتب في بداية عهده بشكل مستقل ويعيد عن المنهجية التي رسمت له ، فعمل على إنتاج « معاجم » أو مشاريع لمعاجم ذات طابع شخصي ، مُرْتَجِل ، مُعْتَمِد على ثقافة وحيدة الذهن .. ودون استشارة جهات اختصاصية ذات صلات وثيقة علمياً وعملياً بمواد تلك المعاجم ... الا أن تلك الهوة بدأت بالانزياح وحل محلها التعاون مع الجامعات العربية والتي بدأت تساهم في رسم سياسة المكتب ، وتخطيط مشاريعه ، والإسهام في إنجازاته من خلال اللجنة الاستشارية للمكتب والمكوّنة من رؤساء الجامعات اللغوية العلمية العربية في القاهرة ودمشق

(١٠٠) عبد العزيز عبد الله : تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات بالغرب ، اللسان العربي ، كاتون تالي ١٩٧١ ، ص ١٩٦ - ٢١١ .

(١٠١) عبد العزيز عبد الله : اللسان العربي ، المجلد ١٣ / ١٩٧٦ ، ص ١٠ .

وبغداد وعثمان^(١٠٧) . . وقد أصدر المكتب العدد الكبير من المعاجم التي هي الآن قيد التداول^(١٠٨) ، وسيصبح الحكم على الكثير مما تحويه من مصطلحات وشيئاً .

تنسيق الجهود والسير

نحو منهجية واضحة :

لقد اكتسب العلماء العرب اليوم خبرة واسعة في مجال نقل العلوم وبخاصة في سبيل توحيد منهجيات صياغة المصطلح العلمي ، فالمشكلة التي يعاني منها المهتمون بشؤون التعريب اليوم هي توحيد المصطلح العلمي^(١٠٩) وليس المنور عليه . . وهذا يحتاج إلى رسم منهجية واضحة لصياغة المصطلحات أولاً ، والإلزام بها ثانياً . وفي سبيل الوصول إلى منهجية محددة فقد نظم مكتب تنسيق التعريب في الرباط ندوة حول توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة (١٨ - ٢٠ شباط ١٩٨١) ، وبعد أن نظرت الندوة في البحوث المقدمة من المجمع اللغوي والمؤسسات المتخصصة ومن الباحثين أقرت المبادئ الأساسية التالية :

- ١ - ضرورة وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ، ولا يُشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي دائماً .
- ٢ - وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد .
- ٣ - تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد في الحقل الواحد وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك .
- ٤ - استقراء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه أو ما استقر منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث ، وما ورد منه من ألفاظ معربة .
- ٥ - مسايرة المنهج الدولي في اختيار المصطلحات العلمية :

 - أ - مراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينها للمشتغلين بالعلم والدارسين .
 - ب - اعتماد التصنيف العشري الدولي لتصنيف المصطلحات حسب حقولها وفروعها .
 - ج - تقسيم المفاهيم واستكمالها وتحديدتها وتعريفها وترتيبها حسب كل حقل .
 - د - اشتراك المختصين والمستهلكين في وضع المصطلحات .
 - هـ - مواصلة البحوث والدراسات ليتيسر الاتصال بدوام بين واضعي المصطلحات ومستعمليها .
 - ٦ - استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية طبقاً للترتيب التالي : التراث فالترديد بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت .

(١٠٧) المهدي الدويري: مكتب تنسيق التعريب ، اتفاق علمية ، العدد ٣ ، السنة الأولى ١٩٨٥ - ص ٢٠ .

(١٠٨) المهدي الدويري : المصدر السابق - ص ٢١ .

(١٠٩) مقررات ووثائق مؤتمر مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الدورة ٤٣ ، ١٩٧٧ .

- ٧ - تفضيل الكلمات العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعربة .
- ٨ - تجنب الكلمات العامية إلا عند الاقتضاء بشرط أن تكون مشتركة بين لهجات عربية عديدة ، وأن يشار إلى عاميتها بأن توضع بين قوسين مثلاً .
- ٩ - تفضيل اللفظة الجزلة الواضحة ، وتجنب النافر والمحذور من الألفاظ .
- ١٠ - تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به .
- ١١ - تفضيل الكلمة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والاضافة والتنشئة والجمع .
- ١٢ - تفضيل الكلمة الدقيقة على الكلمة العامة أو المبهمة ، ومراعاة اتفاق المصطلح العربي مع المدلول العلمي للمصطلح الأجنبي دون تقييد بالدلالة اللفظية للمصطلح الأجنبي .
- ١٣ - في حالة المترادفات أو القرية من الترادف تفضل اللفظة التي يوحى جذرها بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح .
- ١٤ - تفضيل الكلمة الشائعة على الكلمة النادرة أو الغريبة . إلا إذا التبس معنى المصطلح العلمي بالمعنى الشائع المتداول لتلك الكلمة .
- ١٥ - عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها ، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها ويحسن عند انتقاء مصطلحات من هذا النوع أن تجمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المشابهة الدلالة وتعالج كلها مجموعة واحدة .
- ١٦ - مراعاة ما اتفق المختصون على استعماله من مصطلحات ودلالات علمية خاصة بهم ، معربة كانت أو مترجمة .
- ١٧ - التعريب عند الحاجة وخاصة المصطلحات ذات الصيغة العالمية كالألفاظ ذات الأصل اليوناني أو اللاتيني أو أسماء العلماء المستعملة من مصطلحات ، أو العناصر والمركبات الكيماوية .
- ١٨ - عند تعريب الألفاظ الأجنبية يراعى ما يأتي :
- أ - ترجيح ما سهل نطقه في رسم الألفاظ المعربة في اللغات الأجنبية .
- ب - التغيير في شكله حتى يصبح موافقاً للصيغة العربية مستساغاً .
- جـ - اعتبار المصطلح المعرب عربياً ، يخضع لقواعد اللغة ، ويجوز فيه الاشتقاق والنحت ، وتستخدم فيه أدوات البدء واللاحق مع موافقته للصيغة العربية .
- د - تصويب الكلمات العربية التي حُرِّفها اللغات الأجنبية واستعملها باعتدائها أصلها الفصح .
- هـ - ضبط المصطلحات عامة والمعرب منها خاصة بالشكل حرصاً على صحة نطقها وأدائها .

واشتملت مقررات الندوة على (٨) اقتراحات ، تضمنت متابعة البحوث والدراسات في ميدان المصطلحات ، وعقد ندوات متابعة ، وتكوين لجنة تحضيرية لإعداد ورقة عمل في الحروف والاتجاهات والرموز المستعملة في العلوم لتعرض على ندوة مخصصة في هذا الميدان .

أما عن سبيل الالتزام باستخدام المصطلحات العلمية الموحدة فبعض العلماء العرب يرى أن الوسيلة الوحيدة لذلك تقتضي إنشاء مجمع « علمي » واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى إليها النقلة الاختصاصيون واحداً يثبته ، ويحملة حظيرة اللغة .. ولا يكون من شأن هذا المجمع وضع اصطلاحات علمية جديدة تزيد الاضطراب واللبلة^(١١٠) .

وبعضهم يرى أن المصطلح العلمي لا يوحد مثل وحدة السلطة التي تشرف على وضع المصطلحات ، ومدى نفوذها في مختلف المؤسسات والأدوات ذات العلاقة بهذا الموضوع^(١١١) . ويرى أن من شأن تلك السلطة الاشراف على :

١ - إصدار المعجم العلمي العربي الموحد الذي يعتمد على المنهجية الواضحة والمحددة بدقة في اختياره للمصطلحات^(١١٢) .

٢ - الاكثار من عقد الندوات العلمية لتدارس أمور المصطلح ، وإقرار ما يستجد منه ، وتعميم ما يقر منه .. والتأكيد على استعماله^(١١٣) .

٣ - قيام هيئة عليا على مستوى الوطن ذات كفاءات ممتازة ، وخبرات اختصاصية في مجال الترجمة والمصطلح بنقل الدوريات والموسوعات العلمية الشهيرة عالمياً من مختلف اللغات الى اللغة العربية^(١١٤) .

ثامناً دور المعجمات :

- وقد صدرت العديد من المعاجم بأشراف هيئات علمية عربية تعتمد منهجية واضحة وموحدة في صياغة المصطلحات العلمية (الجدول المرفق) . وكمثال على الشكل الناضج من هذه المعاجم سنتناول « المعجم الطبي الموحد » بالدراسة المفصلة .

(١١٠) د. جيل صليبا : تدريب الاصطلاحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٢٨ ، الجزء ١ ، ص ٨٨ .
(١١١) د. شوقي صيف : توحيد المصطلح العلمي في التعريب ، وقائع مؤتمرات مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، دورة ١٦ / ١٩٨٠ .
(١١٢) د. محمد المنجي الصيادي : التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، الطبعة الثالثة ، معهد الأبحاث العربية ، ١٩٨٤ .
(١١٣) عبد العزيز بن عبد الله : اللسان العربي ، المجلد ١٢ كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص ٥ .
(١١٤) ربيع فلسطين : وسائل تنسيق حركة الترجمة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٣ ، الجزء ٣ ، تموز ١٩٧٨ .

جدول معاجم المصطلحات

- * القاموس الطبي فرنسي - عربي للدكتور محمد رشدي البقلي - طبع في باريس ١٨٧١ .
- * القاموس الطبي انجليزي - عربي للدكتور ابراهيم منصور - طبع في مصر عام ١٨٩١ .
- * القاموس الطبي العلمي : عربي - فرنسي من تأليف نعمة اسكندر (وهو مترجم في مجلس الصحة العمومية بالقاهرة) وقد طبع بالاسكندرية ١٨٩٣ .
- * القاموس الانجليزي - العربي في العلوم الطبية للدكتور محمد شرف - طبع في القاهرة ١٩٢٧ .
- * مجمع الألفاظ الزراعية . فرنسي - عربي للأمير مصطفى الشهابي - الطبعة الأولى ١٩٤٣ والطبعة الثانية ١٩٥٧ - القاهرة .
- * لوائح المصطلحات والمعاجم المتخصصة الملحقة بكتب جامعة دمشق للأستاذ جميل الحاني في علم الطبيعة ، وللأستاذ الدكتور حسني سح في الأمراض الداخلية (سبعة أجزاء) .
- * معجم كليرفيل الطبي كثير اللغات ، ترجمه الى العربية أساتذة جامعة دمشق الدكتور مرشد خاطر والدكتور أحمد حمدي الحياط والدكتور محمد صلاح الدين الكواكي . صدر في دمشق عام ١٩٥٦ .
- * معجم العلوم الطبية انكليزي - عربي - فرنسي لأساتذة جامعة دمشق : الدكتور مرشد خاطر ، الدكتور أحمد حمدي الحياط والدكتور محمد هيثم الحياط . صدر في دمشق عام ١٩٧٤ الجزء الأول منه .
- * موسوع العلوم الطبية : طبقت في دمشق بإشراف وزارة التعليم العالي ، صدر العدد الأول بمناسبة العيد الذهبي لجامعة دمشق ثم توقفت عن الصدور .

ومن المعاجم المتخصصة التي وضعها بعض الناهبين في فروع علمية متخصصة كي تعين على التعريب والترجمة والتأليف أو وضعتها المجامع والهيئات المهتمة بالتعريب :

المعجم الوسيط - مجمع القاهرة

معجم كاز مرسكي - بالفرنسية والعربية

معجم لين (مد القاموس) - بالانجليزية والعربية

معجم بادجر - بالانجليزية والعربية

معجم بيلو - بالانجليزية والعربية

- معجم المنهل - بالفرنسية والعربية
- معجم المورد - بالانجليزية والعربية
- المعجم الطبي الصيدلي الحديث - د. علي محمود عويضة ١٩٧٠
- المعجم الفلكي - أمين المعلوف ١٩٣٥
- معجم أسماء النبات - د. أحمد عيسى ١٩٤٩
- معجم المصطلحات الجراحية - د. أحمد عيسى ١٩٦٢
- المعجم الكهربائي الالكترونى - وزارة الدفاع - دمشق ١٩٧٨
- معجم المصطلحات البترولية الصناعية والنفطية - أحمد شفيق الخطيب
- معجم القانون - حارث سليمان الفاروقي - ١٩٦٢
- المعجم العلمي للمصطلحات القانونية والتجارية والمالية - يوسف شلاش وفريد فهمي
- المعجم الفلسفي - يوسف كرم
- معجم المصطلحات الديبلوماسية - د. مأمون الحموي - ١٩٤٩
- معجم المصطلحات الجغرافية - القاهرة ١٩٦٥
- معجم المصطلحات الأثرية - يحيى الشهابي ١٩٦٧
- معجم مصطلحات الفنون - د. غيف بهنسي ١٩٧١
- معجم مصطلحات الحديث - د. نور الدين العتر ١٩٧٧
- معجم قاموس علم النفس - د. فاضل عاقل ١٩٧١
- المعجم العسكري الموحد ١٩٦٨
- الصحاح في اللغة والعلوم - نديم مرعشلي ، أسامة مرعشلي تقديم الشيخ عبدالله العلايلي ١٩٧٤
- معجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا - معهد الانماء العربي ١٩٨٢
- الموسوعة الفلسفية العربية - معهد الانماء العربي ١٩٨٦
- معجم مصطلحات تعويض الأسنان - انكليزي - عربي - فرنسي الدكتور ميشيل خوري الأستاذ في كلية طب الأسنان - دمشق ، نقابة أطباء الأسنان ١٩٧٠

معجم المصطلحات الطبية : نشر عام ١٩٨٤ بالقاهرة بمناسبة احتفال مجمع القاهرة بالعيد الخمسيني لتأسيسه . من وضع لجنة المصطلحات فيه وبإشراف مقررها الدكتور حسن علي ابراهيم

قاموس حقّ الطيبي : انكليزي - عربي نشر عام ١٩٦٦ في بيروت بمناسبة العيد المئوي لتأسيس الجامعة الأميركية في بيروت لمؤلفه الدكتور يوسف حقّ أستاذ الأمراض الباطنية وعلم التشريح .

المعجم الفلسفي : للدكتور جميل صليبا الذي طبع عام ١٩٧١ في جزئين .

* المعجم الطبي الموحد *

إزاء التعدد في المصادر والجهات التي عنيت بمصطلحات الطب العربي وما بدا في وضعها وصياغتها من مفارقات ليست بالقليلة ، وما حدث في شأنها من بليلة واضطراب ، إزاء هذا كله ، كان لا بدّ من التفكير والسعي وراء توحيد ما اختلف فيه ، وما أكثره . ومن أحقّ من الأطباء بأن يضطلع بهذا الأمر الخطير ؟ فلا عجب أن ينضج اتحاد الأطباء ، وأن بعد لهذا الأمر عدته بالتخاذ قراراً سنة ١٩٦٦ بتوحيد مصطلحات الطب العربية وأن يسند تحقيق هذه الأمانة الى صفة مختارة - كما جاء في القرار - من أساتيد وأطباء راسخين في علمهم و متمكنين من لغتهم الضادية ، جاعلاً منهم لجنة ، لم تلبث أن والت اجتاعاتها طوال عدة سنوات متنقلة بين العواصم العربية المختلفة .

تولى الأستاذ محمود الجليلي - نائب رئيس المجمع العلمي العراقي مقرّر اللجنة ، رئاسة تحرير هذا المعجم ، وقام المجمع العلمي العراقي في مطبعته بطباعة بعض التجارب من المصطلحات المقررة ، عُرِضَتْ أوراقها على عددٍ من يعينهم أمرها لاستطلاع الرأي فيها ، وكان عدد من استجاب لهذه الرغبة قلّة قليلة وتمّ طبع الطبعة الأولى من المعجم - المعجم الطبي الموحد - انكليزي عربي سنة ١٩٧٣ في بغداد ، أثبتّ على غلافه « طبعة خاصة » ، وجاء في آخر صفحاته وعددها ٣٨٥ ما يلي : استندراك وتصويب : بعد انجاز طبع هذا المعجم ، أعيد النظر فيه مرة أخرى وأجريت التعديلات والاستدراكات الآتية : وبلغ عددها ٣٧٦ في أربع عشرة صفحة ، ومع هذا أعيد طبع هذا المعجم بالأوئست في القاهرة سنة ١٩٧٧ بصورته السالفة بلا تغيير ، وبعد سنة أخرى (١٩٧٨) طبع في مطبعة جامعة الموصل طبعة ثانية مصححة . وكان من مقررات مجلس وزراء الصحة العرب سنة ١٩٧٩ السعي الى إيجاد معجمين طبيين أحدهما انكليزي - عربي والثاني فرنسي - عربي يعتمد عليهما المكتب الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق الايض المتوسط ، حسماً للخلاف الكثير البادي في المصطلحات الطبية والصحة في التقارير وفي ترجمة المنشورات في مختلف أقطار الوطن العربي ، بعد أن أخذ كل واحد يعمل على هواه . وأوكل أمر تحقيق هذه الأمانة الى المكتب الاقليمي المذكور وسرعان ما دعا مدير المقر في الاسكندرية أعضاء لجنة المعجم الطبي الموحد لاستطلاع الرأي فيها هو عاقد العزم عليه ، وبعد المذاكرة ، رأى المجتمعون أن تكلف لجنة جديدة تضم بين أعضائها معظم أعضاء اللجنة السابقة لاتحاد الأطباء العرب ، مع زملاء جدد من ذوي الثقافة الفرنسية مهمتها إعادة النظر في المعجم

السابق ، وإضافة ما ينبغي أن يضاف الى المعجم ما فات اثباته فيه من المصطلحات . . وبعد عقد عشر لقاءات في بلدان شرقي الوطن العربي وغربه على مدى أربع سنوات أنهت اللجنة عملها وولت الاشراف عليه الى مقرر اللجنة الدكتور محمد هيثم الحياض عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ومن أساتذة كلية الطب فيها ، فبدل - الجهد المشكور - ومضى في التحرير والإشراف على الطباعة ، وقد تمت في سويسرا بعد أن أضاف اليه مسردا عربيا - إنكليزيا ، ليعين به الباحث العربي في إيجاد ما يقابل الكلمة العربية من لفظ إنكليزي ، فضلا عن مئات الصور الايضاحية في آخر الكتاب ، فجاء هذا المعجم الثلاثي اللغات : إنكليزي - عربي - فرنسي أفضل من سابقه ، ومما صدر من هذا النوع من معجمات طبية شاملة . . وأخرج المعجم بحلة قشبية تسر الناظرين ، واشتمل على ٢٣٠٠٠ مادة في ٧٦٠ صفحة وعلى ١٥٠٠٠ كلمة في المسرد العربي المرتب على الحروف الهجائية .

وهكذا تم انجاز المعجم بشكله الحالي على نفقة منظمة الصحة العالمية ، وإسهام مادي من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ويؤمل أن يصدر قريباً نسخة منه بترتيب فرنسي - عربي - إنكليزي لتلبية حاجة الأقطار العربية التي درس أطباؤها ومتفقوها اللغة الفرنسية .

الأسس التي جرى عليها العمل في اختيار

المصطلحات في المعجم الطبي الموحد

١ - استُعْمِلَتْ كلمة عربية واحدة مقابل التعبير الأجنبي ، ولم تُسْتَعْمَلِ المترادفات إلا في مائدر ، وبذلك يتحقق توحيد المصطلحات ، وهذه أهم ميزة للمعجم وهي التي جعلت اعداداه يستغرق وقتاً طويلاً .

٢ - استعملت الكلمات العربية المتداولة التي سبق أن استعملها الأطباء العرب الأقدمون اذا كانت تفي بالغرض العلمي . . ولكن تَرَكَّتْ الكلمات الدخيلة التي وجد ما يقابلها في العربية وأخذت اللجنة بنظر الاعتبار المصطلحات التي وضعتها المجمع أو اللجان أو العلماء .

٣ - وإذا كان كثير من المصطلحات العلمية متعدداً الأصول فقد كان لزاماً أن تلجأ اللجنة الى اختيار معنى واحد من المعاني العديدة التي وضعتها معاجم اللغة للفظ العربي الواحد وأن تلجأ الى المجاز في استعمال الألفاظ بتخصيص معناها العام أو تعميم معنى مجاور لمعانها اللغوي ، أو نقلها الى مدلول آخر أدق ، فصار لما يظنه البعض ألفاظاً مترادفة مدلولات معينة مختلفة .

٤ - استُجِدَّتْ الكلمات الدخيلة « الأجنبية المعربة » إلا اذا كان اسم شخص أو مشتقة من اسمه ، أو كانت مستعملة في لغات متعددة ، ولم يمكن الوصول الى مقابل لها . . فبقيت لتبدل فيما بعد .

٥ - بُنِتْ سوابق ولواحق تَمَّ الالتزام بها ، وَدُكِرَتْ في أول المعجم ، مع تفضيل الصيغ الثلاثية المختصرة ، واستُعْمِلَتْ صيغٌ عربية سبق استعمالها في الطب ، والقياس على ذلك ، مثل صَيِّغِ فُعَال وفعل وفِعُول .

٦ - فُضِّل الأُطْرَاد والانسجام في استعمال الكلمات والصيغ على استعمال ألفاظ مُعْجَمِيَّة خارجة عن الانسجام لا يسهل حفظها وتداولها ، وابتعدت اللجنة عن الألفاظ الوعرة ما أمكن .

٧ - جرى التصرف في صيغ النسبة للتمييز أو منع اللبس ، فقليل بيضي وبيضوي وبيضادي أو بيضائي ، كما نسب للمفرد وللجمع فقليل جرنومي وجرائمي ..

٨ - لم تلجأ اللجنة الى النحت أو التركيب الا في ما ندر ، كأن تكون الكلمة قد شاع استعمالها أو تكون اللفظة مقبولة مفهومة أو في النسبة ، مع اتباع القواعد والضوابط المقررة .

٩ - كثيراً ما يعبر عن المفهوم الواحد في اللغات الأجنبية بمصطلحات متعددة مترادفة . . . ومرد ذلك في الغالب الى أسباب تاريخية ، ولما كان وضع المصطلحات العربية الآن قد تجاوز هذه المراحل التاريخية ، فقد اقتضت اللجنة على ترجمة واحد من هذه المترادفات لا غير (هو أصلها لتأدية المعنى) بمصطلح عربي واحد ، يوضع في مقابلها جميعا مع الإشارة بجانب المترادفات الأخرى الى التعبير الذي اتفق على ترجمته بوضعه بعد علامة المساواة (=) بين قوسين .

١٠ - ضُبِطَتْ الكلمات العربية بالشكل ضبطاً كاملاً ، ووُضِعَ جمع الكلمة بين زافرتين مسبوقاً بحرف (ج:) كما وضع المفرد أو المثنى أو المؤنث أحياناً بين الزافرتين مسبوقاً بحرف (ف:) أو (ث:) أو (م:) على التوالي .

١١ - أُضيف الى المعجم العديد من الصور التوضيحية ، زيادة في الايضاح ، وتثبيتاً للمصطلحات وتعميماً للفائدة من المعجم .

١٢ - استعملت طريقة الاملاء للكلمات الأجنبية المستعملة في قاموس Dorland's Illustrated Medical Dictionary الطبعة السادسة والعشرون سنة ١٩٨١ .

تقويم دور المعاجم :

تناول الأدباء العرب في القرن الماضي قصور المعجمات القديمة عن الاحاطة بمستجدات الفكر الحديث ، وما نتج من فتنح حضاري ، تمثل في ظهور المئات بل الآلاف من الألفاظ المستحدثة ، المدرجة تحت عنوان « المصطلحات » وقد حدا ذلك بعضهم الى تأليف معاجم جديدة تسائر تطلعات العصر وعلومه وفنونه . . . وقد ظهر معاجن كبريان هما « محيط المحيط » لبطرس البستاني ، « وأقرب الموارد الى فصيح العربية والشوارد » لسعيد

الشروط . . . وقد ضمّ هذان المعجمان عددا كبيرا من المصطلحات العلمية والفنية مع ذكر المعرب والدخيل وما تسرب إلى المادة اللغوية من لفظ عامي^(١١٥). ونحن نسير اليوم على ضوء منهجية واضحة، نأمل أن تسمح لنا بصياغة مصطلح علمي مناسب، قابل للذيع والانتشار بسهولة ويسر، وبشكل موحد على نطاق كافة العاملين في الوطن العربي . . . ونترقب أن يصدر القرار بالالزام باستعمال هذه المصطلحات الموحدة من السلطات التنفيذية المعنية في مختلف البلاد العربية^(١١٦).

نتائج وحلول :

١ - إن السمة المشتركة بين نقلة العلوم إلى العربية منذ القرن الثاني للهجرة وإلى اليوم هو الاتفاق على منهجية واضحة في اختيار وفي صياغة المصطلحات العلمية الجديدة وتتمثل هذه المنهجية بأداء كلمات عربية صحيحة أولاً ثم الانتقال إلى التعريب ثانياً . . . فلم يكن النقلة يعتمدون دائماً إلى استعارة الأسماء الأجنبية للدلالات التي لم يكونوا يعرفونها بل كانوا يحاولون أن يضعوا لتلك الدولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة . . . إلا أنه لم يكن بالامكان تفاذي دخول ألفاظ أعجمية إلى العربية . . . وبعض هذه الألفاظ أخذ يشيع على السنة الكثيرين في الحياة اليومية، ولا سيما أسماء النباتات والحيوانات والمقاييس والموازين والأمراض والأدوية^(١١٧)، واستعرت هذه « المنهجية » سائلة على مر العصور، مع بعض التغيير الذي تفرضه شخصية الناقل ومصادر ثقافته، والتيارات السائدة في عصره، والهدف من النقل أو التأليف، إذا كان للبحث العلمي أو للتدريس والتعليم .

٢ - إن الكتابة للطلاب وللمبتدئين تقتضي التيسير والتبسيط ومسايرة تطور العلوم، والالتزام بالعربية لغة علم وتدريس في وقت واحد . . . وهذا ما يؤدي إلى التخلي جزئياً عن الوفاء المطلق للمنهجية التي أراد أن يتبناها المؤلف منذ بدء عمله في النقل أو التأليف. ويبدو ذلك الأمر جلياً في تجربة أستاذنا الدكتور حسني سيح رحمه الله والذي قدر له أن يشهد مولد حركة التعريب في بلاد الشام ويعاين تطورها، ويساهم في إغنائها أستاذاً في كلية الطب جامعة دمشق وعضواً عاملاً ثم رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق^(١١٨) . . . فإننا نجد من خلال أعماله يسير على أسس تساهل التطور وتماشي علوم العصر^(١١٩).

(١١٥) د. رياض زكي قاسم : قراءة أول لأصل نقدية في القرن التاسع عشر - مجلة الفكر العربي، العدد ٢٩ / ٤٠، ١٩٨٥، ص ٢٤٤.

(١١٦) د. قاسم سارة : منهجيات صياغة المصطلح العلمي، مجلة الفصحى، العدد ١٢٤، ص ٢٠ وما بعدها.

(١١٧) د. شوقي غنيم : تاريخ الأدب العربي (٣) العصر العباسي الأول - دار المعارف بمصر، ص ٩٢.

(١١٨) د. قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سيح - مجلة الفصحى العدد ١٣٩، ص ٩٥ وما بعدها.

(١١٩) د. عدنان نكريتي : الأستاذ الدكتور حسني سيح، المجلة الطبية العربية، العدد ٩٣ (كانون أول ١٩٨٦)، ص ٧.

لقد ذكر الأستاذ حسني سبباً شتياً عن المنهجية التي كان يتبعها في وضعه للمصطلح الطبي وذلك في مقالات متفرقة ومناسبات مبشرة ، ولعل أكثرها وضوحاً هي القواعد التي أوردتها في تصدير أجزاء موسوعته الضخمة التي سماها « علم الأمراض الباطنة » والتي أصدرها في سبعة أجزاء ضخمة يختص كل جزء منها بشعبة من شعب الطب الباطني ، واستغرق إعداد الطبعة الأولى اثنين وعشرين عاماً (١٩٣٥ - ١٩٦٥)^(١٢٠) ومن تلك القواعد كانت القاعدة للذهمية التالية « توحي الألفاظ الدارجة الصحيحة في الدرجة الأولى ، ثم تعريب الكلمات الأجنبية إن لم يجد ما يوفي بالمراد بها من الكلمات العربية تمام الإفاء »^(١٢١) إلا أن الأستاذ - رحمه الله - لم يتقيد تماماً بهذه القاعدة بل أثر أن يخالفها بعض الأحيان^(١٢٢) عن دراية وعلم . ويعمل مخالفته لذلك بأن غايته تسهيل فهم الأبحاث لا المبالاة بغريب الألفاظ^(١٢٣) وأنه يعمل على تبسيط العلم وتبسيط اللغة ، واختيار ما يسهل فهمه وعضمه من المصطلحات^(١٢٤) . .

وقد هوّن عليه الاستمرار في المخالفة اعتقاده أن الخطأ المشهور خير من الصواب المجهور ، و (نحن) ما نزال في غمرة السعي الى اجتماع الكلمة على توحيد المصطلحات العلمية المستجدة^(١٢٥) وهكذا بقي الأستاذ على منهجه هذا يراعي القاعدة التي ذكرها في كتاباته في غالب عمله ، ويخالفها أحياناً حيناً « يرى » للمخالفة ما يبررها .

٣ - يبدو من استعراض كتب النقلة الأوائل وأعمال الأعلام العرب من مؤلفين في العلوم البحتة والتطبيقية وفي علوم اللغة . . . أن المصادر التي اعتمدوا عليها في كتبهم ذات « شخصية متميزة » ، فكل ناقل أو مؤلف يعتمد ما كتبه واعتمده سلفه وإذا رأى إضافة شيء « جديد لم يتمتع ذلك من ذكر أقوال من سبقه قبل إبداء رأيه والاحتجاج لقوله . . . وهذا ما يعطي للدارس المتأمل انطباعاً عن مدى قدرة النقلة والمؤلفين العرب على التكيف والتعامل مع لغات العالم جميعها ، والوصول الى مصطلحات علمية حازت القبول على مدى العصور التالية ، وبقي الكثير منها قيد الاستعمال حتى اليوم .

٤ - يبدو أن كل المحاولات الفردية أو الشخصية مهما كانت جادة ومهما اتصف واضعوها بالشمولية العلمية ، والأطلاع الواسع والدقيق على مفردات اختصاصهم العلمي ومهما كانت لهم خبرات طويلة في تحقيق التراث العلمي أو اللغوي . . . فانها ستبقى جهوداً قاصرة عن الوصول الى المصطلح العلمي الصحيح والملائم للذيع والانتشار . . .

٥ - ولكن هذه الجهود والمحاولات الفردية تبقى ذات قيمة كبيرة . . . إذ تشكل مصدراً لا يستغنى عنه من قبل المؤسسات والمجامع لدراسة المصطلحات العلمية ، وتطورها ، واختيار الأفضل منها . . .

(١٢٠) د . قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سبب ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٩ ، ص ٩٥ وما بعدها .

(١٢١) د . حسني سبب : مقدمة الجزء الثاني من علم الأمراض الباطنة (الأمراض الاتيائية والطفلية) .

(١٢٢) د . حسني سبب : مقدمة الجزء السابع من علم الأمراض الباطنة (أمراض الغدد الصم والغذلية والتنسلمات) .

(١٢٣) د . حسني سبب : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء الثاني (الأمراض الاتيائية والطفلية) .

(١٢٤) د . حسني سبب : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء الثالث (أمراض التنس) .

(١٢٥) د . حسني سبب : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء السابع (الأمراض الغدد الصم والغذلية والتنسلمات) .

٦ - أما عن الجهة التي يمكن لها أن تضع المصطلحات أو تختار من المصادر الموضوعية سابقاً ما تراه ملائماً . . . فلا بد أن تكون مؤسسة ذات صفة « قومية » ، تتمثل في أفرادها خبرات كل الأقطار العربية في مجال المصطلح العلمي وكل اللهجات المحلية السائدة في الوطن العربي ، وتستفيد عبر خبراتها المختصين علمياً ولغوياً من الخبرات والتجارب القديمة والحديثة في ميدان تعريب العلوم . . .

٧ - وفي الوقت الحاضر نجد تسميات مختلفة ، وهيئات عديدة ، قد يتحقق فيها هذه الشروط ، مثل اتحاد الجامعات اللغوية العربية ، والاتحادات المهنية العربية (اتحاد الأطباء العرب ، اتحاد المهندسين العرب . . . إلخ) ومكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . . . ولا بد من تنسيق الجهود عبر لجان تحوي ممثلين وخبراء يقربون من وجهات النظر بين هذه المنظمات والمؤسسات ولا بد من التواصل الدائم ، والحوار الذي لا ينقطع بين هذه المنظمات قبل إقرار أي مصطلح علمي . ولنا في تجربي العسكري الموحّد والمعجم الطبي الموحّد مثالان على ذلك .

٨ - وقبل ذلك كله وبعد ذلك كله ، لا بد من قرار سياسي أو سلطوي للالتزام باستخدام ما يتم إقراره من المصطلحات . . . وفي كل المؤسسات العربية التعليمية والانتاجية العربية على امتداد الوطن العربي الكبير ، إذ لا حياة للمصطلح العلمي العربي إلا باستخدامه اليومي . . .



مصادر المصطلح العربي العلمي

- أعمال النخلة الأوائل - التراث العلمي العالمي من اللغات القديمة الفارسية - الهندية - اليونانية .
 أعمال الأعلام العرب من مؤلفين ولغويين .
 أعمال المترجمين والمصححين والمحررين في مصر ١٨٢٧ - ١٨٨٢ - مؤلفات علمية فرنسية .
 أعمال أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت ١٨٩٧ - ١٨٨٣ - مؤلفات علمية انجليزية .
 أعمال أساتذة جامعة دمشق ١٩١٩ - ١٩٤٥ - مؤلفات علمية فرنسية وتركية .
 أعمال جميع دمشق ١٩١٩ - ١٩٨٨ .
 أعمال جميع القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٨٨ .
 أعمال الجامعات الأخرى - بغداد - عمان - مؤلفات علمية غربية (فرنسية - انجليزية - ألمانية - ...) - وشرقية - روسية ...
 منظمات أخرى .
 مكتب تنسيق الترريب - ١٩٧٠ - ١٩٨٨ .
 مجلدات وجهود فردية - جامعة دمشق - خيرات علمية وعملية - ١٩١٩ - ١٩٨٨ .
 كل مؤلف يستفيد من جميع الأعمال التي سبقته .



لن يصاب في ألمانيا أحد بالدهشة إذا قرأ ، أو تناهى
الى سماعه ، أن الأدب الألماني يُستقبل في فرنسا ، أو
بريطانيا ، أو في أي جزء من أجزاء العالم الخارجي ،
الأوروبي - الأمريكي . فالمكتبة الألمانية أصبحت تحوي
الآن عدداً لا بأس به من الدراسات حول هذا
الموضوع^(١) . أما أن يستقبل الأدب الألماني في مجتمع ذي
حضارة يعتبرها الألمان غريبة ونائية ، كالحضارة
العربية ، فهذه مسألة مازالت تبعث على الدهشة.
والاستغراب ، حتى في أوساط المختصين في الأدب
الألماني . فكثير من الألمان مازالوا حتى اليوم غير قادرين
على أن يتصوروا أن بوسع القارئ العربي أن يستمتع
بمطالعة رواية لغوته ، أو توماس مان ، أو حتى فرانز
كافكا . أما الأسباب التي دعت الى استبعاد قضايا
استقبال الأدب الألماني في العالم العربي من بحوث علم
الأدب الألماني ، فمن غير الصعب تبينها . ففي طلباتها
تأتي الحواجز اللغوية والحضارية الشاهقة ، التي تباعد
بين ألمانيا والعالم العربي ، وتجعل منها ، في نظر الألمان
على الأقل ، منطقتين نائيتين عن بعضها ، لا جغرافياً
فحسب ، بل حضارياً كذلك . لذا يندر أن يقوم أحد
من دارسي الأدب الألماني من بين الألمان باختيار اللغة
العربية وآدابها (الاستغراب) كفرع دراسي
جاني^(٢) . وبعبارة أوضح ، فإن علم الأدب الألماني ،
بما في ذلك علم الأدب المقارن ، الذي يُمارس ضمنه ،
غير بريء إطلاقاً من نزعة « المركزية الأوروبية » ، التي
كثُر انتقادها في الأعوام الأخيرة^(٣) . فعندما ينظر هذا

الرواية الألمانية الحديثة على ضوء تلقيها في العالم العربي

عبد عبيد

جامعة البعث - حمص - سوريا

(١) راجع : (1971) M. Durzak . يتالج الملف في الجزء الأخير من كتابه هذا استقبال الأدب الألماني المعاصر في البلدان الأجنبية ، ولكن من للملاحظ أنه قد استبعد من بحثه أقطار العالم الثالث بصورة كاملة ، مما يدل على وجود نزعة الى « المركزية الأوروبية » .

(٢) علم من يدرس الأدب الألماني كفرع رئيسي في جامعات ألمانيا الغربية أن يدرس إضافة إليه فرعين جانبيين (في حالة اللاتسيتر) ، كالفلسفة وعلم النفس على سبيل المثال . وضمن هذا الإطار يستطيع طلاب الأدب الألماني أن يدرسوا الأدب العربي ، إن شأوا ، ولكن يندر أن يفعلوا ذلك .

(٣) لعلماء الأدب المقارن في ألمانيا الغربية مجلة اختصاصية فصلية اسمها arcadia Zeitschrift fuer vergleichende Literaturwissenschaft كان يرأس تحريرها الأستاذ هورست روديجر ، المعروف بدفاعه العلمي عن « المركزية الأوروبية » في الدراسات المقارنة . فقد كان هذا الرجل يضع علامة مساوية بين الأدب الأوروبي والأدب

العالمي . راجع هذا الشأن (1981) H. Ruediger .

العلم الى خارج حدوده اللغوية ، فإنه ينظر الى جيرانه الأوروبيين ، وقلّ أن يتعدى ذلك الى جيرانه الآسيويين ، أو « الشرقيين » ، حتى أولئك الذين يقطنون منطقة تطلق عليها تسمية « الشرق الأدنى » .

على أية حال أدّى هذا الوضع الى جعل دراسة استقبال الأدب الألماني في العالم العربي وفقاً على دراسي الأدب الألماني من العرب ، الذين ازداد عددهم بشكل ملحوظ منذ مطلع الستينات . فغالبية الأبحاث التي أجريت حتى الآن في هذا الميدان ترجع الى باحثين عرب ، وهي أبحاث سرعان ما يفرغ المرء من تعدادها ، فإضافة الى عدد قليل من المقالات التي تعالج استقبال غوته وهيمس ، هناك أربع أطروحات دكتوراه ، حول استقبال بريخت ، وأطروحة خامسة حول استقبال غوته^(٤) . ولئن عبّر هذا الوضع عن المستوى المتطور ، الذي بلغه استقبال بريخت وغوته عربياً ، فقد ولّد من جانب آخر انطباعاً بأن العرب لا يستقبلون من الأدب الألماني سوى أعمال هذين الأدبيين ، وهذا انطباع خاطيء بلا ريب . ولكن بغض النظر عن هذه المسألة ، فإن المقالات والأبحاث والأطروحات الألفنة الذكر ، تقدّم للقارئ - إضافة الى ما تقدّمه بخصوص مواضيعها المحددة - معلومات وافرة عن مجمل الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية ، التي تمّ ويتم في ظلها استقبال الأدب الألماني ، بحيث يمكن القول إن أهميتها وقيمتها تتجاوزان مسائل استقبال بريخت وغوته في المنطقة العربية .

لمحة تاريخية

لم يتم أحد قبل الآن بوضع عرض تاريخي وافٍ لاستقبال الأدب الألماني في العالم العربي . صحيح أنّ بعض مقالات الدكتور مصطفى ماهر تحمل إشارات وإشارات يمكن أن يستفيد منها الباحث الذي يؤدّ كتابة عرض كهذا ، ولكن موضوع تلك المقالات هو حركة الترجمة من الألمانية الى العربية بوجه عام ، لا الترجمة الأدبية على وجه الخصوص^(٥) . إلا أن الأهم من تلك المقالات هي البيبليوغرافيا التي وضعها الأستاذ ماهر وزميله فولفغانغ أوله ، وتمكنا فيها من حصر القسم الأعظم من الأعمال الأدبية الألمانية التي تُرجمت الى العربية ، وقسم لا يستهان به من المادة النقدية المتوفرة باللغة العربية حول الأدب الألماني^(٦) .

(٤) راجع مقالات مصطفى ماهر (١٩٨٣ / ١) وكمال وضوان (١٩٨٣) وناجي نجيب (١٩٨٢) ، وقد نشرت بمناسبة الذكرى المئة والحسين لولادة غوته . راجع أيضا : A. G. Mikkawi (1976) ; K. Radwan (1979)

كما لنحيل القارئ الى المحاضرات التي تقدم بها عبد الغفار مكاوي ولؤاد رفقة ومصطفى ماهر وعبد هادي عبد الله برلين للترجمة الأدبية (شباط ١٩٨٥) ، تلك المحاضرات التي صدرت بشكل مختصر في العدد الخاص من مجلة :

(Sprache im Technischen Zeitalter, 96/ 1985, S. 287-299)

أما المحاضرات للدكتوراه التي عنيها فهي : (1976) ; M. Youssef (1970) ; A. Karasholi

(1988) ; N. Haffar (1985) ; A. Hilmi (1979) ; N. el-Dib

وإعجب بالذكر أن هذه الأطروحات قد وُضعت بالألمانية ، ولم يُعرب شيء منها حتى الآن ، بحرم القارئ العربي من الاستفادة منها . ومن المستشرقين الألمان اللغالي الذين تصدوا لمواضيع ترجمة أعمال من الأدب الألماني الى العربية الأستاذ بيتر بختمان ، الذي تقدم حتى الآن بعدة أبحاث ، عالج فيها ترجمتي الأستاذين عبد الغفار مكاوي ولؤاد رفقة على صعيد ترجمة النثر الألماني ، وقصائد هولدرلين بشكل خاص ، الى العربية . راجع بهذا الخصوص : (1985) P. Bachmann

(*) راجع : مصطفى ماهر (١٩٧٤) و(١٩٨٣ / ب) .

(٦) راجع : مصطفى ماهر ولولفغانغ أوله (١٩٧٩) . لقد اقتضى ما يزيد على عقد من الزمان على صدوره هذا المؤلف البيبليوغرافي القيم ، وبات من الضروري أن تصدر في طبعة جديدة ، تمكّن الوضع الراهن لحركة الترجمة والتوسط النقدي بين الأدبين العربي والألماني .

ترجع بدايات استقبال الأدب الألماني في العالم العربي إلى مطلع القرن العشرين . فقد صدرت في عام ١٩٠٠ ترجمة عربية لمسرحية الأديب الكلاسيكي الألماني فريدرش شيللر (Friedrich Schiller) « الحب والدمية » ، التي يمكن اعتبارها أول بداية موفقة لذلك الاستقبال^(٧) . أما المحطة الهامة الثانية فترجع إلى عام ١٩١١ ، عندما قامت الأدبية العربية المعروفة مي زيادة بترجمة قصة « الحب الألماني » لفريدرش ماكس موللر (Friedrich M. Mueller) وهو كاتب ألماني ضعف تأثيره الأدبي في هذه الأثناء ، ولم يعد معروفاً إلا كعالم أدبان وباحث في الشؤون الهندية^(٨) . ورغم أنَّ تلك القصة تعتبر في إطار الأدب الألماني المربيل عملاً غير هامٍّ ، فقد تحولت في إطار الأدب العربي المستقبل الذي هاجرت إليه بواسطة الترجمة ، إلى عمل أدبي هامٍّ ذي عنوان جديد هو : « ابتسامات ودموع » . وترجع هذه الهجرة الناجحة إلى سببين رئيسيين ، يتمثل أولهما في الموهبة الأسلوبية الفذة ، التي كانت المترجمة تتمتع بها . أما السبب الثاني فهو كون « الحب الألماني » قصة رومانسية متأخرة ، تماشت مع التيار الرومانسي ، الذي كان منتشرًا في الأدب العربي ، وكانت مي زيادة نفسها أحد أعلامه البارزين^(٩) .

كانت المحطة الهامة التالية في استقبال الأدب الألماني عربياً هي ترجمة رواية الأديب الكلاسيكي الشهير يوهان فولفغانغ غوته (Johann W. Goethe) ، « آلام فرتر » ، تلك الرواية التي شهدت منذ ١٩١٩ حتى اليوم ، ترجمات عديدة عن لغات وسيطة بالدرجة الأولى ، وقد كان أبرزها تلك الترجمة التي قام بها الكاتب العربي أحمد حسن الزيات عن الفرنسية ، ووضع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين مقدمة لها^(١٠) . تدن تلك الترجمة بنجاحها الكبير إلى القدرات الأسلوبية التي كان المترجم تتمتع بها ، والتي مكنته من الجمع بين طريقتي تلك المعادلة الصعبة التي تحكم الترجمة الأدبية ، ألا وهما : « الأمانة » لمعاني النص الأصلي وقيمته الأسلوبية والجمالية من جهة ، ومراعاة المختصات والتقاليد الأسلوبية للغة الهدف وأدبها من جهة أخرى^(١١) . علق الزيات وطه حسين آمالاً كبيرة على التأثير الذي يمكن أن تمارسه الترجمة العربية لرواية « آلام فرتر » ، وذلك ليس على الصعيد الجمالي فحسب ، بل على الصعيدين الاجتماعي والثقافي أيضاً . وقد عبّر طه حسين في « مقدمته » ، والمترجم في « إهدائه » ، عن ذلك بصراحة ووضوح . فقد كان طه حسين ينسب إلى الترجمة دوراً كبيراً في تجاوز حالة الركود التي كانت تعاني منها الثقافة العربية في عصره ، فوضع الترجمة بذلك في خدمة الثقافة المتلقية^(١٢) . وقد اعتبر المقدم اختيار أحمد حسن الزيات رواية « آلام فرتر » للترجمة اختياراً صائباً ، لأن هذه الرواية « تمثل حياة الأدب الأوروبية في عصر هو أشدّ العصور شبيهاً بهذا العصر الذي نسلكه » ، أي « عصر

(٧) راجع : تعليق زيتونة (١٩٨٨ ، ص ٢٩) . تُرجمت مسرحية شيللر « Kabale und liebe » عن الفرنسية بعنوان « الخداع والحب » ، وتُكث في الفصلية الروسية بيبورت ، وقد أنجز الترجمة لفلورا فيافس وتجبير طراد .

(٨) راجع : مي زيادة (١٩٨٠) . الترجمة الأمانة لمعاني هذه القصة هي : « الحب الألماني - من أوراق غريب » . راجع : F. M. Mueller (1873)

والجدير بالذكر هنا يتعلق بمولر أن أبحاثه في ميدان الأساطير قد لاقت اعترافاً ملحوظاً لدى جيل رواد النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي .

(٩) راجع بهذا الخصوص : J. A. Haywood (1971 , S. 167 ff u. 185 ff)

(١٠) راجع حبه (١٩٨٠) .

(١١) أيضاً يتعلق بطريقة أحمد حسن الزيات وآرائه في الترجمة راجع : عماد عبد الغني حسن (١٩٦٦ ، ص ١٥ - ٢٢) .

(١٢) يمكن للترجمة أن تكون شكلاً من أشكال التطفل الثقافي الأجنبي ، وأن تكسر النجعة الثقافية ، إن لم تسترشد بالهجمات الثقافية والاجتماعية للمجتمع المتلقي . بهذا

المفهوم راجع بحثنا (١٩٨٦ / ١) ، وكذلك بحث : B. Tibi (1981)

الانتقال من طور الى طور^(١٠)، على حدّ تعبيره . وعلى هذا الشكل جعل عميد الأدب العربي نجاح استقبال العمل الأدبي الاجنبي رهناً بتوفر شرط اجتماعي - ثقافي ، هو وجود تشابه بين المرحلة التي يمر بها المجتمع المرسل ، وتلك التي يجتازها المجتمع المتلقي . وهذه موضوعة هامة ، لم تفقد حتى اليوم شيئاً من راهنتها^(١١) .

كانت الثلاثينات من هذا القرن مرحلة ركود شديد بالنسبة لاستقبال الأدب الألماني في العالم العربي ، وهو ركود أعقبه إبّان الأربعينات انتعاش ملحوظ ، يرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى الى جهود مترجمين هما : محمود ابراهيم الدسوقي والدكتور عبد الرحمن بدوي . فقد عرّب الأول بعض أعمال الأديب الألماني هرمان زودرمان (Hermann Sudermann) ، بينما قام الثاني بترجمة ثلاثة من أعمال غوته الرئيسية ، هي : « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » و « القرايات المختارة » و « فلهلم مايستر » ، فدفع بذلك استقبال غوته في العالم العربي خطوات كبيرة الى الامام^(١٢) . وفي الأربعينات أيضاً بدأت موجتا استقبال منحورتا حول الكاتبتين الألمانيين إميل لودفيغ (Emil Ludwig) وستيفان زفايغ (Stefan Zweig) . فقد تنافس عدّة مترجمين على تعريب سبّير أميل لودفيغ الروائية ، التي حظيت برواج كبير ، لا يكفي لتفسيره أن يرجعه المرء الى « الطابع الشرقي الذي تنصف به تلك الأعمال »^(١٣) ، بل لابدّ له من أن يأخذ أيضاً بعين الاعتبار حقيقة أنّ هذا الكاتب ينطلق من تصور شخصاني فردي للتاريخ ، تلعب فيه الشخصية التاريخية دوراً مطلقاً الهامية^(١٤) . وفي هذا يتفق لودفيغ مع ذلك التيار القومي العربي ، الذي يقعد انصاره على شخصية تاريخية قوية كبسمارك أو نابليون الأمل في تحقيق طموحات العرب القومية^(١٥) .

أما قصص وسير ستيفان زفايغ فقد شهدت بدورها استقبالا ترحيبياً نشيطاً في العالم العربي ، ولكن نوعية الترجمة غير مرضية في معظم الحالات . فقد شوّه بعض أعمال زفايغ الى درجة أنه بات يصعب التعرف الى أصول تلك الأعمال . أما الترجمات الجيدة بينها فهي قليلة ، نخص بالذكر منها ترجمة « لاعب الشطرنج » ، التي قام بها عن الفرنسية القاص العربي المعروف يحيى حقي ، وهي ترجمة تذكّرنا جودتها الأسلوبية بترجمة رواية « آلام فرتر » ، التي أنجزها أحمد حسن الزيات^(١٦) . والجدير بالذكر في هذا السياق أن علاقة حقي بزفايغ لم تقتصر على الترجمة والتوسط النقدي ، بل تعدت ذلك الى التلقي الإبداعي الذي يفضي الى تأثر منتج . فقد أشار حقي في المقدمة الهامة التي وضعها لقصة « لاعب الشطرنج » الى أن قصته « البوسطجي » متأثرة بغن زفايغ القصصي^(١٧) . وعلى هذا الصعيد لا يمثل حقي حالة استثنائية نادرة ، فبعضات زفايغ واضحة في أعمال العديد من القاصّين العرب الذين ينتمون الى جيل حقي ، ومن المؤكّد أن ذلك التأثير الخلاق يستحق أن يكون موضوعاً لدراسات مقارنة قادمة .

(١٣) راجع بهذا الخصوص : U. Merkel (1982)

(١٤) لمزيد من المعلومات حول ما عرّب من مؤلفات زودرمان وفهرته راجع الى : مصطفى ماهر ولقرافاغ أورل (١٩٧٩ ، ص ١٥ و ١٧٣ و ٨٤ و ٩٠) .

(١٥) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(١٦) راجع : Lexikon deutschsprachiger Schriftsteller

(١٧) بهذا الخصوص راجع : B. Tibi (1971) . نود أن نذكر في هذا السياق ، بالمدرسة الآلانية ، في الوحدة العربية ، التي يعتبر الفكر القومي العربي ساطع الحضري أبرز أنصارها .

(١٨) انظر : ستيفان زفايغ (١٩٧٣) .

(١٩) المرجع نفسه ، ص ٨ .

رغم ان استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية قد دُشن بتعريب مسرحية من مسرحيات الأديب الكلاسيكي فريدرش شيللر ، فإن استقبال أعمال هذا الأديب ظل حتى أيامنا بعيدا عن الاستمرارية والمنهجية والانتظام^(٢٠) ، وذلك خلافا لتلقي أعمال صديقه أديب ألمانيا الأكبر الثاني يوهان ف . غوته ، الذي اتمم باستمرارية وتنوع جيدين نسبياً . ولا يتجلى ذلك في أن أعمال غوته الرئيسية قد تُرجمت الى العربية فحسب ، بل يشمل كذلك في فترة الأدبيات الثانية باللغة العربية حول حياته وأدبه ، وفي استقبال أعماله بصورة إبداعية منتجة من قبل العديد من الأدباء العرب . فعن الذين تأثروا بغوته : عباس محمود العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد علي باكثير ، ومحمد فريد أبو حديد ، على سبيل المثال لا الحصر^(٢١) .

في الستينات ظهر في ميدان الترجمة الأدبية عدد من دارسي الأدب الألماني ، الذين لا يمتازون من سابقهم من المترجمين بأنهم ينقلون الأعمال الأدبية عن لغة المصدر الأصلية فحسب ، بل أيضاً في أنهم يلمون بصورة جيدة بتاريخ الأدب والثقافة الألمانين ، وهذا شرط هام ينبغي أن يتوفر في المترجم الأديب . وبالفعل فقد كان هذا العامل أثر إيجابي واضح في حركة الترجمة الأدبية من الألمانية الى العربية سواء على صعيد اختيار الأعمال ، أم على صعيد نوعية الترجمة ، وبالنسبة للتوسيط النقدي . كما طرأ تحول ملحوظ على تلك الحركة من حيث العصور والأجناس الأدبية التي تنتمي إليها الأعمال المترجمة ، فقد ازداد الاهتمام العربي بالدراما الألمانية الحديثة ، وهذا ما تجلّى في ترجمة وإعداد الكثير من مسرحيات كُتّاب ألمانى اللغة ، مثل برتولت بريخت (Bertolt Brecht) وفريدرش ديرغاث (Friedrich Duerrenmatt) وبيتر فايس (Peter Weiss) وماكس فريش (Max Frisch) وغيرهم . ومن المؤكد أن لهذا الالتفات الى الدراما الألمانية الحديثة صلة وثيقة بما يجري في المسرح العربي المعاصر من تطورات جعلت الاستفادة من الفنون الدرامية لدى الشعوب الأخرى ضرورة ملحة^(٢٢) . بالمقابل ظل الاهتمام العربي بالشعر الوجداني الألماني محدوداً ، إذا ما قيس بالاهتمام الذي أبداه العرب بالأجناس القصصية والدرامية . ويرجع ذلك الى أسباب عديدة ، منها كون هذا الجنس أعرق الأجناس الأدبية وأكثرها تطوراً في الأدب العربي ، إضافة الى حقيقة أن ترجمة الشعر الألماني الى العربية بصورة تحقق قدرأ مناسباً من التعادل الأسلوبى والجمالى مسألة بالغة الصعوبة ، لا سيما وأن المترجم يواجه نظامين عروضيين مختلفين جذرياً ، ناهيك عن الاختلاف الكبير في التقاليد الأسلوبية والبلاغية^(٢٣) . ولكن هذا يجعلنا ننظر بتقدير أكبر الى الجهود التي بذلها بعض المترجمين العرب على صعيد نقل أعمال شعرية ألمانية الى العربية ، وهي جهود كان لثلاثة شعراء ألمان حصة الأسد فيها ، وهم : فريدرش هولدرلين وراينر ماريا ريلكه وبرتولت بريخت . وقد قيّض للشعر الألماني أن يتوفر له مترجمون يجمعون الى المهارة الترجمة موهبة أدبية عامة وحساسية خاصة للغة الشعر ، وفي مقدمتهم الأساتذة : عبد الغفار مكاوي ، وفؤاد رفقة ، وعادل قرشولي ، وهم شعراء ، إضافة لكونهم مترجمين .

(٢٠) لمزيد من المعلومات حول استقبال شيللر في العالم العربي راجع بحثنا (١٩٨٦ / ب)

(٢١) راجع مصطفي ماهر (١٩٨٣ / ١)

(٢٢) للمزيد حول استقبال الدراما الألمانية الحديثة في العالم العربي راجع مقدمات كتاب الترحيك (١٩٨٣) .

(٢٣) حول مشكلات ترجمة الشعر راجع : J. Levy (1969, S. 127 ff)

وكان للأشعار الألمانية المترجمة الى العربية تأثير إبداعي على عدد من كبار الشعراء العرب ، كعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل وعبد الوهاب البياتي^(٢٤) .

استقبال الرواية الألمانية الحديثة

كان الاهتمام بالأدب القصصي الألماني كبيراً نسبياً في كافة مراحل استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية . وقد تجلت هذه الحقيقة في ترجمة العديد من القصص والأقاصيص والروايات الألمانية الى العربية . ضمن هذا الإطار يتمتع استقبال الرواية الألمانية الحديثة بأهمية خاصة . فهذه الرواية تمتلك بفضل اتساع فضاءاتها الملحمي ، وطابعها المعاصر ، قدرة كبيرة على أن تقدم للقارئ العربي ، إضافة الى التجربة الجمالية ، معلومات وفيرة عن المجتمع المرسل وثقافته^(٢٥) . وما يزيد فرصها الاستقبالية كون تجسيدها الاستقبالي يتم بطريق المطالعة ، لا من خلال العرض المسرحي ، كما هي الحال في الدراما . ومن هنا تنبع ضرورة أن نولي استقبال الرواية الألمانية الحديثة اهتماماً خاصاً ، وأن نعطي أولوية في البحوث التي نجرها حول استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية . ومن الطبيعي ألا يتمكن المرء من إلقاء موضوع كبير كهذا حقه من الدراسة والتحليل في بحث واحد . فهذا الميدان يتسع لعدد كبير من الأبحاث التي يخصص كل منها لدراسة استقبال أعمال روائي ألماني معين ، أو رواية ألمانية معينة . إلا أنه يحسن في البداية أن يدرس استقبال الرواية الألمانية الحديثة بوجه عام ، وذلك عن طريق معالجة استقبال أعمال روائية يمكن اعتبارها حالات نموذجية ذات دلالات كبيرة بالنسبة لمجمل ذلك الاستقبال ، وهذا ينطبق على روايات هاينريش مان وتوماس مان وهرمان هيسه وفرائي كافكا ، وهم الكتاب الذين تمثل أعمالهم المترجمة الى العربية مراكز الثقل في استقبال الرواية الألمانية الحديثة في الوطن العربي . أما جوانب الاستقبال التي يجدر بالباحث أن يتناولها فهي : أ) نوعية الترجمة ، أي جودتها من النواحي الدلالية واللغوية والأسلوبية . ب) التوسيط النقدي ، سواء تمثل في المقدمات التي وضعها المترجمون للروايات التي عرّبوها ، أم في مقالات وأبحاث مستقلة ، ج) الاستقبال الإبداعي المنتج الذي أدى الى تأثر بعض القاصين العرب بروايات ألمانية حديثة .

هاينريش مان : « الملك الأزرق »

حتى عام ١٩٨٧ كانت رواية « الأستاذ نفايات » رواية هاينريش مان (Heinrich Mann) الوحيدة المترجمة الى العربية ، حيث عُرفت تحت عنوان « الملك الأزرق » . ومع ذلك فإن هذه الترجمة تمثل حالة استقبالية هامة تستحق أن يوليها المرء اهتماماً خاصاً ، فهي المرة الأولى التي تحظى فيها الترجمة العربية لرواية ألمانية حديثة بنجاح كبير على صعيد القراء . وقد تُرجم هذا العمل الروائي للمرة الأولى عن الانكليزية عام ١٩٥٩^(٢٦) ، ولكن الترجمة التي قُبِضَ لها

(٢٤) لا يتسع المجال لإيراد تحليل كل الأعمال الشعرية التي ترجمت الى العربية حتى الآن ، ولذا نكتفي بالإشارة الى أبرزها : عبد الغفار مكاوي (١٩٦٨) (١٩٧١) (١٩٧٤)

(١٩٨٧) ، هلدراين (١٩٧٤) ، برنولت بريخت (١٩٦٧) ، جورج ماورد (١٩٨١) ، دانييل . ديلكه (١٩٦٩) ، جورج تراكفل (١٩٨٨) ، يوهان ف . غوته (١٩٨٠) .

(٢٥) راجع بهذا الخصوص : J. Levy (1969, S. 74 ff)

(٢٦) راجع : هاينريش مان (١٩٥٩) .

النجاح الجماهيري هي الترجمة التي قام بها الصحفي اللبناني خيرات البيضاوي ، وقد صدرت بعد عامين من صدور الترجمة الأولى^(٢٧) . فما أسباب وخلفيات ذلك النجاح ؟ من المؤكد أنه لا يرجع إلى جودة الترجمة ، التي تترسم عليها من النواحي النصية واللغوية والدلالية والأسلوبية علامة استفهام كبيرة . وأول ما يلفت الانتباه هو أن المترجم لم يورد العنوان الأصلي للرواية ، ولا إلى لغة المصدر التي عرب عنها هذا الأثر الأدبي . فالملاك الأزرق هو عنوان فلمنة الرواية وترجمتها الانكليزية ، وليس بأية حال عنوانها الأصل^(٢٨) . وعندما يتفحص المرء الترجمة بصورة نقدية فسرعان ما يتبين له أن السيد بيضاوي قد استعان عند النقل بالترجمة الانكليزية والأصل الألماني كليهما ، وإن لم يكن بالدرجة نفسها . فمما يدل ، أو بالأصح يوحي بأن المترجم قد عرف الأصل الألماني بصورة ما ، هو ذلك التفسير الضمني لكلمة (Unrat) ، الذي بدأ به المترجم « مقدمته » ، التي دمجها في الرواية ، وحوّنها إلى جزء منها^(٢٩) . ولكن معرفته بالنص الأصلي كانت على ما يبدو محدودة جداً . فكلّ القرائن تشير إلى أن المترجم قد عرب الرواية عن لغة وسيطة هي الانكليزية ، لا عن لغة المصدر الأصلية . فسرعان ما يتحول اسم الأستاذ « رات » (Raath) إلى « راث » ، ثم إلى « ريث » ، متسجماً مع النطق الانكليزي لهذه الكلمة . إلا أن المترجم لم يكتف بالأخذ بالصيغة الانكليزية لأسبابه العلم ، بل أخذ أيضاً بأغلاط الترجمة الانكليزية ، وهذا أمر مستحيل الوقوع ، لو كان على معرفة كافية بالنص الألماني . ويمكن توضيح ذلك بالمثال التالي ، الذي تتطابق فيه أغلاط المترجمين الانكليزية والعربية تطابقاً تاماً . هذا المثال هو تلك الأبيات التي يوجهها التلميذ (لوهمان) إلى الراقصة (روزا فروهليش) متغزلاً ، وهي في صورتها الأصلية :

Du bist verderbt bis in die Knochen ,
Doch bist du 'ne grobe Kuenstlerin :
Und Kommst du erst mal in die Wochen...

(أنت فاسدة حتى العظم)

ولكنك فنانة كبيرة

وأما إذا جءاك النفاس . . .^(٣٠)

وفي الترجمة الانكليزية ، التي قام بها هوارد فيرتيج :

Her virtue truly is to seek ,

But she's an artist to the bone

And when she comes to me next week . . .^(٣١)

(٢٧) المؤلف نفسه (١٩٦١) .

(٢٨) إن العنوان الأصلي لرواية هاينريش مان هو :

« Professor Unrat oder das Ende eines Tyrannen »

(بالعربية : الأستاذ لظلمات ، أو نهاية طاغية) . راجع : H. Mann (1976a)

(٢٩) انظر : هنريش مان (١٩٦١ ، ص ٩٠)

(٣٠) انظر : H. Mann (1976a, S. 20)

(٣١) انظر : H. Mann (1976b, s. 28)

صدرت الترجمة الانكليزية لرواية هاينريش مان للمرة الأولى عام ١٩٣٢ .

تنطوي هذه الترجمة على خطأ في نقل التعبيرين الاصطلاحيين :

(*Kommst du in die Wochen*) (*verderbt bis in die Knochen*)

وقد أخذ خيرات بيضاوي الخطأين كليهما ، حيث عرب المقطع نفسه على الوجه التالي :

« طهارتها حرية حقاً بالبحث عنها ،

الأنها فتانة في العظم ،

فإذا جاءني في الأسبوع القادم . . . » (٣٢)

ولكن المترجم لم يكتف بنقل أغلاط الترجمة الانكليزية ، بل أضاف إليها أغلاطاً وتجاوزات وتحريفات معنوية لا حصر لها ، فشوه الرواية بشدة . وفوق هذا وذلك فقد صاغ الترجمة بأسلوب مهلهل ركيك ، يخلو من أية مسحة أدبية ، ويغش الحس الأسلوبى لدى القارئ العربي ، ناهيك عن أنه لا يقترب بأية حال من أسلوب هاينريش مان وقيمه الجمالية .

قد يخطر ببال المرء أن يعتبر « الملاك الأزرق » ترجمة « حرة » أو « اقتباسية » ، ولكن مثل هذه النظرة تفتقد الى كل أساس . فالمترجم لم يرم . من وراء التشويه المعنوي والنصّي والأسلوبى الذي مارسه الى إعطاء العمل الأدبى الأجنبي رؤية جديدة . أو الى إزالة طابعه الغرائبي (٣٣) . ولئن كان لهذا التشويه الشديد غرض ، ولم يكن مجرد تعبير عن نقص في الكفاءة الترجمة ، فإن ذلك الغرض لا يمكن أن يكون إلا « تنقيح » الرواية المترجمة من خلال مبالغات ترمي الى تكييف العمل الأدبى مع أذواق متلقي الأدب الرخيص ، وترويج تجارياً في نهاية الأمر ، وهذا ماحدث بالفعل . لكن هذه النزعة التنقيحية لا تكفي بمفردها لتفسير النجاح القرائي الكبير الذي حظيت به ترجمة خيرات البيضاوي لرواية « الملاك الأزرق » ، ولابد لنا عندما نحاول أن نفسر ذلك النجاح من أن نأخذ أمرين آخرين بعين الاعتبار : أولهما الغلاف الخارجي للكتاب ، وقد صمم بصورة مثيرة وفاضحة ، لتخاطب المشاعر الجنسية المكبوتة لدى القراء العرب ، الذين كثيراً ما يبحثون في قصص الحب الأجنبية عن متنفس للكبت الذي يعانون منه (٣٤) . والأمر الثاني هو النجاح الكبير الذي لقيه فيلم « الملاك الأزرق » أثناء عرضه في دور السينما العربية . وقد حاول المترجم بشكل صريح أن يستفيد من ذلك النجاح لترجيح الرواية المترجمة ، التي اختار لها عنوان الفيلم نفسه ، وذلك بأن أشار الى الفيلم المذكور في صفحة الغلاف الأخير . إضافة الى العاملين الأتني الذكر هناك ، في رأينا ، عامل مضموني - ثيماتي لعب دوراً كبيراً في ترويج رواية « الملاك الأزرق » . ويشتمل هذا العامل في تجارب القراء العرب مع قصة « هذا الأستاذ المزمّت ، الذي يقع في حب غانية » ، لأنها قصة يسهل عليهم استيعابها وتعميمها على واقعهم المحلي . فالاشكالية الاجتماعية والسيكولوجية والأخلاقية ، التي يطرحها هاينريش مان في روايته ، قائمة أيضاً في الواقع الاجتماعي والحضاري العربي المعاصر ، وذلك رغم الاختلافات الاجتماعية والحضارية والتاريخية الكبيرة ، التي تباعد بين المجتمعين العربي والألماني .

(٣٢) انظر : هنريش مان (١٩٦١ ، ص ٢٧) .

(٣٣) بالنسبة لمسوغات الترجمة الحرة أو الاقتباسية راجع : J. Levy (1969, S. 86f).

(٣٤) الأدبيات حول مسألة الكبت الجنسي في المجتمع العربي كثيرة ، ونكتفي هنا بالإشارة الى كتابات بوعلي ياسين وفؤاد السعدوي .

لم يُجَلِّ النجاح الجماهيري الكبير الذي لقيته الترجمة العربية لرواية « الملاك الأزرق » دون أن يتوقف استقبال هاينريش مان في العالم العربي بصورة شبه تامة لأكثر من ربع قرن ، لم تُعَرَّب خلاله أية رواية أخرى من روايات هذا الأديب ، ولم تُسَجَّل أية محاولة لتوسيط أعماله نقدياً . أما سبب ذلك الركود فهو ، في رأينا ، أن « نقد طريقة الحياة الرأسمالية البورجوازية » الذي يمثل سمة أساسية من سمات أدب هاينريش مان ، هو أمر غير مطلوب ولا مرغوب في مجتمع كالمجتمع العربي ، الذي لم يشهد ظهور طبقة رأسمالية بورجوازية متطورة تشبه البورجوازية الألمانية التي قام هذا الأديب بنقدها في أعماله الروائية والقصصية . لذا يمكننا القول إنَّ الشرط الاجتماعي - الحضاري لاستقبال أعمال هاينريش مان في العالم العربي بصورة تتناسب ومكانته في الأدب العالمي لم يكن متوفراً . لكن هذا الوضع أخذ بالتغير ، وذلك في سياق التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها أكثر من قطر عربي في الأعوام الأخيرة ، تخفضت عن بروز « البورجوازية الطفيلية » كطبقة مسيطرة جديدة . وقد تمت في عام ١٩٨٧ خطوة هامة على صعيد استئناف تلقي أعمال هاينريش مان عربياً ، حيث صدرت ترجمة عربية لرواية « الخنوع » ، التي تُعتبر من أهم روايات هذا الأديب وأشهرها^(٣٥).

توماس مان : « آل بودنبروك »

لم يُعَرَّب من إنتاج توماس مان (Thomas Mann) الروائي الضخم سوى « آل بودنبروك » التي نقلها المترجم محمود إبراهيم الدسوقي عن الألمانية ، وصدرت ترجمتها في مطلع الستينات من هذا القرن^(٣٦) . تُعتبر هذه الترجمة إنجازاً بارزاً في تاريخ استقبال الأدب الألماني في الوطن العربي ، وذلك ليس بسبب ضخامة العمل الأدبي المترجم فحسب ، بل وبسبب ضخامة المشكلات الترجمة التي يطررها . بهذا الخصوص يمكن للمرء أن يميز بين ثلاث معضلات رئيسية ، أولها المعضلة النحوية المتولدة عن طول الجمل وتركيبها النحوي المعقد ، الذي يتسبب عند النقل الى العربية في مصاعب أسلوبية كبيرة ، لا يتمكن إلا المترجم القدير من إيجاد حلول ترجمة مناسبة لها . أما المشكلة الثانية فتتعلق بالجانب الدلالي - المعجمي ، وترجع بصورة رئيسية الى الوصف التفصيلي الدقيق والمسهل للبيئة والأشخاص ، الذي يلجأ إليه الكاتب . وأخيراً وليس آخراً هناك مشكلة تنوع المستويات اللغوية ، والمزج الأسلوبية ، اللذين يتسم بها الحوار الروائي ، كمظهر من مظاهر أسلوب توماس مان الواقعي ، الذي يميل الى الطبعية .

إذا فصحنا الترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » بصورة نقدية نجد : أنَّ المترجم قد بذل قصارى جهده في سبيل التوصل الى حلول ترجمة مناسبة للمشكلات اللفظية المذكورة ، وأنه قد نجح الى حد بعيد في مساعده هذا ، ولا سيما بالنسبة لمشكلتي بناء الجمل والمعجم . فقد حاكى عمود إبراهيم الدسوقي جمل توماس مان الطويلة المعقدة ، بقدر ما هو ممكن لغوياً ، ومقبول أسلوبياً ، كما أظهر قدرة مذهشة على إيجاد معادلات باللغة العربية لتلك الوحدات المعجمية التي لا حصر لها ، التي تحفل بها الرواية . لكن ما لم ينجح المترجم فيه بالدرجة نفسها هو نقل الحوار الروائي ، الذي تنجسد فيه

(٣٥) راجع : هاينريش مان (١٩٨٧) ، وراجع نقلاً لهذه الترجمة (١٨ / آب / ١٩٨٨) . في هذا السياق نشير الى الطروحة ماجستير وضعها السيدة فاطمة مسعود بالألمانية حول « بناء القصة القصيرة عند هاينريش مان » وقدمتها الى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٧٧ ، وهذا مؤثر آخر لزيادة الاهتمام العربي بأدب هاينريش مان .
(٣٦) راجع : توماس مان (١٩٦١) .

لغة توماس مان الطبيعية (الناتورالية) في أوضح صورها . فقد لجأ المترجم الى نقل الأحداث والحوارات التي تجري بين شخصيات الرواية الى مستوى واحد من العربية الفصحى ، وصاغ حتى تلك المواضع التي تتكلم فيها الشخصيات لغة أجنبية غير الألمانية ، بأسلوب موحد رفيع المستوى ، مما أفقدها الخصوصية اللغوية ، التي تتميز من خلالها كل شخصية عن الأخرى ، نتيجة لوضعها الاجتماعي والثقافي . وقد أدت طريقة الترجمة هذه بالنتيجة الى طمس الفروق الأسلوبية ، وإلى افتقار جمالي - أسلوبي ، يمكن اعتباره نقطة الضعف الأساسية في هذه الترجمة ، التي تعتبر برغم ذلك واحدة من أهم الترجمات الأدبية التي نمت عن الألمانية حتى اليوم .

لئن كانت جودة الترجمة عاملاً يساعد على جعل العمل الأدبي الأجنبي يحظى بتأثير جماهيري واسع ، فإنها في الوقت نفسه لا تقدم ضماناً لأن يتم ذلك التأثير . فالترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » لم تلقَ ، بالرغم من جودتها ، نجاحاً كبيراً على صعيد القراء ، ولم تنحول في العالم العربي الى « كتاب منزلي » للبورجوازية ، كما حدث في عديد من الأقطار الأوروبية^(٣٧) ولعل سبب ذلك هو أن المجتمع العربي لم يعرف بورجوازية شبيهة بتلك البورجوازيات الأوروبية التي وجدت في « آل بودنبروك » قصتها النفسية . فالشرائح الاجتماعية ، التي يطلق عليها البعض تجاوزاً تسمية « بورجوازية عربية » ، هي في حقيقة الأمر طبقة متخلفة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، وليس هناك كبير شبه بينها وبين البورجوازية « الهانزاتية » ، التي صوّرها توماس مان في روايته « آل بودنبروك »^(٣٨) . ولهذا يمكن القول إن إشكالية « الانحلال » والانقطاع الى الفكر ، التي تمثل الموضوع الأساسي لهذه الرواية ، هي إشكالية سيكولوجية وثقافية غريبة على « البورجوازية العربية » ، ولا يمكن بالتالي لهذه البورجوازية أن ترى في رواية « آل بودنبروك » مرآة لمشكلاتها . وعلى أية حال فإن الترجمة العربية لهذه الرواية لم تشهد حتى الآن سوى طبعة واحدة ، نفذت منذ وقت طويل ، ولا يعرف اليوم إلا قليل من الناس أن هناك ترجمة كهذه .

من جهة أخرى شهدت رواية « آل بودنبروك » استقبلاً إبداعياً على يدي الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، حيث مثلت إحدى القدوات الأدبية الأجنبية لثلاثيته الشهيرة . وقد كان السبب الرئيسي في اهتمام محفوظ بهذه الرواية هو أنها ، من ناحية الجنس الأدبي ، « رواية أجيال » ، وهذا نمط روائي لم يتطور بعد في الأدب العربي الحديث^(٣٩) . وقد انصب تأثر كاتبنا برواية « آل بودنبروك » على الجوانب الفنية الخاصة بهذا النوع من الروايات ، ونتيجة لذلك التأثير الإبداعي تولدت أوجه تشابه مضمونية وشكلية - فنية بين الثلاثية وقصودها الأجنبية ، هي في رأي الناقد ناجي نجيب : (تصوير مجتمع يعيش مرحلة انحلال وانتقال . ب) ظهور ولئمط الإنساني المنقطع الى الفكر . ت) ثنائية الحياة والفكر^(٤٠) . أما أوجه التشابه الفني بين الروائيتين فتتعلق ، كما يرى الناقد نفسه ، بتكوين الشخصيات ، والبناء الروائي ، إضافة الى الشبه الأسلوبي ، الذي يتجلى في استخدام الأدبيين أسلوب « التوازي والمقابلة والمغايرة » مع

(٣٧) راجع بهذا الخصوص : W. Welzig (1970, S. 181)

(٣٨) فيما يتعلق بالغلاف النظري حول طبيعة البورجوازية العربية راجع : مهدي عامل (١٩٨٦) ، وفيصل دراج (١٩٨١) .

(٣٩) راجع : ناجي نجيب (١٩٧٥) ، ص ٦٣ ، جيل اللطم (١٩٨٠) .

(٤٠) راجع ناجي نجيب (١٩٧٥) / ص ٦١ .

الالتزام في نفس الآن بالخطّ الطولي والتتابع الزمني للأحداث ، هو شبه الملع إليه محفوظ نفسه ، حين قال إنه وجد لدى توماس مان « طريقة السرد الموضوعي » التي ينشدها^(٤١).

يُرجع ناجي نجيب التشابه الملاحظ بين روايتي « آل بودنبروك » و « الثلاثية » الى اتفاق في مضمون الخبرات الشخصية والتاريخية لدى الأدبيين ، وهذا تفسير معقول ، ولكن له إشكاليته . فالاتفاق في الخبرات الشخصية بين هذين الأدبيين فرضية تحتاج الى تدعيم بواسطة دراسة سيرية مقارنة . أما بالنسبة لمضمون الخبرات التاريخية ، فإن أوجه الاختلاف بين الرجلين تبدو لنا أكبر من أوجه الاتفاق . فبينما يطغى على الأفق الاجتماعي عند توماس مان « مزاج انحلائي » ، يعود الى تأثره الشديد بفلسفة المجتمع والتاريخ عند شوبنهاور ، نجد أن أفق نجيب محفوظ مطبوع بأفكار الاشتراكي العربي المبكر سلامة موسى^(٤٢) . وخلافاً لناجي نجيب فإننا لا نرى أن الأفق الاجتماعي في « الثلاثية » يتمثل في انهار شريحة التجار التقليدية القاهرية ، فهذه الطبقة الطفيلية ، التي تمعد تكوين نفسها بأشكال جديدة ، بعيدة كل البعد عن الانهيار . ومع أن أديبنا يصور في « الثلاثية » وأعمال رواية أخرى ما يحدث داخل الطبقة الوسطى من صراع أجيال وانهيارات ، فإن الأفق الاجتماعي في هذه الرواية يتحدّد إيجابياً بصعود الحركة الوطنية الديمقراطية ، التي يشكل المتعلمون والمثقفون قاعدتها الاجتماعية الأملّة بالانحسار والتناهي .

شهد الاستقبال الترخي لأعمال توماس مان ركوداً شديداً خلال العقدين الأخيرين ، فمعدّ نشر الترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » لم يُنقل إلى العربية أي عمل رواي آخر من أعمال هذا الأديب . لكنّ الوطن العربي شهد بالمقابل صدور دراسات كثيرة نسبياً حول توماس مان وأدبه ، ولعل أبرزها كتاب مونوغرافي للفيلسوف الماركسي الشهير جورج لوكاتش ، الذي يتمتع بنفوذ فكري واسع في أوساط المثقفين العرب^(٤٣) . وإذا صحّ أن تعريب هذا الكتاب قد مثل مكسباً هاماً لاستقبال توماس مان في العالم العربي ، فمن الضروري ألا يغيب عن الأذهان أنّ الكتاب المذكور ينطوي على رؤية إشكالية لتطور توماس مان الفكري والفني . فلوكاتش من أشدّ المتحمسين لهذا الأديب الألماني ، حيث يرى في أدبه « تياراً من التقدمية » ، وأنه « لا يذهب إلى حدّ الأخذ بالديمقراطية فقط ، بل إلى حدّ الاعتراف بالاشتراكية حلاً لمشاكل البشرية »^(٤٤) . وقد أثار الرأي جدلاً شديداً حتى في الأوساط الماركسية نفسها^(٤٥) . وكان من أبرز الذين رفضوه المنظر الماركسي البارز إسحاق دويتشر ، الذي يعتبر توماس مان أديباً بورجوازيّاً محافظاً ، لم يقترب من المواقع الفكرية الاشتراكية إلّا تحت وطأة صعود النازية . ولهذا فهو يرى في تقييم لوكاتش لتطور توماس مان الفني والفكري تعبيراً عن « جاليات ستالينية »^(٤٦) . وفي كل الأحوال فإن مقالة دويتشر ، التي ينتقد فيها آراء لوكاتش المتعلقة بتوماس مان ، قد ترجمت إلى العربية ، وأصبح بوسع القاريء العربي أن يحكم بنفسه على موقف هذين

(٤١) المؤلف نفسه (١٩٧٥) ، ص ٦٣ .

(٤٢) حول الأهمية التاريخية الفكرية لسلامة موسى راجع : B. Tibi (1972)

(٤٣) راجع : جورج لوكاتش (١٩٧٧) .

(٤٤) راجع : G. Lukacs (1975, S. 49)

(٤٥) راجع هذا الخصوص : H.—J. Schmitt (1978)

(٤٦) راجع : I. Deutscher (1966, S. 2262 f)

المنظرين . ولكن كيف يستطيع ذلك ، وروايات توماس مان الرئيسية ، التي يستند إليها لوكاتش ودونشر ، وفي مقدمتها رواية « الدكتور فاوستوس » ، لم تُترجم بعد إلى العربية ؟^(٤٧) .

هرمان هيسه : « قصة شاب »

ظَلَّ الروائي والشاعر الألماني هرمان هيسه (Hermann Hesse) مجهولاً في الرأي العام العربي حتى عام ١٩٦٥ ، حين صدر مقال للدكتور مصطفى ماهر ، قدّم فيه هذا الأديب للقراء العرب ، ولكن ما هي الصورة التي قدّمه فيها ؟ لقد قدّمه في صورة ثائر « يحمل منذ ولادته بذور التمرد » . ولم يشأ الناقد أن يعطي تلك الثورية مضموناً سياسياً أو اجتماعياً مجدداً ، فوصف هيسه بأنه ثائر كوني « على الوحدة والانعزالية »^(٤٨) . ولكن إذا رجعنا إلى سيرة هذا الأديب ، فسرعان ما يتبين لنا أنَّ المقصود بتلك الثورة ليس إلا تلك الأزمات النفسية الحادة التي مرّ بها هيسه خلال طفولته ومراهقته ، فاصطدم بالسلطة الأبوية والمدرسة ، مما حمله على إنهاء حياته الدراسية في سن مبكرة . فهل يسوغ هذا أن يقدّم هيسه للقارئ العربي في صورة « ثوري » ، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من إثارة لسوء الفهم ؟ أم جاء تقديم هيسه على هذا الشكل تحت تأثير المناخ الفكري والسياسي « الثوري » ، الذي ساد في مصر والعالم العربي إبان الستينيات ؟ ومن الملاحظ أيضاً أنَّ الناقد قد مارس في مقاله هذا تمجيداً شديداً لهيسه وأعماله الأدبية ، فوصف تلك الأعمال بالخالدة والعظيمة والرائعة ، وذلك في وقت لم يكن فيه يوسع القارئ العربي أن يتأكد بنفسه من صحة تلك الأوصاف ، لأن شيئاً من أعمال هيسه الممّجدة لم يُترجم بعد إلى العربية ، مما جعل ذلك التمجيد مجانباً وغير مقنع . ولكن بالمقابل فقد تحجب الناقد أن ينطرق إلى تلك المسائل في أدب هيسه التي يمكن أن تثير اهتمام المتلقين العرب ، وفي مقدمتها مسألة التشابه الواضح بين عالم هيسه الفكري والروحي ، وبين بعض جوانب التراث الفكري والروحي الاسلامي ، كالصوفية والحكمة ، تلك الجوانب التي استأثرت باهتمام أديب عربي كمدوح عدوان ، ودفعته إلى تعريب عملين قصصيين من أعمال هيسه عن لغة وسيطة^(٤٩) .

يبدو أن الهدف من مقال ماهر الأنف الذكر قد كان تهية الرأي العام العربي لاستقبال ترجمات عربية لأعمال هيسه الأدبية . فبعد ثلاث سنوات من صدور ذلك المقال صدرت ترجمة عربية لرواية هيسه المبكرة « بيتر كامتستند » ، وقد تولى الدكتور ماهر نفسه إنجاز هذه الترجمة وتزويدها بمقدمة ، حافظ فيها على طريقة التوسيط النقدي التي اتبعها في مقاله الأنف الذكر^(٥٠) . فقد رسم مرة أخرى صورة ثورية لهيسه ، ومجده بشدة ، وأعفى نفسه من الخوض في مسألة الرهانية الفكرية والاجتماعية ، التي يتمتع بها أدب هيسه بالنسبة للمجتمع المتلقي .

(٤٧) أن أتمر ما تُرجم إلى العربية من أعمال توماس مان هي دراسته « غوته ونرليستوي » (١٩٨٨) ، أما روايات « الجبل السحري » و « الدكتور فاوستوس » و « يوسف وأخوته » ، فليس هناك ما يشير إلى اقتراب مرود تعريبها .

(٤٨) راجع : مصطفى ماهر (١٩٦٥ ، ص ٦٠) .

(٤٩) راجع : هرمان هيسه (١٩٨٢) ، (١٩٨٦) .

(٥٠) المؤلف نفسه (١٩٦٨) .

قدّم الدكتور ماهر ترجمته رواية «بيتر كامتسبند» قائلاً إنها «الترجمة الدقيقة والكاملة لرواية الأديب الألماني الكبير هرمان هيسه». وبالفعل فإن هذه الترجمة دقيقة كاملة على صعيد النص. فهي لا تنطوي على أي حذف أو إضافة، وهذا أمر إيجابي، إذا تذكرنا ما فعله المترجم خيرات يبضاوي برواية «الملك الأزرق» على سبيل المثال. لكن «الدقة» التي ينسبها الدكتور ماهر إلى ترجمته مسألة إشكالية جداً في الترجمة الأدبية، وهي تحتاج بالتالي إلى مزيد من التحديد والتوضيح. فترجمة النصوص الأدبية ذات الطابع الجمالي لا تتطلب الدقة بمعناها الدلالي - المضموني فحسب، بل تتطلب أيضاً التعادل أو التقارب الأسلوبي - الجمالي، الذي لا يتم إلا بالانتقال من العملية اللغوية - السسانية إلى العملية الأدبية^(٥١). ولكن من الملاحظ أن المترجم قد اكتفى في نقله لرواية «قصة شاب» بالعملية الأولى، ولم ينتقل إلى العملية الثانية، مما أفقد النص المترجم طابعه الأدبي الجمالي. فالترجمة تبدو، لقلة الصقل الأسلوبي، جافة وباهتة، لا تترك في نفس المتلقي ذلك التأثير الجمالي الذي تمارسه النصوص الأدبية حقاً. وحتى الدقة بالمعنى الدلالي - المضموني للكلمة، فإنها غير متحققة بالصورة التي وعد بها المترجم، ويبدأ النص في الدقة بترجمة عنوان الرواية، الذي تحول دون مسوّغ وجيه، من «بيتر كامتسبند» إلى «قصة شاب»^(٥٢). ويمكننا توضيح هذه المسألة - أي قلة الدقة المعنوية - بواسطة المثال التالي، الذي أخذناه من مطلع الرواية المترجمة. فقد جاء في النص الأصلي:

Am Anfang war der Mythos. Wie der grosse Gott in den Seelen der Inder, Griechen und Germanen dichtete, so dichtet er in jedes Kindes Seele wieder.

(في البدء كانت الأسطورة. وكما نظم الإله العظيم الشعر في نفوس الهنود والاعريقين والجرمانيين، فإنه يعيد نظمه يوماً في نفس كل طفل).

وفي ترجمة الدكتور ماهر:

«في البدء كانت الأساطير. بثّ الإله جلت قدرته - كما بثّ في أرواح الهنود والاعريق والجرمان - مادة الأساطير، وجعلها تبحث عن عبارة تكتسبها، كذلك هو في كل يوم يتناول أرواح الأطفال، كل الأطفال، فيبشها الشيء نفسه».

إن أول ما يلفت النظر في هذه الترجمة هو قيام المترجم بتحويل كلمة «الأسطورة» من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع، وذلك دون أي مبرر. وليس هذا شكلاً من أشكال عدم الدقة؟ أما «الإله العظيم» فقد تحول إلى «الله جلت قدرته»، أي إلى إله المسلمين، مع أنه في سياق النص إلى الهنود والاعريق والجرمانيين. وليس هذا تحريفاً دلالياً؟ و«الله جلت قدرته» لا ينظم الشعر في النفوس، بل «يبش مادة الأساطير ويجعلها تبحث عن مادة تكتسبها»! وهو لا ينظم الشعر في نفوس الأطفال، بل «يتناول أرواحهم فيبشها الشيء نفسه»! ما معنى هذا؟ على هذا الشكل لم

(٥١) بالنسبة للدقة والتعادل الأسلوبي - الجمالي في الترجمة الأدبية راجع: (J. Levy (1969, S. 68); K. Reiss (1971, S. 35-43).

(٥٢) يكون تغير عنوان العمل الأدبي مسوّغاً إذا عُدّ للترجم أن يبدو العنوان الأصلي غريباً يفر الغراء، ويعرقل استقبال الترجمة. إلا أن هناك أمثالاً أدبية أجنبية كثيرة استقبلت بشكل جيد، رغم مخالفتها على عناوينها الأصلية، ولذا ذكرنا: «أناكارنيا» و«موني ديك» و«الأخوة كارامازوف» وغيرها. فلذا قرر المترجم أن يغير عنوان العمل الأدبي لهذا السبب أو ذاك، فلا بد له من أن يجد البديل المناسب. ومن جهتنا نرى أن «قصة شاب» عنوان باعث لا يشكل بديلاً مناسباً لـ «بيتر كامتسبند».

يتغير معنى النص فقط ، بل فقد النص تماسكه الدلالي ، وأصبح بلا معنى . فإين هي « الدقة » في كل هذا ؟ والآن لتتابع مثالا لعل الصورة تتضح بشكل أفضل ! يقول هيسه في النص الأصلي :

Und ich sah die blaugruene glatte Seeberite, mit Kleinen Lichtern durchwirkt, in der Sonne liegen, und im dichten kranz um sie die jaehen Berge...und an ihrem Fuss die schraegen, lichten Matten , mit Obstbaeu-men, Huetten, und grauen Alpkuehen besetzt....^(٥٣)

(ورأيت سطح البحيرة الأملس الأخضر الزرقه مستلقياً في الشمس ، توشيه أضواء صغيرة ، وتحيط به جبال شديدة الانحدار في إكليل كثيف . . . وعند سفوحها المراعي المائلة الوضاعة ، وقد غطتها أشجار الفاكهة والأكواخ وأبقار الألب الرمادية) .

وفي ترجمة ماهر :

« ولكنني كنت أرى صفحة البحيرة الملساء ، الزرقاء في خضرة ، وكنت أرى الجبال الوعرة التي تتخللها أنوار صغيرة تحيط بالبحيرة كالتاج الكثيف » وأرى عند أسفلها بسطاً وضاحاً مائلة تقوم فيها أشجار الفاكهة والأكواخ ويقر جبال الألب الرمادي »^(٥٤) .

إن أول ما نلاحظه هو أن في هذه الترجمة خطاين دلاليين معجميين ، يتعلق أولهما بكلمة (Kranz) والثاني بكلمة (Matten) . فمعادل الكلمة الأولى بالعربية هو « إكليل » ، ومعادل الكلمة الثانية هو « مراعي » ، ولكن لسبب غير معروف تحول « الاكليل » على يد مترجما إلى « تاج » ، وتحولت « المروج » إلى « بسط » . والغريب في الأمر أن المترجم قد عرّب كلمة (Matten) هذه إلى « مروج » بعد سطور قليلة من ترجمتها إلى « بسط » ! أولا يدل هذا على أنه لم يكلف نفسه عناء توحيد ترجمة المفردة الواحدة؟^(٥٥) . ومن الملاحظ كذلك أن الأنوار الصغيرة أصبحت في الترجمة العربية « تتخلل الجبال الوعرة » بدلاً من أن تتخلل « صفحة البحيرة » . أما أبقار جبال الألب « فتقوم » عند أسفل الجبال ، وكأنها مبان أو أشجار . وهذه أخطاء دلالية مردها عدم استيعاب النص الأصلي بصورة دقيقة ، والتسرع في ترجمته كينها اتفق . وطبيعي أن نشوه أخطاء دلالية كهذه معنى النص ، إن لم تفقده معناه وتجعله سخيفاً . ولكن هذه الأخطاء ، على فداحتها ، ليست العضلة الأساسية لترجمة « قصة شاب » ، فالمعضلة الحقيقية تكمن في الجانب الأسلوبي ، وبالتحديد في ذلك الإفقار الأسلوبي والجمالي ، الذي جعل من هذه الترجمة نصاً غير أدبي ، وبالتالي غير قابل للتذوق جمالياً . وتلك أكبر كارثة يمكن أن تلحق بعمل أدبي ، عندما يهاجر من أدب قومي إلى أدب قومي آخر عبر الترجمة . فحياة العمل الأدبي تكون في هذه الحالة بيد المترجم ، الذي يستطيع أن يبعث في ذلك العمل حياة جديدة ، أو أن يقتله .

(٥٣) انظر : (H. Hesse (1970, S. 343)

(٥٤) انظر : هيرمان هيسه (١٩٦٨ ، ص ١٤) .

(٥٥) ينقص عن المعنى المترجم لكلمة (Matte) راجع : (G. Wahrig (1980)

في عام ١٩٦٩ صدرت ترجمة عربية لرواية تُعتبر أهم روايات هيس من الناحيتين الفكرية والجمالية ، ألا وهي « لعبة الكريات الزجاجية » ، وقد تولى نقلها عن الألمانية ، ووضع مقدمة لها ، الدكتور مصطفى ماهر أيضاً^(٥٦) . ومن الملاحظ أن المترجم قد لجأ في هذه المرة إلى تقديم الأديب الألماني في صورة تختلف إلى حد ما عن الصورة التي قدمه فيها سابقاً . فقد استبدل الملامح الثورية بلامح يمكن وصفها بأنها « معتدلة » ، فلم يصف هيس بأنه ثائر بالفطرة ، بل جعل منه رجلاً يعارض الحرب ، ويناهض الفاشية ، ويمنح الملجأ للذين يلاحقهم النظام النازي ويطاردهم^(٥٧) . باستثناء هذا التعديل ظل الدكتور ماهر وفياً لطريقته المعهودة في التوسيط النقدي ، بل صعد في هذه المرة تمجيد هيس ورواية « لعبة الكريات الزجاجية » ، فوصفها بأنها « أعظم روايات هرمان هيس وأقروها ، وأعظم مؤلفات زمانها »^(٥٨) . ولكن في غمرة هذا التمجيد فات المترجم أن يتطرق إلى المسائل التي تهم المثقفي العربي ، وعلى رأسها مسألة راهنية رواية « لعبة الكريات الزجاجية » بالنسبة للثقافة العربية المتلقية .

من ناحية نوعية الترجمة لا تختلف « لعبة الكريات الزجاجية » عن سابقتها « قصة شاب » . فطريقة الترجمة واحدة في الحالتين : « دقة » بمعنى التقيّد الظاهري بالنص الأصل ، ولكنها دقة لم تحل دون وقوع كثير من الأخطاء الدلالية . أما على الصعيد الأسلوبي - الجمالي ، وهنا بيت القصيد ، فإن هذه الترجمة بعيدة كسابقتها كل البعد عن التعادل الأسلوبي والجمالي مع النص الأصلي ، بحيث بات من العبث تماماً أن يفكر المرء في تقييمها وفقاً لهذا المعيار الذي تقم به الترجمات الأدبية . وقد ظهرت عواقب تردي المستوى الأسلوبي - الجمالي وسوء التوسيط النقدي في هذه الأثناء بكل وضوح ، وقد تمثلت في ضعف الاستقبال القرائي ، ولا مبالاة النقد الأدبي ، وغياب التلقي الإبداعي . وهذا مصير مؤسف جداً بالنسبة لرواية تُعتبر جمالياً وفكرياً من عيون الأدب العالمي .

ومن الذين ساهموا في استقبال روايات هرمان هيس في الوطن العربي المترجم نابغة الهاشمي ، الذي عرّب رواية « ذئب البوادي » عن الألمانية^(٥٩) . خلافاً لترجمتي « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » ، فإن هذه الترجمة لا تدعي الدقة والكمال ، كما لم يمارس المترجم دور الوسيط النقدي ، بل اكتفى بتعريب الرواية دون أن يضع لها مقدمة أو خاتمة . أما نوعية الترجمة فهي تفتقد الدقة النصية والمعنوية إلى حد ما ، ولكنها تنسم على الصعيد الأسلوبي بشيء من السلامة ، مما ساعد في جعل المثقفين العرب يُقبلون عليها . فقد شهدت الترجمة العربية لرواية « ذئب البوادي » ثلاث طبعات خلال عقد واحد ، بينما لم تظفر روايتا « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » بأكثر من طبعة واحدة^(٦٠) . ولكن مع أن المرء يستطيع أن يعتبر ترجمة « ذئب البوادي » مقبولة بوجه عام ، فليس بوسعنا أن نتجاهل أن في هذه الترجمة كثيراً من الأخطاء الدلالية - المعجمية ، وأن طريقة الترجمة التي اتبعها نابغة الهاشمي تنزع إلى حذف التفاصيل والجزئيات ، وبالتالي إلى اختصار النص المترجم . نتيجة لذلك فقد العمل الأدبي جانباً من مكوناته

(٥٦) راجع : هرمان هيس (١٩٦٩) .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ١٧ وما يليها .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٥٩) راجع : هرمان هيس (١٩٧٣) .

(٦٠) صدرت الطبعة الثانية من رواية « ذئب البوادي » عام ١٩٧٩ ، والطبعة الثالثة عام ١٩٨٦ .

الدلالية ، وخصائصه الأسلوبية . لذا فإن الفرق بين « ذئب البوادي » و « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » من ناحية نوعية الترجمة لا يتعدى كونه فرقاً نسبياً ليس أكثر ، ولا يمكن القول إن التعادل المعنوي والأسلوبي والجمالي متحقق في أي من هذه الترجمات الثلاث ، وطبيعي ألا يكون لترجمات هذا شائها تأثير جمالي يقترب من تأثير الأعمال الأصلية .

رغم النكسة الكبيرة التي لحقت باستقبال أدب هيسه على صعيد الترجمة ، فإن هناك دلائل تشير الى ازدياد الاهتمام العربي بذلك الأدب منذ مطلع الثمانينات . فمن تلك المؤشرات هذا الاستقبال القرائي الواسع نسبياً الذي حظيت به رواية « ذئب البوادي » ، وكذلك قيام بعض المترجمين بتعريب عدد من أعمال هيسه القصصية عن لغات وسيطة . فقد ترجم الكاتب السوري ممدوح عدوان قصتي « رحلة الشرق » و « سد هارتا » عن الانكليزية ، ونقل عبد الله صبحي مجموعة قصصية عنوانها « أنباء غريبة من كوكب آخر » ، وعُرب الأدب المغربي محمد زفزاف قصة « المنشرد »^(٦١) . وما تلاحق هذه الترجمات إلا دليل على أن أدب هيسه قد أخذ يحظى براهنية متصاعدة في الوطن العربي ، وأن مزيداً من المثقفين العرب أصبحوا يجهدون في ذلك الأدب تعبيراً جمالياً عن مشكلاتهم الوجودية .

فرانتس كافكا : « القضية »

لم يثر أديب ألماني في العالم العربي جدالاً كالجدال الذي أثاره فرانتس كافكا ، ولم يترك أديب ألماني بصماته على الأدب العربي المعاصر ، كما فعل هذا الكاتب الألماني اللغة ، التشيكي الجنسية . وقد بدأ استقباله عربياً بمقال نقدي كتبه الدكتور طه حسين في أعقاب إقامته في فرنسا ، ومعايشته موجة تلقي كافكا ، التي شهدتها تلك البلاد بعيد الحرب العالمية الثانية^(٦٢) . فقد استأثرت شخصية هذا الأديب باهتمام عميد الأدب العربي ، حيث ذكّره بشاعره المفضل أبي العلاء المعري ، فاعتقد بوجود شبه كبير بين الرجلين . أما أبرز أوجه الشبه التي رأها فهي : نزعة الشك والتشاؤم ، والإعراض عن الزواج والإنجاب . وقد ردّ طه حسين ذلك التشابه الى تقارب في الظروف التاريخية ، التي عاش الأديبان في ظلها ، وهي ظروف تنصف بانتشار الفساد ، واندلاع الاضطرابات والحروب^(٦٣) .

يحمل مقال طه حسين بصمات مرحلة من مراحل استقبال كافكا في فرنسا ، سادت فيها التفسيرات الميتافيزيقية ، والتساؤلات غير الأدبية . أما الغرابة التي رأى طه حسين أنها تربط كافكا بأبي العلاء فلا تقوم على مقارنة سيرية موثوقة علمياً ، بقدر ما تستند الى انطباعات ذاتية ، مصدرها أفق صاحبا وموقفه المسبق . ولكن ليس المهم في هذا السياق أن تكون المقارنة بين الأديبين صحيحة من الناحية العلمية ، بل المهم هو أن الناقد أقدم أصلاً على مقارنة كهذه . فقدم بذلك نموذجاً للنقد الأدبي ذي المنحى المقارن ، الذي يقيم جسوراً بين العمل الأدبي الأجنبي المرسل والأدب القومي المتلقي . وأخيراً فإن مقال طه حسين حول كافكا يستمد أهميته من كونه قد كتّب من قبل أديب عبيد فن

(٦١) راجع : مرعان هيسه (١٩٨٢) و (١٩٨٦) و (١٩٨٨) .

(٦٢) راجع : طه حسين (١٩٧٠) .

(٦٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

المقالة ، « ويسلك بناصية العربية في كل أشكالها »^(٦٤) ، مما ضمن له تأثيراً واسعاً . ولهذا يمكن اعتبار ذلك المقال نموذجاً لتوسيط الآداب الأجنبية نقدياً بصورة سليمة . لم يؤد مقال طه حسين ، رغم جودته إلى نشوء موجة من استقبال روايات وقصص كافكا ترجمياً . فالترجمة العربية لقصة « المسخ » ، وهي أول أعماله المنقولة إلى العربية ، لم تصدر إلا في عام ١٩٥٧^(٦٥) . وممّ عقد آخر قبل أن تصدر ترجمة عربية لإحدى روايات كافكا ، وهي « القضية » ، التي قام الدكتور مصطفى ماهر بتعريبها^(٦٦) . وفي هذه المرة أيضاً أراد المترجم أن يبيّن الرأي العام العربي لتلقي مؤلفات هذا الأديب ، وذلك بمقال نقدي ، خصص الجزء الأعظم منه لاستعراض حياة كافكا وأعماله وأفكاره^(٦٧) . وقد تطرق الناقد في بداية مقاله إلى الصعوبات التي تعترض الكتابة عن كافكا ، وفي مقدمتها أن نفرا من اليهود ذوي المبادئ الخطيرة وضعوا أيديهم على أعمال كافكا وأرادوا لها صورة بعينها ، مما يجعل تصحيح تلك الصورة ضرورياً^(٦٨) . ولكن كيف صحح الدكتور ماهر صورة كافكا ؟ لقد قام بذلك عبر التركيز على أن أعمال هذا الكاتب تتسم بطابع إنساني ، وأن كافكا أديب ملتزم بالاشتراكية^(٦٩) . تُرى أيكفي إبراز إنسانية أدب كافكا واشتراكيته لدحض التفسيرات الصهيونية لذلك الأدب ؟ إن الدكتور ماهر يكتفي برفض صورة كافكا المشوهة ، التي رسمها الصهاينة ، ولكن ذلك الرفض جاء إيجابياً ، لأن صاحبه لم يكلف نفسه عناء دحض الحجاج الصهيونية وتفنيد مضمونها ، أي مقارعة الحجّة بالحجة . كما لم يقدم الناقد في مقاله عرضاً رصيناً لتطور كافكا الأدبي والفكري ، مما يجعل صورة الأديب ذي النزعة الإنسانية والاشتراكية ، التي يدعو الدكتور ماهر إلى الأخذ بها ، صورة اعتباطية تفتقد التأسيس .

بعد مرور عام على صدور المقال الألف الذكر صدرت الترجمة العربية لرواية « القضية » ، وقد زوّدها المترجم ، وهو الدكتور ماهر ، بمقدمة لا تختلف طريقة التوسيط النقدي المتبعة فيها عن الطريقة التي اتبعها المترجم في توسيط روايتي هيس ، « قصة شاب » و « لعبة الكريات الرجاجة » . كما مثلت هذه المقدمة استمراراً ، بل وتكراراً ، لما جاء في مقالة « القضية لكافكا » ، سواء فيما يخص الحملة الخطابية على التفسيرات الصهيونية ، أم ما يخص الدعوة إلى التمسك « تمسكاً لا هوادة فيه بإنسانية كافكا »^(٧٠) . أما فيما يتعلق برواية « القضية » نفسها فقد تمحورت شروح كاتب المقدمة حول أغراض النقد الاجتماعي في هذه الرواية ، التي تصور ، في رأيه ، « عنة الإنسان في مطلع القرن العشرين ، بعد البخار والكهرباء ، وفي مكان تظله الثقافة المسيحية الغربية ! ولكن كافكا يمارس نقده الاجتماعي ، في رأي الدكتور ماهر ، انطلاقاً من « مفهوم اشتراكي » ، مما يدل على مدى إيمانه « بحتمية الإصلاح الاجتماعي والسياسي والثقافي وحتمية الاشتراكية »^(٧١) . بذلك قدّم الناقد - المترجم تفسيراً « اشتراكياً » لرواية « القضية » ،

(٦٤) انظر : G. Brockelmann (1942, S. 285).

(٦٥) راجع : فرانتس كافكا (١٩٥٧) .

(٦٦) راجع : فرانتس كافكا (١٩٦٩) .

(٦٧) راجع : مصطفى ماهر (١٩٦٧) .

(٦٨) المرجع نفسه ، ص ٨٠٧ .

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ٨٢٠ .

(٧٠) راجع : فرانتس كافكا (١٩٦٩ ، ص ٤) .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١١ ومايليها .

ولكنه تفسير يفقر بدوره الى التحليل الرصين التماسك . فتصوير البؤس لا يعني بالضرورة أن الأديب ينحوي في نقده الاجتماعي منحى اشتراكياً ، ناهيك عن أن إقحام تفسير تبسّطي كهذا على رواية شديدة التقيد والمعنوس كرواية « القضية » يتناقض تماماً مع الطريقة الفنية التي كُتِب بها هذا العمل الأدبي المفتوح على مختلف التأويلات .

إذا نظرنا الى الترجمة العربية لرواية « القضية » ، نجد أنها لا تختلف ، من حيث نوعيتها ، عن الترجمة العربية لرواية « قصة شاب » ، التي قام بها المترجم نفسه . ففي هذه المرة أيضاً أعلن المترجم أنه قد أنجز ترجمة « كاملة » و « آمنة » و « دقيقة » ، ولكنه لم يتمكن في الواقع من تجسيد الصفات التي نسبها الى ترجمته^(٧٣) . فالإخلال بالدقة يبدأ بترجمة عنوان الرواية ، وهو بالألمانية : (Der Prozess) ، فترجمته الدقيقة ليست « القضية » ، بل « المحاكمة » ، وقد اختار هذه الترجمة جرجس منسي في تعريبه الرواية نفسها عن الانكليزية ، وابراهيم العريس في ترجمته لسيناريو فيلم اورسون ويلز ، وهو صيغة سينمائية لهذه الرواية^(٧٤) . لكن مثل هذه الأخطاء الدلالية - المعجمية لا تمثل سوى جانب ثانوي في الشكالية الترجمة التي قام بها الدكتور ماهر . فالوجه الرئيسي لتلك الاشكالية يتموضع على الصعيد الاسلوبي ، حيث لم يتمكن المترجم من أن يؤمّ حلاً أدق من التعادل أو التقارب الاسلوبي والجمالي بين الترجمة والنص الأصل . ويتجلى الافتقار وانعدام التقارب الاسلوبي في أوضح صورهما في الأسلوب الذي عرّب به المترجم الحوار الروائي ، الذي يتميز عن غيره من مكونات النص بدرجة عالية من الشفوية والاقتراب من اللغة الدارجة . فبدلاً من أن ينقل المترجم هذا الحوار بصورة مناسبة لغوياً وأسلوبياً ، لجأ الى تعريبه بطريقة أضافت تعدد وتنوع المستويات اللغوية والأسلوبية . ومن اللافت للنظر أن الدكتور ماهر قد عمد خلال نقله للحوار الروائي في بعض الأحيان الى استخدام مفردات وتعابير قديمة ومعقّرة ، لا يمكن أن تستخدم في التواصل الشفهي اليومي ، وتتناقض كل التناقض مع لغة كافكا وأسلوبه . فقد ترجم مثلاً كلمة (Still) بـ « صه » بدلاً من « إهدأ » ، و (entscheidend) بـ « الفصيل » ، بدلاً من « المهم » . و (gerne) بـ « على الرحب والسعة » ، بدلاً من « بكل سرور » . أما جملة (Sie sind vorsichtig) فقد ترجمها بـ « أنت عظيم الحيلة » ، بدلاً من « أنت حذر »^(٧٥) .

إن حلولاً ترجمية كهذه ليست وليدة الصدفة ، بل تعبير عن نزعة الى التعويض والتفقر ، حيث يكون استخدام الوسائل اللغوية البسيطة أكثر ملائمة . وهذه ، لبالغ الأسف ، نزعة متفشية في صفوف المترجمين العرب ، الذين كثيراً ما يميلون الى عرض عضلاتهم اللغوية والبلاغية ، حتى وإن تم ذلك على حساب التعادل الاسلوبي والجمالي ، ظناً منهم أنهم يترجمون بأسلوب « جزل » يبهّر القارئ^(٧٦) . ولحسن الحظ لم يجل المصير البائس ، الذي لقيته أعمال كافكا في الترجمة العربية ، دون أن يتأثر عدد كبير من القاصين العرب بتلك الأعمال عبر تلقيهم إياها بصورة إبداعية منتجة . فهناك إجماع من قبل النقاد على أن تأثير كافكا في القصة العربية المعاصرة كبير جداً ، ولكنه لم يول حتى اليوم ما يستحق

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(٧٤) راجع : فرائض كانكا (١٩٧٠) ، وفرائض كانكا وأورسون ويلز (١٩٨١) .

(٧٥) انظر : فرائض كانكا (١٩٦٩) ، ص ١٨ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٢٢٦ .

(٧٦) من أبرز مثل هذه النزعة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد كانت لها عوارب وعصية على ترجمته المسرحية التي تعرّفت لانتقادات شديدة من جانب عدد من الباحثين . بهذا الخصوص راجع دراستنا : (١٩٨٦ / ب) .

من دراسة . ومن المحاولات القليلة التي بُذلت على صعيد استقصاء تأثير كافكا في الأدب العربي المعاصر بحثان قصيران للنقادين رضوان ظاظا والدكتور حسام الخطيب . فقد سعى الأول لظهور أوجه التشابه الفني بين قصتي « القبو » للكاتب السوري زكريا تامر و « حلم » لفرونتس كافكا ، وخلص إلى أن القاسم المشترك ، الذي يجمع بين شخصيات هذين الأدبيين ، هو « القدرة الغربية على الخضوع »^(٧٦) . ومثالاً على ذلك أورد الناقد « يوزف ك » بطل رواية « القضية » ، الذي دُعي « عقاباً على ذنب لم يعرف ماهو » . لكن السيد ظاظا يرى أن كافكا لا يريد من قارئه أن يتوحد مع تلك الشخصيات المستكنة ، بل يود أن يثير في نفس هذا المتلقي « ردة الفعل التي لم تتوفر لدى شخصياته » ، وذلك هو غرض زكريا تامر أيضاً ، في رأي الناقد ، الذي يخطئ كل من يتهم هذين الأدبيين بالتشاؤم والاستسلام للأمر الواقع .

ولئن كان التشابه بين شخصيات كافكا وتامر مسألة جديرة بالاهتمام ، فإنه من غير الجائز أن ندع ذلك التشابه يحجب عنا رؤية الاختلاف الكبير بين طريقتي هذين الأدبيين في الكتابة . كما لا يجوز أن نتطلى علينا الغاية التي عقد الناقد مقارنته من أجلها . فمن الواضح أن السيد ظاظا يريد الدفاع عن زكريا تامر ضد النقد الذي وجهه إليه الداعون إلى « الواقعية والالتزام » في الأدب العربي المعاصر ، وفي مقدمتهم أنصار « الواقعية الاشتراكية »^(٧٧) . وقد زوج الناقد بآديب عالمي الشهرة مثل كافكا في النقاش الدائر ضمن الأدب العربي المعاصر حول قضايا الواقعية والالتزام ، لا حباً بالمقارنة ، بل بغرض ترجيح كفة الطرف الذي يميله زكريا تامر ، وهو طرف يرفض إلزام الأدب بالواقعية والالتزام السياسي والاجتماعي . وقد استعان السيد ظاظا برمز من رموز الثقافة الغربية المهيمنة في عالم اليوم ، وحاول أن يوظف النفوذ الضخم الذي تتمتع به تلك الثقافة في المجتمعات المتخلفة التابعة في الصراع الفكري الدائر ضمن الثقافة العربية . وهذا أسلوب لا نقرّه ، لأنه وليد منطق يكرّس التبعية الثقافية . فعقد المقارنات بين الأدب العربي والآداب الأجنبية أمر مشروع ومطلوب ، ولكن شريطة ألا نجعل من الآداب الأجنبية معياراً نقيم به أدبنا . ولا يجوز للدراسات الأدبية المقارنة أن تكون وسيلة تكريس للهيمنة الثقافية ، بل وسيلة تصدّ لتلك الهيمنة^(٧٨) .

أما الناقد الدكتور حسام الخطيب فيرى أن علاقة تأثر مباشر تربط رواية « المحاكمة » لكافكا برواية « في المنفى » للكاتب السوري جورج سالم ، ويعتبر ذلك التأثير « دليلاً على استمرار التأثير المباشر للأدب الأوروبي في القصة السورية »^(٧٩) . وهذا التأثير واضح كل الوضوح ، في رأي الناقد ، ولا يحتاج بالتالي إلى إثبات : « فمن يقرأ رواية في المنفى لا يستطيع إلا أن يتذكر المحاكمة لكافكا » . ويتجلى التشابه بين هاتين الروايتين في العديد من « المفهومات المشتركة » ، التي يذكر الناقد منها : « الخطيئة الأصلية والبراءة والنفي الكوني والعذاب الانساني والحتمية المفروضة وانحداد الرؤية »^(٨٠) . ومع أن ما سَمَّاه الدكتور الخطيب « مفهومات مشتركة » لا يتعدى كونه عناصر ثيمائية

(٧٦) راجع : رضوان ظاظا (١٩٧٩ ، ص ١٥٩) .

(٧٧) بهذا الخصوص راجع مثلاً : نيل سليمان ويو علي ياسين (١٩٨٥) ، ص ٢١١ - ٢٣٠ .

(٧٨) بالنسبة للنقطة الفاصلة السالفة في الجمع الدولي راجع : B. Tibi (1981) .

(٧٩) راجع حسام الخطيب (١٩٨٠) .

(٨٠) المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

ومضمونية، فقد آثر الناقد ألا يخوض في مقارنة ثيماتولوجية،^(٨١) وأن يتخل عن المقارنة الفلسفية والنظرية بين الروايتين «لصالح نوع من المقارنة الفكرية»، وذلك من خلال المقارنة «بين العناصر الفنية المختلفة». من ناحيتنا لا نفهم كيف يمكن للباحث أن يتجنب «المقارنة الفلسفية والنظرية» لصالح نوع من المقارنة الفكرية، ولا كيف يمكنه التوصل إلى ذلك من خلال المقارنة بين «العناصر الفنية المختلفة». وعلى أية حال فإن أبرز العناصر الفنية، التي يرى الناقد أنها مشتركة بين روايتي «المحاكمة» و«في المنفى» هي التالية: البطل الرئيسي غريب ومُدان سلفاً؛ مشهد إلقاء القبض؛ وفساد القضاة؛ ودور المرأة في مساعدة البطل؛ والعموض الذي يكتنف الحاكم^(٨٢). ويخلص الدكتور الخطيب من المقارنة التي عقدها بين الروايتين إلى نتيجة تقييمية «ليست في صالح جورج سالم على الإطلاق». فرواية «في المنفى» لا تتعدى كونها، في نظر الناقد، «نسخة مبسطة من رواية المحاكمة»، وذلك لأن سالماً متأثرًا بشديدًا بكافكا، وهو يتبع خطاه، ويتسج على نماله، دون أن يكون لهذه المحاكمة «توسيع كافٍ، أما من زاوية معالجة الموضوع المشترك، أو من ناحية إعطاء عمق جديد له»^(٨٣).

يمثل بحث الدكتور حسام الخطيب حول علاقة التأثير المفترضة بين روايتي «المحاكمة» و«في المنفى» نموذجاً لبحوث التأثير ذات المنحى التقييمي، التي لا تكفي باستقصاء أوجه التشابه بين أعمال تنتمي إلى آداب مختلفة، بل تتجاوز ذلك إلى تقييم الأعمال الأدبية المقارنة، والحكم على جودتها الفنية والفكرية. ولا جدال في أن لهذا النوع من الدراسات المقارنة فوائده، وفي مقدمتها أنه يسّط الضوء على حالات التقليد الفجّ وغير المسوّغ الذي يقدم عليه بعض الأدباء من ضعاف المهوبة، وأنه يكشف عن نقاط الضعف الفنية والفكرية في بعض الأعمال الأدبية، فيساهم بذلك في رفع سوية الأدب والبوض به، وتلك وظيفة أساسية من وظائف النقد الأدبي المقارن. ولكن من جهة أخرى لا يمكننا أن نتجاهل أن هذا النوع من دراسات التأثير محاذيره، وفي مقدمتها أن التشابه بين أعمال تنتمي إلى آداب مختلفة لا يرجع بالضرورة إلى التأثير أو المحاكاة، فمن غير الجائز أن نتحدث عن «تأثير»، مالم يسبق ذلك التأثير استقبال أدبي منتج^(٨٤).

فالتشابه قد يكون من النوع التوبولوجي، الذي يرجع إلى تشابه البنى الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المختلفة، لا إلى علاقة أدبية قوامها التأثير والتأثر^(٨٥). وبالنسبة لروايتي «المحاكمة» و«في المنفى» ليس هناك ما يدل على وجود علاقة استقبال منتج بين جورج سالم وفرائس كافكا، ولم يقدم لنا الدكتور الخطيب ذلك الدليل^(٨٦). أما

(٨١) بخصوص المقارنة الثيماتولوجية في عالم الأدب المقارن راجع: H. Dyserink (1981, S. 103).

(٨٢) راجع: حسام الخطيب (١٩٨٠)، ص ١٣١ ومبليها.

(٨٣) المرجع نفسه، ص ١٣٥ وما يليها.

(٨٤) بخصوص علاقة التأثير بالاستقبال الأدبي المنتج راجع: U. Weisstein (1968, S. 35).

(٨٥) فيما يتعلق بالنقاط العلاقات الأدبية راجع: G.R. Kaiser (Hg) (1980, S. 91—101) راجع أيضاً بحث المقارن السوفيت فيكتور جبرومونكي ضمن هذا الكتاب. ومن الجدير بالذكر أن الفضل في توضيح الفجائية والتوبولوجية بين الآداب المختلفة، حتى تلك التي لا تقم بينها صلات أدبية مباشرة، يرجع إلى هذا الباحث الكبير، الذي لم تُستعرض أعماله في العالم العربي بصورة وافية. راجع: سعيد علوش (١٩٨٧، ص ١٢٨).

(٨٦) لم يشر الدكتور الخطيب في سياق عرضه لمراحل تأثر القصة السورية الحديثة بالأدب الأوروبي إلى وجود أية علاقة استقبالية بين كافكا وجورج سالم. لذا جاء إيراده رواية «في المنفى» مثالا على استمرار التأثير المباشر الذي مارسه الأدب الأوروبي في القصة السورية معاجلة للمقارنة.

المحدود الثاني فيتمثل في أن المنحى الأنف الذكر في دراسات التأثير يجعل من العمل الأدبي الأجنبي ، والأوروبي بالتحديد ، معياراً يقيم بموجبه العمل الأدبي العربي ، فيحكم على نجاحه أو فشله فنياً وفكرياً بمقياس خارجي ، لا وفقاً لقيمة هذا العمل في إطار الأدب القومي الذي ينتمي إليه . ألا ينطوي هذا المنهج على خطر الإقرار الضمني بتفوق وهيمنة الآداب الأوروبية ، والوقوع غير المقصود في شرك « المركزية الأوروبية » ؟^(٨٧) على أية حال فقد أصبحت علاقة رواية الأديب العربي السوري جورج سالم « في المنفى » برواية « المحاكمة » للكاتب الألماني اللغة فرانتس كافكا مطروحة للنقاش ، وذلك منذ أثار الدكتور الخطيب هذه المسألة في بحثه الأنف الذكر ، ولا نظن أن الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع قد قيلت . وفي رأينا أن الأسلوب الرمزي أو الأمثولي الذي يشكل أساس الطريقة الفنية في روايتي « المحاكمة » و « في المنفى » ، هو الجانب الأجدل بأن تتناوله الدراسات المقارنة ، بغض النظر عن مسألة التأثير والتأثر ، التي تضاعلت أهميتها بتراجع نفوذ « المدرسة الفرنسية » في علم الأدب المقارن^(٨٨) .

في مطلع السبعينات عُرِبت روايتا كافكا الأخريتان : « أمريكا » ، التي نقلها الدسوقي فهي عن الانكليزية ، و « القصر » ، التي ترجمها وقدم لها الدكتور مصطفى ماهر^(٨٩) ، فأصبحت بذلك كل روايات كافكا في متناول القارئ العربي . بعدئذ شهد الاستقبال الترجمة لأعمال هذا الأديب شيئاً من الركود ، فلم يقم أحد بإعادة ترجمة الأعمال التي عُرِبت بصورة غير مناسبة ، ولم تمتد حركة الترجمة إلى قصص كافكا وكتابه السيرة إلا ببطء شديد^(٩٠) . ولكن الوطن العربي شهد منذ مطلع السبعينات نقاشاً هامياً حول علاقة كافكا بالصهيونية ، وهو نقاش لا نريد الدخول في تفصيلاته ، كي لا ننسف الإطار المرسوم لهذا البحث ، بل نكتفي بأن نعرضه بإيجاز^(٩١) .

لئن كان استقبال كافكا ترحيباً قد تم في القطر العربي المصري بالدرجة الأولى ، فإن الجدل العربي حول صهيونية هذا الأديب قد دار في أقطار عربية أخرى ، هي : لبنان وسورية والعراق . وقد انقسم المشركون في ذلك النقاش إلى معسكرين ، الأول يضم خصوم كافكا ، الذين اعتبروه صهيونياً خطيراً تحجب محاربته ، والثاني يحوي مرادي هذا الأديب ، الذين اتبروا لتبرئته من تهمة الصهيونية ، بل وحاولوا أن يجعلوا منه أديباً معادياً لليهودية والصهيونية على حد سواء . في مراحل النقاش الأولى حاول بعض النقاد المقربين من الحركة الوطنية الفلسطينية ، مثل سعدي يوسف وأنور

(٨٧) راجع بهذا الخصوص : G.R. Kniser (1980, S. 22)

(٨٨) بضم الفاء السين واللام المهملة ، راجع : H. Binder (Hg.) (1979, Bd. 2, S. 438)

وحول المدرسة الفرنسية في علم الأدب المقارن راجع سعيد علوش (١٩٨٧ ، ص ٥٥ - ٨٤) . راجع كذلك إلى نقدنا لأبحاث التأثير المقدمة في المؤرخ الثاني لرابطة العربية للأدب المقارن دمشق ٩ - ٦ تموز (١٩٨٦) ، (١٩٨٦/٧/٢١) ورسره الحظ لم تُرَفَّق النقاشات النظرية التي دارت في ذلك المؤخر ، ولكن بشر الأبحاث المقدمة في الدورات السورية أما كتاب الدكتور سعيد علوش المشار إليه آنفاً فقد فرغ المؤلف من وضعه قبل انعقاد المؤخر ، وقد جاء خلافاً من أية إشارة إلى أبحاثه .

(٨٩) راجع : فرانتس كافكا (١٩٧٠) ، فرانتس كافكا (١٩٧١) .

(٩٠) لم يُترجم حتى اليوم من كتابات كافكا السيرة إلا القليل ، وذلك بالرغم من كثرة الاستشهاد بتلك الكتابات . وقد علمنا أن المرحوم ريسس يونان قد عرَّب ورسالة إلى الأب ، التي تعتبر من أهم وثائق السيرة الذاتية لكافكا ، لكننا لم نتمكن ، بسبب معيقات البحث العلمي المعروفة للجميع ، من التحقق من تلك الترجمة . أما بالنسبة لترجمة قصص كافكا القصيرة فإن أبرز ما تم على هذا الصعيد هو قيام الدكتور سامي الجنيني بتعريب بعضها من الفرنسية . راجع : فرانتس كافكا (١٩٨٢) .

(٩١) نخيل من يوريد تفصيلات حول هذا النقاش إلى بحثنا (١٩٨٧) و (١٩٨٨ / ت) .

الغساني وفيصل دراج ومحمود موعد، أن يبرهنوا، مخدومهم الى ذلك دوافع وطنية تقدمية، أن كافكا صهيوني. ثم تصاعدت الحملة المعادية لكافكا، الى أن بلغت ذروتها في مقالة للناقد العراقي كاظم سعد الدين، الذي قام بمحاولة فريدة في نوعها لإثبات أن كل ما كتبه كافكا من روايات وقصص قد كان مسخرًا لخدمة الصهيونية^(٩٢). وكان من الطبيعي أن تستثير تلك الحملة، التي ظهر فيها من توظيف تعسفي لكتابات كافكا السيرية وقصصه، ردود فعل أنصار هذا الأدب، وفي مقدمتهم الباحثة العراقية بديعة أمين، التي ألقت كتاباً ترد فيه على كاظم سعد الدين وغيره من خصوم كافكا، وتحدد موقفها من المسألة المطروحة للنقاش، وهو موقف يتلخص في أن كافكا ليس أديباً صهيونياً، كما يزعم الصهيانية وبعض النقاد العرب الذين وقعوا في حبال الإعلام الثقافي الصهيوني، وإنما أديب معاد للصهيونية، بدليل أنه يكيل لليهود من النقد والتجريح والأوصاف النابية ما لا يمكن إلا أن يستنزل عليه لعنة الصهيانية^(٩٣).

يمثل النقاش العربي حول صهيونية كافكا حالة فريدة في استقبال كافكا على المستوى العالمي. ومن الملاحظ أن هذا النقاش قد دار حول مسائل غير أدبية بالدرجة الأولى، فإذا امتد الى قضايا أدبية، فقد كان يتمحور حول قصة قصيرة عنوانها «بنات آوى وعرب»، التي تبدو للوهلة الأولى صالحة لأن توظف في نقاش كهذا^(٩٤). أما فيما يتعلق بالإشكالية السياسية والأيديولوجية التي تناوها المشتركون في النقاش، فمن المؤكد أن هذا الجدال الذي دام قرابة عشرين، ولم يتعد بته، لم يقدم أية مساهمة في توضيح علاقة كافكا المعقدة باليهودية والصهيونية، وظل متخلفاً عن المستوى الذي بلغته البحوث العالمية المتعلقة بهذه المسألة. ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو أن معظم الذين شاركوا في ذلك النقاش غير مؤهلين من الناحيتين اللغوية والعلمية لأن يخوض فيه. فلا بد لمن يريد أن يدلي بدلوه في مسألة شائكة، مثل علاقة كافكا بالصهيونية، من أن يجيد اللغة الألمانية التي كتبت بها مؤلفات هذا الأديب، وأن يحيط بالأدب الألماني، وبالحلقات الثقافية والتاريخية لأدب كافكا^(٩٥). وقد أدى عدم توافر هذا الشرط الضروري الى اعتماد المشتركين في النقاش على المراجع الفرنسية والانكليزية غير الموثوقة، وفي مقدمتها كتاب الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي «واقعية بلا ضفاف» المترجم الى العربية^(٩٦). وأخيراً لا بد من التنويه الى أن هذا النقاش خلفية سياسية وتاريخية، هي الصراع العربي الصهيوني، الذي شمل ميادين الأدب والثقافة. فقد حاولت الصهيونية توظيف شهرة كافكا العالمية الضخمة لصالح دعايتها الثقافية، مما أثار رغبة بعض النقاد العرب، ودفعهم الى وصم هذا الأديب بالصهيونية. ومع أننا لا نشك في نبذ الدوافع القومية التي حركت هؤلاء النقاد، لكن نبذ الدافع لا يبرر ما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات، ومن خروج على الأعراف العلمية، بل وعلى المنطق في بعض الحالات.

في كل الأحوال فإن استقبال كافكا هو الفصل الأشد إثارة، لا في استقبال الأدب الألماني، بل في استقبال الآداب

(٩٢) راجع: كاظم سعد الدين (١٩٧٧).

(٩٣) انظر: بديعة أمين (١٩٨١)، ص ٥٥.

(٩٤) أُرجمت هذه القصة على الحقلية المذكورة أكثر من مرة. راجع: فرانس كافكا (١٩٧٤) و (١٩٨٢) و (١٩٨٨).

(٩٥) بخصوص الخلافات التاريخية لأدب كافكا نحلل القاري، الى مقالة الفيلسوف النمساوي المعروف إرنست فشر (1975) E. Fischer، والى أشمل مرجع حول حياة كافكا

رأيه ويحونه: H. Binder (Hg) (1979).

(٩٦) راجع: روجيه غارودي (١٩٦٨)، ص ١٣٧ - ٢٢٤.

الأجنبية كلها في العالم العربي . ولا شك في أن هذا التلقى ، بأشكاله الترجمة والتقليد والإبداعية ، وبجوانبه السياسية ، سيغفل النقاد والباحثين رداً طويلاً من الزمن .

ملاحظات ختامية

إذا استرجعنا ما جاء في هذا البحث حول استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي فلنستطيع استخلاص النتائج التالية :

١ - لقد كان هذا الاستقبال جزئياً ، مبعثراً ، وعشوائياً ، بحيث لا يمكن للمرء أن يبين فيه معالم تاريخ استقبالي مترابط .

٢ - على الصعيد الترجمي : أ) كان هذا الاستقبال محدوداً ، فلم يغط سوى نسبة ضئيلة من الأعمال الروائية الجديرة بالترتيب ، ولم يسد غير جزء يسير من الحاجة الثقافية الموجودة في المجتمع للتلقي . ب) قلَّ أن أخذت تلك الحاجة معياراً لاختيار الأعمال المراد ترجمتها ، فجاه الاختيار غير موفق في كثير من الحالات ، مما حدَّ من التأثير الجمالي والفكري الذي مارسه الأعمال الروائية المترجمة . ج) كانت نوعية الترجمة في معظم الحالات غير مرضية ، ولا سيما من النواحي الأسلوبية والجمالية ، إذ قلَّ أن توافر فيها الحد الأدنى من التقارب الأسلوبي والجمالي بين الترجمة والنص الأدبي الأصلي^(١٧) . وقد كان هذا سبباً رئيسياً في ضعف التأثير ، وضآلة الدور التجديدي ، الذي لعبته الأعمال الروائية المترجمة في الأدب المتلقي . د) كان مترجم واحد هو الدكتور مصطفى ماهر حصة الأسد في إنجاز الترجمات .

ومع أنه لا يمكن لمنصف أن ينكر الدور الكبير الذي لعبه هذا الرجل في التعريف بالأدب الألماني ، فإن الانصاف يقتضي كذلك أن نقف وقفة موضوعية وصریحة من الترجمات الأدبية التي أنجزها . فالدكتور ماهر لا يمثل حالة فردية مقتصرة على قطر عربي معين ، أو على استقبال أدب أجنبي دون سواه بل نموذجاً يجده المرء في كل الأقطار العربية ، وعلى صعيد استقبال كل الآداب الأجنبية . إنه نموذج الأكاديمي المتخصص في أحد الآداب الأجنبية ، ولكنه لا يملك المهبة الأدبية ، والحساسية الأسلوبية والجمالية ، اللتين تجعلان منه مترجماً أدبياً موفقاً ، ومع تقديرنا الشديد هؤلاء الأكاديميين ، نرى أنه لا يجوز لمنزلتهم الأكاديمية أن تمنعنا من أن نقف من الترجمات التي أنجزوها وقفة نقدية علمية وغير مجاملة ، وذلك خدمة لحركة الترجمة ، وللحياة الأدبية في الوطن العربي .

٣ - يمكن اعتبار القسم الأعظم من محاولات التوسيط النقدي للروايات الألمانية المترجمة غير موفق ، ولا يسهم في تبسير استقبال تلك الروايات ، وتعميق فهم القارئ العربي لها . فكثيراً ما افترقت المحاولات المذكورة إلى الترجمة المغارن ، ووضوح العرض ، والأناقة الأسلوبية ، والمنهجية ، وغير ذلك من مقومات التوسيط السليم للأعمال الأدبية الأجنبية .

(١٧) بخصوص مسألة التعامل الأسلوبي والجمالي في الترجمة الأدبية راجع (J. Levy (1969)

٤ - رغم التقدم الفني والفكري الكبير الذي تتسم به الرواية الألمانية الحديثة ، ورغم تمتع عدد كبير من أعمالها براهنية شكلية ومضمونية كبيرة بالنسبة للأدب العربي الحديث ، فإن استقبال هذه الرواية في شكله الإبداعي المنتج لم يلعب أكثر من دور هامشي في تجديد الرواية العربية . وهذا يرجع في المقام الأول الى رداءة نوعية الترجمات ، التي جعلت الأدباء العرب يُعرضون عن تلقيها بصورة إبداعية ، وعن التأثير بها .

في الختام لا بد لنا من أن نتساءل : كيف يمكننا أن نصصح استقبال الرواية الألمانية الحديثة ، ليكون أكثر انسجاماً مع الحاجات الثقافية للمجتمع العربي من جهة ، ومع واقع تلك الرواية من جهة أخرى ؟ إن أول ما ينبغي عمله هو إخضاع ما تم نقله الى العربية من أعمال روائية ألمانية لنقد منهجي صارم ، يشمل أصعدة النص والمعنى واللغة والأسلوب . فالاستقبال الترجمي الصحيح هو أساس كل استقبال سليم للأدب الأجنبية^(٩٨) . وغني عن الشرح أن على هذا التوسيط النقدي أن يعتمد منهجاً مقارناً ، يقيم جسوراً بين الأدبين العربي والألماني ، ويجعل المتلقين العرب يعون هويتهم الثقافية بصورة أفضل ، عبر مقابلتها بالثقافة الأجنبية .

فاستقبال الآداب الأجنبية بصورة غير نقدية ، ويعزل عن الحاجات الثقافية للمجتمع المستقبل ، لا يؤدي إلا الى مزيد من التبعية والغربة الثقافيّتين . وفي رأينا فإن الأمة العربية قد تجاوزت مرحلة الانهيار غير الانتقادي بالثقافات الأجنبية ، وانتقلت الى مرحلة استيعاب تلك الثقافات على ضوء حاجاتها ، وانطلاقاً من هويتها الثقافية الراسخة . فلماذا نستثني الرواية الألمانية الحديثة من هذه القولة؟^(٩٩)



(٩٨) لقد حاولنا التصدي هذه المهمة في كتابنا : (1984) A. Abboud الذي ستصدر طبعته العربية ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق .

(٩٩) لقد ساهمت في ذلك بالنسبة للدراما الألمانية الحديثة عندما حررنا كتاب فالتريتك (١٩٨٣) ، ورفضنا له مقدمة استعرضنا فيها استقبال هذه الدراما في العالم العربي ، ومعجاً لكتاب الدراما الألمان ، إضافة الى بيبليوغرافيا الأعمال الدرامية الألمانية ، التي ترجمت الى العربية .

● أهم المراجع والمصادر

١ - باللغة العربية

- أمين ، بديعة (١٩٨١) : هل ينبغي إخراج كافكا . بيروت : دار الآداب .
- بريخت ، برتولت (١٩٦٧) : قصائد ، ترجمة عبد الغفار مكاوي . القاهرة : دار الكتاب العربي .
- تراكل ، جورج (١٩٨٨) : قصائد خفارة ، تعريب فؤاد رقة ، بيروت : المكتبة البوليسية .
- حسن ، محمد عبد الغني (١٩٦٦) : فن الترجمة في الأدب العربي ، القاهرة : المدار المصرية للتأليف والترجمة .
- حسين ، طه (١٩٧٠) : فن الترجمة كافكا . في : ألوان ، القاهرة : دار المعارف ، ط ٤ .
- الخطيب ، حسام (١٩٨٠) : سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية ، دمشق : المكتب العربي لتنسيق الترجمة ، ط ٢ .
- دراج ، فيصل (١٩٨١) : العلاقة الروائية في العلاقات الإنتاجية ، في : الطريق ، العدد ٤ - ١/١٩٨١ ، ص ٢٢ - ٥٨ .
- ريلكه (١٩٦٩) : قصائد خفارة ، تعريب فؤاد رقة ، بيروت : دار النهار .
- زقاني ، ستيفان (١٩٧٣) : لاعب الشطرنج : ترجمة يحيى حقي ، القاهرة : دار الكتاب الجديد .
- زيادة ، مي (١٩٨٠) : إسهامات ودعوى أو إسبأل الألمان ، دمشق ، مؤسسة نوفل .
- زقوتة ، لطيف (١٩٨٨) : ترجمة المسرحية إلى العربية في عصر النهضة . القبول ، العدد ١٣٦ ، أيار - حزيران ١٩٨٨ ، ص ٢٨ - ٣٢ .
- سعد الدين ، كاظم (١٩٧٧) : حل رموز كافكا الصهيونية ، في : الأعلام ، العدد ٩ ، ١٩٧٩ ، ص ٥٥ - ٦٦ .
- سليمان ، نبيل ويوحنا ياسين (١٩٨٥) : الأدب والأيديولوجيا في سورية . اللاذقية : دار الحوار ط ٢ .
- ظاظا ، رمضان (١٩٧٩) : الحلم والواقع عند فرانتز كافكا وذكربا ناسر ، في : المعرفة ، العدد ٢٠٣ ، كانون الثاني ١٩٧٩ ، ص ١٤٧ - ١٦٠ .
- عامل ، مهدي (١٩٧٦) : في سخط الإنتاج الكولونيالي ، بيروت : دار الفارابي .
- عيود ، عبده (١٩٨٩) : الترجمة والمجاهات الحضرية . دعوة إلى فتح ملف نقالي عربي ، الموقف الأدبي ، العدد ١٨٥ ، أيلول ١٩٨٦ ، ص ٩ - ١٨ .
- عيود ، عبده (١٩٨٦) ب) أعكسا يكون المسرح العالمي : حول الترجمة العربية لمسرحيات شيلر ، في : الحياة المسرحية . ٢٨ - ٢٩ / ١٩٨٦ ، ص ٩ - ١٨ .
- عيود ، عبده (١٩٨٧) : أين تقع أرض كندا ؟ النقاش العربي حول صهيونية كافكا . في : المعرفة ، ع ٣٠٤ ، تشرين ثاني - كانون أول ١٩٨٧ ، ص ٩٠ - ١١٥ .
- عيود ، عبده (١٩٨٨) أ) : في انتظار الدكتور فاستوس ٤ . في : تشرين ، ١٥ / ٦ / ١٩٨٨ .
- عيود ، عبده (١٩٨٨) ب) : البطن الذي تجب القاشية . الأسبوع الأدبي ، ١٨ / آب / ١٩٨٨ .
- عيود ، عبده (١٩٨٨) ت) : أرقفوا كافكا على قدميه . الضوaid ، المجلد الأول ، العددان الثاني والثالث ، أبريل ١٩٨٨ . ص ٥٥ - ٥٧ .

- غارودي ، روجيه (١٩٦٨) : والتمية بلا ضفاف ، ترجمة حليم طرسون ، القاهرة : دار الكتاب العربي .
- غوته ، يوهان فولفغانغ (١/١٩٨٠) : الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوي . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات ، ط ٢ .
- جيته (١٩٨٠ / ب) : آلام فائتر ، ترجمة أحمد حسن الزيات ، تقديم الدكتور طه حسين ، بيروت : دار القلم .
- الغيطاني ، جمال (١٩٨٠) : مذكرات نجيب محفوظ . في : المسيرة ، العدد ٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧- ٧٥ .
- كاتكا ، فرانز (١٩٥٧) : المسح ، ترجمة منير البعلبكي ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٧٩ .
- كاتكا ، فرانز (١٩٦٩) : القضية . ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكتاب العربي .
- كاتكا ، فرانز (١/١٩٧٠) : المحاكمة . ترجمة جورج منسي ، القاهرة : دار الكتاب الجديد .
- كاتكا ، فرانز (١٩٧٠ / ب) : أمريكا ، ترجمة المنسوقي فهمي ، القاهرة : دار الهلال .
- كاتكا ، فرانز (١٩٧١) : النضر ، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكتاب العربي .
- كاتكا ، فرانز (١٩٧٤) : بنات آوى وعرب ، ترجمة فيصل دراج وعصود موعد ، في : الوصف الأدبي ، العدد ٦/ ١٩٧٤ ، ص ١٢٤- ١٢٧ .
- كاتكا ، فرانز (١/١٩٨٢) : بنات آوى وعرب . ترجمة صلاح حاتم ، في : للفرقة ، العدد ٢٤١ ، آذار ١٩٨٢ .
- كاتكا ، فرانز (١٩٨٢ / ب) : سور الصين ، ترجمة د . سامي الجنتي ط ١ ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات .
- كاتكا ، فرانز (١٩٨٨) : « د ابن آوى وعرب » و « حلم » ، ترجمة : إلياس حنا إلياس ، عن الفرنسية ، مجلة « الكرمل » ، العدد ٢٦ / شباط ١٩٨٨ .
- كاتكا ، فرانز / اردوين ويلز (١٩٨١) : الحاكمة ، ترجمة ومحرر إبراهيم العريس ، بيروت : دار الطليعة .
- لوكاش ، جورج (١٩٧٧) : توماس مان ، ترجمة كميل قبصر دافر ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات .
- مان ، توماس (١٩٦١) : آل بوفتبروك . ترجمة عمود إبراهيم المنسوقي ، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة .
- مان ، هاينريش (١٩٥٩) : الملك الأزرق ، ترجمة صادق رشيد ، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر .
- مان ، هاينريش (١٩٦١) : الملك الأزرق ، ترجمة خيرات البيضاوي ، بيروت : دار العلم للملايين .
- مان ، هاينريش (١٩٨٧) : الخنوع ، ترجمة وتقديم : لطى نعيم ، بيروت : دار الرحلة .
- ماهر ، مصطفى (١٩٦٥) : هرمان هسه وعحة الثقافة المعاصرة . في : الفكر المعاصر ، العدد ١ ، آذار ١٩٦٥ ، ص ٥٩- ٦٨ .
- ماهر ، مصطفى (١٩٦٧) : القضية لكاتكا . في : قراءات الانسانية ، العدد ١ ، نوفمبر ١٩٦٧ ، ص ٨٠٧- ٨٣٠ .
- ماهر ، مصطفى (١٩٧٤) : لآلئها والعالم العربي ، ترجمها واظم لها د . مصطفى ماهر ، شارك في الترجمة د . كمال رضوان ، بيروت : دار صادر .
- ماهر ، مصطفى (١/١٩٨٣) : فارست في الأدب العربي المعاصر ، فصول ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، يوليو- سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ٢٣٨- ٢٤٧ .
- ماهر ، مصطفى (١/١٩٨٣) : الترجمة من الألمانية إلى العربية ، في : ٢٥ عاماً معهد غوته في القاهرة ، القاهرة : معهد غوته ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢- ٢٧ .
- ماهر ، مصطفى ولولفغانغ أوله (١٩٧٩) : مؤلفات الكتاب ألمان مترجمة إلى اللغة العربية سلسلة بيبليوغرافية ، بون- بادجودسبرغ ١٩٧٩ .
- مازور ، جورج (١٩٨١) : ماهر خاص بنا ، تصاكد ، ترجمة وتقديم : عادل قرشولي . بيروت .
- مكاري - عبد الغفار (١٩٦٨) : البلد الجديد . الشعر الأثني بعد الحرب العالمية الثانية . القاهرة ، دار الكتاب العربي .

- مكاري ، عبد الغفار (١٩٧١) : التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة .
- مكاري ، عبد الغفار (١٩٧٤) : ثورة الشعر الحديث . النصوص . القاهرة . الهيئة المصرية العامة .
- مكاري ، عبد الغفار (١٩٨٧) : قصيدة وصورة . الكويت . سلسلة «عالم المعرفة» .
- نجيب ، ناجي (١٩٧٥) : قصة توماس مان «آل بودينبروك» وثلاثية نجيب غلوط . في : فكر وفن ، المجلد ٢٥ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٧-٦٥ .
- نجيب ، ناجي (١٩٨٢) : جواب من استمباب غوته في العربية ، كيف استوعب العقاد فارست ، في : فكر وفن ، المجلد ٣٧ ، ١٩٨٢ ، ص ١١-١٦ .
- هلدراين (١٩٧٤) : مختارات من شعره ، تعريب فؤاد رلفة ، بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع .
- هيسه ، هرمان (١٩٦٨) : قصة شاب . ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكتاب العربي .
- هيسه ، هرمان (١٩٦٩) : لعبة الكريات الزجاجية ، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكتاب العربي .
- هيسه ، هرمان (١٩٧٣) : نذب البواقي ، ترجمة أنثاءة الحاشمي ، دمشق ط ١٩٧٣ ، بيروت : دار ابن رشد ، ط ١٩٧٩ ، ط ١٩٨٦ .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٢) : رحلة الشرق ، ترجمة محمود عدوان ، بيروت : دار الشروق .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٦ / ١) : سدا هارثا ، رواية ، ترجمة محمود عدوان ، عمان : دار منارات .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٨) : الشهود ، ترجمة محمد زفزاف ، مراجعة شفيقة مطر ، بغداد . دار الشؤون الثقافية العامة .
- هينك ، فالتر (١٩٨٣) : الدراما الحديثة في ألمانيا ، ترجمة وتقديم عبده عبود ، دمشق .



٢ - باللغات الأجنبية

- Abboud, Abdo (1984) : *Deutsche Romane im arabischen Orient*, Frankfurt/M.
- Bachmann, Peter (1985) : *Deutsche gedichte in arabischer Uebersetzung*. In : *sprache im technischen Zeitalter*, 96-1985, S. 267-271.
- Binder, Hartmut (Hg.) (1979) : *Kafka-Handbuch*, Stuttgart.
- Brockelmann, Carl (1942) : *Geschichte der arabischen Literatur*, 3. Supplementband, Leiden.
- Deutscher, Isaac (1966) : *Lukacs, Critique de Thomas Mann*. In : *Temps Modernes*, Nr. 241.
- Dib, Nahed (1979) : *Die Wirkungen des Stueckeschreibers B. Brecht in Aegypten*, Stuttgart.
- Dörmann, Helmuth (1981) : *Komparatistik Eine Einfuehrung*, Bonn.
- Fischer, Ernst (1975) : *Von Grillparzer zu Kafka*, Frankfurt a.M.
- Haffar, Nabil (1988) : *Arabische Brecht-Rezeption*, Berlin.
- Haywood, John F. (1971) : *Modern Arabic Literature 1800-1970*, London.
- Hesse, Hermann (1970) : *Gesamelte Werke*, Frankfurt a.M.
- Hilmi, Aladdin (1985) : *Arabische Goethe-Rezeption*, Bonn.
- Kaiser, Gerhard R. (1980) : *Einfuehrung in die Vergleichende Literaturwissenschaft*, Darmstadt.
- (Hg.) (1980) : *Vergleichende Literaturforschung in sozialistischen Laendern*, Stuttgart.
- Karasholi, Adel (1970) : *Das Lehrstueck "Die Ausnahme und die Regel"* und die arabische Brecht-Rezeption.
- Levy, Jiri (1969) : *Die literarische Uebersetzung Theorie einer Kunstgattung*, Bonn.
- Lexikon deutschsprachiger Schriftsteller (1974), Leipzig.
- Lukacs, George (1957) : *Thomas Mann*, Berlin.
- Mann, Heinrich (1976) : *Werkauswahl in zehn Baenden*, Duesseldorf.
- 1932-1976) : *The blue Angel*, Trns. Howard Fertig, New York.
- Mann, Thomas (1974) : *Gesammelte Werke in dreizehn Baenden*, Frankfurt-M.
- Mikawy, Abdel-Ghaffar (1976) : *Faustaufnahme in Aegypten*, in : D. Papenfuss und J. Soering, *Rezeption der deutschen Gegenwartsliteratur in Ausland*, Stuttgart.
- Mueller, Friedrich M. (1873) : *Deutsche Liebe Aus den Bluettern eines Fremdlings*, Leipzig.
- Merkel, Ulrich (1982) : *Zur Rezeption deutscher Gegenwartsliteratur in der dritten Welt*, in : K. Stocker (Hg.) : *Literatur der Moderne im Deutschunterricht*, Koenigstein-Ts.
- Reiss, Katharina (1971) : *Moeglichkeiten und Grenzen der Uebersetzungs - Kritik*, Muenchen.
- Ruediger, Horst (1981) : *Europaeische Literatur — Weltliteratur* In : *Komparatistik*, Hg. v. F. Rinner u.K. Zernischek, Heidelberg.
- Schmitt, Hans-Juergen (1978) : *Der Streit mit Georg Lukacs*, Frankfurt/M.
- Tibi, Bassam (1971) : *Zum Nationalismus in der dritten Welt am arabischen Exempel*, Frankfurt a.M.
- (1972) : *Sprachentwicklung und sozialer Wandel*, In : *Die Dritte Welt*, Nr. 4-1972.
- (1981) : *Die Krise des modernen Islam*, Muenchen.
- Wahrig, Gerhard (1980) : *Deutsches Woerterbuch*, Muenchen.
- Welsstein, Ulrich (1968) : *Einfuehrung in die Vergleichende Literatur — wissenschaft*, Stuttgart.
- Welzig, Werner (1970) : *Der deutsche Roman im 20. Jahrhundert*, Stuttgart.
- Youssef, Magdi (1976) : *Brecht in Aegypten*, Bochum.

شخصيات وآراء

لم أتهيب الكتابة عن فيلسوف قدر تهبي من الكتابة عن أبي حامد الغزالي فهو شخصية موسوعية لها مكانتها الدينية الرفيعة عند كل المسلمين . وما لهذا تهبيت ، إنما كان تهبي لأسباب أخرى أهمها أن الداخل إلى رحاب الغزالي إنما يسبح في بحر ماله نهاية والوصول إلى شاطئه وهم كبير ، فهبات لأحد أن يستطيع الإمساك بجوهر فكر هذا الرجل ، ربما لأنه هو نفسه قد صعب المهمة على كل قرائه ودارسيه بقلقه ونوتره الفكري الدائم ، فكانت انتقالاته المفاجئة والسريعة عبر رحلته الفكرية الطويلة من مجال فكري إلى آخر وهو في تلك الانتقالات يرى آراء قد تتناقض أحيانا وقد تتوافق أحيانا أخرى . إنه المتكلم ، والفيلسوف ، والمنطقي ، والفقيه ، والإمام ، والصوفي . إنه العقلاني صاحب منهج الشك . والمجادل الذي يباهي الجميع ويرضخون لحجته وقوة منطقته ، وهو صاحب الرؤى الصوفية التي تستعصي على الأفهام لكنها تمس وتر القلوب وتقربها إلى الله .

الغزالي ونظرية المعرفة

عطفى لنسار

كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم الفلسفة

لقد لخص الغزالي بشخصيته وبما كتبه الروح الاسلامية والفكر الاسلامي بصورة مركبة وفريدة . لقد أراد أن يغير بظموحه المحدود ويعقلته الفضة ونهمه الشديد هذه الروح ليصبح الشاهد الأول والآخر على الفكر الاسلامي . لقد أراد أن يكون مرآة ينظر فيها المسلم التقى العادي فيرى نفسه وينظر فيها المجادل والفيلسوف فيرى نفسه . وبأيت الأمر كان يسهل البساطة ولأننا إن الغزالي قد حقق ببراعة التوافق بين إسلام العوام وإسلام المجادلين والفلاسفة .

لكن الواضح أن الغزالي انتصر لاسلام العوام والمتصوفة ، وأعلن تكفير الفلاسفة في المسائل الخلافية الثلاث الشهيرة ، فاكتمب بذلك صفة لم يكتسبها غيره ، إنه الفيلسوف عدو الفلاسفة . . والعقلاني عدو

العقل ، فلماذا اجتمعت لديه هذه التناقضات ؟ وهل هي حقا تناقضات ؟ .

لقد قتل الباحثون الغزالي بحثا ودراسة ، وكادوا يجمعون على أنه رغم صعوبة دراسته ، فقد استطاعوا تتبع مشواره الفكري وتطوره الروحي فكان لهم أن أمسكوا بالحيط الفكري الذي ارتقى فيه الغزالي من احترام للحسوس والمقول الى الشك فيهما ثم هجر علم الكلام والفلسفة على السواء وارتاح أخيرا الى طريق التصوفة والى يقين الرؤى الصوفية . وبالطبع فإن دليلهم القوي على ذلك كان ما قدمه الغزالي نفسه من وصف لتطوره الفكري والروحي في « المنقذ من الضلال » .

لكنني أتشكك كثيرا في هذا الإجماع ، وأنظر الى هذا الوصف لتطور الغزالي الفكري على أنه وإن كان تطورا تاريخيا لحياته ، فإنه لا يعطي الدلالة الكافية على جوهر فكر الغزالي لسبب أراه واضحا أمامي هو أن صاحبنا تحت ضغط عوامل وظروف فكرية وسياسية واجتماعية كثيرة لم يكن في جوهره هو الإمام المتصوف السني التقليدي الذي يرسم للناس حياتهم بالمسطرة والفرجار - على حد تعبير أستاذنا د . زكي نجيب محمود^(١) ويصور لهم كيف يتأكلون وكيف يشربون وكيف يتزاجون .. الخ . إن الظن بأن الغزالي هوفي النهاية الإمام المتصوف السني ظن خاطيء في اعتقادي .

إن الغزالي فيلسوف بكل ما تحمله الكلمة من معان عقلانية وشككية وتحليلية إنه صاحب الموقف الفلسفي الفريد في تراثنا الاسلامي ، ذلك الموقف الاصيل ذي الأبعاد العميقة التي قد تخفى كثيرا على من درجوا على

تسطيح الغزالي ونسبته مرة الى المتكلمين ومرة الى الفلاسفة واعتبروه في هذا وذاك مجرد رجل دين مخلص .

إن إخلاص الغزالي للدين الاسلامي كان أعمق من كونه فقيها أو متصوفا . إن إخلاصه يبدو أكثر ما يبدو في إدراكه بحسه الحضاري القذ أنه لا بد من وقفة نقدية خالصة مع كل التيارات الفكرية التي يروج بها العصر . وكان أخص خصائص هذه الوقفة انها كانت وقفة فلسفية عقلانية متميزة اعتبرها بحق علامة على أصالة الغزالي الفكرية بحيث تضعه دون أدنى جمالية في مصاف أعظم الشخصيات الفكرية في تاريخ الفلسفة العالمية . وتبدو أول عناصر هذه الاصلة الفكرية من النظر في أطوار حياته الفكرية لا كما رواها هو فقط ، بل كما يجب أن نفهمها بربطها بظروف عصره ومحاولة استكشاف ما بين سطوره وقد حوت الكثير مما لم يقله صراحة .

إنه أبو حامد الغزالي الذي ولد في منتصف القرن الخامس الهجري أي سنة ٤٥٠ هـ في مدينة طوس إحدى مدن خراسان^(٢) . ويمكن التأريخ لحياته الفكرية على أنها مرت بأطوار أساسية ثلاثة : أولا : طور النشأة والتلمذة ، ويمتد هذا الطور من يوم مولده حتى عام ٤٧٨ هـ . وقد ولد الغزالي لأب كان فقيرا متصوفا لا يأكل الا من عمل يده في غزل الصوف ، ويختلف الى مجالس الفقهاء والمتصوفة في أوقات فراغه ليأخذ عنهم ويقوم على خدمتهم . ولما بلغ الغزالي الابن أشده تعلم القراءة والكتابة ، وحينما توفي والده وهو ما يزال صغيرا تعهد بتربيته واستكمال تعليمه هو وأخيه أحد أصدقاء والدهما الذي أنفق على تعليمهما مما معه من مال أبيهما ، ولما نفذ المال وكان الرجل فقيرا أوصاهما بالالتحاق

(١) د . زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري : دار الشروق القاهرة - بيروت - بدون تاريخ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ وأيضاً في ص ٥٧ وما بعدها .

(٢) انظر : في حياة الغزالي : د . سليمان ديبا : الحقيقة في نظر الغزالي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠م ، الفصل الثاني ، ص ١٨ وما بعدها .

وتزوج وأنجب . وقد ظل الغزالي في نيسابور الى وفاة
إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ ، فغادرها بعدها وكان قد بلغ
الثامنة والعشرين من العمر . واختلف المؤرخون حول
سبب مغادرته نيسابور فمنهم من يرى أن السبب في ذلك
هو تسمم الجو العلمي من حوله حيث خلق له نبوغه
خصوصا وحاسدين ، ولكن يرى آخرون أنه غادرها لكي
يذهب الى المعسكر حيث حكم نظام الدولة ، ذلك
الوزير السلجوقي الذي كان يقدر العلم والعلماء تقديرا
خاصا .

وربما يكون السبب في تقديري مزيجاً من هذا وذاك ،
فقد رأى نفسه وقد مات أستاذه وبقي تلاميذه لا يستفيد
منهم شيئا ووسط جو علمي غير مشر .

وأيا ما كان السبب الذي جعله يغادر نيسابور
فيمغادرته لها تبدأ المرحلة الثانية من أطوار حياته الفكرية
التي تمتد من عام ٤٧٨هـ الى عام ٤٨٨هـ ، وهو طور
الاستاذية ، حيث عاش في هذه الفترة حياة المعلم
دائما ، وإن كان قبل ذلك قد ألقى دروسا وعلم إلا أنه
مع ذلك كان يجلس كتلميذ أمام أستاذه إمام الحرمين .

وقد تحقق للغزالي ما أراد من اتجاهه إلى المعسكر
واقامته فيها حيث إقامة نظام الملك الذي كان أعلى رجل
في الدولة السلجوقية مكانة وجبا للمعلم ، وكان قد أسس
العديد من المدارس في مدن مختلفة لتشجيع العلم
والعلماء .

وقد اعترف الجميع هناك للغزالي بقوة الحجّة واتساع
المعرفة وطار اسمه في الأفاق ما جعل نظام الدولة يولييه
مهمة التدريس في مدرسته النظامية ببغداد عام
٤٨٤هـ . وقد أمضى الغزالي تلك السنوات في عقد
مجالس المناظرة والجدل بغية الوصول الى الحقيقة مع

يلحدي المدارس التي كانت تمد الوافدين إليها بما يلزمهم
من نفقات ليواصلوا تعليمها .

بدأ الغزالي دراساته بتعلم الفقه في بلدته على يد
الراذكاني الطوسي ، ثم سافر الى جرجان وهو لم يبلغ
العشرين بعد ليتعلم في مركزها العلمي على يد نصر
الاسماعيلي حتى علق عنه التعليقة (وهي مجموعة كتب
في خلافة) في الأصول وعاد بها إلى طوس . وقد حدث له
في طريق عودته ما لم ينسه قط حيث هاجمه اللصوص
وأخذوا كل ما معه ولما حاول أن يرد تعليقاته التي هاجر
لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها من زعيم اللصوص قال
له : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك
فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ لقد جعلته هذه
الحادثة - من فرط حبه للمعلم والمعرفة - يحفظ كل ما
يعرفه . وقد قضى في طوس ثلاث سنوات حتى حفظ
جميع ما في تعليقاته . وما إن انتهى من ذلك حتى بدأ
رحلة أخرى في طلب العلم حيث اتجه الى نيسابور
ليلتقى عن ضياء الدين الجويني إمام الحرمين ورئيس
المدرسة النظامية الزاخرة بشي المعارف . وقد كان له ما
أراد حيث وجد هناك أصلح الغذاء لعقله المتعطش
ولنفسه التواقعة الى كل جديد في المعرفة والعلم .

لقد كان شيخه المذكور من خف فيهم قيد التقليد
فصار ذلك محركا للفترة الغزالية ومشعلا لتلك النار
الطوسية ، فجد واجتهد في تحصيل تلك العلوم التي
كانت مشهورة ومعتمدة في ذلك الوقت فأتى عليها جميعا
من فقه وأصول وعلم كلام ، وخلاف وجدل . ولذلك
قال بعض المؤرخين إن هذه الفترة التي قضاها الغزالي في
نيسابور تعد من أخصب أيام حياته العلمية ، فقد برع
في اثنتائها في المنطق والجدل وعرف مناهج الفلاسفة
وكتب وألف لأن معلوماته كانت قد تركزت واتضحت ،
وعقليته قد نضجت واثمرت . وكان قد استقر به الحال

وظل على هذا الحال من التردد حوالي ستة أشهر الى أن « جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطراب إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس »^(١) . واحتار الأطباء حتى انقطع أملهم في علاجه ، فكانه كان أمرا إلهيا ، وكان على العبد الامتثال حيث انتهت حيرة الغزالي أخيرا ، اذ سهل الله على قلبه الإعراض عن الدنيا بجاهها ومالها وأصحابها ، فقرر السفر من بغداد وفرق ما كان معه من مال ولم يدخر منه « إلا قدر الكفاف وقوت الاطفال »^(٢) ومغادرته بغداد يبدأ الغزالي مرحلة جديدة من حياته .

إنه الطور الثالث من حياته الفكرية الذي يمتد من نهاية عام ٤٨٨هـ حتى وفاته عام ٥٠٥هـ . ونستطيع أن نطلق عليه طور العزلة والتصوف ، حيث ترك بغداد ليهيم على وجهه باحثا عن مكان يخلو فيه إلى نفسه واتجه إلى الشام حيث قضى ما يقرب من سنتين يقول انه قضاهما « لا شغل له الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى »^(٣) . وقد كان يقضي وقته معتكفا في مسجد دمشق . وقد انتقل من دمشق إلى بيت المقدس لنفس الغرض حيث كان « يدخل الصحرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه - بعد هذه المدة التي قضاهم جادىء النفس مستقر المقام مع الله - دعاء داعي الحج فاتجه الى مكة ليؤدي فريضة الحج ويستمدت البركات منها ومن المدينة حيث زيارة رسول الله عليه الصلاة والسلام »^(٤) .

التلاميذ والأتباع . كما أنه بلا شك قد قضاهم يكتب ويؤلف ويبدو أنه قد انشغل انشغالا شديدا في تلك الفترة بمحاولة التماس الحقيقة التي اختلفت حولها الفرق الأربعة التي تقاسمت الساحة الفكرية فيما بينها آنذاك وهي المتكلمون ، والفلاسفة ، والتعليمية (أي أصحاب الامام المصنوع) والصوفية .

وقد أجهد الغزالي نفسه إجهادا شديدا في تقصي الحقيقة بين هذه الفرق فكان أن حصل كل آرائها ورد عليها فرقة بعد أخرى . وقد حكى لنا كيف تنقل بين هذه الفرق تفصيلا في « المنقذ من الضلال » .

على أي حال ، لقد انتهى إلى التشكيك في كل شيء حتى في مهنته مهنة التدريس التي عافتها نفسه أخيرا ، فهو لم يعد يطلب الجاه وانتشار الصيت فقد تحقق له بلا شك . لكن الذي حيره كثيرا هو كيف يتخلص ببساطة من كل هذه العلائق التي ربطته ببغداد وبالمدرسة النظامية وبالتلاميذ والأتباع . لقد كان في واقع الامر مترددا بين أن يظل على ارتباطه بالدنيا وبين الانجاء كلية إلى العمل من أجل الآخرة ، فهو يصف حاله آنذاك بقوله « لم أزل أفكر في الامر مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا يرحم عليها جند الهوى حلة فتفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تمجاذبي بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي الرحيل ! الرحيل ! »^(٥) .

(٣) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال : القاهرة : مكتبة الجدي ، ١٩٧٣م ، ص ٧١ .

(٤) نفسه ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٥) نفسه ، ص ٧٤ .

(٦) نفسه ، ص ٧٤ .

(٧) نفسه ، ص ٧٥ .

والسلب ظهرت الأفكار الإيجابية لديه حيث اختار في النهاية طريق الصوفية كحياة تقترب بها إلى الله .

ولقد أدى الغزالي رسالته بتمرير المنطق - رغم الحملة الشديدة عليه من غلاة الفقهاء - والباسه ثوبا إسلاميا في « القسطاس المستقيم » . كما حاول جر الفلاسفة إلى أن يكونوا إسلاميين بدلا من اقتصرهم على متابعة فلاسفة اليونان تلك المتابعة التي جعلتهم يخالفون دينهم في تلك المسائل الثلاث (إنكار بعث الأجساد - إنكار علم الله بالكلييات - القول بقدوم العالم)^(٩).

وكان في ذلك مثالا للمسلم الحق الذي يعي أن الاسلام ليس كما يردد غلاة الفقهاء ورجال الدين - ضد العلم ، بل هو دعوة أصيلة إلى العلم إذ أن « الحق لا يضاد الحق » كما كان يردد دائما .

أما ثاني هذه الملامح في حياة الغزالي الفكرية ، فهي سعة الأفق والإيمان العميق بحرية الفكر ، لقد كان في ذلك مثالا للفيلسوف الحق ، كما كان مثالا للإمام المجتهد الحق . لقد كان يخوض المعارك الفكرية مع غلاة المتكلمين من الشيعة والباطنية وكذلك مع الفلاسفة الخارجين على دينهم ، وكذلك مع المشركين والملحدين دون حق أو جحود لفضل أحدهم . لقد كان يتمثل جيدا الآية الكريمة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، كما كان يعرف أهمية الالتزام بأصول وقواعد الجدل والبرهان ويعتبرها ليس فقط إنجازا أرسطيا يونانيا ، بل لقد بلغ من جرأته وقوة منطقته وعقده معرفته أن استخرجها من القرآن الكريم . وأكد في « القسطاس المستقيم » أنها موازين قرآنية للمعرفة والبرهان^(١٠).

ولما شعر بعد ذلك أنه إما اتجه إلى الله كلية ، ولن يؤثر فيه عودته إلى الأهل والوطن عاد وكان في عودته حريصا على « الخلوة وتصفية القلب بالذكر » رغم بعض الانشغال « بحوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش » التي كانت تشوش عليه صفوة الخلوة^(١١).

وقد ظل على هذا الحال بين التمتع بصفوة الخلوة والأخذ بأسباب الحياة والتغلب على عواطفها مدة عشر سنوات استطاع خلالها أن يتوصل بما انكشف له أثناء تلك الخلوات إلى اليقين المقتبس من نور مشكاة النبوة . إنه يقين الصوفية الذي أخذ الغزالي يعلمه لتلاميذه ومريديه في نيسابور . وشتان بين ما كان يعلمه لتلاميذه في أستاذته الأولى في حياة أستاذه إمام الحرمين ، وبين ما يعلمه لهم الآن ، إنه يعلمهم الآن العلم الذي به يترك الجاه وحب الدنيا . لقد مكث الغزالي في نيسابور ما شاء الله أن يمكث ثم انتقل إلى مسقط رأسه طوس فلم يبرحها حتى وفاته في عام ٥٠٥ هـ بعد حياة حافلة بالمعارك الفكرية والشاعر الروحية الفياضة . وقد تميزت حياة الغزالي الفكرية بملامح ثلاثة :

أولها إحساسه منذ صغره أنه صاحب رسالة ، فقد كان من الذكاء منذ صباه بحيث أدرك أن الاختلاف والصراع بين الفرق المتناحرة فكريا في عصره إنما يتطلب منه محاولة حسم هذا الصراع . ولم يكن ذلك ممكنا إلا بمواصلة البحث والدرس ليل نهار حتى يصل إلى حقيقة هذه الفرق وجوهر ما تدعو إليه بنفسه ، وخرج من هذا البحث الضمني برفض ما تدعو إليه معظم هذه الفرق . وعبر عن ذلك الرفض في مؤلفات عديدة منها « فضائح الباطنية » و « عتبات الفلاسفة » . ومن الرفض

(٨) نفسه .

(٩) انظر في ذلك : الغزالي : مباحث الفلاسفة وكذلك : الطغ من الضلال : ص ٥٢-٥١ .

(١٠) انظر : الغزالي : القسطاس المستقيم : المنشور في « القصود العوالي من رسائل الغزالي » ، الجزء الأول ، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، مكتبة الجندى - القاهرة بدون تاريخ ، ص ٩ وما بعدها .

وأراد بذلك أن يثبت لعامة الناس أن دفع الحجة بالحجة ، وأن تقديم البرهان والدليل والاستدلال ، إنما هو دعوة قرآنية يجب أن يتمسكوا بها .

لقد كان يعني أن الاسلام رسالة عامة لجميع البشر ، وأن المواجهة الحضارية بينه وبين غيره من الأديان والفلسفات إنما أساسها الجدل بلا تعصب ، والفهم بلا مغالاة ، والإبداع بدلا من الاتباع ، والاجتهاد بدلا من الجمود . وإذا كان البعض سيحتج على ما نقول به « إحياء علوم الدين » ، فإن الغزالي في « الإحياء » كان يرسم حياة المسلم العادي الطريق السوي . أما أرباب العلم وعيو الجدل والفكر فلهم شأن آخر . أليس هو القائل في نفس الكتاب « وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشغلوا بعبادتهم ومعاشهم ، ويتركوا العلم للعلماء »^(١١) . أليس هو القائل في « المفضن به في غير أهله » : « أعلم أن لكل صناعة أهلا يعرف قدرها ومن أهدى نفائس صنعة إلى غير أربابها فقد ظلمها »^(١٢) . ومصدق ذلك ما قاله في مستهل « الاقتصاد في الاعتقاد » في إطار بيانه لأقسام الكتاب والغاية منه « أنه ليس مهما لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين »^(١٣) .

أما ثالث تلك الملامح الفكرية في حياة فيلسوفنا ، فقد كانت الصدق مع النفس الذي كان السبب المباشر في هذه الأصالة الفكرية في التراث الإسلامي .

فالغزالي لم يفتخر الطريق السهل ولم يركن إلى الحقائق الجاهزة لدى أي فرقة من الفرق العديدة في عصره . لقد كان صادقا مع نفسه حينما أجاز بأننا إنما يشك في ادعاءات أصحابها ، وأن عليه أن يفحص تلك المبادئ التي يؤمنون بها ، وأن يبحث عن الحقيقة بعقله الواعي الذي لا يسلم بالمرور ، وقبله المفتوح لكل الآراء . ولقد حكى لنا الغزالي بكل الصدق مع النفس هذه التجربة الفريدة في رحلة البحث عن الحقيقة وما لاقاه فيها من متاعب وشكوك إلى أن استقر به المقام أخيرا وارتاح عقله الوثاب وهذات عواطفه الثائرة .

إن هذه التجربة التي عاشها الغزالي وعبر عنها بصدق ووعي ، وكانت على حد علمي أول وصف لرحلة البحث عن الحقيقة لدى فيلسوف بعد « الرسالة السابعة »^(١٤) لأفلاطون ، لو اعتبرناها أدخل في هذا المجال رغم أنه كتبها لصديقه وتلميذه ديون دون قصد لأن يؤرخ فيها حياته الفكرية كما فعل فيلسوفنا .

وقد تابعت في مطلع العصر الحديث المؤلفات الفلسفية التي حكى فيها أصحابها تجاربهم ورحلتهم الفكرية ، وكان من أشهر هذه المؤلفات كتابا ديكرات « مقال عن المنهج » و « التأملات »^(١٥) حيث كان التشابه الشديد بينها وبين ما قدم الغزالي في « المنقذ من الضلال » يؤكد - دون أدنى شك لدي - تأثر الفيلسوف[❦] الفرنسي بفيلسوفنا الإسلامي وأخذ عنه .

(١١) الغزالي : إحياء علوم الدين : الجزء الثامن ، ص ٦٣ .

(١٢) الغزالي : المفضن به في غير أهله : المنشور في : القصور العوامي من رسائل الغزالي ، الجزء الثاني ، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، مكتبة الجندی ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٠م ، ص ١٢٥ .

(١٣) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد : تحقيق مصطفى البراني الدمشقي الطبعة الأدبية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٢٠ هـ ، ص ٣ .

(١٤) انظر : Plato : Letter VII in "Phaedrus and Letters VII and VIII, translated by W. Hamilton, Penguin Books, (١٤)

(١٥) انظر : مقدمة تحقيق : ميار الطم في فن المنطق للغزالي ، ص ٨ .

لقد قال فيلسوفنا : « لقد عظم على الدين جنائية من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار العلوم الرياضية وأمثاله من البرهانيات ، اذ ليس في الشرائع تعرض لهذه العلوم ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية ، ولأن ما أدى إليه البرهان لا يعارض الدين الصحيح إذ الحق لا يضاد الحق » .

أما الفريق الثاني ، الذي يتبع الفلاسفة دونما تمحيص أو مناقشة ، فقد رد عليهم بأن الدين لو كان حقا - وهو حق - ما خفى على هؤلاء الفلاسفة مع دقة علومهم وغزارة معارفهم ورزاقه عقولهم .

وهذا الرد الذي قدمه الغزالي على الفريقين - كما يقول صاحب مقدمة « معيار العلم » - له وجهان ، الأول إنكار نسبة الجحود إلى الحكماء إذ قد اتفق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الايمان بالله واليوم الآخر وإنما الخلاف في التفصيل .

الوجه الثاني : أنه لا يلزم من أصابه مشكلة الحق في موضوع إصابته في سائر المواضع ، ولا يجب أن يكون الحاذق في صنعة حاذقا في بقية الصنائع ، فلا يلزم من إتقان الرياضيات احكام الاهيات مثلا . ومن ثم فإن تقليد الفلاسفة في دعاويهم وأدلتهم جميعا قابل للتزعزع بمواصف الاعتراض والرد . ولذلك فقد ألف الغزالي نهافت الفلاسفة ليعرف هؤلاء المشاهير بالشرائع فساد التشرع الى قبول كل ما يروى ويسمع دون اجراء مناقشة فيه وتحريك للذهن في مجاريه^(١٦) .

وكما رد الغزالي على الفلاسفة وأثبت بعض جوانب غلثاتهم للاسلام وحذر الناس من متابعة طريقهم بلا

على أي حال ، لقد انعكست هذه الملامح في فكر الغزالي ، اذ نلسمها في كل جانب من جوانب اهتماماته الفكرية ، فقد واجه عصره الفكري بذلك وشجاعة نادرين وعبر عن هذا العصر خير تعبير في نفس الوقت الذي أصبح فيه بعد ذلك مسيطرا سيطرة تكاد تكون تامة على الفكر الإسلامي طيلة ثمانية قرون ولا يزال هو الإمام ووجهة الاسلام إلى يومنا هذا .

ويمكن أن يكون فهما للغزالي أعمق إذا ما قسمنا الحديث عن فلسفته الى قسمين :

القسم الاول : هو الجانب النقدي السلبي ، والقسم الثاني : هو الجانب الإيجابي البنائي . أما الجانب الأول ، فقد ركز الغزالي فيه على نقد الفرق المتطرفة من منطلق واحد هو إخلاصه للاسلام وكان في نقده تزيها موضوعيا . لقد نظر في موقف الناس من الفلسفة والفلاسفة فوجد أنهم فريقان متطرفان ، فريق ينكر على الفلاسفة جميع علومهم حتى ما كان منها يدهي الصحة واضح البرهان ، أما الفريق الآخر فيقبل كل ما يسمعه عنهم بحسن الظن ولمجرد التقليد ، فكان أن هاجمها الغزالي ونقد تطرف الفريق الأول حيث أوضح أن الدين ، إذا كان ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب الى الحكماء وادعاء غلظهم في جميع أقوالهم حتى

إنكار مثل قولهم في الحسوف والكسوف ، رغم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، كان الدين إذن مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، وهو مما لا يشبهه في فساد .

مناقشة أو تمحيص ، فقد كشف عن أضاليل الباطنية ورد عليهم جملة وتفصيلا في « فضائح الباطنية » بعد أن استكشف أسرار مذهبهم من خلال ما كتبوه من كتب ومقالات كانت كالشرر المستطير سريع الانتشار في ذلك العصر ، فقد استفحل أمر الباطنية في عصره دينيا وسياسيا وبحث دعاة الاسماعيلية من قبل الدولة الفاطمية في مصر للدعوة الى الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » ضد الخليفة العباسي خليفة كل المسلمين « المستظهر بالله » . ولذلك فقد استهدف الغزالي من رده عليهم التقليل من خطرهم الديني والسياسي معا^(١٧) .

ولقد كان أهم نقاط رده عليهم ما يتعلق بإبطالهم نظر العقول واعتمادهم المطلق على عصمة الإمام إذ يبطل ذلك الرأي ووجوب التعليم . وقد جاء رده مستخدما الحجة المنطقية والبرهان العقلي حيث يقول مستكبرا اعتقادهم « كل ما عرفتموه من مذهبكم : من صدق الامام وعصمته ويطلان الرأي ووجوب التعليم بماذا عرفتموه ؟ ودعوى الضرورة غير ممكنة . فيبقى النظر والسمع . وصدق السمع أيضا لا يعرف ضرورة فيبقى النظر ، وهذا لا يخرج عنه . »^(١٨) انه يؤكد في ذلك أنهم لا يملكون دليلا عقليا على عصمة الامام ، فما بالنا بالدليل العقلي الديني ، إن مثل هذا الدليل لا يوجد على الإطلاق ، إذ ليس هناك معلم معصوم بعد صاحب الشريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإنه قد أبان طريق الرشاد وأوضح المحجة وأكمل الحجة وأتم الإرشاد والتعليم « اليوم أكملت لكم دينكم » .

وإذا كان ذلك الجانب من الرد يتعلق برفض رأيهم من زاوية الدين ، فإنه ألزم للناحية الدنيوية ، ويصدق أكثر على العلوم النظرية العقلية ، فليس في العقيدة ولا في الفطرة ما يمنع تعلمها واختلاف الرأي فيها كما أنه لاجابة فيها مطلقا لمعلم معصوم بل الحاجة هنا لمعلم متخصص في هذا العلم أو ذاك بشرط عدم تبعية المتعلم وتسليمه بكل ما يقال ، فالغزالي لا يرضى عن المتعلم التابع فإن كان المعلم ضروريا في أي علم نظري فليأخذ المتعلم من معلمه الطريق والأدلة ثم يرجع العاقل فيه (أي فيما تعلم من منهج المعلم وأدلته على آرائه) الى نفسه فيدركه بنظره . وعند هذا فليكن المعلم من كان ولو أفسق الخلق وأكذبهم . فإننا لسنا نقبله بل نتنبه بتنبهه فلا نحتاج فيه لمعصوم »^(١٩) .

وقد أكد الغزالي في مقابل جمود هؤلاء عند آراء ما يسمونه بالمعلم أو الإمام المعصوم حتى لا يتخطط الأمر على العامة وتتذبذب عقيدتهم ، أكد على ضرورة اختلاف الرأي إذ أن « الفقهاء لا بد فيها من اتباع الظن فهو ضروري ، كما في التجارات والسياسات وفصل الخصومات للمصالح ، فإن كل الأمور المصلحية تبني على الظن » .

والمعصوم كيف يغني عن هذا الظن ، وصاحب الشريعة (أي النبي) لم يغن عنه ولم يقدر عليه بل أذن في الاجتهاد وفي الاعتماد على قول أحد الرواة عنه وفي التمسك بعموميات الألفاظ ، وكل ذلك ظن عمل به في عصره ومع وجوده فكيف يستقيم ذلك بعد وفاته^(٢٠) ؟

(١٧) انظر : مقدمة د. عبد الرحمن بدوي : لكتاب الغزالي : فضائح الباطنية ، مؤسسة دار الكتب العلمية ، الكويت بدون تاريخ ، ص. ج .

(١٨) الغزالي : فضائح الباطنية ، ص ٨٦ .

(١٩) نفسه : ص ٧٨ .

(٢٠) نفسه : ص ٩٦ .

ولكن أي طريق سلك هذا الفقي الذي ولع بالسعي إلى إدراك حقائق الأمور منذ صغره ؟؟ .

إنه طريق العقل ، لقد اتبع منهجا عقليا يقوم على فكرتين أساسيتين ، فكرة « الشك » وكثرة « الحدس الذهني » . وهاتان الفكرتان يعبر عنهما فيلسوفنا تعبيراً شافياً ضافياً حينما يقول « إن العلم اليقيني هو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى منه ريب ، ولا يقارنه إسكان الغلط والوهم لا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين لو تحدى باظهار بطلانه . مثلاً من قلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإن إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقبل هذه العصا ثعباناً وقلبيها وشاهدت ذلك منه لم أشك بسبب في معرفتي ، ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فاما الشك فيها علمته فلا . » (٢٢) .

وإن كان ذلك كذلك فيما يتعلق بأنه يقبس « العلم اليقيني » بالانكشاف والحدس الذهني الذي « لا يبقى معه ريب » فأين مرحلة الشك من ذلك ؟! إنها بالتأكيد مرحلة سابقة منطقياً على هذا اليقين العقلي الواضح بدهاة ودون حاجة لدليل ، لكنها عند فيلسوفنا لم تأت إلا بعد إدراكه السابق لماهية العلم اليقيني . وحيث أنه فتنش بعد إدراكه لمعنى العلم اليقيني في علومه فوجد نفسه عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة الا « في الحسيات والضروريات » ومن هنا فقد وثق في المحسوسات وعلق عليها أمل الوصول الى ذلك « العلم اليقيني » . وقد عبر

أمكن بعد هذا النص الرائع من حجة الاسلام أن نطلب من دعاة الجمود والركود والموات عند كل قديم أن يتحرروا وأن يرفعوا القيود التي وضعوها على عقولهم وأن يزيلوا الغشاوة عن أعينهم ، وأن يتمثلوا لرأي الامام ؟

على أي حال ، لقد استطاع الغزالي ببراعة أن يرد على حجج الباطنية كما رد من قبل على حجج الفلاسفة فيما يتعلق بالمسائل التي خرجوا فيها عن الدين ردوداً قاطعة وباستخدام مناهجهم العقلية البرهانية إن استخدموها ، ومستنداً على الأدلة القرآنية إن استندوا إليها .

ولاشك أن آراء الغزالي الإيجابية قد خرجت من جوف هذه المعارك الفكرية التي خاضها . ولأن بحره كما قلنا من قبل تمتد امتداداً يكاد يكون لا نهائياً فإننا سنقتصر حديثنا على أهم ما نراه مثلاً للروح الغزالية الحقة ، إنه المنهج ! منهج المعرفة الذي يعبر بصدق عن روح الغزالي الفكرية المغامرة الحرة التي إن دخلت إطار منهج معين استنفدت كل سبله واستخلصت نتائجها وحينما تستشعر أنه قد ضاق بطموحاتها تنفضه عن نفسها وتغادره الى منهج آخر أكثر سعة وأكثر إثباتاً لليقين وأكثر إدراكاً للحق .

ولنترك فيلسوفنا يعبر عن شغفه بالإمسك بالحقيقة فيقول « لقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعت في جبلي ، لا باختيارٍ وحبلي حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد شرح الصبا » (٢٣) .

(٢١) الغزالي : المقادير من الضلال . ص ٢٥ .

(٢٢) نفسه : ص ٢٦ .

عن ذلك قائلاً « فأقبلت بجذ بلع أنامل في المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً^(٢٣) . وأخذ هذا الشك يستسع فيها ويقول : من أين الشقة بالمحسوسات ؟^(٢٤) .

إذن لقد بدأ الغزالي طريق البحث عن الحقيقة من الثقة في الحس والمحسوسات لكنه لم يلبث أن وجد أن شكوكاً تحيط باستخدام أدوات الحس في المعرفة بعد أن شكك من قبل في التقليديات الموروثة .

وقد عبر عن هذه الشكوك من خلال إبراز التناقضات التي تقدمها لنا أدوات الحس وبخاصة البصر فهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والملاحظة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنتظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويغويه تكذيباً لا سبيل الى مداغته^(٢٥) .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد انتقل الى البحث في العقل ومعارفه « فلعلة لا ثقة الا بالمقلات التي هي من

الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً واجباً محالاً .^(٢٦) وسرعان ما ثارت الشكوك في نفس الفيلسوف حول قيمة هذه الأوليات العقلية ، إذ يصور لنا الغزالي الصراع الذي صار بين الحس والعقل ، فإن كان العقل قد شكك من قبل في قيمة الحس ، فإن الحس يشير الفيلسوف ضد العقل حيث يتخيله الغزالي يقول : « بم تأمن أن تكون ثقتك بالمقلات كثفتك بالمحسوسات

وقد كنت واثقاً بي فجاء العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ فلعن وراء إدراك العقل حاكماً آخر ! . .^(٢٧) .

وقد تمهل فيلسوفنا في الحكم على المقلات وأخذ يتأمل المشكلة حيث « توقف النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأبدت أشكائها بالتمام وقالت أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا شك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها . لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة اليها ! فإذا

(٢٣) هو يعصده هنا أنه بدأ يشكك في قيمة المحسوسات بعد أن شكك قبل ذلك في التقليديات ، أي في كل ما هو تقليد أصي ما كان شاعراً في مصره ، حيث كان كل مولود ينجع أمه لأن كان أبواه يبرون أسبوحاً عربياً ، وأن كان من النصارى يصبح نصرانياً . . وهكذا . (انظر المخط : ٢٥ - ٢٦) .

(٢٤) نفسه : ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢٥) نفسه : ص ٢٩ .

(٢٦) نفسه : ص ٢٩ .

(٢٧) نفسه .

ولا يظن أحد أن تلك التجربة المعرفية التي عاشها فيلسوفنا الاسلامي كانت مجرد تجربة نفسية خرج منها إلى يقين الصوفية دوماً إعلاء لشأن العقل الانساني وقدرته على الوصول إلى اليقين ، فلقد كانت تلك التجربة - رغم أبعادها الشعورية النفسية التي وصفها صاحبها - تجربة واعية بأهمية دور الخواص والعقل في المعرفة .

لقد كان على وعي كامل بضرورة إعمال العقل الفردي في كل ما ورثه الإنسان من معتقدات وآراء .

لقد أكد الغزالي قبل ربنيه ديكارت وكذلك قبل فرنسيس بيكون أن صدق الفكرة لا يقام على قائلها مهما يكن شأنه ، بل يقام على البرهان . انظر إلى قول الغزالي في « ميزان العمل » : « من الناس من يقولون الرأي عن هوى ، ثم يتعللون بأنه مذهب فيلسوف معروف كأرسطو وأفلاطون ، والأغلب أن من يسمع لهم لا يطالبهم ببرهان لموافقة قوهم لطبعه . . . إنه لمن العجب أن السامع للخبر المنقول له على هذا النحو لا يطالب الناقل ببرهان أكثر من نسبة الخبر إلى صاحبه ، مع أنه لو كان يجده عن أمر يتعلق به خسران درهم لا يصدق إلا ببرهان » . انظر إليه يقول « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم

وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها » (٢٨) .

كان ذلك هو موقف الغزالي من « الحس » و « العقل » كأداتين للمعرفة وتحليله لدى صدق ما ينقلانه من معارف لنا . وفي ذلك فليقتارن القارئون ما وسعته المقارنة بين فيلسوفنا وبين ديكارت أبي الفلسفة الحديثة في حالة الشك التي عاشها وفي كيفية انتقالها منه إلى اليقين . وإنك لواجد فقرات بأكملها من « منقذ » الغزالي تشابه حقيقياً مع فقرات من « تأملات » ديكارت ومن « مقالة عن المنهج » أحياناً أخرى (٢٩) .

لقد عاش الفيلسوفان نفس التجربة المعرفية تقريباً ، ويبقى للغزالي السبق الزمني والأصالة غير المسبوقة . كما سبق له صدق تجربته وحيويتها حيث عاش فترة شك التي دامت على حد تعبيره « قريباً من شهرين » في معاناة فكرية حقيقية بينما كان شك ديكارت شكاً منهجياً مفتعلاً حيث اتخذ من الشك منهجاً متعمداً يفرغ من خلاله كل محتويات عقله من المعتقدات الموروثة لكي يعرضها على ميزان الحس والوضوح الذاتي ، فما اتضح صدقه وضوحاً لا يمتثل لأي شك يؤمن به ويعتقد فيه .

(٢٨) نفسه : ص ٣٠ .

Descartes, Discourse on Method and the Meditations . translated by F. E. Sutcliffe, Penguin Books, 1976. (٢٩) انظر :

لقد وجدت لها وجدت بعد ما كتبت هذه الكلام من قام بهذه المقارنة عزم مقام وهو د . محمود حمدي زلزوق في كتاب « المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت » ولشد ما دعت من أنه شغل بنفس القضية التي تردت في إلهامها بوضوح وهي قضية تأثير ديكارت بالغزالي وحمل قرأ ديكارت « منقذ » الغزالي ما لا ١٢ . ولقد كتب د . زلزوق نتائج بحثه في هذه القضية في مقدمة الطبعة الثالثة حيث كتب عن أن أحد الباحثين الفرنسيين وهو الكعكاد قد عثر بين عتبات مكتبة ديكارت الخاصة بباريس على ترجمة لكتاب « المنقذ » للغزالي ووجد أن ديكارت قد وثق عند عبارة الغزالي الشهيرة « والشك أول مراتب اليقين » ووضع تحته خطاً آخر ثم كتب على الحاشيا ما نصه « وبذلك ذلك إلى منهجاً » . (انظر : د . محمود حمدي زلزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة - الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م ، ص ٢٦) .

ولست أجد أي مجال للتشكيك في هذه الروايات حيث أن ذلك واضح للعيان إذا ما وضعت نعروض ديكارت السابق الإشارة إليها ونص الغزالي . ولست أمري من قليل ولعبد النظر في فهم الغزالي لا على أنه مذهب الفلسفة في الشرق .

كما نعيد النظر فيمن يلقب بأبي الفلسفة الحديثة في أوروبا ، فليس من شك أن الغزالي لو كان قد فهم جيداً لكان له نفس التأثير الذي كان لديكارت ، فليج هو نفس المنهج ، والمدرسة الأرسطية التي هاجمها ديكارت هي نفسها التي هاجمها الغزالي بإيجاز قبله بخمسة قرون .

ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال (٣١) .

ولست أجد فيلسوفاً عقلانياً قدم حججاً ضد خداع الحواس ونصر العقل تفوق ما قدمه الغزالي ؛ فلقد حصر في « مشكاة الأنوار » نقائص الحواس ممثلة في إحداها وهي حاسة الإبصار فوجدها سبعة : أما الأولى : أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ويدرك صفات نفسه ، إذ يدرك نفسه علماً وقادراً ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعمله بنفسه . . . أما الثانية : أن العين لا تبصر ما قرب منها قريباً منقطعاً ولا ما بعدها ، والعقل عنده يستوي القريب والبعيد ويعرج في طرقة إلى أعلى السموات رقياً وينزل في لحظة إلى تخوم الأرض هويماً بل إذا حققت الحقائق انكشف أنه منزوع عن أن يحوم بجنتيات قدسه القرب والبعد الذي يعرض بين الأجسام فأنه أتموذج من بحور الله تعالى ولا يحل الأتموذج من محاكاة وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساواة . . . أما الثالثة : فهي أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب والعقل يتصرف في العرش والكروني وما وراء حجب السموات وفي الملأ الأعلى والملكوت كتصرفه في عالمه الخاص به وعملكته القريبة أعني بها الخاصة به بل

الحقائق كلها لا تحجب عن العقل وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه . . . أما الرابعة : فهي أن العين لا تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوايلها وصورها دون حقائقها والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائق أرواحها ويستنبط أسبابها وعملها وحكمها . . . أما الخامسة : فهي أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ولا تدرك الأصوات ولا الروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة أعني قوة السمع والشم والذوق بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد . . . السادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات . والأجسام لا تتصور أن تكون متناهية . . . أما السابعة : أن العين تدرك الكبير صغيراً فترى الشمس في مقدار حجر والكواكب في صورة دنائير مثبورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة . . . (٣١) .

(٣٠) هذه النصوص نقلت عن : د. زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول . ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . وقرآن هذه النصوص بما ورد عند ديكارت في : Descartes : Dis- course on Method : ch. I, p. 33-34, Ch. 2, P. 39;40.

والنظر نفس الواضع في الترجمة العربية : المقال من المجلع ، ترجمة محمود الحصري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، ص ١٦١ وما بعدها . وقرآن أيضاً : Bacon F. : Novum Organum : in "Great Books of the Western world", ed. R. M. Hutchins, vol. 30, The University of Chicago, Chicago; 1952, ch.I,ff.

والنظر : ما قاله هنا د. زكي نجيب محمود في المعقول واللامعقول ، حيث أقام مقارنة بديعة بين ما قدمه الغزالي من عناصر منهجية خطيرة في التفكير وبين ما قدمه ديكارت ويهكون ، وقد أكد من هذه المقارنة أساليب الغزالي بخمسة لرون هابن الفيلسوفين الغربيين في تقديم الأساس المنهجي الصحيح للتفكير العلمي . (ص ٣٢٠ - ٣٢٥) .

لقد أكد أن الغزالي صاحب منهج يكاد يجمع كل أطراف المنهج الرياضي عند ديكارت والمنهج التجريبي عند يهكون . إذ يكاد لا يكون في منهجيه نقطة واحدة لم يوردها الغزالي شرطاً من شروط النظر العلمية التي نشر أصولها على صفحات كتبه تترأ ، . (ص ٣٢٠)

(٣١) الغزالي : مشكاة الأنوار : تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، في : القصور العالي من رسائل الغزالي ، الجزء الثاني ، مكتبة الجندى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٠م ، ص ٨ - ١٠ .

التخلص من نوازع الوهم والخيال إلا بعد الموت ، اللهم إلا إذا صفت النفس معه واستطاعت قطع علاقتها بالعالم المحسوس وبالطالب الدنيوية . وهذا الصفاء العقلي - النفسي يتيح للإنسان مرتبة أعلى وأعظم من المعرفة المباشرة بالحقيقة ، تلك المعرفة التي لا تحتاج « لنظم دليل أو ترتيب كلام » وهي تتم « بتوريقه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف (٣٦) » .

لقد وصل الغزالي بنا هنا الى أرقى الدرجات المعرفية ، إنها درجة « الحدس الصوفي » التي تتضاهل الى جانبها المعرفة الحسية أو المعرفة العقلية الاستدلالية . إن هذا الحدس أو الكشف الصوفي يتيح المعرفة بما لا يمكن أن تعرفه الحواس وما يعجز عنه العقل .

ولست أرى هنا ما يراه معظم الدارسين للغزالي من أنه قد أبطل الحواس والعقل لصالح هذا « الحدس الصوفي » ، وإن استندوا في رأيهم هذا الى الكثير مما قاله الغزالي في ذلك ، والذي عبر عنه بوضوح في « القسطاس المستقيم » بقوله : « أما ميزان الرأي والقياس ، فحاشا لله أن اعتصم به فإنه ميزان الشيطان (٣٧) » ، فإني أدعوه أن يستكملوا قوله في

وبالطبع فإن تأثير الغزالي هنا بأرسطو واضح ، ولست أشك في أنه قرأ كتاب « النفس » أو أحد شروحه أو ربما قرأ ما كتبه فلاسفة الإسلام كالفارابي أو ابن سينا وكانوا في ذلك متأثرين كثيراً بما نقلوه عن أرسطو ؛ فما عدده الغزالي من تصور في إدراكات العين الحسية ، ومقارنته بين الإدراك الحسي مثلاً في الإبصار وبين الإدراك العقلي موجودة بصورة أو بأخرى في كتاب « النفس » والكتاب الأول من « المبدأ فيزيقا » لأرسطو (٣٨) .

وعلى أي حال ، فقد عبر الغزالي عن هذه الحجج ضد الحواس تعبيراً واضحاً وأضاف إليها الكثير من عنده . كما استنتج منها أن « العقل أولى بأن يسمى نورا (٣٩) » .

واستنتج أيضاً أن « العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه (٤٠) » لكن رغم هذه المكانة الرفيعة التي أعطاها الغزالي للعقل في نظريته للمعرفة إلا أنه لم يتغافل عن نواقصه ، وأكد محدوديته فقد أضاف بعد كلماته السابقة أن « تجرده من هذه النوازع بعد الموت وعند ذلك يتكشف الغطاء وتنجلي الأسرار (٤١) » .

لقد أكد فيلسوفنا أن العقل الانساني لا يمكنه

(٣٦) انظر : أرسطو : كتاب النفس : ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٥٤م ، ك ٣ - ف ١ وما بعده ، ص ١٠٨ وما بعدها . وانظر كذلك كتابنا : نظرية المعرفة عند أرسطو ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٨٧ وما بعدها .
وأيضاً : « Great Books of the Western » ، translated by W.D. Ross, in pp. 980a-983a, Aristotle, *Metaphysics*, B.I-Ch. I-2, pp. 499-501.

(٣٧) الغزالي : نفس المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣٨) نفس : ص ١١ .

(٣٩) نفس .

(٤٠) الغزالي : المنقذ من الضلال . ص ٣١ .

(٤١) الغزالي : القسطاس المستقيم . ص ١٠٠ .

ويدي بدلوه فيه وليكشف ما استطاع أن يكتشف من أسرارهِ وليقتن ظواهرهِ ويسطر على مقدراتهِ . لكن ليُقف العقل عند هذه المرتبة ولا يتعداها إلى ما لا يمكن أن يأتيه اليقين فيه ألا وهي الأمور الغيبية .

وما أشبه الغزالي هنا بكناط الفيلسوف الألماني العظيم في القرن الثامن عشر حيناً حدثنا في « نقد العقل الخالص » عن حدود المعرفة العقلية فأكد أن العقل الانساني « محمل بأسئلة لا يستطيع بطبيعته نفسها أن يعرض عنها ، ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يجيب عنها لأنها تتجاوز كل ما يملك من طاقات » (٤١) .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليتوقف العقل الإنساني عن الجدل فيما لا يستطيع أن يصل فيه إلى يقين ، وليسلم من زاوية عملية أخلاقية - بوجود هذه الحقائق على أنها افتراضات أو مسلمات للعقل العملي ، وعلى رأس هذه المسلمات مسلمة وجود الله وخلوده النفس (٤٢) .

إن الغزالي ، وهذا شيء يخصه ، قد ارتضى في النهاية أن يكون صوفياً رغبة في التقرب إلى الله لأن « الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة وإن

نفس الموضع » ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة فأسأل الله تعالى أن يكفيني شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل (٣٨) . فهو هنا كما في كل المواضع التي يرفض فيها ميزان العقل إنما يرفض تدخل العقل في مناقشة الأمور الغيبية الإلهية إذ أن « هذه دقائق لا تدرك إلا بنور التعليم المكتسب من إشراق عالم النبوة » (٣٩) . ففي أمور الدين الغيبية يحذرن الغزالي بقوله : « إياكم أن تجعلوا المعقول أصلاً والمنقول تابعاً ودينياً فإن ذلك شنيع منفر . . إياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتهلكوا وتضلوا وتضلوا » (٤٠) .

لقد اطمأن الغزالي إذن إلى « الحدس الصوفي » لأنه وجد فيه المنهج الأصلي لإدراك جوهر هذه الأمور الغيبية بما يقضيه الله للإنسان من كشف للحجب بعد طهارة القلب ونقاء السيرة وصفاء العقل . لكنه لم يقصد مطلقاً في أي مرحلة من حياته الفكرية إلى التقليل من شأن الحواس أو العقل ، فلكل منها ميدانه الذي يصلح ويحول فيه دوماً قيد ، فللحواس أن تعرف الظاهر وتسلم معارفها للعقل الذي يحكم ويستدل ويحول ويحول في ميدان المعقولات وأفاق الكون الشاسع يتأمله

(٣٨) نفسه .

(٣٩) نفسه : ص ١٢ .

(٤٠) نفسه : ص ٨٠ .

(٤١) كناط : نقد العقل الخالص : نظرية مأخوذة من ترجمة د . عثمان أمين لبعض نصوص من كناط في كتابه : رواد المثالية في الفلسفة الغربية : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ١٨٨ .

(٤٢) كناط : نقد العقل العملي : انظر نفس المرجع السابق للدكتور عثمان أمين ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

عليها باب الغيب ، فالتفكر إذا سلك طريق الصواب يصير من ذوي الأبواب وتفتح روضة من علم الغيب في قلبه فيصير عالماً جافلاً ملهاً يؤيد^(٤٤) .

بلى إن الغزالي قد احتج بالعقل على المتصوفة المتطرفين القائلين بحالة الفناء والاتحاد ، أولئك الذين إذا « سكروا سكرًا وقع دونه سلطان عقولهم قال بعضهم : أنا الحق وقال الآخر : سبحان ما أعظم شأني . وقال الآخر : ما في الجنة غير الله » . لقد احتج عليهم بالعقل قائلًا : « فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد » .^(٤٥) .

فكان الغزالي إذن يريد أن يؤكد أن من الممكن أن يتكشف للصوفي ما لا يمكن للعقل إدراكه ، ولكن ليس من الممكن إطلاقاً أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاستحالة . فالعقل هو الميزان الذي يقضه الله للإنسان ليقبس مدى صدق معارفه ووضع الحدود لها .

إن الغزالي إذن فيلسوف عقلاني في المقام الأول . يعرف حدود الحس كما يعرف حدود العقل ، كما يعرف

سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقيهم أدكى الأخلاق^(٤٦) . لقد ارتضى هذا الطريق الصوفي وذلك المنهج الجدلي الكشفية إيماناً بأنه الطريق الأصوب للتقرب إلى الله ، وبأنه المنهج الأفضل في تلقي المعرفة اليقينية الملائمة لطبيعة موضوعها وليس في هذا أي تحج على العقل أو رفض لعلومه . ولا كثر ما نقلناه عنه من قبل^(٤٧) لقد عظم على الدين جنائياً من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، ولأضفت إلى ذلك قوله في « المنقذ » ، « أما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا بل هو النظر في طريق الأدلة والمقاييس . . وإن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر^(٤٨) » . وقد يندهش البعض إذا ما قلنا إن للعقل - عند الغزالي - دوراً أساسياً بالنسبة للطريق الصوفي ، إذ أن العلم اللدني لا يكون في نظره إلا بعد استيفاء « ثلاثة أوجه أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

والثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة .

والثالث : التفكير فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكرت في معلوماتها بشروط التفكير يفتح

(٤٣) الغزالي : المنقذ من الضلال . ص ٧٥ .

(٤٤) نفسه : ص ٤٩ .

والنظر كذلك : معيار العلم في فن المنطق : دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٣ م ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٤٥) الغزالي : الرسالة اللدنية : منشورة بإجازة الثالث من « القصص الغزالي من رسائل الغزالي » ، ص ١٢٢ .

(٤٦) الغزالي : مشكاة الأنوار . ص ١٩ .

من ينبغي أن يتوقف كلامهما ، وتكون المعرفة بعد ذلك إن أردنا مواصلة الطريق - موكولة للحدس الصوري ، الذي هو درجة معرفة عليا - تأتي بعدما تستوفي طرائق المعرفة الأخرى عملها وتحصل النفس علمها - كما أنه في الوقت نفسه موقف من الحياة واتجاه بالكلية إلى الله . ولذلك فهي درجة مقصورة على قلة قليلة من الناس هم خواص الخواص .

لقد قدم الغزالي نظرية في درجات المعرفة تميزت بالمحافظة على المستويات ووضع الحدود ، كما تميزت بأنه استلها بعدما استخلصها بعقليته الفلسفية إلى الإسلام

واستخرج معالمها من « القرآن » . فكان أول من حاول بحق أسلمة نظرية المعرفة . وفي تصوري أن هذا هو جوهر ما حاوله الغزالي من جهد مضى على مدار مؤلفاته وخاصة في « القسطاس المستقيم » الذي حاول فيه أسلمة المنطق و « المنقذ من الضلال » الذي قدم فيه تجربته المعرفية حجة محاولاً أسلمة المعرفة .

وفي هذا الإطار الجديد فليتأنس الباحثون في درس الغزالي وفهمه دونما حدود . فهو عبقرية فلسفية إسلامية أصيلة لم تلق بعد الإنصاف الذي تستحقه من الدارسين المتخصصين سواء في الفلسفة أو في الدين رغم آلاف الصفحات التي كتبت عنه شرقاً وغرباً .



تقصد هذه الدراسة إلى تبيان مسيرة الإنسان في سعيه
 الدؤوب وراء الحقيقة ، فمنذ العصر التقليدي
 (الكلاسيكي) للمعرفة أخذ الحكماء في الاعتماد المطلق
 على التأمل الذهني ، وإعمال الفكر المنظم طلباً لطبائع
 الأشياء وجواهرها ، ووقوفاً على دقائق خصائصها
 وخواصها ، وما يمتزجها من أحوال الاستحالة والثبات .
 ولقد نزع الفكر الإغريقي إلى اعتبار أن العقل بأفواته
 ومقولاته هو المصدر الوحيد للمعرفة ومن ثم قام المذهب
 الفلسفي ، وما صاحبه من أنظمة منطقية منسقة ،
 وأفكار تصورية منسجمة ، تعمل بتجريد للمعاني
 الكلية من الموجودات الحسية . بيد أن هذا النهج
 لا يؤدي إلا إلى أحكام ذهنية كلية قد لا تتماشى مع ولا
 تطابق العالم الخارجي المتشخص ، ولا توصل إلا
 لبراهين ليست بالضرورية يقينية .

مسيرة الحضارة من شك التجريد إلى يقين التجريب

جمال شوقي

عيد كلية الهندسة - جامعة قطر

وما إن دوت صيحة الدين الجديد الذي يندفع إلى
 المشاهدة والتأمل ، والتفكير والتدبر ، والتقصي
 والتحليل ، ويحس على طلب العلم ، وأخذ المعرفة ،
 وتوخي الحقيقة ، ويشجع على سبر الأغوار وارتداد
 الأفاق ، والنظر في ملكوت الأرض والسموات ،
 والاعتبار بحكم الآيات ودقيق المشاهدات ، ما إن
 دوت هذه الصيحة حتى تحرر الفكر من سلطان التجرد
 والتجريد ، وانجبه إلى يقين الشهود والتجريب ، ليتحول
 ركب الحضارة عن المذهب الفلسفي إلى المنهج
 العلمي ، فمن معالم هذا التحول الهام ، الذي دفع
 بالحضارة الإنسانية دفعة هائلة إلى الأمام ، يدور محور
 حديثنا ، ويتركز مبلغ همتنا ، ويرجى وفاء قصدنا .

ومن ثم فإن الرازي يقرر أن ادراك الحقيقة لا يمكن التوصل إليه إلا بالانتماء عن الحوى ، وإحكام العقل . وعن هذا الأخير يقول الرازي في كتابه « الطب الروحاني » (٥) :

« إن الباريء - عز اسمه - إنما أعطانا العقل ، وحيانا به ، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والأجالة ، غاية ما في جواهر مثلنا نيله وبلوغه ، وإنه أعظم نعم الله عندنا ، وأنفع الأشياء لنا ، وأجداها علينا .

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق ، حتى ملكناها وسسناها وذللتناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها .

وبالعقل أدركنا جميع مايرفعا ، وبحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل إلى بغيثنا ومرادنا .

فلأننا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها إلى ماقطع وحال البحر دوننا ودونه ، وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا ، النافعة لنا . »

لقد أدرك الرازي تماما خطر العقل وأهميته ، وأعتبره أحد المصادر الرئيسية للمعرفة ، ولم يمنع الرازي من أن يكون الوحي والإلهام والكشف مصدرا لمعرفة ، على عكس مذاهب إليه الأشعري الذي جعل العقل آلة للإدراك فحسب ، ورأى أن الوحي هو مصدر كل معرفة .

هذا وقد اتخذ الرازي منحى عقليا متحررا ، وانتهج طريق الشك المنهجي في مناقشته للقضايا العقلية ،

الثبت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التفوق ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك البر واليقين ، وطردك ذلك اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة ... »

٢ ر ١ - من أقوال « الكندي » فيلسوف العرب
يقول يعقوب بن إسحق الكندي (حوالي ١٨٥ - ٢٦٠/٤٦ هـ) = (٨٠١ - ٨٧٣/٦٠ م) في رسالته الفلسفية (٣) :

« ينبغي أن يعظم شكرنا للآتين يسير الحق ، فضلا عن أن يكثير من الحق ، إذ أشركونا في ثمار فكرهم ، وسهلونا لنا المطالب الحقية ، التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية ، فإن ذلك إنما يجتمع في الأعصار السالفة المتقدمة ، عصرا بعد عصر إلى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإثارة التعب في ذلك ... »

وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المبائية لنا ، فإنه لاشيء أولى بطالب الحق من الحق .

٣ ر ١ - من أقوال « الرازي » طبيب الإسلام
يقول أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٢٥٠ - ٣١٣ هـ) = (٨٦٤ - ٩٢٥ م) في كتابه « الطب الروحاني » (٤) :

« إن أشرف الأصول وأجلها وأعوها على بلوغ غرض كتابنا هذا قمع الحوى ، ومخالفة مائدعو إليه الطباع في أكثر الأحوال ، وتغريم النفس على ذلك . »

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ، المجلدات ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٤) صفحة ٢٠ .

(٥) المجلدات ١٨ ، ١٩ .

وذلك بقصد التثبت من الأمور ، ويكون بذلك قد سبق كلا من الإمام أبي حامد الغزالي^(٦) ، والعالم وبنيه ديكارت^(٧) في هذا المنحى .

٤ - ١ - من أقوال « ابن الهيثم » عالم البصريات
يقول الحسن بن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ) =
(٩٦٦ / ٥ - ١٠٣٩ م) في كتابه « المناظر »^(٨) :

« ... ونجعل غرضنا في جميع مانتقريه وتنصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، وتتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا نهتدى بهذا الطريق إلى الحق الذى به يتلج المصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات . »

ويقول ابن الهيثم في صدر كتابه « الشكوك على بطليموس »^(٩) :

« الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق إليه وعمر ، والحقائق منمسة في الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء طباع في جميع الناس . »

فالتاظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه ، وجعل غرضه فهم ماذكروه وغاية ما أوردوه ، وحصلت الحقائق عنده ، وهي الممان التي قصدوها ، والغايات التي أشاروا إليها ، وما عزم الله العلماء من الزلل ، ولا حوى علمهم من التقصير والخلل .

ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور . والوجود خلاف ذلك ، فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين ، المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم ، وطلب الحق هو المتهم بظنه منهم ، المتوقف فيما يفهمه عنهم ، المتعجب الحجة والبرهان ، لا قول القائل الذى هو انسياق المخصوص في جبلته بضروب الخلل والتقصان . »

ويستطرد ابن الهيثم قائلا :

« والواجب على الناظر في كتب العلوم - إذا كان غرضه معرفة الحقائق - أن يجعل نفسه خصيا لكل من ينظر فيه ، ويحيل فكره في متنه ، وفي جميع حواشيه ويغصمه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتمم أيضا نفسه عند خصامه ، ولا يتحامل عليه ، ولا يتسرع فيه ، فإنه إذا سلك هذه الطريق انكشف له الحقائق ، وظهر ماعساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبهة . »

٥ - ١ - الشك المنهجي عند ابن الهيثم
دأب الحسن بن الهيثم على التشكك في الآراء والأقوال السابقة عليه حتى يتيقن منها بطريق التمهيص والتجريب ، فهو يعلق حكمه حتى تثبت له التجربة صحته ، فيتحول عن الشك إلى اليقين . ولا أدل على هذا المنهج المتشكك من قول ابن الهيثم^(١٠) :

« إن لم أزل منذ عهد الصبا مرتابا في اعتقادات الناس المختلفة ، وتسل كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا في جميعه . »

(٦) (٤٣٠ - ٥٠٥ هـ) = (١٠٣٩ - ١١١١ م) .

(٧) عاش في الفترة من ١٥٩٦ إلى ١٦٥٠ م .

(٨) مخطوط مكتبة الفاتيكان بستانبول - رقم : ٣٢١٢ - المجلد الأول - الورقة رقم (٤) مكرر .

(٩) تصور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

(١٠) من كتاب « ديوان الأبيات » طبقات الأعلام ، لأحد من الناسم بن أبي كسيمة (٦٠٠ - ٦٦٨ هـ) = (١٢٠٣ - ١٢٦٩ م) ، الجزء الثالث ، الصفحات ١٥٤ ، ١٥٥ .

أصحاب علم التعاليم حل تلك الشكوك ، وكشف فسادها وصحة المعاني للشكك فيها »

٣- طرق المعرفة ومناهجها

لعله من المناسب بسل ومن الضروري - ونحن نتحدث عن المعرفة - أن نعرض بإيجاز إلى بيان مصادر المعرفة ، فنقول إنه من الممكن أن نعدد هذه المصادر على النحو الآتي :

- ١ - طريق الحواس من سمع وبصر وغيرهما ،
- ٢ - طريق الإدراك بالوجدان ، كالشعور باللذة والألم ، والجوع والشبع ، والظما والارتواء ، والفرح والحزن ، والغيظ والحقد ، والانهاج والاكتساب ، والتفاؤل والتشاؤم ، وما إلى ذلك من مشاعر .
- ٣ - طريق العقل ، كالعلم ، ويشمل البدييات . ويمكن تقسيم العلم إلى قسمين رئيسيين هما :
- العلم المعقول ،
- والعلم المنقول .
- ٤ - طريق الاستنتاج بالمنطق استنادا إلى طرق المعرفة الثلاثة المتقدمة .
- ٥ - طريق الإجماع والوحي الإلهي بدءا بتعليم آدم الأسما كلها ،
كما جاء في قوله تعالى :
« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة . . . »
(سورة البقرة - ٢ : ٣١)
« الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان »
(سورة الرحمن - ٥٥ : ١ - ٤)

ويقول أبو علي الحسن بن الهيثم في المقالة الأولى من صدر كتابه الموسوم : « في حل شكوك كتاب إقليدس في الأصول وشرح معانيه » (١١) :

« كل معنى تغمض حقيقته ، وتخفى بالبدئية خواصه ، ويشابهه في بعض أحواله غيره ، فالشك متسلط عليه ، وللمعاند والمشتكك طريق مهيح إلى معاندته والظعن عليه ، وخاصة العلوم العقلية والمعاني البرهانية ، إذ العقل والتمييز مشترك لجميع الناس ، وليس جميعهم متساوي الرتبة فيها ، وليس يدعن واحد من الناس لغيره فيما يدعى صحة بالقياس ، ولا تصح دعواه في نفسه إلا بعد أن يصح له ذلك المعنى بقياسه وتمييزه الذي استأنفه هو ، وتشكل صحته في عقله . والعاجز المقصر الضعيف التمييز ليس تشكل صحة المعنى المعقول في عقله في أول تمييزه ، بل هو في أكثر الأحوال يسرع إليه التشكك في صحته ، ثم إذا طال الفكر والتمييز ظهرت له حقيقته ، وربما لم ينته مع غاية اجتهاده وإطالة الفكر فيه إلى معرفة حقيقته ، فأكثر ذوي العقول والتمييز الصحيح فضلا عما هو دونهم إذا مر بأحدهم معنى من المعاني اللطيفة والحقائق الخفية فليس تظهر له تلك الحقيقة بالبدئية ، وإذا لم تظهر له الحقيقة ، فقد عرض له التشكك ، فالتشكك واقع لأكثر الناس في المعاني الخفية .

ومن جملة المعاني اللطيفة التي من العلوم الحقيقية التي لا يشك الناس في صحة براهينها المعاني التي يشتمل عليها كتاب إقليدس في الأصول ، وهذا الكتاب هو الغاية التي يشار إليها في صحة البراهين والمقاييس ، ومع ذلك فلم يزل الناس قديما وحديثا يتشككون في كثير من معاني هذا الكتاب وكثير من مقاييسه ، ويتكلف

(١١) خطوط مكتبة جامعة استنبول ، القسم العربي ، رقم ٨٠٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده
 الصالحه الاول في كتاب الحسن بن الحسن
 وحاشا لك انك لا تدري في الاصول شرح معانيه
 كل معني تخفى حقيقته وتعلم بالبرهان فيه واضه ويشابه في بعض
 الجوانب غير ذلك فالتشابه مشكوك عليه والمعاد والمشتكك طريق تفتيح
 الى المعاني والطريق عليه وحاصله العلوم والعقل والمعاني
 البرهانية اذا العقل والهمز مشترك لجميع الناس وليس جميعهم
 مساوون الرتبة فيها وليس يرفع عن الحد من الناس لغيره مما يدعي
 صحته فانما هو ولا تفتيح دعواه في نفسه الا بعد ان يوضح ذلك
 المعنى بهما سده ومفرد الذي استأنفه هو وتشكك صحته في
 عقله والهاجز المقصر الضعيف الهمز ليس تشكك في صحة المعنى
 المعصوم في عقله في اول تمييزه بل هو في الاصل والسير الى
 التسكك بجملة ما اذا طال الفكر والتمييز ظهرت له حقيقة
 وزمانه من غواية اجتهاده واطاله الفكر فيه الى معرفة
 والكرزوى العقول والسير الصحيح فلهذا من هو وتمامه اذا فهمنا
 معنى من المعاني اللطيفة والحقائق الخفية وليس تطهر له تلك

شكل (١) - الصفحة الأولى من كتاب (في حل شكوك كتاب القليس في الأصول وشرح معانيه ، مخطوط مكتبة جامعة استانبول - القسم العربي ، رقم ٨٠٠ .

ومحصيله ، وإنما تتركز فائدته في ترتيب الأدلة وتنظيم الأقيسة .

٢١٢ - المنهج العلمي أو التجريبي أو الوضعي

يقوم هذا المنهج على المشاهدة والتجريب ، والرصد والتحليل والاستقراء ، للتوصل إلى الحقائق التي يشهد بها الوجود الخارجي . وعلى ذلك فإن هذا المنهج يوغل في الواقع ، بعكس المنهج الفلسفي أو النظري الذي يعتمد على العقل وحده للتوصل إلى كنه الأمور ، وسبر غور الكون والخلق والحياة .

إن المذهب القائل بإمكان التوصل إلى الحقيقة باعتماد منفرد على العقل وحده مع إعمال قوانين المنطق هو مذهب غير صحيح ، إذ أننا لا بد وأن نلجأ إلى المدركات الحسية وأن نتفاعل مع الواقع ، ولانجسح بالكلية إلى التجريد ، والتجرد من الموجودات الحسية ، فلاحقيقة علمية دون تجريب وشهادة حس مع إعمال فكر .

وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في مقدمته :

« ... ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة انغلظ لكثرة مافيه من الانتزاع ، وبمعدنها عن المعسوس ، فإنها تنظر في المعقولات الشوائب ، ولعل المواد فيها مامانع تلك الأحكام وينافيه عند مراعاة التطبيق اليقيني . »

وعن المنطق يقول ابن خلدون في موضع ثان من مقدمته :

« ووجه قصور هذا العلم ، أن انطباقه بين النتائج الذهنية التي تستخرج بالمنطق ، وبين ما في الخارج ليست يقينية . »

« اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »

(سورة العلق - ٩٦ : ٣ - ٦)

٦ - طريق الكشف لعباء الله الصالحين ، من أصحاب المجاهدات ، ويشمل الرؤيا الصادقة .

هذا وتشمل المدركات أربع مجموعات هي : المحسوسات ، والمعقولات ، والمتخيلات ، والموهومات .

٢١ - المناهج الأساسية للمعرفة

يمكن التعرف على منهجين أساسيين للمعرفة هما :

٢١١ - المنهج الفلسفي ، أو المنهج النظري ، أو التجريدي

ويعتمد هذا المنهج على إعمال العقل في إطار مجموعة من الأقيسة المنطقية ، والتأمل الفكري المنسق ، دون النظر بالضرورة إلى حقائق الوجود الخارجي ، ويعرف هذا المنهج أيضا بالمنهج الاستقرائي المنطقي ، أو المنهج الأرسطي ، نسبة إلى أرسطو أو أرسططاليس الملقب بالمعلم الأول (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) ، وهو المنهج الذي اتصفت به حضارة الإغريق .

إن النتائج الذهنية التي يتوصل إليها بهذا المنهج مأمية إلا استنتاجات نظرية ظنية لا تغني بالضرورة عن الحق واليقين شيئاً . وفي هذا المعنى يقول عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في مقدمته : « إن المطابقة بين الأحكام الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة ، وبين ما في الخارج من الأعيان ليست يقينية . »

إن المنطق - وإن صلح كأداة لتنظيم المعرفة ، وتصحيح العلم - إلا أنه لا يشكل وسيلة لاكتساب العلم

كذلك أورد جابر بن حيان في كتابه « الصنعة الإلهية والحكمة الفلسفية » رأيه فيها يجب أن يكون عليه من يشتغل بالكيمياء ، فكتب يقول :

« يجب على المشتغل بالكيمياء أن يعرف السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهم التعليمات جيداً ، لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، كما يجب ألا يحاول عمل أى شيء مستحيل أو عديم النفع . .

ويجب أن يكون هو صبوراً مثابراً لاتغره الظواهر ، فيعجل باستنباط النتائج » .

ويقول جابر في إحدى رسائله^(١٢) :

« إننا نذكر في هذه الكتب خواص مآربنا فقط دون ماسمئنا ، أو قيل لنا وقرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه ، فمماصح أوردها ، وما بطل رفضناه ، فمن كان دريا كان عالماً حقاً ، ومن لم يكن دريا لم يكن عالماً حقاً . » .

على هذا النحو تحولت الكيمياء - على يد جابر بن حيان - من مجرد بحث فلسفي نظري عند الإغريق إلى علم عملي قوامه التجربة أو الاعتبار أو الدربة ، والملاحظة ، والتثبت قبل الاستنتاج ، فيكون جابر قد ساهم بذلك في إرساء قواعد المنهج العلمي التجريبي في عصر سابق جداً على عصر النهضة الأوروبية ، حال كانت أوروبا تمر بأحلك أيامها ، في تلك الحقبة التي عرفت فيها بعد بالعصور المظلمة ، ولم يكن لعلمائها أن يأخذوا بهذا الأسلوب العلمي إلا بعد قرون عدة .

٢٠٣ - المنهج العلمي عند ابن الهيثم

اتخذ الحسن بن الهيثم التجربة والقياس سبيلاً

وعن الأحكام اليقينية يقول ابن خلدون في موضوع آخر من مقدمته :

« وإن العقل ميزان صحيح ، وأحكامه يقينية في أمور الحسن والتجربة . . »

لاشك أن المنهج العلمي هو وليد الحضارة الإسلامية ، فهي التي أفرزته ، وهي التي فطنت إليه ونادت به وطبقته ، فأصبح سمتها البارزة وطابعها المميز ، ونسوق فيمايلي بعض أمثلة للتدليل على صحة وأحقية نسبة « المنهج العلمي » أو « المنهج التجريبي » للحضارة الإسلامية ، ويتضح ذلك من الأدلة الكثيرة المتعددة التي تشتمل عليها كتابات علماء المسلمين وأعمالهم . ولاغرو فقد وقف المسلمون على أهمية إجراء التجارب في بحوثهم ، وذلك منذ فجر حضارتهم .

٢٠٢ - المنهج العلمي عند جابر بن حيان

إن عالم الكيمياء العربى الذائع الصيت أباً موسى جابر بن حيان الصوفي (حوالى ١٢٠ - ١٩٨هـ) = (٧٣٧ - ٨١٣م) قد آمن إيماناً عميقاً بنأهمية إجراء التجارب كسبيل علمي دقيق للوقوف على الحقائق ، ويؤثر عنه قوله :

« وأول واجب في الكيمياء أن تعمس وتجرى التجارب ، لأن من لايعمل ويجرى التجارب لايعصل إلى أدنى مراتب الإقتان .

فعلينا بنينا بالتجربة لتصل إلى المعرفة » .

ويعزى إليه قوله :

« واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة ، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها » .

(١٢) « رسائل جابر بن حيان » ، نشر بول كراوس ، مطبعة الخاتمي بالقاهرة ، سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م . الصفحات : ١ - ٣٠ .

الاستمرار في حركتها ، وأورد في سياق هذا التمثيل قوانين التصادم ومعامل الارتداد ، وقوة الحركة ، أي كمية الحركة . وقاس ابن الهيثم انعكاس الضوء على تصادم الأجسام ، وبذلك يكون قد استكمل عناصر المنهج العلمي من تجريب وتحليل واستقراء وقياس وتمثيل .

كما تقدم يمكن بحق اعتبار الحسن بن الهيثم واضع المنهج العلمي التجريبي دون منازع ، وعمل ذلك يكون قد أحرز سبقاً أكيداً على علماء الغرب بما يروى عن قرنين من الزمان ، في وقت لم يجرؤ فيه علماء أوروبا على الخروج عن تعاليم الأقدمين ، والإفلات من سيطرة المعتقدات والقوانين الموضوعة المتوارثة والتحرر من السلطان الفكري للكنيسة .

هذا ويرجع سبب اهتمامنا بوجه خاص بالآثار العلمية للحسن بن الهيثم للتدليل على سبق الحضارة العربية إلى طريقة البحث العلمي ، إلى أن ليوناردو دافينشي قد وقف على بحوث ابن الهيثم في الضوء ، وذلك في أواخر القرن الخامس عشر كما تم إثباته من واقع مذكراته ، ولابد أن يكون لاطلاع ليوناردو على أعمال ابن الهيثم أثر بالغ في اتجاهه نحو النهج التجريبي في عصر النهضة ، بعد أن كانت طريقة البحث العلمي قد استكملت عناصرها ، وبعد أن كانت النظرة العلمية الصحيحة قد اكتملت لها مقوماتها في الحضارة العربية ، التي ازدهرت قبل عصر النهضة الأوروبية وقبل مولد ليوناردو دافينشي بمئات السنين .

يقول جورج سارطون^(١٦) ، صاحب التأليف العظيمة في تاريخ العلوم : « لقد كان العرب أعظم

للوصول إلى الحقائق العلمية ، وقد نقل ابن أبي أصيبعة^(١٣) في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » عن مقالة له قوله :

« فرأيت أني لأصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورها الأمور العقلية . » .

اعتمد الحسن بن الهيثم على الأمور الحسية ، أي على التجربة والدليل الملموس كأساس لنهجه العلمي . وتظهر عناصر الطريقة العلمية التي أخذ بها ابن الهيثم بوضوح في مقدمة كتاب « المناظر » الذي ألفه في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد حيث يقول :

« ونبتدي في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات . ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشبه من كيفية الإحساس ، ثم نترقى في البحث والمخائيس على التدرج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ في النتائج . . . »

وتؤكد دراسات ابن الهيثم وبحوثه أنه اعتمد على الاستقراء والقياس والمناظر^(١٤) ، ولم يكن يقطع برأي مالم يؤيد بالتجارب ، « والاعتبار »^(١٥) وكان هذا النهج رائده في جميع أعماله ، فتحققت له الصفات العلمية الأصلية .

ولعله من المناسب هنا أن نستكمل عناصر المنهج العلمي عند ابن الهيثم ، فسوق مثلاً لاستخدامه التمثيل (Analogy) ، حيث إنه عند دراسته لموضوع انعكاس الضوء أتى بمثال ميكانيكي يبين سلوك كرة صغيرة لمساء عندما تصطدم بصطوح بمائنها من

(١٣) هو أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة الموزع البربري (٦٠٠ - ٦٦٨ م) = (١٢٠٣ - ١٢٦٩ م) .

(١٤) تفصّلها معنى التمثيل : Analogy .

(١٥) يُستعمل هذا اللفظ بمعنى التجريب : Experimentation .

George Sarton (١١)

معلمين في العالم ، فلهم لم ينقلوا كنوز الحكمة الإغريقية لتوقف سير الحضارة بضعة قرون .

إن وجود ابن الهيثم ، وجابر بن حيان كان لازماً ومجهداً لظهور جاليليو^(١٧) ونيوتن^(١٨) وغيرهما ، ولولم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن إلى أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم : » .

ثمة شهادة أخرى يوردها « سيدنيو »^(١٩) حيث يقول :

« إن أهم ما اتصف به مدرسة بغداد باديء ذي بدء هو روحها العلمي الصحيح » .

٣ - أمثلة من القياسات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية

إنه بعد أن أوضحنا نشأة المنهج العلمي التجريبي في صدر الحضارة العربية الإسلامية ، نستكمل هنا معالم هذه الصورة ، فنسوق بعض أمثلة من قياسات علماء العرب والمسلمين ، ونقصر التمثيل على موضوعين اثنين فحسب ، هما قياس الثقل النوعي لبعض الأجسام الصلبة والسائلة ، وقياس بعض العناصر الفلكية .

٣١ - قياسات الثقل النوعي

أبدع المسلمون في تعيين القيم العديدة للثقل النوعي مستخدمين أنواعاً مختلفة من الموازين ، وإنه بالرغم من

بعد الشقة بيننا وبينهم ، وبدائية الآلات والأجهزة التي استعملوها في قياساتهم ، إلا أن درجة الدقة التي توصلوا إليها في تجاربهم تدعو - بغير شك - إلى الإعجاب والتقدير ، وفي بعض الحالات إلى الانبهار من قرب قياسات علماء العرب والمسلمين من القيم التي أقرتها المجامع العلمية في عصرنا الحالي ، ونعرض فيما يلي لبيان بعض الأجهزة ونتائج القياس بها .

١١٣١ - الميزان الطليبي^(٢٠)

لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٢٥٠ هـ - ٣١٣ هـ) = (٨٦٤ - ٩٢٥ م) وهو ميزان ذو كفتين على الهيئة الطليبية ، كفتاه خارجتان عن الماء ، وكلتاهما معلومتان مترعتان ، وتقصان الماء من كل كفة منها بقدر مساحة الجرم^(٢١) الذي فيها .

١١٣٢ - الآلة المخروطة^(٢٢)

لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ هـ - ٤٤٣ هـ) = (٩٧٣ - ١٠٥١ م) وهي آلة مخروطة الشكل ، واسعة القاعدة ، ضيقة الفم بعد عنق عند بذلك الضيق من البدن إلى الفم . وثبت في أوسط هذا العنق بالقرب من أسفله ثقب صغير مدور ، وألحمت عليها بقدرها أنبوبة منكوسة الوضع ، وأسها إلى جهة الأرض ، وتحت هذا الرأس كالحلقة لوضع كفة الميزان عليها وقت العمل ، وتعتبر هذه الآلة أقدم جهاز لقياس الثقل النوعي بدقة .

(١٧) Galileo Galilei (١٥٦٤ - ١٦٤٢) .

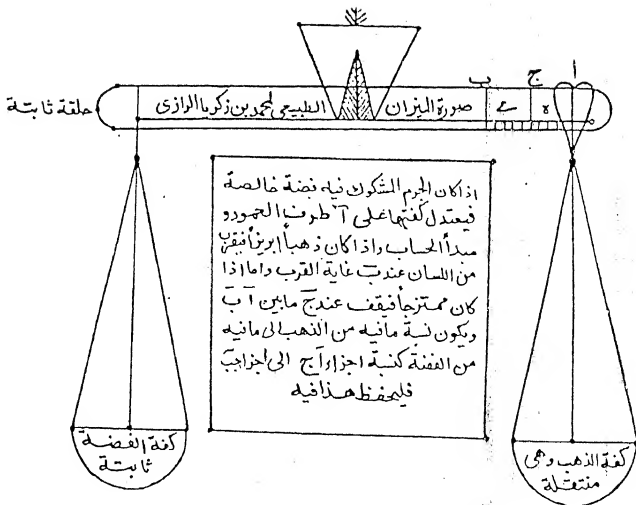
(١٨) Isaac Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧) .

(١٩) L. P. Sedillot ، صاحب كتاب : تاريخ العرب .

(٢٠) من كتاب : ميزان الحكمة ، لميدارد بن الحارثي ، دائرة المعارف العثمانية : حيدرآباد الدكن بالهند ، ١٩٣٨ م ، صفحة ٨٣ . انظر شكل (٢) .

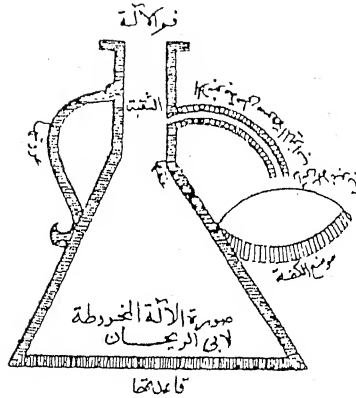
(٢١) بقصد حجم الجسم المنصور .

(٢٢) كتاب : ميزان الحكمة ، للخازني ، الصفحات ٥٨ ، ٥٩ . انظر شكل (٣) .



الميزان الطبيعي لأبو بكر الرازي

شكل (٢)



آلة المخروطة لأبي الريحان البيروني

شكل (٣)

وختلص طريقة البيروني في وزن المادة المطلوب تعيين ثقلها النوعي ، وذلك قبل إدخالها في الآلة المخروطة - التي تكون قد ملئت بالماء حتى غاية مصبها - فتزيع المادة المولجة قدراً من الماء مساوياً لحجمها ، حيث يفيض هذا الحجم المكافئ من الماء ، ويخرج من المصب ، حيث يجمع في كفة ميزان لإيجاد وزنه . ويحسب الثقل النوعي بتحديد النسبة بين وزن المادة المختبرة ، ووزن كمية الماء المزاحة نتيجة إدخال المادة

المختبرة في الآلة المخروطة ، أي أن

$$\frac{\text{وزن الجسم في الهواء}}{\text{وزن مقدار حجمه في الماء}} = \text{الثقل النوعي}$$

وبين جدول رقم (١) نتائج قياسات البيروني (٢٣) للثقل النوعي لبعض المعادن منسوبة أولاً الى الذهب وثانياً الى الماء ، كما يشتمل الجدول على أحدث ما حصلنا عليه من قيم الثقل النوعي لهذه المعادن .

جدول رقم (١)

القيم الصحيحة للثقل النوعي منسوبة الى الماء	قيم البيروني للثقل النوعي		المعدن
	منسوبة الى الماء على أساس الوزن النوعي للماء = ١	منسوبة الى الذهب على أساس الوزن النوعي للذهب = ١٠٠	
١٩,٣ - ١٩,٢٥٨	١٩	١٠٠	الذهب
١٣,٥٥٧	١٣,٤٩	٧١	الزئبق
١١,٤٤٥ - ١١,٣٨٩	١١,٤٣٧	٦٠,١٢٥	الرصاص
١٠,٤٧٤ - ١٠,٤٢٨	١٠,٣٧٧	٥٤,٦٢٥	الفضة
٨,٩٢ - ٨,٦٠	٨,٨٥٩	٤٦,٦٢٥	الصفير
٨,٧٢٦ - ٨,٦٦٧	٨,٦٧٦	٤٥,٦٦٦	النحاس (الأحمر)
	٨,٥٢٦	٤٤,٨٧٥	توتياء النحاس
٧,٧٩ - ٧,٦	٧,٩٢	٤١,٧٢	الحديد
٧,٢٩١	٧,١٥	٣٧,٦٣	القصدير

قيم الثقل النوعي للمعادن كما عينها البيروني بالتجربة

(٢٣) من دراسات البيروني في الطبيعية ، للدكتور جلال شوقي ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، حلب : ١٢-١٠ إبريل عام ١٩٧٦ ، جامعة حلب : معهد التراث العلمي العربي ، الجزء الأول : الأبحاث باللغة العربية ، عام ١٩٧٧ ، الصفحات : ٢٥١ - ٢٧٣ .

ويقدم جدول رقم (٢) نتائج التجارب التي أجراها البيروني (٢٤) لتعيين الوزن النوعي لبعض الأحجار الكريمة مقدرة أولاً على أساس الياقوت ثم على المقارنة لهذه النتائج مع القيم المعاصرة ، وهي تبين درجة الدقة العالية التي تتسم بها نتائج البيروني .

ومقارنة القيم التي توصل إليها البيروني بقيم الوزن النوعي التي تم تحديدها بالإمكانات المعاصرة ، نجد أن قيم البيروني قريبة جداً من القيم الصحيحة بالرغم من أن الأجهزة التي كان يستعملها في زمنه لم تكن لتقارن بالأجهزة الحديثة من حيث الدقة ، الأمر الذي يشهد للبيروني بالامتياز والإعجاز .

جدول رقم (٢)

قيم الثقل النوعي لبعض الأحجار الكريمة حسب

قياسات البيروني

القيم الصحيحة للثقل النوعي منسوبة إلى المساء	قيم البيروني للثقل النوعي		أنواع الحجر الكريم وتسمياته باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية
	منسوبة إلى الماء على أساس الوزن النوعي للماء = ١	منسوبة إلى الياقوت على أساس الوزن النوعي للياقوت = ١٠٠٠	
٤,٤ - ٣,٩٩	٤,٠١	٩٧,١٢٥	الياقوت الأحمر ^(١)
	٣,٧٣	٩٠,٤٥٨	
٢,٧٧٥ - ٢,٦٧٨	٢,٨٦	٦٩,٥	الزُّمُرْد ^(٢) أو الزبرجد ^(٣)
حوالي ٣	٢,٨	٦٧,٨١	الياقوت الأزرق (لازورد) ^(٤)
٢,٦٨٤ - ٢,٦٥	٢,٧	٦٥,٥٨	اللؤلؤ ^(٥)
٢,٧ - ٢,٥	٢,٦٧	٦٤,٧٥	المرجان أو العقيق ^(٦)
٢,٦	٢,٦٦	٦٤,٥٤	المرجان اللامع (المُصَدَّف) ^(٧)
للزجاج عموماً :	٢,٦	٦٣,١٢٥	زجاج سوريا
٣, ٤٥ - ٢, ٥	٢,٥٩	٦٢,٧٩	
٢, ٥٨	٢,٥٨	٦٢,٦	البُلُور الصخري أو الصوان الشُّفَّاف البُلُور (الكوارتز) ^(٨)

Red Hyacinth-Hyacinthe rouge-roter Hyacinth.

Emerald-Emeroude-Smaragd.

Topaz.

Lapis-Lazuli-Lapis lazulé-Lapis Lazuli.

Pearl-Perles-Perle.

Coral-Coraline-Koralle.

White Coral-Nacrel-Coraïl-Weisse Koralle.

Quartz-Cristal-Quarz.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

(٨)

(٢٤) المرجع السابق

أولاً : موازين الماء (٢٦)

وتأتي أشكالها على ثلاثة أصناف :

أ - الميزان المطلق أو الميزان الساذج ، وهو ميزان ذو كفتين .

ب - الميزان الكافي أو الميزان المجرى عن المنقلة ، وهو ميزان ذو ثلاث كفات طرفيات ، إحداها منوطة تحت الأخرى وهي المائية .

ج - الميزان الجامع أو ميزان الحكمة (٢٧) ، وهو ميزان ذو خمس كفات ، ثلاث كفات منها ثابتة ، واثنان منها منقلبتان عن موضعها .

ويستخدم هذا النوع من الموازين لمعرفة نسب الفلزات بعضها إلى بعض في الحجم ، وتمييز بعضها من بعض من غير سبك ولا تخليص ، ومعرفة الجواهر الحجرية ، وتمييز حقها من إشباها وملوناتها .

ثانياً : ميزان الأرض

وتسوية وجهها على موازاة السطح الأفقي ، ووجوه الحيطان على عمادة القطر الذي يثبت عليه .

ثالثاً : ميزان الساعات

وتعرف به بالساعات الماضية من ليل أو نهار ، وكسورها بالبقائق والثواني ، وتصحيح الطالع بها بالدرج وكسورها ، ويشتمل هذا الميزان على خزانة ماء أو خزانة رمل .

٣ و ١٣ - القسطاس المستقيم (٢٥)

وهو ميزان ابتكره أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري (٤٣٦ - ٥١٧ هـ) = (١٠٤٤ - ١١٢٣ م) :

« ميزان ذو ثلاث رمانات ، يعرف بالقسطاس المستقيم ، ويوزن به من حبة إلى ألف دينار أو ألف درهم ، وهو على صورة القفان ذات عمود وعارضة ولسان وكفة واحدة ، وكبرى الرمانات الثلاث للمئات ، ووسطاها للعشرات والأحاد معا ، وصغرها للكسور »

٤ و ٣ - موازين الخازني

ضمن عبد الرحمن الخازني (ت : ٥١٥ هـ = ١١٢١ م) كتابه الجليل « ميزان الحكمة » مجموعة من الموازين يقصد عمل قياسات متعددة ، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :

١ - معرفة نسب الأوزان الهوائي إلى المائي .

٢ - معرفة نسب حجوم الفلزات الذائبة وأوزانها بالرصد والاعتبار .

٣ - صناعة مقياس المائعات في الثقل والخفة .

٤ - صناعة القفان ، ووضع الرقوم عليه ، والوزن به ، وتحديد ثقل الرمات .

وقد أورد في كتابه مجموعة من الموازين ، ويقصد بها أجهزة قياس ، نذكر أهمها فيما يلي :

(٢٥) من كتاب ميزان الحكمة ، للخازني ، ص ١٥٣ .

انظر شكل (٤) .

(٢٦) من كتاب ميزان الحكمة ، للخازني ، الصفحات : ١٠٠ - ١٠٥ .

(٢٧) انظر الشكلين (٥) و (٦) .

صورة القسط المستقيم

[illegible]

حصل الإعتدال
الدبيب في بال الإستعداد فافاد على هذا الحيا
الكثرة على مركزه الفضة واما انما فعل الى امر كنز
اذ اذوت الدوا حمر وعشتا ليلان ذو وضع متار
الصبا تفرق منه اذا وزت الذهب يرفع عنه

يشتمل على ثلاثة اعضاء هي: ا) اقليم فقران د
لسان، وباران، و علاقه بت ثلاث ايامات
مختلفة الكبرى والوسطى والصغرى ج) كفة
ذات سلسلة وعقرب د) رمانة معيار لوزن
الذهب خاصة واما القفص فيوزن نايليا
عن رمانة المعيار

[illegible]

فيران «القطا من المتعتم» لعمر الحيا

جدول (٣)

نتائج قياسات الخازني للثقل النوعي

لبعض المواد السائلة

المادة السائلة	الثقل النوعي حسب قياسات الخازني	القيم الصحيحة للثقل النوعي في العصر الحديث
ماء عند درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩٩
ماء عذب بارد	١,٠٠٠	١,٠٠٠
ماء البحر (مالح)	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢١	٠,٩١
لبن البقر	١,١١٠	من ١,٠٤ إلى ١,٤٢
دم الإنسان	١,٠٣٣	من ١,٠٤٥ إلى ١,٠٧٥



٣٠٢ - القياسات الكونية

٣٠٢و١ - الاسطرلاب

عني علماء العرب والمسلمين أشد العناية يعلم الهيئة ، فأتخذوا عن الإغريق آلة الاسطرلاب لرصد النجوم ، وطوروها إنما تطوير ، فدانت لهم القياسات الكونية التي أمكنهم إجراؤها بدقة مذهلة تفوق كل ماكان معروفا في العصر الوسيط .

وعن الاسطرلابات يقول الكاتب الخوارزمي (٢٨) في كتابه « مفاتيح العلوم » (٢٩) :

« أنواع الأسطرلابات كثيرة ، وأسماؤها مشتقة من صورها ، كالحلالي من الهلال ، والكروي من الكرة ، والزروقي ، والصفي ، والسرطن ، والمبطح ، وأشباه ذلك ... » .

ولعله من المفيد أن نبين هنا بإيجاز الأنواع الثلاثة الرئيسية للأسطرلاب ، وهي مقسمة بحسب ما إذا كانت :

- ١ - تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو ، أو
- ٢ - تمثل مسقط هذا المسقط على خط مستقيم ، أو
- ٣ - تمثل الكرة بذاتها دون أي إسقاط .

ومن ثم فالأنواع الثلاثة هي :

١ - الاسطرلاب المسطح أو السطحي ، ويعرف

أيضا « بذات الصفائح » ، ويتركب من الأم ، والأقراص المستديرة ، والعنكبوت أو الشبكة ، والعصاة أو المسطرة .

٢ - الاسطرلاب الخطي ، ويسمى أيضا « عصا الطوسي » نسبة إلى مخترعه المظفر بن المظفر الطوسي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ - ٣/١٢١٤ م) .

٣ - الاسطرلاب الكروي أو الأكري ، ويمثل الحركة اليومية للكرة بالنسبة لأي مكان معلوم دون استخدام أية مساقط . ويتركب هذا النوع من كرة معدنية ، والعنكبوت أو الشبكة التي تتخذ هيئة نصف كرة معدنية ملامسة تمام الملامسة للكرة ، وصفيحة معدنية صفيقة ، وعقرب متعامد على هذه الصفيحة ، وأخيرا محور يمتدح كلا من الكرة والشبكة والصفيحة المعدنية الصفيقة ، وذلك في اتجاه القطبين الاستوائيين .

٣٠٢و٢ - قياسات الارض

يعتبر علماء العرب والمسلمين أول من استخرج - بطريقة علمية - طول درجة من خط نصف النهار ، أي مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الكرة الأرضية - ونشير فيما يلي إلى أهم من قام بهذه القياسات (جدول ٣) :

- ١ - فلكيو الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) = (٨١٣ - ٨٣٣ م) ، وقد أجروا قياسين لطول الدرجة

(٢٨) هو محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) .

(٢٩) طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ، بتحقيق إبراهيم الأبياري ، سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٢٥٤ .

و حكمة العين ، لنجم الدين الكاتبي القزويني (٦٠٠ - ٦٧٥ هـ) = (١٢٠٣ - ١٢٧٧ م) ، وتقدر قطر الأرض ب : ٢١٦٤ فرسخا (الفرسخ = ٥٩١٩,٦ متر) .

القيم المعاصرة

قطر الأرض عند خط الاستواء :	١٢ ٧٥٦
كيلومتر	
قطر الأرض عند المدار القطبي	١٢ ٧١٤
(كيلومتر)	

القياسات المرواة	الفرق	%
١٢ ٨١٠	٥٤+	٠,٤٢٣+
	٩٦+	٠,٧٥٥+

ومن هذه النتائج تبدو بوضوح دقة القياسات التي قام بها علماء العرب والمسلمين ، ولعل أدقها هي قياسات أبي الريحان البيروني لقطر الكرة الأرضية (جدول ٣) .

وعن قياسات العرب يقول كرلو نليني في كتابه « علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » (٣٠) :

« أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة ، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والشقة ، واشترك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل .

فلا بد لنا من عداد ذلك القياس من أعمال العرب العلمية المجيدة الماثورة . »

أولها بلغ ٥٦١ ميلا عربيا ، وثانيها بلغ ٥٧ ميلا عربيا (الميل العربي = ١٩٧٣,٢ مترا) .

٢ - سند بن علي ، أبو الطيب (حوالي ٢٣٦ هـ = ٨٥٠ م) ، وعلي بن عيسى ، وعلي بن البحري ، وقد ذكروا أن محيط الأرض يعادل ٤١ ٢٤٨ كيلومترا .

٣ - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٣ هـ) = (٩٧٣ - ١٠٥١ م) ، وقد أورد طريقة مبتكرة لقياس محيط الأرض ، ونين فيأيلي إلى أي مدى كانت دقة قياساته :

القيم المعاصرة

قطر الأرض عند خط الاستواء :	١٢ ٧٥٦
(كيلومتر)	
قطر الأرض عند المدار القطبي :	١٢ ٧١٤
(كيلومتر)	

قياس البيروني	الفرق	%
١٢ ٦٨٣	٧٣ -	٠,٥٧٢ -
	٣١ -	٠,٢٤٤ -

٤ - القياسات المرواة عن قاضي زاده ابن الرومي (ت : ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م) في شرحه على « الملخص في الهيئة » لمحمود بن محمد بن عمر الجعفي (ت : ٧٤٥ هـ = ١٣٤٥ م) ، وعمد بن مبارك شاه الشهر بميرك البخاري (القرن ٨ هـ = ١٤ م) في شرحه على

جدول (٣) - قياسات الأرض عبر الحضارات المتعاقبة
القيم التقديرية في الحضارات الاغريقية

المصدر	قطر الأرض كيلو مترا	محيط دائرة نصف النهار كيلو مترا	درجة من درجات خط نصف النهار One degree of Latitude كيلو مترا
عن رواية أرسطو ^(١) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م .)	٢٣٥٥٤,٨٧٦	٧٤٠٠٠ (٤٠٠٠٠٠ استطادايون)	٢٠٥,٥٥٥٥
إغريقي مجهول الاسم ^(٢)	١٧٦٦٦,١٥٧	٥٥٥٠٠	١٥٤,١٦٦٦٦
إراتوستين ^(٣) Eratosthenes (٢٧٦/٥ - ١٩٤ ق . م .)	١٤٨٣٩,٥٧٢	٤٦٦٢٠	١٢٩,٥٠٠
عن الكلندي ^(٤) (٨٠١ - ٨٧٣ م)	١٥٠٦٨,٠٩٥ (٧٦٣٦ ميل عربي) ^(٥)	٤٧٣٣٧,٩٢٧	١٣١,٤٩٤٢٤

(١) كتاب : علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، لكارول تليتر ، ص ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٤) رسائل الكلندي للفلسفة ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦ .

المصدر	نظر الأرض كيلو متراً	محيط دائرة نصف النهار كيلو متراً	درجة من درجات خط نصف النهار كيلو متراً
القياس الأول فلكيو المأمون ^(٧) (٨١٣ - ٨٣٣ م) القياس الثاني	١٢٧١٨,٧٧٣ ١٢٨٨٨,٣٥٧	٣٩٩٥٧,٣ ٤٠٤٩٠,٠٦٤	١١٠,٩٩٢٥ ($\frac{1}{4}$ ميلاً عربياً) ١١٢,٤٧٢٤ (٥٧ ميلاً عربياً)
عن سند بن علي ، وعلى بن عيسى ، وعلى بن البحري ^(٨)	١٣١٢٩,٦١٥	٤١٢٤٨	١١٤,٥٧٧٧٧
أبو الريمان البيروني ^(٩) (٩٧٣ - ١٠٥١ م)	١٢٦٨٢,٧١١	٣٩٨٤٤,٠٠٨	١١٠,٦٧٧٨
عن قاضي زاده ابن الرومي (ت : ١٤١٢ م) في شرحه على « الملخص في الهيئة » لمحمود الجفغيفي (ت : ٧٤٥ هـ = ١٣٤٥ م) ^(١٠) وميرك البخاري في شرحه على « حكمة العين » للقزويني .	١٢٨١٠,٠١٤ (= ٢١٦٤ فرسخاً)	٤٠٢٤٣,٩٣٩	١١١,٧٨٨٧١
عند خط الاستواء الفلكي الألماني ^(١١) Friedrich Wilhelm Bessel عند المدار القطبي عام ١٨٤٢ م (١٧٨٤ - ١٨٤٦ م)	١٢٧٥٤,٧٩٤٣١ ١٢٧١٢,١٥٧٩٣	٤٠٠٧٠,٣٦٨١١ ٤٠٠٠٣,٤٢٣٠٤	١١١,٦٧٩٧٨٢ ١١٠,٥٦٣٧٩٠
القيم المعاصرة ^(١٢) عند خط الاستواء عند المدار القطبي	١٢ ٧٥٦ ١٢ ٧١٤	٤٠٠٧٤,٢٤٩ ٣٩٩٤٢,٣٠٢	١١١,٣١٧٣٥ ١١٠,٩٥٠٨٣

(٥) لنتيو ، ص ٢٨١ - ٢٨٧ . (٦) لنتيو ، ص ٢٨٩ . (٧) من كتابه « فرة الزيجات » ، وكتابه « الاسطرلاب » .

(٨) لنتيو ، ص ٢٦٥ . (٩) لنتيو ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ . (١٠) لنتيو ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(١١) The Guinness Book of Answers 1985 , P. 31 .

تحويل وحدات القياس (٣١)

ملليمتر	٤٩٣,٣ =	الدراع الشرعي
من المتر	٠,٤٩٣٣ =	(= الدراع الأسود)
دراع شرعي	٤٠٠٠ =	اليل العربي
مترا	٠,٤٩٣٣ × ٤٠٠٠ =	
مترا	١٩٧٣,٢ =	
ميلا انجليزينا	١,٢٢٥٩٤٧ =	
أميال عربية	٣ =	الفرسخ العربي
مترا	١٩٧٣,٢ × ٣ =	
مترا	٥٩١٩,٦ =	
مترا	١٨٥ =	الاسطاديون اليوناني (الملقب بالأوليمبي)
مترا	١٤٧٩,٥ =	اليل الروماني
مترا	١٥٨٩ =	اليل الايطالي
		(في القرن ١٥ م)
مترا	١٦٠٩,٣٤٤ =	اليل الانجليزي

٣,٢,٣ - طول السنة الشمسية (المدايرة)

اهتم علماء العرب والمسلمين - في دراساتهم الفلكية - بتحديد طول السنة الشمسية ، وبين جدول (٤) أنهم توصلوا الى قيم على جانب كبير من الدقة بالمقارنة مع القيم المصرية .

(٣١) كتاب « علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » ، تأليف كروغر لانيو ، ص : ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ .
« وحدات القياس في الحضارة العربية » ، للدكتور جلال شوقي ، مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، القاهرة ، العدد الثامن ، مارس ١٩٧٥ م ، الصفحات : ٢١ - ٤٤ .
كذلك مجلة « رسالة العلم » بالقاهرة ، المجلد ٤٢ ، العدد الأول ، مارس ١٩٧٥ .

جدول (٤) - مقارنة بين قياسات طول السنة الشمسية .

طول السنة الشمسية				المصدر
يوم	ساعة	دقيقة	ثانية	
٣٦٥	٥	٥٥	صفر	بطليموس القلودي (تألق حوالي ١٥٠م) (صاحب المجسطي)
٣٦٥	٥	٤٦	٢٤	أبو عبدالله محمد بن جابر ابن ستان البثاني (ت : ٣١٧هـ = ٩٢٩م)
٣٦٥	٥	٤٩	صفر	أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيامي النيسابوري (٤٣٦ - ٥١٧هـ) = (١٠٤٤ - ١١٢٣م)
٣٦٥	٥	٥٠	٨	ألوغ بك بن تيمور (٧٩٦ - ٨٥٣هـ) = (١٣٩٤ - ١٤٤٩م)
٣٦٥	٥	٤٨	٤٨,٧	القيم المعاصرة ٣٦٥,٢٤٢ ١٩٨ ٧٨

وينسبون تأسيس هذا المنهج لبعض من روادهم منهم :

١ - روبرت جروستست : Robert Grosseteste
(١١٧٥ - ١٢٥٣م)

٢ - روجر بيكون : Roger Bacon (١٢١٤ - ١٢٩٤م)

٣ - ليوناردو دافينشي : Leonardo da Vinci
(١٤٥٢ - ١٥١٩م) .

٤ - فرانيس بيكون الفيلسوف الانجليزي :
Baron Verulam Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وقد أكد على أهمية التجربة في كتابه :
"The Advancement Of Learning"

٥ - رينيه ديكارت : Rene Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) .

من هذا الجدول يتضح أن قياسات الخيامي تحمل خطأ يقل عن ٠,٠٠١ % ، ومن ثم كان « التقويم الجلالى » المنسوب لعمر الخيامي أدق من التقويم الجريجوري (أو الغريغوري) ، فبينما يؤدي هذا التقويم الأخير الى خطأ يبلغ واحدا في كل ٣٣٣٠ سنة ، فإن الخطأ الناجم عن « التقويم الجلالى » لا يتعدى يوما واحدا في كل ٥٠٠٠ سنة .

٤ - المنهج العلمي في الغرب

لم تكن الحضارة الأوربية أول من وقف على النهج التجريبي في العالم ، وإنما كانت قد سبقتها إليه حضارة العرب التي وضعت أسس البحث العلمي قبل أن تعرفها أوروبا بمئات السنين ، ومع ذلك يتجاهل أهل الغرب - عن قصد أو عن جهل - نسبة المنهج العلمي لعلماء العرب والمسلمين ،

النظرية بإجراء التجارب العملية ، وهو اتجاه لم يكن مألوفاً في العصر الذي عاش فيه ليوناردو . وكثيراً ما نوه ليوناردو في مذكراته الى أهمية إجراء التجارب فكتب يقول :

« إن التجربة لا تخدع أبداً : إن تقديرنا وحده هو الذي يخدع ، ويبيى عليها أموراً لا تدخل في طاقته .
(عن المخطوط : Cod. Atl. II, 154 v)
وذكر في موضع آخر :

« قبل أن نجعل من هذه الحالة قاعدة عامة ، اختبرها بالتجربة مرتين أو ثلاث مرات ، وانظر ان كانت التجربة ستحدث نفس الأثر » .
(عن المخطوط : Ms. A, 47v)

ومضى في موضع ثالث من مذكراته يقول :
« يجب أن تجري التجربة عدة مرات حتى لا يكون هناك ما يعرقل أو يبدحض هذا البرهان ، إذ أن التجربة قد تكون خاطئة سواء أخذت الباحث أم لم تتخذ » .
(عن المخطوط : Leicester Ms. 3, v)

هذه مقتطفات من أقوال ليوناردو دافينشي في أهمية التجربة وضرورتها للتأكد والتيقن من النتائج ، وهي ولاشك حجر الزاوية في المنهج العلمي .

خاتمة

أرجو أن تكون هذه الدراسة المقتضبة قد ألقت مزيداً من الضوء على معالم الطريق الذي سلكته الحضارة الانسانية لتخرج من إسار المنهج الفلسفي التجريدي إلى رحاب المنهج العلمي التجريبي ، وأن تكون هذه الدراسة قد ساقمت من الأدلة وأوردت من البراهين ما يثبت ويدلل على أحقية علماء العرب والمسلمين في نسبة هذا المنحى الأخير اليهم ، فلو لا سبقهم وفضلهم في هذا المضمار لتأخر ركب الحضارة عدة قرون .

ونشير فيما يلي - على سبيل المثال - إلى بعض ما جاء في كتابات ليوناردو دافينشي خاصة بالمنهج العلمي الذي لابد وأن يكون قد وصلت سيئاته إليه بحكم اطلاعه على كثير من تراث الحضارة الإسلامية لاسيما على كتابات الحسن بن الهيثم في كتابه « المناظر » ، كما تقدمت الإشارة إليه .

٤،١ - المنهج العلمي عند ليوناردو دافينشي

لم يكن ليوناردو دافينشي ليقبل عن رضى واقتناع السيطرة التقليدية العمياء لعلوم الاغريق القديمة التي سادت الحياة الفكرية في القرون الوسطى ودمغتها بطابع الجمود سواء أكانت هذه العلوم منسوبة الى أفلاطون أم أرسطاليس (أرسطو) أو إقليدس أو غيرهم من عظماء المفكرين والكتاب الاغريق . وتعبر مذكراته بوضوح عن هذا المنحى الفكري حيث يقول : « سيظل الكثيرون أن بوسعهم لومي بحق متهميني بأن ابراهيمي تخالف تعاليم بعض الرجال الذين يتمتعون بأعلى درجات التقدير ، بيد أنهم لم يدخلوا في اعتبارهم أن أعالي تصدر عن مجرد التجربة البسيطة وهي صاحبة السلطة الحقيقية . »

ومضى في موضع آخر يقول :

« إن من يعتمد في مناقشته على تعاليم موضوعة ، فإنه لا يستعمل فكره ، وإنما يلجأ الى ذاكرته » .

كما ورد عنه في موضع ثالث قوله :

« إننا لانملك في علمنا حقيقة على الاطلاق تقع خارج نطاق الرياضيات . كذلك لا يمكن للمرء أن يجب سوى ما يعرفه ، ولا يعرف الإنسان في الواقع الا ما قام بقياسه » . (عن مجلد الـ : Codex Atlanticus)

إن ليوناردو دافينشي ليعد بحق من مؤسسي المنهج العلمي والمدرسة التجريبية في أوروبا ، حيث تبدأ الدراسة بالمشاهدة الدقيقة يليها الفحص والتحليل ثم الاستنتاج المنطقي ، وتنتهي باختبار صحة النتائج

« العالم يحتقر الشعراء ، يعتبرهم غير مؤهلين لتسيير شؤون المدينة » .

« الشعر يتجاوز السياسة ، أو هو سياسة تتمرس على السياسة » .

« الشعر لغة داخل اللغة » .

« الشاعر اليوم يندر أكثر عما ينظم الشعر » .

« نشر قصيدة دون تسمية صاحبها أفضل ، شعرياً ، من تسمية الشاعر ونسيان قصيدته » .

« المهم هو العمل الأدبي ، وليس ناشره ، بل ولا اسم مؤلفه نفسه » .

أجرت مجلة « Caracte're's » الفرنسية مؤخراً استفتاءً هاماً شمل فئة من أبرز الشعراء المعاصرين ، يتعلق بأفاق وحدود الكتابة الشعرية في نهاية القرن العشرين ، وفي إطار علاقتها بالخقلين السياسي والإيديولوجي ، وكذا ببعض التيارات الفنية والفكرية التي شهدها هذا القرن .

و « CARACTERES » مجلة دولية للشعر « يديرها BRUNO DUROCHER أحد كبار شعراء فرنسا المعاصرين ، وهي مستقلة عن كل المؤسسات الرسمية والتنظيمات السياسية ، تصدر بفضل اشتراكات قرائها الكثيرين في العالم ، أربع مرات في السنة بباريس .

وقد نشرت المجلة أجوبة ٤٢ شاعراً و شاعرة عن عشرة أسئلة ، ووعدت بنشر أجوبة شعراء آخرين في عدد لاحق .

ونظراً لأهمية الاستفتاء ، خاصة وأنه يشمل شعراء بارزين ، ويعكس محاور الجدل السائدة راهناً في الغرب حول الممارسة الشعرية ، ونظراً لما تمثله من

أسئلة الشعر في زمن اللاشعر

رشيد بنجدو

لا الزوال ، مجتمعاً في زمن النار ، إنساناً خارج الحشد دون أن يكون فوقه .

ج . ب . بالب

أنا أعمل ، أبادل ، أنتج إذن فأنا موجود ومعرّف بي . . . أما الشاعر ، فلا ينتج ولا يبادل شيئاً . فلا فائدة منه ولا موقع له في المجتمع أيّاً كان شكله . لكن الشاعر ، مثل الطفيلي ، كائن موجود . فهو يستقر كالسرطان في قلب الأنسجة المجتمعية ، فينمي طاقاته ويولد أنسجته الخاصة ، مهدداً بذلك وجود الجسم الذي يحتويه . إنه ، بما هو حضور ملح وموجع « للفوضى ، يشهد على ضرورة « ما لا يفيد » الدائمة أي على شكل أسمى من أشكال الوجود الأساسي فيه هو الإنتاج الذي يمازج ذاته إلى غيره ، أي ما ينتجه عمل مستتب ، بل هو إنتاج الحياة ذاتها ، وتوقف الزمن في فعل الوجود حيث يعرف الشعر بأنه محاولة تعطيل الحياة في الكلمات واستيقاف امتلاك الزمن الذي يمضي . . .

الشاعر = تكبت ضمير المجتمع .

فلورنس فوكومير

أعتقد أن للشاعر موقعاً هامشياً في المجتمع لأن الشعر لا يغطي بوجود فعل في المجتمعات الصناعية ، على غرار أي نوع من الممارسات المجانية . ولن تتغير هذه الوضعية ما دام الشعر خارج مجال الضرورة لدى جميع الناس . . لا أرى مثلاً أية فائدة في تخفيض ثمن الدواوين الشعرية إلى فرنكين أو فرنك واحد ، لأن الذين يشترونها سيظلون دوماً مستعينين إلى نفس الأقلية التي تتحمل كل الأثمان من أجل أن يكون الشعر في بيوتها .

إمكانات خصبه للنقاش والمقارنة في أوساط الشعراء العرب الشباب - ارتأينا تقديم صورة متكاملة عنه لقراء « عالم الفكر » . وقد كانت نيتنا في البدء عرض أجوبة الشعراء المستجوبين من خلال تصنيفها إلى محاور مشتركة . لكن الأشكال التي اتخذتها بعض الأجوبة (فصائل على هامش الاستجواب ، رسائل شخصية إلى مدير المجلة ، إجابات مسهية ومتناقضة ، أسئلة حول الأسئلة . . .) ألزمتنا باعتبار طريقة انتقائية في العرض ، مع حرصنا الأكيد على تفادي الاختزال والنشوب .

السؤال الأول :

« ما هو في اعتقادكم موقع الشاعر في المجتمع ؟

نيكول كدالي

« المجتمع وردة ثقتات بالحشرات » ؛ هذا ما كانت تقوله جدران المدينة في ماي ١٩٦٨ . إن المجتمع يلتهمنا جميعاً بجشع تتفاوت حدته . أما الشاعر ، فهو يتعرض لأبطش التهام ونهب . فلا مكان في المجتمع للشاعر مطلقاً . . . من الممكن قبول الطبيب - الشاعر والأستاذ - الشاعر فهو يتعيش من عمله الأساسي ويعلم بعمله الثانوي وبقرائه . أما الشاعر الخالص ، فمنبوذة من المدينة . على أي حال ، لم يتعود الشاعر أن يهتم الناس بتمزقاته وهواجسه . هو دوماً مخلوق طفيلي لأن ما ينتجه لا يمكن تحويله ، فيما يبدو ، إلى مادة استهلاكية ومربحة .

جيرار بوشولبي

هل الشاعر عراف ، نبي ، محرض ؟ . . . لست أدري ، يمكنه أن يكون كذلك . لكن هذا لا يدولي ذا قيمة . حالياً يجب على الشاعر أن يكون إنسان الأبد ،

الترفيهية التي لا يمثل فيها الكتاب عامة سوى قيمة جزئية ، والشعر خاصة أية قيمة . والشعر يعبر بعنف عن أصل ومسؤولية هذا النقص المبالغ في لغة اللعنة أولا ، وفي لغة الغضب المكبوت ثانياً والمجتمع الذي يتعرف في هذا الشعر على نفسه ، أو على استيهاماته الخاصة أي على هومو المباشرة والعادية - يتقبل حينئذ شكلاً تعبيرياً سرعان ماسيناه بعد انتهاء التجربة .

هل ننخدع هنا ونقول إن الشاعر غير المعترف به هو ، مع ذلك معترف به كما هو في ذاته من لدن مجتمعه المعاصر حتى ولو تم هذا الاعتراف بالسخرية ؟ أن في التعبير عن هذه العلاقة السخرية وهي علاقة حكم ورفض وإدانة نسبة ما من الصحة . إن المجتمع لا يحتاج إلى الشاعر لكنه خلافاً لافلاطون ، وبصفة عامة ، لا يطرده من الجمهورية بل يتجاهله بأبهة أو بلا حياة .

لذلك ، فإن « مجتمع » الشاعر ، ذلك الذي يوجد من أجله ولا يستغني عنه ، ينحصر في ألف أو ألفي وربما ثلاثة آلاف قارئ ومستمع ومشاهد للخطاب الشعري ، أيما كان شكله . فأي سلطة تمنح لهذه المجموعة الصغيرة جداً ، هذه الأقلية التي ترن وسط كثرة واهنة ، إذا لم تكن سلطة معرفة واستنارة تأييد حرايتها وحيتها في عالم بارد ؟ أليست هذه الأقلية هي ما ينبغي اعتباره المجتمع الحقيقي للشاعر ؟

قد يقال : أليس الشاعر ، بسخريته وغموضه المفترى وشقلياته وهولوساته وأساليبه المزعومة في إثارة مشكلات مزعومة يستخف بها المجتمع أيما استخفاف - مسؤولاً عن هذا الطلاق ؟ هذا هراء فبين جمهور الفاسقين الذين اختارهم Villon وسيدات القصور

إن وضعية الشاعر لم تتغير منذ VERLAINE وأولئك الناشرون الذين يدعون الثورية بتخفيضهم أثان الكتب إنما يكرسون « شرف أن تنشد عندهم » بالمجان ، ويسعون من أجل مزيد من الأرباح . أما علة ذلك ، فجاهزة وهي : « لا تأمل ضمان حياتك بقلبك » (كذا !) لاقتناعهم بضرورة أن تفقد حياتك نهائياً ، وبأنه لا يعقل أن يتعيش المرء من ممارسة تخصصه وحده .

لا مكان إذن للشاعر في المجتمعات الراهنة . إن المجتمع لا يتعاطى مع صانعي الخيال ، اعتباراً لكونهم خاملين وأغوالاً خطيرين . ما هو عدد الشعراء المعتقلين حالياً في سجون العالم ؟ هل تعرفون عددهم ؟

جاء بلهائس

يتحدد موقع الشاعر حالياً بين تدبير شؤون البيت أو البطالة وإلا فلا موقع له .

شارل أوطران

إذا وافقنا على عدم مناقشة معنى كلمة « مجتمع » أو إذا قبلنا ما بالأحرى في معناها الأرحب « المجتمع : مجموعة أفراد يرتبطون فيما بينهم بصلات دائمة ومنظمة تحددها في الغالب مؤسسات وتضمينها قوانين » قاموس ROBERT هذا هذا المعنى الذي يسمح قبلها باحتواء كل الأنظمة ، بما فيه « الآخر » والمحلوم به والمرفوض - فمن البديهي ألا يكون للشاعر فيه موقع ما إلا بشكل عرضي أو طارئ . ففي الاحتمال الأول ، تنوج حياته مثلاً بمنصب في وزارة ذات بذخ وهيبة ، لا وزارة الشغل ، بل وزارة الشؤون الخارجية . أما في الاحتمال الثاني ، فإن المجتمع يفضح لتجربة محرمه من عاداته

روبير - لوسيان جيرارت

يعرف شعراء هذا الزمن أن الشعر ، خلافاً لحلم RIMBAUD لا يغير العالم . فموقع الشاعر في مجتمعات اليوم ليس موقع كاهن أو رجل سياسة ، بل موقع شاهد يحكم بأهل صوت على ما يراه وما يعيشه .

بيير بوجوت

موقع الشاعر ؟ موقع كائن أسمي مجهول ، لكن ينتهي التواضع ، ومن غير أن يمنحه ذلك أي امتياز اجتماعي سوى امتياز التأثير في ما لأبصر وما سياتي .

إنسان أنا فوق البشر

لكن هذا لا يقال .

لكن هذا لا يعرف

لكن هذا لا يرى

إذا كانت لي عيوب

فلأتقن تمويه كباي الرائع .

نافه أنا حقير عليل كذاب لص

لثلا يظن أحد لشخصي

وسط الحشود النكرة

لأشبه المتوسط المغيب .

جذوتي ستكون أقوى

ونوري أسطع

لولا النقص التي تدثري .

أنا الإنسان الأسمى المجهول

الإله الخفي :

من يكشف عني

تحت الألوان الشائعة

يصبح خالداً .

المتريبات المعجبات به LAMARTINE ورفاق RIMBAUD المولعين بالأدب - ليس الفرق في الطبيعة أو في الدرجة . إنه بالكاد فرق في الأحوال : ففي كل حالة يتوقع الشاعر ضمن مجتمعه هو ، مجتمعه الحقيقي . من هذا المجتمع يولد الشاعر ومن الشاعر يولد هذا المجتمع . لماذا إذن نتنظر من الآخر أحسن من حياد موارد أحسن من اعتراف قاتل ؟

على كل حال ، لا يتحدد موقع الشاعر في المجتمع بأي مستوى من تلك المستويات التي يتفنن هذا المجتمع في تقريرها وترتيبها . ونحن نرى أن الرواية تتعشش فقط من جوائز نهاية السنة ، يحق القول إن موقع الشاعر الدائم الحضور والنشاط ، هو بقوة الممارسة ، حيث قرر له أن يكون : موقع مستقل ومع ذلك مقيد مادياً ، بعيد عن وسط المدينة رغم أنه قلبها النابض .

ميشيل مانول

أنسادل : هل سبق أن حظي شاعر ما باعتراف في مجتمعه ؟ من منا يجرؤ على كتابة « شاعر » في بطاقة هويته أو ورقة الضرائب ؟ من منا يدعي أن ممارسته للشعر تضمن له لوازم حياته اليومية ؟ إن الشاعر نظراً لعدم اعتراف السلطات به ولاحتقار من يرتبط بهم مادياً لشخصه ، ولاحتراس الآخرين منه - لايسعه سوى أن يشيد علماً خاصاً على هامش هذا العالم المقتن الذي يرفضه .

هوبير جوان

لا مكان للشاعر في المجتمع . الشاعر متقدم على المجتمع إنه CASSANDRE .

أن مكانة الشاعر في المجتمع هي مكانة من يبحث في مجال الوجود الخالص أي الكينونة الأصلية قبل امتدادها إلى عتدية. إن امتداد الكينونة إلى عتدية يؤكد النتائج المحصل عليها من لدن الشاعر في شكل رؤية « نبوية ».

أندري بيركاويو

ليس الشاعر وحيداً، لكنه ملاح يروى البحار منفرداً. إنه مرغم في مجتمع يحكمه سلطان المال، على الحياة في نوع من السرية المنقطة.

جاك لوباج

الشاعر صلة وصل بين من يسمون « متتبعي الدلالات »، رسامين، موسيقيين الخ. بهذه الصفة فمهمته مزدوجة: فهو يعبر عن معاصره، مدججاً إياها في حركة الزمن وهو في نفس الوقت يعطل هذه الحركة (ذات الطبيعة القهرية) ويقول المستقبل. هنا تمكن ازدواجه.

أندري مارييسل

موقع الشاعر في المجتمع ؟ إنه موقع أي إنسان ! يجب أن تكف عن اعتبار الشاعر مخلوقاً استثنائياً .

بيير ميثلود

لكن من هو الشاعر أولاً ؟ إننا نعد بالآلاف، نحن الذين نحمل هذا الاسم ؟ بيد أن الشاعر يبدو نادراً نادرة النبي - علماً بأن لا وجود لهذا دون ذلك. هذا الشاعر (الشاعر - النبي) يرفض المجتمع بالفطرة، مثلاً يرفض كل ما يعكر رغبته، وكل ما يعرض عينيه لسهام الضوء .

جان - بيير لوسبور

ليست للشاعر أية وظيفة اجتماعية، فهو غير موجود بالنسبة للمجتمع .

جاك - ماري لافون

موقع الشاعر أساسي في المجتمع لأن له قدرة على استجلاء الأشياء وتوحيد التناقضات في جو من الثقة فيدونه لا يستطيع الإنسان أن يعثر على بعده الحقيقي، أي وجوده .

سبليوس كاسطا نوس دوميديسيس

إن الاعتقاد بضرورة طرد الشاعر من المدينة كما فعل أفلاطون، أو بأنه كسائر الفنانين، « مرشد الإنسانية » إلى طريق الحقيقة، كما تصور FRED ADLER - يوقع في شرك الفكر الماتوي أو المطلق السكوني (هذا أبيض أو أسود) الذي يحتاج إلى التقسيم من أجل الفهم ذلك أن قانون البداية يقضي بعدم وجود الشاعر وبأن « كل الشعراء ليسوا حصراً لا هذا ولاذاك، وبأنه إذا كانت هناك إمكانية وجود « تعريف » رحب للشاعر بحسب الحقب أو الأنواع الشعرية، فإن كل شاعر وبشكل فردي، يمكنه أو لا يمكنه أن يقنع بالدخول ضمن هذا « التعريف » الزمكاني ولو كان رحباً. ومع ذلك يستحيل معرفة شيء دون تحديده، أي دون تعريفه .

ومن هذه الاستحالة المزدوجة يولد الشاعر واقناً. مما يعني ضرورة معرفة « من هو الشاعر اليوم » قبل تعيين موقعه في المجتمع لذلك تقترح هذا التعريف المعاد : الشاعر من يستعمل لغة خاصة ليشحن اليومي المألوف بدلالات وأفكار وأحاسيس كانت بدونه، ستبقى متوارية باسم البداية. فالشاعر إذن يساعد على ترقية أبعاد الكينونة. إذا قبل هذا التعريف يصبح واضحاً

برنار نويل

السؤال الثاني

« ماهي واجبات المجتمع نحو الشعر ؟ »

بيير دانيو

لست مدبناً للمجتمع بأدنى شيء ولا أنتظر منه أي شيء .

هوبير جوان

لا واجب للمجتمع نحو الشاعر أو الشعر ، ولقد أدرك ذلك أفلاطون على نحو رائع حين طرد الشاعر من مدينته . فالشاعر مثير للفتن ، ناشر للأكاذيب يحرض على الفعل ، في الوقت الذي يحرمه على نفسه . إن الفعل يقتضي إلغاء وإنكار الكلمات الجوفاء المهيبة .

شارل أوطران

قد يوحي هذا السؤال الثاني بأن بينه وبين السؤال الأول توافقاً تاماً والحق أنه توافق ناقص . فالأول يتعلق بموقع الشاعر في المجتمع ، ومن ثم تحديد موقف الشاعر من المجتمع . أما الثاني فيتعلق بالشعر ، الذي يدين له الشاعر بكل شيء ، لكنه لا يدين للشاعر إلا بجزء من آله . لأن الشعر كل شيء وليس فقط في قصيدة الشاعر .

يميز القول إذن الشعر والمجتمع يتواجدان من غير أن تنتج عن هذا التواجد واجبات وقوانين ، وإلا ينبغي التساؤل عن مسؤولية المجتمع في قتل الشعر ، بل وقتل الحياة ، وفي هذه الحالة ستتجاوز الدعوى حدود السؤال .

الحقيقة أن بناء المجتمع قد تم دون تصور لوجود الشاعر . والذين خططوا لهذا البناء هم رجال القانون

جان - دوني فيليب

الإنسان يصبح شاعراً حين يطلق حياة المدنية ، إن موقع الشاعر هنا ، هنا حيث التقاتل من أجل الكلام والكلام من أجل التقاتل . فلا مكان للخطابات النبوية ، من نوع الكلام الشعري مثلاً ، بين الخطابات السياسية والتقنية والجماعية والإشهارية . إنه لعجيب أن نلاحظ أن الشعر ، بعد أن تحول النشاط الثقافي إلى حركة مناهضة لهذه الخطابات المناورة ، قد بقي على حقيقته ، وفيها لجوهره . إن الشاعر هو العلامة الوحيدة على ثمار فردية بالأساس ضمن حركة رفض ، حركة رفض ومعارضة .

دومينيك سيلبا

على الشاعر أن يستعيد موقعه الحقيقي في المجتمع المعاصر . عليه ، أكثر من ذي قبل ، أن يكافح ليثبت للمجتمع أنه ضروري . قديماً كان الشاعر شاعراً أما اليوم فهو غالباً شاعر - عالم ، شاعر - أستاذ ، شاعر - مترجم ، الخ مما يعني أن الشعر يظهر أو ينزع إلى الظهور بمثابة عنصر أكثر مرونة ، أو بمعنى ما ذي حضور كلي من هنا ، يحظى الشاعر بإمكانية إثباته ذات يوم أهميته في مجتمع يعامله غالباً كعنصر طفيلي أو ، في أحسن الحالات ، كبضاعة يتاجر بها .

والشائع الذي يجعل من الشاعر نوعاً من VERLAINE أي نوعاً من الفشل الصارخ للفشل الاجتماعي والامتنالية غير المتبصرة بالمواقب .

ب- أن يلغوا صفة القداسة التي تلحقها برامح التعليم بالشاعر، وذلك بالكف عن اعتباره مخلوقاً أسطورياً، ويدعوته إلى محاورة التلاميذ وإلى مساعدتهم لا بـ « تفسير » عالم سعيد، بل بـ « التصدي » لهذا العالم .

ج- أن يجاربوا بلا هواة مثل هذه العبارات الحاسمة : « إن GEORGES BRASSESS هو أكبر شاعر فرنسي معاصر » التي تنم عن جهل كبير، والتي تعمق خاصة الهوة بين الشعب والمجتمع .

مشيل بلوك

واجبات المجتمع نحو الشعر؟ كل الواجبات حتى يزول الفرق نهائياً بين المجتمع والشعر . ولا أقصد بالشعر القصيدة بل الشعر ممتداً الى كل أشكال الكتابة، شعر المعاريين منشوراً على المدن، شعر المهندسين غيباً على المنازل، شعر البشر منشوراً على ذواتهم ومتحكماً في علاقاتهم (شعر السلوك والحركة والكلام) .

على المجتمع أن يكون امتداداً للقصيدة، تطبيقاً لها بحيث يتلشى تماماً التنافر بين عالم الكلمات وعالم البشر. بهذه الطريقة، يتغير العالم وتتغير الحياة أي نمحي حياة حية .

فلورنس فمودسومير

واجب واحد : ألا يقتل الشعراء .

المولعون بالمعونات والأحكام التي تنكر أو تتجاهل هذا الوجود . فالمجتمع يقوم على تعاقدات، متفاوتة الجور والتصف، لا حضور فيها للشعر . ويحس البعض أن يدافع عن تجليات هذه التعاقدات أيا كانت، طبيعية أو غير طبيعية . ومن بين هذه الأخيرة، لايشكل الشعر المكتوب أو الشفهي، سوى عنصر من المجموع الذي يسعى إلى جعل المجتمع أقل بلادة، على الأقل بالنسبة للذين يعانون من ذلك .

ج . ب . يسالب

لا واجب للمجتمع نحو الشاعر سوى واجب إبادته، ونظراً لعجزه عن تحقيق ذلك كلياً لفرط ما يكتنه ضميره، فإنه يختار تعميمه فتكون النتيجة أن السرطان لا يتراجع، بل تتم فقط محاصرته ومراقبته بعناية، وخير شاهد على ذلك قلة الامكانات الموضوعية وهن إشارته، وكذا تلك الصورة التي تروجها وسائل الاعلام عن الشاعر، وهي أنه صاحب رؤى ومجنون وشاذ وهامشي .. ولن ينتهي هذا الوضع إلا اذا قلب المجتمع قيمه وتغير تغييراً جذرياً حينئذ « سيكون الشعر من إبداع جميع الناس لا من إبداع شخص واحد » .

هونري روجي

ما يتلقاه المجتمع لا يبدو دائماً كظاهرة عرضية . إنه بالنسبة إليه حالة مادية طبيعية . فكيف يمكنه أن يكون ذا واجبات نحو الشعر الذي يعتبره موزعو الثقافة أنفسهم عديم الجدوى مطلقاً ؟

ليس المجتمع في جملة إذن من يتقيد بواجبات ما ، بل أولئك الذين عليهم :

أ- أن يقضوا ببجدية على ذلك التصور الغريب

برنار نويل

من الممكن أن يوجد الشعراء دون مجتمع ، لكن الشعر لا يمكنه ذلك بالتأكيد . فالمجتمع يخلد الشعر مثلاً يخلد التاريخ . لكن ستقولون : وما هي واجبات المجتمع نحو التاريخ ؟

بيير ميشلود

إذا كانت للشاعر أهمية البضاعة في رأي المجتمع ، فليس الأمر كذلك بالنسبة للشعراء الذين يخدمون مصالحه (أليس المجتمع هو الذي يعلمنا منذ المهد قانون أعطى نُعْطُ ؟) زد على ذلك أن المجتمع لا يسطع بأية واجبات نحو أي عضو من أعضائه . فهو الأمر الحاكم والمكافئ ، بل هو الذي لا يخشى ، حين يتعلق الأمر بأعمال المجتهد ، أن يؤدي أكثر من الثمن .

هكذا إذن تنقلب الأدوار ، فيخلق المجتمع ، تحت غطاء البر والإحسان أعضاء يدينون له بالفضل . والحال أن عمل الشاعر مجاني كلياً إنه مثل عرق معدن ثمين ، يشق طريقه عبر الكتلة الرسوبية .

جيرار بوشولي

هل أقول إن واجب المجتمع نحو الشعر مساعدته ورعايته ؟ لنقل إن عليه اليوم وكل إلحاح اعتباره وإجلاله . فحين يسترد المجتمع بعضاً من روحه سيترف بالشعر ، والعكس بالعكس .

جورج طيميليس

لقد ولى ذلك الوقت الذي كانت فيه للمجتمع واجبات نحو الشعر . فالجمهور ، الذي يهتم أكثر فأكثر بالمصالح النفعية ويطمح إلى رفاهية العيش التي تقدمها الحضارة الأمريكية ويبحث عن المتع الرخيصة ،

لا يعرف الشعر . لقد نسي روحه وغداه وروحه الذي هو الشعر .

بيير بوجوت

ليس للمجتمع أي واجبات نحو الشعر سوى واجب منحه حرية التعبير عن نفسه تعبيراً كاملاً دون إجلال له أو ولاء .

دومينيك سبيل

إن « مجتمع الاستهلاك » الأعمى مستعد للإعلان عن استغناؤه عن الشعر . قديماً تنبأ البعض عن خطأ يموت الفن مع تطور المجتمع وثورته . . . لكن ما يجب فهمه هو أن الشعر مثل سائر الفنون أقوى من الإنسان . لذلك على المجتمع الراعي أن يتصرف إزاءه بأكثر ما يمكن من العناية والانفتاح والتوزيع ، ويأقل ما يمكن من القنوط . إن تمكين الشاعر من حياة أفضل يعني تمكين المجتمع نفسه من حياة أفضل أيضاً . وهذا يعتبر واجباً .

برونو دوروشي

على المجتمع أن يولي الشعر اهتماماً وإجلالاً خاصين ، وهذا ما يحدهم بغموض كل الشعوب تقول جملاً شعرية في لغة يومية ، ومع ذلك يبدو أن العالم يحتر الشعراء ويعاملهم كمخلوقات هامشية وعديمة الجدوى ، بل غالباً ما يعتبرهم نصف مجنونين وغير مؤهلين لتسيير شؤون المدينة .

بالمقارنة الهوية ! هذه الصورة طبعاً زائفة ، فليس الشاعر من يتعد عن الواقع ، بل رجل الأعمال الخطير والجددي المسوخ والمتنكر .

ميشيل مانول

لا واجب مطلقاً بما أن دلالة الشعر وقيمه لا واقع ولا تأثير لها في المجتمع. إن الشاعر والمجتمع جوهرا متعارضان .

أندري بوتي بون

كان MIREJO محقاً في قوله : « إن شعباً دون شعراء شعب دون آله » غير أن الشاعر الحقيقي لا يوجد إلا حراً في إلهامه وقوة خلقه. لذلك ، فتدخل المجتمع الذي يريد أن يفرض تصورات وقيمه ومبادئه على المجتمع ، شيء غثيف للغاية .

جان دوني فيليب

لا يمكن الحديث عن الواجب إلا في حالة وجود حلف (وكذا مبادلة في هذا الحلف والحال أنه إذا كان المجتمع يحاول إقامة تعاقد مزعوم بينه وبين شعرائه ، فإن الشاعر فيما يخصه يرفض كل علاقة بالمجتمع ، الشيء الذي يجرمه من حقوقه وحرية (وذلك) في الوقت ذاته الذي يتحرر فيه كشاعر لأنه لا يكون دائماً شاعراً) .

أندري ماريسيل

ليس للمجتمع واجب نحو الشعر ، أما نحو الشعراء ، فيمكنه عند الاقتضاء ، أن يحاول الحيلولة دون موت هؤلاء جوعاً .

أندري بيراكايو

بين المجتمع والشعراء طلاق قديم. فثمة أبواب تغلق حين ينبغي أن تفتح ، إن الشعر الذي يعبر عن أكبر شريحة من الواقع هو أيضاً أقوى تعبير عن

لكن الشباب السليم والمتشدد لا يمكن أن يقبل هذا الوضع الراهن. لذا يجب على المجتمع أن يوفر مناخاً شعرياً يكون بمثابة بوتقة يتشكل فيها المستقبل ، وينض فيها الروحاني ويمجا رغم مرداس العدو المادي ، وإذا حدث أن مات الشاعر جوعاً أو كتم فمه أو غيب في المعتقلات وفي مستشفيات المجانين ، فسكون قد ارتكبنا جريمة لا يمكن التنبؤ بعواقبها .

الكلام الشعري قوى وقادر على تحدي رجال الشرطة والسجون والبلادين . إنه ، مثل العقلاء ، ينبعث من رماده الخاص حياً خالداً .

جان بول روسي

ليس للمجتمع واجبات أخرى نحو الشعر سوى واجب إرادة إبدانه . لقد كانت المجتمعات ذات النمط الفرينكاوي واقعية نحو LORCA وذات النمط السوفياتي واقعية نحو DANIEL وإذا كان المجتمع لا يسعى إلى إبداء الشعر ، فهذا يعني أن الشعر يختفي .

جاك ماري لافون

الشاعر يشك دوماً. ولأنه كذلك فرويته تنزع تماماً إلى تحقيق ذاته ، إلى تحقيق الإنسانية جماء. ليست لغة الشاعر مبهولة إذن. إنها على العكس سؤال دائم وملح للإنسان يصوغه الشاعر في قصيدته ، إذن سؤال دائم وملح يطرحه على المجتمع بأسره وواجب المجتمع نحو الشعر هو أن يجيب عن هذا السؤال .

كارلو سواريس

واجبات المجتمع نحو الشعر ؟ أن يكف عن .. أن يكف عن .. أن يكف عن ..

كارلو سواريس

موقف الشاعر من الجماعة ؟ أن يفهم أن هذه النزعة محاولة لتوسيع ودادية صياد السمك .

دومينيك سيلا

تسعى الجماعة الحديثة الى نش الشعر ، لكن على الشاعر ، مهما يكن مثله الأعلى . أن يواصل صموده كفردية لا تخضع سوى لقانونها الخاص . فلغته وفكره ملك له وحده ، لذلك يحق له وحده أن يقدمها إلى الجماعة ، ولا يحق للجماعة أن تفرض عليه قيودها .

جاك ماري لوسيداني

الإبداع الشعري فعل فردي مثلما الإنسان ثمرة أمه وحدها .

هونري روجي

أظن أنه إذا كان الإبداع (أو بالأحرى إعادة الإبداع) الشعري فعلاً فردياً بامتياز ، فإن الشعر جرم مشع وسط حالة جماعية تنسم فيها طرائق السلوك والتفكير والتعبير والتصرف بالتشابه . هكذا ، فالشعراء رغم اختلافهم فيما بينهم ، يشكلون لوحدهم جماعة حريصة على ألا تحتويها الجماعة .

لكن الدفاع ، أو بالأحرى الحذر لا يستتبع قطعية نهائية للشعر مع ما يحيط به . العكس هو الصحيح ، لأن الشعر ، المحاط أولاً بنفسه ، ملزم بالبحث عن بركة جهة «العدل المحكوم به للجماعة» . هذا ، فيما يبدو لي ، هو حظه ، وربما الأخير ، الذي عليه أن يجبره حتى ولو كانت المغامرة ، المثبطة بحق ، مضنية . قد يصادفه الإخفاق في النهاية . لكن ، ليست هناك طريق من غير أشواك . بأن المجازات المزروعة رجلاً

الإنسان . فهو يمارس عليه إغراء حقيقياً . إن على الشعر أن يكون واضحاً وعلى المجتمع أن ينصت إليه ويستجيب له .

السؤال الثالث

«بما أن الإبداع الشعري فعل فردي ، فإذا ينبغي أن يكون موقف الشاعر من النزعة الجماعية (LECOLLECTIVISME) الحديثة ؟ »

جورج طيميليس

هناك قطعاً تعارض ، بل قطيعة بين النزعة الجماعية والإبداع الشعري . فالإبداع فعل فردي يتوقع خارج وضد سلطة «واو الجماعة» الكمية التي تسعى إلى معادلة كل شيء . إن صوت الشعر لا ينصت إليه غير عدد من الأشخاص جد محدود . صوت الشعر موافقة شخص لأشخاص آخرين :-

انصتوا إلي :

أنا أتكلم من أجل ذلك النور الصامت
النور الأفضل .

PAUL ELUARD

هناك النور الأفضل حاضر إذن ، محافظ على حضوره . وكل الآخرين غائبون لعدم وجودهم كما لو كان المجتمع أرضاً يباباً أو مدينة مهجورة :-

هنا هنا

حاضر

غائب

حاضر

في غياب الجميع .

RITSOS

جان دوني فيليب

ماذا تعني هذه الجاعية الحديثة ؟ إذا كان لها وجود ، فينبغي تحويلها إلى ممارسة جماعية محصورة تتأسس فيها أرضية التفاهم على ماضٍ معيش ، وفي علاقة وثيقة مع ما يمكن تسميته الطبيعة أو ، في حالة عدم توافر الأفضل ، مع ذلك الخيال الذي يخلق خارج السياسة والتاريخ .

موريس بورك

خلافًا لاعتقاد LAUTREMENT بأن «الشعر الشخصي قد مات» ، فإن الشعر المنتج جماعيا قد مات أيضا . فليس هناك أي تأزّر شعر ممكن بين مسيرة الشاعر السيرة وبحته عن تعبير جوهرى وبين النزعة الجماعية الحديثة ، وأقصد بالجماعية ركام البشر الذين أعماهم وأصمهم الكائن لدرجة الكف عن إدراك الكينونة الماثلة أمامهم ، بشر يؤرقهم هاجس الأصل ولا يستجيبون لنداء اللاهثي . نعم ، ما الذي يقدمه للشعر هؤلاء البشر ؟ في هذا الزمان ، زمان الضيق ، من الحق أن نبحت عن إبداع شعري جمالي .

برنار نويل

الإبداع الشعري فعل فردي لكنه ليس فعلا منعزلا ، أما النزعة الجماعية فهي تجميع لأفعال فردية ، مما يعني أنها تحتاج إلى صيانة الفرد وتفرده . إن أخطاء نوع من الجماعية لا تقضي بالضرورة على فكرة الجماعية في حد ذاتها ، ولا يجب أن نقبل بأن كل شاعر رديء يقضي على الشعر .

أندري ماريسيل

ينبغي معرفة المقصود بالجماعية الحديثة ، فبإمكانها أن تتخذ عدة مظاهر ، حيث إن هناك نزعات جماعية

ترسم حديقة قاسية . غير أنها الطريق الوحيد الذي يفضي بالشاعر إلى القصر المقفر الذي لا يمثل سوى بالكذ والمثابرة .

أندري بيرايكو

يدعو الإنسان للرناء حين لا يحس بحضور الآخرين ، الشعر مرصود للجميع في هذا العالم المجهول ، وعليه أن يظل حرا مثلاً على الشاعر أن يرمي شعره .

جان بير روك

ليس هناك موقف يجب اعتناقه أو تصوره أو ابتكاره لإزاء الجماعية الحديثة ، كما إزاء الرأسمالية . إن الصراع داخلي ، والشاعر الخالص والشريف والنزيه يسبر دوما أغوار ذاته وآرائه . ورغباته وهواجسه ، إذن أغوار إبداعه ، حتى ولو كان سيخطئ حتى ، لكنه لن يخطئ دائما . فلا فن دون انفتاح .

ميشيل بلوك

يرتفع الجواب عن هذا السؤال بمدلول كلمة «الجماعية» . فإذا كانت الجماعية تعني قانون الأغلبية المفروض على كل فرد ، وتكديس البشر بعضهم فوق بعض ، وتلصيقهم الواحد خلف الآخر ، وتعبئتهم كالسلح - فلا يمكن لموقف الشاعر منها سوى أن يكون هميشا واعيا واختياريا لذاته الشخصية فالشاعر ملزم بالتمييز وعدم الامتثال للأفكار الجاهزة وإعادة النظر في المسلمات . أما إذا كانت الجماعية تعني (ولم لا) الوحدة والتبادل والاستقلال ، فالشاعر مدعو إلى المساهمة الريادية في تشييدها .

ستالينية وماوية وهيبية واشتراكية - ذات منحى - إنساني ، بل وفاشية ...

جاك فوزينا

هناك الفعل الشعري ، انكفاء/ انفتاح على الذات ، استيعاء متوحد/ متعدد ، تعبير جواني/ كوني عن الفرد . لكن هذا الاستيعاء يرتن بالمجتمع السياقي ويمتد باستيعاء جماعي . أليس الاثنان موحدي الجوهر ؟ لا أحد يجهل دور الحواس ونقل الأفكار الذي لعبه الشعر في لحظات خاصة من التاريخ (قمع ، حرب ، مقاومة وكلنا نعرف أيضا أن تصورنا للشعر والشاعر هو ما وافق عليه مجتمعنا . إن صفحة من الشعر في الصحف اليومية ، وجهورا للشعراء مثل جمهور المغنيين ، ومكانا لائقا في المكتبات لديوان الشعر ... إن كل هذا أصبح ، هنا والآن ، من قبيل الوهم . كيف أجيب إذن ؟

جاك لوياج

هذا السؤال مغرض ، إن فردية الشاعر تتعلق بالسياق الذي يعيش وينتج فيه أما المجتمع الجماعي ، فليس « في ذاته » عائقا أمام الإبداع الشعري . بخلاف مجتمع القهر ، الذي نجد له نماذج في كل الأنظمة السياسية ، فهو عائق أمامه .

أندري بوتيبون

كلما كانت نسبة الجاعية مرتفعة في العالم ، أصبحت حقيقية تلك اللغة التي تلاحق الشاعر ، تلك التي وصفها BAUDELAIRE بروعة في قصيدته « MALEDICTION » .

ميشيل مانول

الغرغرة أسوأ أشكال الاستقالة . إن كل واحد ، وخاصة الشاعر ، مدعو إلى تحقيق ذاته بوسائله الخاصة ، وباستمداده جوهره من معين ذاته الذي لا يجوز التصرف فيه . وكل عمل هو إثبات لشخصية الإنسان لا يمكنه أن يكون نفسه وغيره . والشاعر لا يخاطب العموم ، الذي هو أغلبية مشكلة من ركام ذري - بل ذاتا مستقلة ومسئولة أما نفسها .

جان بير لو سيور

التسليم بأن الإبداع الشعري فعل فردي موقف يجيب عن السؤال . لماذا طرحه إذن ؟

جاك ماري لافون

لست أدري من قال هذه الجملة : « الشاعر فرد جماعي » . على كل حال فهي جملة مبهمة ومطابقة للحقيقة .

فرديا يجب أن يكون كل شاعر ، وهذا مانحن فعلا ، فالقوى الموجهة للخيال الفني تتطلب عملا فرديا ، عملاً مدركاً للضياء المتبقي من ليل كثيف غير شفاف ، عملاً منزويا ، لكن للشاعر خاصة مشروعا إبداعيا هو استجابة لاقتضاء الوجود ، مشروعا مفتوحا على العالم الخارجي ، مسبوqa باستكشاف عالمه الباطني الخاص من أجل الكشف عن بعده الكوني .

بروتو دوروشي

الإبداع الشعري في حاجة إلى حرية ، والحال أن الجماعة الحديثة تقيد الحرية الأصلية ، لا حرية الفكر

السؤال الرابع

«هل ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة أم مستقلا عنها؟»

شارل أوطران

لا يطرح هذا السؤال إلا حين يرفض الشعر ، لأن الشعر استقلال والسياسة استبعاد (وليس هنا مجال مناقشة ضرورتها أو مناقشة تلك الأسطورة التي تقول إن السياسة في كل شيء ، حتى في طريقة تعري المرأة) .

الشعر يتجاوز السياسة . وإذا شئنا فهو سياسة تتمرس على السياسة . إنه يعبر بشكل مغاير وأحسن عن الأزمة والمأساة اللتين يقوم عليهما العمل السياسي . لكنه يعبر دوما عما هو دون وفوق الأزمة والمأساة ، لأنه يستبدل خطاب السياسة المفتقرة للأصالة بأزمة ومأساة إنسان غريب .

فيليب بارو

الشعر يساعد الآخرين على الإفلات من الاختناق . إنه يفلق الأسوار ، وينشق حين / حيث لا ينتظره أحد . يستحيل عليه إذن أن يتقيد بالتزامات حزبية ، فقدره أن يناضل من أجل استقلاله .

جاك بلمانس

على الشعر أن يقي نفسه من الأوساخ ، ومن ثم يلزمه أن يكون في خدمة أحد أو شيء ، وخاصة السياسة .

بيرير بوجوت

يمكن للشعر أن يخدم السياسة بما هو صرخة نائرة

والتنقل فقط ، بل حرية الإحساس أيضا . إن الشوارع تتشابه ، والمعابر تتشابه ، ونفس التلغاز في كل البيوت يطرُق الأذهان بنفس الإيقاع الرتيب والمنظم ، والعيون ترى نفس الصور ، والعقول تتلقى نفس الإشارة . فكريا ستقتل الإنسان حاسة التمييز والإدراك المخنوقة تماما .

إن الماركسية - التي تؤمن بأن الفرد ثمرة لشروط جهوده المادية - تتيح كل التجاوزات والانتهكات ، حيث إن على الفرد أن يكيف وجوده مع مقتضيات مجتمع الإنتاج . يالسخر الشعار الذي أدى في البلدان الشيوعية إلى المأساة الإنسانية التي يعرفها الجميع !!

لكن قوة مضغوطة لا تكف أبدا عن كونها قوة ، فسرعان ماتدمر الأسوار التي تمجدها ستزول المجموع ، وسيجد الفرد نفسه وحيدا من جديد ، مرتبطا مع الآخرين لغرض واحد هو حياة حياته ، وضمان نموه الفكري .

إن على الجماعة أن تحمي الفرد ، لا أن تقمعه ، وعلى الفرد من جهته أن يدفع بحرية ضريبة اجتماعية ، لا أن يضع في المجتمع . ومع ذلك ، فصحيح أن جميع الحريات ليست مفيدة لا للفرد ولا لمحيطه ، بل ولا لتنمية إحساسه الروحي .

روبير لوسيان جيرارت

باعتبار فردانيته المفرطة ، لا يمكن للشاعر سوى أن يجهر بالريبة والعداء ، أليست أثبل طموحاته عرضة كل يوم للإحباط بسبب ضرورات مجتمع فوق - استهلاكي ؟ ليكن الشاعر - وسط قطع البشر السادر والحقير ، وبعبيره المؤلم عن شرفه المهدد ، الضمير السوي والصحيح لعصر مجنون .

ضد الظلم والطغيان ، لكن عليه ألا يخضع لها بأي حال من الأحوال وأن يتعدى عن الرسمية .

نزّه نفسك عن العالم الرسمي
عن الذين يمثلون
السلطة على الأرض
حق قتل الآخرين
الحقد ومدفن العظام .
كل رسمي يجر معه

رائحة الكائنات

لون المعتقلات

مكافآت مابعد الإعدام .

أنت أيها الشاعر

يا من سيعيش بعد موته

يا من سيطفر صوته مدويا

في صدى الأمانة

اعط إشارة الاعتزال

انسحب من السخف

لكن لا تعتقد أنني أعلمك حيادا جديدا

فلا يمكن أن أظن باردا

متكبرا

شارد النظرة

في قمة برج عاجي

بينما القتل على أشده في السفح .

إذا رفضت تحية التاريخ وأتباعه

العلم وأصحابه

الجيش وأعضائه

فلا أفوت فرصة تقبؤ- لعن- إحراق كل ذلك .

لذلك أعلمك النار

وسط برج لامرئي

ينثر ليللا التكلبات الصافية .

ميشيل بلوك

الشعر كائن سياسي لا يدافع عن هذا الحزب أو ذاك ، بل يعمل في العمق من أجل سلطة الإنسان ، سلطة جديدة للإنسان .

جيرار بوشولي

ماهي السياسة ؟ ضجيج خادع في الغالب . ليكن الشعر ربحا عاصفا أبدا لا تكذب . نقول ربح التاريخ ، لاربح السياسة .

موريس بورك

كيف يمكن للشعر ، المرصود أصلا لتسمية المقدس ، أن يتمهر لفائدة قضية سياسية ؟ إن التزامه يعني نسيان رسالته الحقيقية ، ألا وهي البحث عن جوهره الخاص . والشعراء الذين تغريهم دواع تاريخية معينة باستبدال طريق الشعر بطريق السياسة سرعان ماتوا أشعارهم الظرفية تحت أغنيهم ، ما الذي تحمله للقراء اليوم قصائد DEROULEDE و HUGO و ARAGON السياسية ؟ لاشيء البتة . أما أشعار HOLDERLIN و RILKE و RIMBAUD (وأنا أذكر الأموات تحبنا لنسيان أي حي) ، فما تزال بالنسبة لقرائها تنتزع الحجب والأقنعة .

شارلوط كالميس

لا يمكن للشعر أن يكون دون صبرورة . إن التاريخ ، الذي هو في عداد المسؤولية الشعرية ، سياسة ، والشاعر حتما يواجه التاريخ .

كاسطون كريل

يجدر بالشعر أن يستقل عن السياسة . لكن بإمكانه أن يكون في خدمتها ، لم لا ؟ المهم أن يكون هذا

الشعر، تشهد على ذلك قصائد شعراء مثل Agrippa D'aubigne و... Eluard، هل استطاع هؤلاء تغيير مجرى الأحداث؟ إن الشعر لا يندم السياسة.

هوبير جوان

كل شيء سياسة: كل كلمة، كل نفس، كل نغم... وعلى الشعر أن يكون من إبداع جميع الناس، لامن إبداع شخص واحد LAUTREAMONT. كذلك السياسة. سيكون ذلك حقاً تحولاً للعالم - وتحولاً للأموال.

جاك - ماري لافون

أكد أن على الشعر أن يتخذ مواقف. لكنه بذلك يخاطر بالأنا يخضع سوى لما هو عرضي وطارئ في الحاضر. هل يمكن أن تتصور شاعراً شيوعياً أو مسيحياً؟ هل يمكن بالأحرى أن يقول الشاعر إنه شيوعي، أي عضو في الحزب الشيوعي، وشاعر، أو مسيحي وشاعر؟ شخصياً، أختار الصيغة الثانية، وهذا لن يمتنعني مطلقاً من اتخاذ مواقف إذا فرض علي ذلك حدث طارئ.

اندري مارييل

لا ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة. لكنه - وهذه مفارقة يعيشها يوماً كل واحد - لا يستغل عنها. لقد كتبت شخصياً قصائد عن أحداث فاروسوفا وعن مناهضة التمييز العنصري وعن أحداث ماي ١٩٦٨ وعن MARTIN LUTHER KING... إن الشاعر معني بالسياسة. بل إن السياسة بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت.

الشعر جيداً، والحال أن القصائد السياسية الجيدة نادرة.

ريمون داطيل

كفى سخفاً وهذراً. لنرتفع فوق السياسة وباتى بخارات المجتمع. ذات مرة، كان العالم وكان الإنسان. ومن تلاقيها كان كل شيء.

بيير دابنو

لا يمكن للشعر أن يخضع للسياسة، مهما تكن سخية. ومع ذلك، فدلالته سياسة، أو بالأحرى ثورية. فإذا لم يكن الشعر ثورة في الثورة ذاتها، فإنه يموت.

نيكول كدالبا

الشعر في جوهره مستقل وسياسي في آن واحد: فهو ككل تعبير فني، ينبثق من السياق الاقتصادي الاجتماعي الذي يكتنف الفرد المبدع، ويتحول بعبوره لـ «نفس» مصفاة الفنان الذي يصوغ جوابه عن معاناته. إن الشعر والفن عموماً ينتميان بدرجات مختلفة إلى المدينة التي تتحملها. فهما يرتبطان بظاهرة التفاعل، وهذا ما يبرر مسؤولية الفنان بخصوص إبداعه وتأثيره.

روبير - لوسيان جبرارت

يسعى الشعر إلى التعبير عن الإنسان الباطني. لكن هذا الإنسان يكفيه الخارج حتى. فليس أهم كل من يريد ذلك. وأن يقام الإنسان عصره يعني أن يسبح ضد التيار، الشيء الذي لا يتم دون معاناة التيار. إن الشعر تعبير عن انفعال، عن تأمل، والسياسة تؤثر في

سبليوس كاسطانتوس دوميديسيس

إذا تبيننا تعريف أرسطو للسياسة ، يكون على الشعر لا أن يخدمها فقط ، بل أن يساهم في خلقها أيضا . أما إذا فهمنا منها لعبة التناور الراهنة يلعبها محترفو السياسة ، فإن على الشعر لا أن يستقل عنها فحسب ، بل أن يندد بها ويحتقرها .

بيريپ ميشلود

لا يمكن للشعر أن يخدم السياسة . إنه مصنوع من الأرض ويذو النجوم والجناد والنسج والدم . ولأنه كذلك ، فهو كوني ، ومن ثم لا يتكيف مع ما تفترضه السياسة من قيود وحدود .

برنار نوبل

يمكن للشاعر أن يكون «مستقلا وسياسيا . لقد أدركتنا منذ مدة أن الالتزام ليس في الموضوع (ليس في إنتاج خطاب سياسي) ، بل في إرادة الشاعر أن يكون كاملا . أقصد أن النص الذي يخلص الشاعر في كتابته هو نص ملتزم - إذن سياسي ، بمعنى أنه يسعى الى تغيير كاتبه وسياقه . ثم إنني لاحظ أن كلمة «استقلال» لا تعني هنا أي شيء . فهل يكون الإنسان مستقلا عن الحياة ، عن الموت ؟

اندري بيراكايو

الشاعر قبل كل شيء إنسان . إنه يخاطب عواطف البشر ، يكلمهم ، فهم أساسا من يخدم . إنه يرى . يسمع ، يتخذ مواقف ، يسمي ، يفضح . إن أفلح الخيانات ، في هذا القرن الطافح بالظلم والعنف ، هي الصمت .

جان - دوني فيليب

لا ينبغي للشعر أن يكون تابعا إلا للشاعر . هذا أمر واضح . لكن الشاعر تابع لعدة أشياء . بل يحدث له أحيانا أن يتعلق بتجربة أصيلة ومعيشة . حينئذ يتعقد الأمر . . . أود أن لاحظ أن الشعر ليس ما نجد السياسة ، بل يمكن أحيانا أن نخدم السياسة الشعر .

كارلو سواريس

هل ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة ؟ أكيد أنكم تغزحون !

دوميتيك سيل

يمكن للشعر أن يتطوع لخدمة قضية سياسية أو اجتماعية ، فله حرية التصرف المطلقة ، إذ من العبث محاولة منعه من ذلك . بيد أن عليه أن يظل مستقلا كل الاستقلال عن الأحزاب أو التنظيمات إذا كان يريد أن يبقى وفيا لجوهره ، وألا يتحول إلى أداة مسخرة . هل الشعر في حاجة إلى أن يرتبط باليدولوجية ما حتى يؤثر في الناس ويغيرهم ، إذا كان قادرا على ذلك ؟ هل هو عاجز أن يتحمل وحده رسالته ؟ إن استقلاله وحده يحول دون تقسغه في حمة الحقيقة المحنطة . ذلك أن الحقيقة ليست ثابتة . إنها تتسع اتساع الكون . أما السياسة فهي حتما مرادفة للقيود والحدود .

السؤال الخامس

«هل يبحث الشاعر عن جواب للغز الوجود؟»

جورج طيميليس

من المؤكد أن الشاعر الحقيقي ، ذلك الذي يكتب شعرا جوهريا ، يبحث عن جواب للغز الوجود ، فهو

هوتري وروجي

يوجي الشعر المعاصر (أقصد الشعر الحلي) بأنه قلب ضخم يدوي أكثر مما يحقق. إن تعدد اتجاهاته وتشابكها، وتحولاته الفوضوية، وقطيعته مع القديم وحضوره الدائم في برامج تثوير بنيات التعليم والتغابات والأحزاب والكتائن والمجتمع عامة، وحلمه بنظريات بيئية جديدة، ورفضه التقاليد الأدبية، وسعيه الدؤوب لخدمة الإنسان، وامتلأه لحس العدالة والكونية الحاد، وإعادة اكتشافه للعقل الأول الأصلي، باختصار إن غمراته التي تقوده إلى أكثر الأشكال الفنية غرابة وأصاله تدهش وتحير. طبعي أن يبحث الشعراء، لكن، ألا يتعلق الأمر ببحث يعلق مشكاته، حين يسائل كوكبة النجوم، بحنية الجذور؟ نعرف أن كيمياء اللغة موجودة فعلا، لذلك نجلها مثل النسخ مقابل خدمتها لنا. لكن موسيقاها تحرف في أعماقها ذرات الرضى بالنفس، حذار! فأخواننا بشر، وظهور الكيان بالنسبة إليهم لا يخفى في فرن التقطير!

ليس هناك إذن لغز يتطلب حلا، تكفي ملامسة اللغز وحدها. يكفي أن تسقط نجمة في راحة يدنا، يكفي أن يعذبنا رمز ليختنق الطائر المائي في غمرة تحليفه.

جان - دوي فيليب

ليس الشاعر لاعلام ولا راهبا ولا متصوفا ولا مجنونا. يمكن للفلاسفة أن يبحثوا عن سر اللغز إذا حلا لهم ذلك. أما الشعراء، فيشهدون على جلاله وعلى وجوده (فليس هناك بعد لغز بالنسبة إليهم منذ اللحظة التي أدركوا فيها أن الوجود ملغز).

يتساءل عما نكونه ونجعله، يكشف عن البعد الآخر في ذاتنا، ذلك البعد الوجودي أو الميتافيزيقي الذي لا يني يبهت. إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي سيتقهقر إلى مستوى مجرد حيوان أو أدنى من ذلك. لذلك، يكافح الشاعر من أجل أن يستعيد الإنسان، المجرد من اكتياله، جوهره. وهذا بالذات هو الضوء الذي يقدمه للحياة ضوء الوجود.

كارلو سواريس

أجيب بنعم ولا. فأن تبحث يعني ألا تجد، وأن تجد يعني أن تتخذ. هذا السؤال يفتقر إلى الدقة. فإذا لم يكن الشاعر مسكونا ومهووسا وممسوسا اختر ماثاء من الصفات - إذا لم يمزق الحجب والأقنعة، فلينظم أبياتا في الحب والورد وقت الربيع. اقرأوا Joe Bousquet، أعظم الشعراء.

دومينيك سيلا

أفضل تشبيه الشاعر بالعالم، خاصة العالم الفيزيائي أو البيولوجي. فالشعر له معادلاته ومجاريه الخاصة. وهو طبعيا يكف، وبالصدفة أحيانا، على ألغاز الحياة والكون والمادة. لكن المؤسف أنه ليس هناك لغز واحد، بل ألغاز شتى. فالشاعر يجرب، يتلمس، يكشف أحيانا، يوسع الدائرة، ويلاحظ، كما فعل أشهر الفيزيائيين. إن الواقع يزداد تعقدا، وإن كل نظرية جديدة، من غير أن تلغي النظريات السابقة، تكملها وتدفعها إلى الامام.

سيحيا الشاعر إذن، مثل العالم، مادام اللغز حيا.

جان - بول روسي

لا يمكن للشاعر سوى أن يحاول - ودون جدوى في الغالب - البحث عن جواب للغز وجوده الخاص.

اندري ماريسيل

نعم إن الشاعر، ضمن آخرين (علماء، رجال دين، فلاسفة...) يبحث عن جواب للغز الوجود. لكن، هل هناك جواب واحد؟ وحدها العقول المتعصبة في كل مكان وزمان مايزعم أن ثمة جوابا واحدا.

ج. ب. ب. بالب

الشاعر من يريد أن يكون ويظهر بذلك... هل هذا جواب عن سؤال الوجود (إذا كان هناك سؤال)؟

اندري براكاويو

يعترف الشاعر بأنه يبحث عن سر اللغز. لكن، ما أكثف الظلال بينه وبين الحقيقة!

جاءك بلانسان

يتطلب الشعر الجيد عدم البحث عن أي شيء، وفوق ذلك عدم الجدية.

ميشيل مانول

علينا ألا نخلط الميتافيزيقا والفلسفة بالشعر. إن الشاعر يعبر في الأكثر عن غموض الحياة وقلقها، مع هامش الغرابة التي نكتنفها. وبإمكانه أن يسترحي بوضوح أو غموض واقعا فوقيا دون أن يعني ذلك أنه قد اكتشف سرا أو حل لغزا.

شارلوط كاليبس

الشاعر لا يبحث عن حل للغز الوجود، لأنه إذا كان شاعرا حقا، فسيكون هو لغز هذا الوجود وربما حله أيضا.

جان - بير لوسبور

ولأي شيء إذن يصلح الفلاسفة والصوفيون والأنبياء عموما؟ لعلهم جميعا شعراء. في هذه الحالة، لماذا التمييز بين الأنواع؟

جاءك - ماري لافون

التماهي بين الإنسان والله يتم على مستوى اللغة، على مستوى الكلمة. هنا تكف الكلمة عن كونها علامة اصطلاحية، تكف عن كونها جزءا من أداة هي اللغة. ذلك لأن اللغة ليست أداة، بل هي مايعرف الكينونة بالذات، لأن الكينونة ذاتها... تعريف الله لأن الله ذاته (الكلمة الإلهية)...

أن تفكر يعني فعلا أن تكلم ذاتك. فلا تفكير بدون لغة، ولا تكلم مع الذات دون كينونة. أن تكون حيث القلق القاهر هو لغز الوجود، حيث لغز الوجود يمر بالضرورة عبر الله، شئنا ذلك أم أبيناه.

كاسطون كريل

لاشك في ذلك.

- الحقيقة في الأشياء، في الإنسان. وعلى الشاعر أن يكشف عنها ويجعلها تكلم (Paul Eluard).

- الشعر: رغبة في تعميق الواقع، توعية دوما أصدق وأقوى بالعالم المحسوس (Andre Breton).

هوبير جوان

لعل هناك لغزا واحدا فقط، وهو عدم وجود أي لغز. وعلى حاشية هذا العدم، هذا الفراغ، هذا الغياب (الفاجر مثل شخص مشنوق) يطرز الشاعر: يغني البشر التي بدون قاع.

جورج طيميليس

هل ما يزال هناك قراء للشعر ، أقصد قراء يبحثون عن الشعر ليتوجدوا معه ؟ لاشك في أن عددهم جد محدود . إن الأمر لا يتعلق بأزمة ثقة بين القارئ والشاعر بقدر ما يتعلق بلامبالاة إزاء الشعر . لماذا ؟ لأن الشاعر موجود من أجل لشيء . وإنه لا يمثل شيئا بتعبير SEFERIS كيف نقلص هذه المسافة ؟ لعل تلاوة الشاعر نفسه لقصائده أمام الجمهور سيكون مفيدا ، وهذا ماكان يفعله MAIAKOVSKI وبعض الشعراء الروس . اعتقد أن كل إنسان ، في عمقه ، يحب الشعر دون وعي منه . وبإمكان هوت الشاعر الحي أن يوقظ هذا الحب المخبوء . ثم إن الشعر علاقة . فالإنسان لا يذهب إلى مكتبة ليشتري كتابا شعريا لا يصلح لشيء . من الأفضل إذن حضور حفل شعري وتقبل القصيدة مباشرة بالسمع ، مثلما تقبل الموسيقى . شخصيا ، جربت ذلك بنجاح .

كاسطون كريل

أزمة الثقة هذه ليست وليدة اليوم ، فهي ملازمة للشعر . ليس عندي إذن ما أقترحه . فالحمير لا تقدم لها الدرر والجواهر .

شارل اوطران

قبل الإجابة ، ألاحظ أن أزمة الثقة هذه ليست وليدة العصر الراهن ، وأن قراء الشعر - إلا بعض الاستثناءات الممكن تفسيرها بسهولة (شعر PREVERT مثلا) - قليلو العدد ، وأن للجمهور الواسع ، كما يقال ، «شهوات» أخرى . لنكف إذن عن اتهام العصر والشعر والجمهور . فالواقع هكذا وليس أي شيء آخر .

جاك فوزيتا

الشاعر باحث مجهول عن الكلمات : هوذا اللغز : كل شيء يكمن إذن في هذا اللغز ، وكل لغز في اللغة التي تحويه . وسواء أكان الجواب تعزيا أم كشفا أم دراسة أم نظاما أم كتابة أم كلاما ، فإنه يمر حتما من السلطة الغربية للكلمات . لنترك الباقي إذن للعلم والفلسفة والدين بما أننا نملك الجوهري .

روبير - لوسيان جبرارت

عم يبحث الشاعر ؟ عن مواساة لكآبته ، عن تعويض لعوزة ، عن السعادة بالكلمات ، عن المطلق بالفن . هي يحق اعتبار الشعر بمثابة علم حدسي ، ملكة تنبؤية بواسطتها تسبق رؤيا الشاعر فرضية العالم أو تثبت عقيدة ما أم هل يحق حصره ضمن تصور مادي ، مثل «الفن للفن» ؟ إن القصيدة مثل الإنسان ، جسد وروح ، دال ومدلول . إنها معاناة وشهادة . من العبث إذن أن نتنظر منها أن تكون أكثر مما هي .

السؤال السادس

«ماذا تقترحون لتبخيف من أزمة الثقة المستفحلة اليوم بين الشاعر والقارئ؟»

كارلو سواريس

تقولون : أزمة ثقة بين الشاعر والقارئ ؟ ولماذا التخفيف منها ؟ ليست هناك أزمة ثقة بين الشعر الشعبي والشعب ، لأن هذا الشعر يتغذى من الشعب . هناك أزمة بين الشاعر الذي يبلغ منتصف الطريق وأولئك الذين يريدون منه إما أن يتقدم وإما أن يتقهقر .

والقابلية لنشر قصيدة واحدة على الأقل في كل عدد من أعدادها ، إلا أن تقودني أها الحلم ؟ إلى الملاحظة التالية : وهي أن الشاعر سيتعمد بالباقي ، أي بالشعر - حينئذ ، سنرى أن أزمة الثقة بين الشاعر والقارئ أزمة مزعومة .

ج - ب - ب - بالب

ليست هناك أزمة ثقة ، بل صراع . فلما إن يصبح القارئ شاعراً ، وإما إن يتخلى عن الشعر الشاعر . ولا يكمن الحل إلا في تغيير شامل : أي إبداع مجتمع « شعري » يعطي الأسبقية للرغبة في الوجود والتلذذ به ، لا للإنتاج والاستنساخ أو عدم شطر الإنسان إلى شاعر ومواطن .

جيرار باشولي

ينبغي رد الاعتبار للشعر كجنس أدبي له ما للمسرحة أو للرواية من امتيازات وحقوق وواجبات . وهذا يتطلب من رجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والكتبيين والمدرسين ثقافة ورعاية خاصتين . يبدو لي دائماً أنه من العبث أن نقرأ ونقريء الشعر في المدرسة وفي الجامعة وألا يكون الأمر كذلك في الحياة .

موريس بورك

هل بين الشاعر والقارئ أزمة ثقة ؟ أليس من الأنسب لطبيعة هذه الأزمة بالذات الحديث عن أزمة قراءة ؟ أليس من الأنسب لطبيعة هذه الأزمة بالذات الحديث عن أزمة قراءة ؟ فنحن BAUDELAIRE و RIMBAUD و MALLARME ، اتبنا الشعر الفرنسي إلى ما يفصله عن النثر ، ونعي أنه لغة داخل اللغة ، وتعلم الشعراء أن يحذفوا من القصيدة ما يمكن أن يكون نثراً فترتب عن ذلك أن القصيدة أصبحت ،

ومع ذلك ، يمكن الادعاء بمكر بأنه لو كانت دواوين الشعر (المكتوب) في متناول الجمهور لكانت هذه الأزمة الدائمة . لكن الملاحظ هو إما أن الناشرين والكتبيين يتواطؤون ضد الشعر ، وإما أن الشاعر والجمهور يتلذذان بطلاقتهم .

لنبدأ بالاحتمال الثاني . إذا استثنينا المواة الألف أو الألفين أو الثلاثة آلاف الذين لهم خبرة ومواكبة ، ينبغي الاعتراف بأن الشعر لا يقدم للقارئ في أطباق من ذهب . فإذا لم يكن مطلقاً وعضواً في حلقة المولعين بالشعر شبه السرية ، فلن يجد الدواوين في أي مكان أو يكاد . ذلك لأن الكتيبي (إلا بعض الاستثناءات النادرة) ، الذي تمحّل إلى بقال كتب مثلاً أصبح الصيدلي يقال أدوية ، لا يرهق رفوفه بهذه السلعة التي لا تبيع إلا قليلاً وببطء وبالصدد . لذلك ، يحاول هذا القارئ المستحيل . وما أن الناشرين - إلا استثناءات نادرة - قد فشلوا في إحداث مشروع توزيعي فعال ، فإن هذا المستحيل بدوره يصبح نادراً .

من هذه الاعتبارات ، يبرز أن المسؤوليات مشتركة : فالجمهور كسول ، والمكتبات تحولت إلى بقالات ، وناشرو الشعر قليلون . ليس الواقع إذن أزمة ثقة ، بل أزمة بنية لا نرى لها حلاً عاجلاً ، لأن ممارسة الشعر تشبه في الغالب رسم أيام الأحد ، مما يؤدي إلى تضخم مفاجئ .

لنحلم بعدد قليل من الناشرين ، يتعهدون بنشر قصائد عدد قليل من الشعراء ويتوزعها جيداً على عدد قليل من المكتبات ، مع مساندتها بدعاية ذكية وسليمة ! لنحلم أيضاً بعدد قليل من النقاد « المتفنيين » و « غير المتفنيين » على مواقف قليلة ، وبعدد قليل من المجلات المنفتحة على هؤلاء النقاد

جاءك ماري لافون

لنعتزف بأن يكتب الشعر يتطلب من القارئ جهداً
تأملياً، إعادة قراءة تدقيقاً للنظر، إما للتمتع
بالإحساس الذي يثيره، وإما لنقده. لكن القارئ في
عالمنا المتسم بطفان حضارة السمعيات - البصرات،
أصبح يفتقر إلى الوقت.

جاءك لوباج

أقترح تغيير التعليم لإنهاء أزمة الثقة هذه.

جان - ماري لوسيداتي

المسألة سياسية بالأساس. يبدو لي أن التقنيات
الجديدة لتوزيع الشعر - وأنا لا أستهين بها - تعتمد على
تأويل خاطيء لما يدعى طلاق الشاعر والقارئ.
ويمكن القول، دون تدقيق النظر في المسألة، إنه من
الممكن فهمها على مستويات عديدة. لعل أهمها
مستوى «مقروية» النص الذي لا يخضع لمقاييس
موضوعية ثابتة، بل يتعلق بالطريقة التي «يستمتع» بها
القارئ. مما يقتضي على الأقل إعادة النظر في مقولة
«الفهم» التقليدية، بحيث يكف القارئ عن كونه
من يتلقى النص سلبياً، ليصبح من يتورط فيه ويفعل
فيه.

لكن سرورة «المقروية» هذه لا يمكن أن تأخذ
معناها الحقيقي إلا بـ «التفاعل مع النضالات
السياسية التي تخوضها البروليتاريا» (وهو تفاعل ما يزال
إشكالا داخل البرجوازية المثقفة الصغرى التي فيها
تشكل القصيدة غالباً، باعتبار تاريخ ممارستها
النوعي).

بسلطة الإجماع والاستعارة والصورة الشعرية والإيقاع،
ذات قدر كبير من القوة والشفافية، مما يفترض القدرة
على القراءة شعرياً. لكن المؤسف أن الأغلبية الساحقة
من الفرنسيين عاجزة عن ذلك، لعدم تلقيها في
المدرسة تعليمياً يساعد على ذلك. إذن، فحل هذه
الأزمة يمر من المدرسة والجامعة. وقد شرع بالفعل في
إجراء تجارب تربوية منذ سنوات، حيث أدرك
المعلمون الشباب أهمية المسألة. لذلك، ليس من
قبيل الوهم أن يتم في المستقبل اعتراف القراء
بالشعراء.

فلورونس فوكومير

ليس عندي ما أقترحه. علينا أن ننتظر. فلا يمكن
للعقل أن يظل حبس أجساد آلية. سينفجر في
شرائقه.

جاءك فوزيتا

إذا كانت هناك أزمة ثقة، فلأن هناك سوء ائتمان.
فلا أحد يستحسن ظاهرة النشر على نفقة المؤلف التي
استفحلت، لأنها تتم على حساب الجودة. أما
الجمهور، فهو في حاجة إلى ما يعود على الشعر، أي
المدرسة، التي تصلح أكثر من غيرها لتلقيته الشعر
بشكل منهجي وذكي.

روبير - لوسيان جيرارت

اقتراحي؟ الكف عن التدمير دون إعادة البناء،
بدعوى البحث. استعادة اللغة الشعرية لقدرها
الأصلي، وهو أن تكون مقولة، لا معروضة. صيانة
ميل الطفل الغريزي إلى الشعر الذي يفني،
يفاجيء، يدهش. ربما بذلك سيكف بورجوازي
الغد عن اعتبار الشعراء أشخاصاً مهرجين.

اندري مارييل

سبق لي أن قمت بأبحاث وتحقيقات حول علاقة الجمهور بالشعر، ولم أتوصل إلى جواب حقيقي. غير أن لي بعض المقترحات :

- تعويد الأطفال على الشعر في المدارس .
- تمكين النقاد من فرص الحديث عن الشعر في الصحافة والمجلات بشكل أفضل وأطول مما هو عليه .
- إتقان استعمال الوسائل السمعية - البصرية لفائدة الشعر .

دوميتيك سيلا

إن لأزمة الثقة بين القارئ والشاعر سبباً رئيسياً، وهو جهالة الأول. أحياناً، يحب الناس الفن في مختلف تجلياته، فلا يترددون أمام المتاحف والمسارح، ويكرسون برغبة بعض الساعات للإنصات إلى الموسيقى، ولقراءة الأدب الذي نادراً ما يدرجون الشعر ضمنه، لأنهم بكل بساطة لا يعرفونه. لعلمهم يتصورونه عملاً ومستعصياً على الفهم. ولندارك هذا الوضع، لا بد من تعبئة وسائل التنقيف والإعلام، لا بد من إثارة فضول القراء، حتى يتبدد سوء الفهم هذا الذي يزعجهم المجتمع.

بيير ميلشود

لا أقترح شيئاً. إذا كان الشعر قد انحرف بالشكل الذي نعرف، فإن ذلك لم يقع دون تواطؤ المجتمع. فلو أن المجتمع كان يضم متحمسين أكثر لا بداع الشاعر لما رأينا مضطهديه اليوم يمثلون مثل البهلوانيين على أعلى درجة من السلم المقلوب.

إن الشاعر لا يكتب للقارئ، فنشيدته ثمرة عمل مضن وأناة طويلة. إنه يغني للإنسان الذي يفتح له قلباً مرفه الإنصات. أما القارئ، الذي له مطالعته التي يستحق، فلا شأن له به. على كل حال، سيوجد يوماً شاعر على الأرض لينقذ الشعر.

برنار نويل

شخصياً، يفاجئني قرائي دوماً بإصغائهم، إذن يقتتهم. إذا كانت هناك أزمة، لماذا تحمل القراء مسؤوليتها؟ ألا يليق عكس السؤال - وعكسه ضد

هل يكفي ذلك (إذا افترضنا تحققه)؟ أليس هناك طلائع يستفحل باستمرار بين المبدع (ليس الشاعر فقط) والجمهور الذي يخاطبه، في مجتمع مفرط في المادية والاستهلاكية؟

سطلبيوس كاستانوس دوميديسيس

إذا كانت هناك «أزمة»، فلأن الشاعر لا يتحمل مسؤوليته كباحث عن الواقع المطلق، ولأنه ينسى يتحدث إلى الشعب، وفق قواعد فنه، عن هذا الواقع المطلق، الذي هو فردي وجماعي في آن. لم تكن هناك «أزمة» ثقة مع قصائد PINDARE ومآسي SOPHOCLE والنثر غير المنشور عند ERACLITE وأنشيد PINDARE، فهل فكرنا في سبب ذلك؟ هل يمكننا أن نعود بالتقدم إلى شعر متعدد وواحد، إلى لورغوس إبداعي (الشعر في اليونانية يعني الإبداع) يتحدث إلى الشعب عن همومه وعظمته وتطوره بواسطة الحارق، أي الفردية الملهمة؟

دومينيك سيلا

إن الناشر والشاعر لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر ، وهذه البداهة تفرض أن يكون قانون المساواة ما ينظم شركتهما لكن الناشر غالباً ما يهيمن على الشاعر ، لاعتياده على مجتمع يعاني من تنفس القيم ومن داء الربح بأي ثمن ، من فصلته الخاصة إذن أن يرد التوازي إلى نصابه حرصاً على تماسك الشراكة .

أندري مارييل

مهما يكن نفوذ الناشر ، فإن توقيعه أقل قيمة من موهبة المؤلف وكل ناقد شعر رصين ومطلع لا يتعلق بالأمور الخارجية : فكم من ناشر « صغير » هو في الحقيقة ناشر كبير مثلاً أن المجلات الصغيرة تلعب دوراً اكتشافياً كبيراً .

أعرف أن بعض النقاد يمارسون نوعاً من الإرهاب باقتصارهم في مقالاتهم على ذكر نفس الناشرين الذين لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة ، والنتيجة هي أنهم ، بإنكارهم للتنوع الشعري الهائل يصبحون عقولاً أكاديمية ومثثلة .

روبير - الوسيان جبرارت

في العصور القديمة لم يكن الشعراء المنشدون يهتمون بتوقيع قصائدهم مكتفين بكل تواضع بكتابتها وإشاعتها . فليس الناشر الذي يفرض سلطته كأي رجل صناعة هو الذي يجب إدانته ، بل مجتمعنا الاستهلاكي . لكن هذه قصة أخرى . على كل حال فقرة قصيدة أو نثر دون تسمية صاحبها أفضل ، شعرياً ، من تسمية الشاعر ونسيان قصائده .

الشعراء والناشرين في آن واحد ؟ إن القارئ ، تعريفاً ، شخص وثوق . فإذا غمت غائلته ، فمن المسؤول عن ذلك ؟ يبدو لي دائماً أن القراء هم من « يصنعون » الكتب ، ينشرونها ، بفضل عملية حفر وإعادة كتابة هي عملية القراءة بالذات .

ليست هناك أزمة . هناك فقط انتظار - انتظار حقيقي ، بدون ثم وبدون استمجال .

أندري بوتنيون

إن أزمة الثقة بين القارئ والشاعر ناتجة عن تسييس الشعر أو عن الرغبة في الإبهار بأي ثمن .

جان - دوي فيليب

ما عل القارئ إلا أن يصبح شاعراً والشاعر قارئاً . هذه معضلة كبيرة . من المحتمل أن يكون الحل في ما يسمى « النشر الهامشي » (الذي يكف عن كونه هامشياً مادامنا نتحدث عنه) ، شريطة أن نستهدف الإنفاق التدريجي والشامل للمجتمع الإنتاجي . هناك أزمة لأن هناك متاجرة . لعلي طوباوي . لكن ، أستم أكثر طوباوية مني بانتظاركم لمثل هذه الأسئلة أجوبة غير طوباوية ؟

السؤال السابع

« مارأيكم في أهمية اسم الناشر الذي أصبح ، في حياتنا الأدبية ، يكتسي بشكل مزعج أهمية تفوق أهمية اسم المؤلف ؟ »

بيير دانيو

أعرف بالتجربة أن اسم ناشري لم يعرض اسمي أبداً. وأظن أن إنجاز تحقيق في الموضوع سيكون مفيداً. لكن المتوقع أن يُجهض هذا التحقيق في بدايته، نظراً لكثرة المصاعب والحساسيات التي قد ينبغي مراعاتها.

جيرار بوشولي

لا ينبغي أن يكون الناشر «سيداً» بل «خادماً»، مثل أولئك المحامين الذين تُنسى شهرتهم للأسف اسم المتهم.

نيكول كداليا

ما يزال توقيع الشاعر يخدع الجمهور الواسع، لكننا نعرف جميعاً أنه كلياً كانت دار النشر ذات شهرة وهيبة، كان نشرها للشعراء الشباب قليلاً. إن صورة نشر الشعر هي صورة الثعبان الذي يعض ذيله.

جيلبير طرولي

لم أفهم معنى السؤال... لكنني أسألكم: هل ما يزال هناك شعراء ذو ناشرين؟

جان ماري لوسيدانيي

لسوء الحظ أن وضعية نشر الشعر تتضح باستمرار، فهناك من جهة الناشر الكبار الذين تتناقض اختياراتهم (لا ينشرون على أي حال إلا قليلاً من الشعر) ويمتازون برفضهم المنهجي لمنجزات الطليعة الأدبية الحقيقية الراحنة، وهناك من جهة ثانية كوكبة «الناشرون الصغار» والمجلات التي ينبغي التمييز فيها بين: ١- مؤسسات النشر «على نفقة المؤلف» وهي أجهزة للاختلاس المكشوف بكل معاني الكلمة ٢- المبادرات الجريئة التي تتخذها بعض الجماعات ذات التأثير الحقيقي والأصيل في مجالات الكتابة والفن عموماً. وضمن هذه الجماعات ينبغي البحث عن المنجزات الحقيقية للشعر الراحن. لكنها غالباً ما تتعرض في النهاية لاحتواءات الناشرين الكبار.

جورج طيليس

أظن أن هذا الوضع ناتج عن تسويق الكتاب. فقد استطاع بعض الناشرين في سائر البلدان وخاصة في فرنسا أن يتحولوا إلى شركات تجارية بكل معنى الكلمة، حيث أصبح توقيعهم بمثابة علامة تجارية على الجودة النوعية. وهكذا، لا يمكن للشاعر أن يُعرف بدون رخصة «الشركة» لكن جودة العمل الأدبي وتوقيع «الناشر- الشركة» لا يتطابقان دائماً. فقد استطاع بعض الكتاب اليونانيين مثلاً أن يحصلوا في فرنسا على علامة النشر التجارية باعتبارهم معارضين للديكتاتورية العسكرية، لا باعتبار جودة أعمالهم. ولا شك في أن للنقد أيضاً مسؤولية عن هذا الوضع، فهو لا يبحث عن الشاعر بل عن ناشر الشاعر. ما العمل إذن؟ كل شيء أصبح سلعة تجارية، بما في ذلك الشعر والإنسان!

كارلو سواريس

إن توقيع الناشر لا يزال يؤثر على بعض «النقاد» بشكل فيتشي. لكن هذا دليل على غيابهم الفعلي عن المواقع والرهانات الحققة للشعر المعاصر.

اسم الناشر؟ ألاحظ أنكم «اسمتم تمزحون»!

جان بول روسيسبيلوس كاستانوس دوميسيس

المؤلف يبدع عملاً والناشر ينتج سلعة . أليس طبيعياً في مجتمعنا البرجوازي والمادي والجشع أن تكون الحصة أسمى من الرفعة ؟

ليست لاسم الناشر على غلاف ديوان شعري أهمية أكثر من أهمية اسم الطابع على بطاقة دعوة لحضور حفلة زفاف .

جاك لوباجهونري روجيبي

هذه الظاهرة عارضة لا أهمية لها فقد قمعت دار GALLIMARD الحركة الدادائية والكتابات المتممة إليها . ومع ذلك فما زلنا داديين !

جاك فوزينا

ليست بدهية مسألة معرفة ما إذا كانت لاسم الناشر أهمية أكثر من أهمية اسم الشاعر . فدواوين RENE CHAR مثلاً ، المنشورة عند السيد GALLIMARD ، لن تباع أكثر من نفس الدواوين التي قد تصدر بتوقيع أحقر الطابعين . إن الشعر يشكل لوحده ممارسة أدبية هامشية وجد خصوصية ، ومقاييس نشره وتوزيعه لم تحدد بعد .

كيف الحصول على الشهرة اليوم ؟ لا شك في أن ما يفعله الإنسان يساعد على ذلك أكثر مما يكسبه ، مثل الدعاية ونظام الحياة والقيم وغتلف أشكال النضال والصحافة المصورة ذات الانتشار الواسع وغير ذلك . نعرف أن أحسن آلات التغير ما جهر صوته . فلا أحد ، أقصد لا شاعر يدعى البحث عن الشهرة . ومن البديهي أن اسم ناشر كبير يُكَبِّرُ الشاعر ، مثلما أن اسم قمة أدبية يُكَبِّرُ الناشر دون شك .

كاستون كريل

يكفينا عزاء أنه حتى في حالة عدم عثوره على ناشر أو طابع ، يستمر مع ذلك ، مثل الفراشات السرية في إخصاب مستقبل الإنسان ، إن أجل المعابد لا تحمل أي توقيع ، بل علينا أن نكتشفه . فلا نهم هوية مشييدها (الجثث على الأقل) ، بله هوية مموي تشييدها ، يكفي أن نحمز الزجاجية البلاطة ليدفع الزوجان بلطف خيال الأمس نحو ضياء تاج العمود الطقسي .

من السخف إيلاء الأهمية إلى اسم الناشر فالذي يهم هو العمل ، وليس اسم الناشر بل ولا اسم المؤلف نفسه .

جان بيير روكبرونو دوروشي

بش الناشر إذا أصبحوا أهم من المؤلفين ، إنهم بذلك لا يفضحون سوى بؤسهم ، لأنهم أبداً لن يدركوا أهمية ورفة BAUDELAIRE أو RON- SARD أو PROUST أو FLAUBERT أو PEGUY ...

لقد ذوت حياتنا الأدبية وتعفت بسبب حسدنا المتبادل وخستنا اليومية . فالبعض يحتقر البعض الآخر

سبعين سنة التابعة السويسري FERDINAND DE SAUSSURE . فلا يمكن دحضها بسهولة . وقد يمكن أن تتكافأ رؤية جديدة للتواصل اللغوي مع وظيفة التواصل ذاتها الخاصة بالشعر ، لكن الشاعر ، بالمقابل ، لا يصدق التهديد حيناً لا تخالف كثير من الرياضيات والبراهين السخيفة أو الباطلة مسألة نشر الشعر وتحبيبه إلى الناس ، ذلك أن الصياغة الشعرية تختلف ، بتفردها الشديد ، عن اللغة التداولية وإلى حد ما عن اللغة الميتافيزيقية أو الباطنية التي يفهمها عشراء الأسرار وحدهم . هي ذي معجزة « كيمياء اللغة » التي تتحقق في كل شعر أصيل ، في كل شعر مثالي . ونتيجة هذه المعجزة هي أن هذا الشعر يخاطب الجميع ويسمح للجميع بواسطة التعاقد الوثيق بين مستويين متباعدين ، بالانتقال دون ما تعود ، من اللغة المتدنية والثنية والتداولية إلى اللغة الشعرية والكونية ، بالانتقال اليسير من « القصيدة - الخطاب » إلى « القصيدة - اللحظة » ، ثم بالعودة إلى « القصيدة - الخطاب » ، دون أن يوحى بقطعة ما بل إنه يفجر اللحظة في الخطاب ! بذلك يصبح الشعر أسلم أداة وأسهلها نسبياً لمقاربة « المعرفة » ، بما أنه يظهر كتركيب للغة « ما - قبل - السقوط » واللغة المنحطة والمخالفة والمنحلة التي يستعملها أصحاب « بابل » ، ضحايا السيكلوجيا المخططة التي ينتجها التقدم الراهن للتقنية .

ما الذي نخشاه إذن من هذه البحوث الجافة التي تدعى تفكيك « ميكانيزمات » الإبداع الشعري لتحليل الشكلياني ؟

جورج طيمبليس

لا ينبغي للشعر أن يدمر اللغة المبنية ، بل أن

كما لو كان مظهره لا يشبه مظهر كل إنسان . في هذا المناخ ، يكون توقيع الناشر من وجهة النظر الاجتماعية أهم من توقيع المؤلف ، فهو يشتري كعب الناشر الذي يثق فيه ، كما أنه يثق في المؤلف الذي تتحدث عنه الصحافة ، ذلك الذي يملك من المال ما يشتري به النقد والدعاية .

ميشيل بلوك

هذه عادة جد مؤسفة ، وخاصة وأن اسم الشاعر نفسه ينبغي أن يفتني من الغلاف .

السؤال الثامن

« هل يجب على الشعر أن يدمر اللغة المبنية ؟ » .

برنار نويل

ما معنى اللغة المبنية ؟ كل لغة ، إذا كانت بعد حية ، تبحث عن بنيتها . وهذا يصدق على اللغة الشعرية أكثر مما يصدق على اللغات الأخرى . « تغيير الحياة » قال أحد رواد الحداثة . نعم ، تغيير الحياة ! لكن ، وبكل تواضع ، تغيير لغة الحياة أولاً ، الذي هو وسيلة تغيير إنسان الحاضر إلى إنسان المستقبل الآتي - الذي لن يكف عن الإتيان - وسيلة عدم التبنين أي عدم الموت !

هونري روجي

لا اعتقد أن الشعر الراهن ينوي الاعتراض على المبادئ الكبرى للسانيات التي وضعها منذ أكثر من

جان بول روسي

اللغة المبنية تدمر نفسها بنفسها ثم تنبعث مختلفة من رمادها ، حتى ولو لم يتدخل الشعر في ذلك ! على الشعر أن يستهدف شيئاً أسمى ، وهو تدمير كل ثبات ووجود .

جان بيير روك

اللغة لا نهاية : فهناك ملايين الإمكانيات ، كما في التشكيل وفي الموسيقى . . . وهذه الإمكانيات تولد مع الفنان الذي يحبل منها بحسب عصره ومقتضيات هذا العصر .

اللغة لا تُحَرَّب بل تُكشَف باستمرار :

اندري بوتتيون

ينحرف الشعر حين يدمر اللغة المبنية لأن قدره أن يجسد اللغة .

سطيلىوس كاستانوس دوميس

يستعمل الشاعر لغة غير عادية ، من ثم ، يدمر الشعر اللغة العادية ، وكل قصيدة تعيد بناء لغة تتجاوز هذه اللغة .

اندري مارييل

على الشعر ألا يعارض أي بحث .

ميشيل مانول

إذا كانت نية الشعر أن يدمر اللغة المبنية ، فإنه يمضي قرار موته بنفسه .

يغنيها ما أمكنه ذلك ، بتعنيفها لتتحول إلى لغة شعرية ، تعنيف اللغة غير تدميرها ، ثم إن اللغة الشعرية لغة خاصة ، لغة داخل اللغة ، غير مرصودة للحديث اليومي . إنها قصيدة ، في موضوعيتها المتناسكة ، مثل المرمر المحوّل إلى تمثال . إنها موجودة لتوجد ، شيء يجاوز لكل شيء ، هنا وغيره .

كارلو سولريس

تدمير اللغة المبنية ؟ أن تورخي ذلك يعني قبلياً أن نهدم منزلاً دون أن نعرف ما نصنعه بأنقاضه ، إن بنية اللغة ذات طابع زمني ، واقتحام اللازمي لذهن الشعر يفعل ما يستطيع .

دومينيك سيل

مشكلة اللغة أصبحت حادة . يبدو أن ما عرفه الفن منذ بداية القرن العشرين ، من اتجاهات عامة ومن تأثير اللسانيات . . . يسعى إلى تفجير الحدود ، لا المنطقية فحسب بل أيضاً حدود اللغة ذاتها . ولا شك في أن المستقبل كفيل وحده بالحكم على كل التجارب الشعرية التي تسعى إلى تخريب اللغة المبنية . ومع ذلك فهذه التجارب تبلغ مداها بشكل أو بآخر ، فتتحول اللغة شيئاً فشيئاً إلى صمت إلى صفحات يهضاء تحفرها من حين لآخر جملة ، كلمة ، مقحمة ، إلى لغة لا تنتهي لأي وطن ، ثم لا شيء . ذروة الصمت والفرغ . لا يحق لي أن أدين ، فهناك بالتأكيد أعمال ذات قيمة ضمن هذه التجارب . أسأل فقط بنوع من القلق : ما هذه المغارقة الخفيفة ؟ علينا أن لا نبتهج بسرعة بموت إله جديد ، فروؤوس الأفغوان لا تني تولد في كل مكان .

جان بير لوسبور

سبق للريالية أن دمرت هذه اللغة : فهل هناك
بعد شيء في حاجة إلى تدمير؟

جاك ماري لافون

لا يهم أن تكون اللغة مبنية أو غير مبنية . إنها
مسألة شخصية بين الشاعر ولغته أعني بينه وبين
نفسه ، لاعتبارنا الكائن والكلام هوية واحدة . أعني
محاولة الكشف عن تداوت الإنسان والله .

هوبير جوان

طبيعي أن يخرّب الشعر اللغة المبنية ، فبنيات اللغة
تستعبدنا ، ينبغي إذن هدمها لتتنسم بعض الهواء
ونرى بعض الضوء في هذه المغارة التي نكتنفها .

روبير لوسيان جيررات

على الشاعر الذي يحس بالعجز أمام اللغة المبنية أن
يدمرها إذا كان سيفعل ذلك من أجل بناء قصيدة ذات
قيمة ودوام ، قصيدة تنتظرها ، بعد كل حساب ،
بأرتياب وفضول .

نيكول كداليبا

هل ينبغي للشعر أن يدمر اللغة المبنية ؟ نعم ولا .
لا ، إذا كان الهدف تشريعاً لغوياً يتعد عن القصيدة
ابتعاد لوحة التشريح عن الإنسان . نعم ، إذا كان
الهدف إعادة شحن للكلمة بمدادها الحقيقي الذي
استنفدته نظرة كل الأيام المنهكة . إن الشعر انفجار
للكينونة ، صخب الابد وصمته في آن . وكل الإبداع

يمر من « المسى » فنحن باللغة نعرف . كان القدماء
محقين باستعمالهم لسحر الكلمة والصوت ، إدراكا
للكينونة . وحين يصاب الهدف ، تكف الكلمات عن
الوجود وتصبح اللغة صمّاً : لقد أدركت الكينونة .

جاك فوزينا

الشعر لغة ، لغة مبنية (ألم يقل عنه ALAIN إنه
صراخ منظم) وما ينتهكه هو تقاليد لغة موجودة .
ما يستتبعه هو إبداع متجدد انطلاقاً من لغة جاهزة ،
إنه اشتغال على اللغة ، اندهاش باللغة ، تلاعب
باللغة ، ارتياد لمناطق مبدعة بتتابع مراحل
اكتشافها .. فكيف يمكنه أن يقنع بحدود شكل أو
جنس أو أسلوب أو حتى بنية لغة ما ؟

شارلوط كاليس

لا يمكن للشعر أن يدمر اللغة المبنية ، لأن الشعر
هو بالذات والأساس بنية اللغة .

فلورانس فوكومبر

يكون الشعر مستبدّاً ومنحرفاً إذا أراد تدمير اللغة
وقتل المعنى . فهذه مهمة علماء اللغة الجامعين الذين
يخلطون بين معنى الكلمات وتقطيعها إلى وحدات
صوتية . إن للشعر « الواقعي » وأنا أتكلّم بشكل
واقعي ، رائحة التعفن (لم أقل رائحة الدمال ، حيث
يمكن للورد أن ينبث !) .

بير دايو

القصيدة فضح لزيّف اللغة الرسمية التي أصبحت
يومية . بهذا المعنى ، تكون مدعرة ، نعم إن الشعر

فلأنهم يحصلون على نتائج متكلفة لا تدهش أحداً .
ذلك أن تجاربهم هذه تؤدي غالباً إلى تعقيد القراءة
وتعطيل مقروئية القصيدة . إن سمو الكلمات ويؤسها
في أن تكون دوماً نفس الكلمات وغيرها .

جاك بلناس

لا ينبغي للشعر أن يسعى إلى هدف مفكر فيه
سلفاً .

السؤال التاسع

« هل ينبغي للشعر أن يحاول توسيع الإمكانيات
الروحية للغة ؟ »

جاك لوباج

تقولون : « الإمكانيات الروحية ؟ » هل توثقون إلى
الصوفية ؟ عودوا إذن إلى SAINT — JEAN — DE
LO — CROIX — وإلى كتاب BARUZI . وإلا فما
المقصود ؟ وكيف ؟ يجب ألا ننسى أن MILOSZ ،
حين يفكر في ملاقة الله ، يصمت ، هل تعنون تلقح
الكلمة بدلالات جديدة ؟ ربما . هل يتعلق الأمر بـ
« تفجير » اللغة بـ « التكلم » عبر اللغة ؟ لكنه لن
يبقى لغة ، أي شفرة مبنية ، هذا الذي نتحدث عنه
اذن ! أعتقد أن في هذا السؤال التباساً كبيراً . لكن ،
ماذا أقول ؟ اليس الالتباس ما يعرف الشعر بالذات .

برنار نويل

الشعر - لكن ما هو الشعر ؟ إنه محاولة التحول عبر
لغته . أرجو أن تكون الشائبة المفترضة في الروحية

يهدم مباشرة اللغة المبنية ، لغة عاداتنا الذهنية البشعة
التي علا شأنها هذه الأيام ، فتحوّلت إلى مبادئ وقيم
تحرص أعلى السلطات على رعايتها ، بل فرضها . . .
أنا أقبل كل مسعى يستهدف هدم النظام القائم ، أي
اللغة حيث يحسبونها .

بيير بوجوت

ليس دور الشاعر أن يهدم بنية اللغة ، بل أن يغنيها
كما فعل دائماً . إن اللغة ليست نتاجاً اجتماعياً لطيفة
معينة ، مثلاً تدعى ذلك نظرية خاطئة شائعة حالياً ،
فالشاعر هو محرك تطور اللغة وارتقائها إلى مستوى
التواصل الكامل .

جيرار بوشولبي

للشعر لغته الخاصة ، كذلك الشاعر والقصيدة .
ولكل قصيدة حقة نظام ، بنية خاصة ، مثلها مثل
الذرة والخلية والكوكبة . ويلزم الشاعر أحياناً ، تشبيهاً
لهذا النظام ، أن يهدم (دمر بالتوالي التشبيهات
والبلاغة والمستويات المعجمية ، الخ .) لكن عليه
أيضاً أن يتكلم ، لا أن يتفرغ بمقاطع صوتية أو
حروف مفككة . اتساءل : هل يريد الشاعر قراء أم
لا ؟

ميشيل بلوك

يبدو لي أن صياغة هذا السؤال تفتقر إلى الدقة
لا ينبغي للشعر أن يهدم اللغة المبنية . الشعر يكون
(أولاً يكون) . ولا يمكن التأكد من تدميره (أو عدم
تدميره) للغة المبنية إلا « بعدئذ » . أما الذين يسمون
« قبلئذ » إلى تدميرها ، معتمدين تجارب لغوية ، غريبة

الكلمات مجرد ركائز ، والفكرة التي تدعمها رجة رجابة الكون . فلا أحد يمكنه اليوم ادعاء محدوديتها . لذلك ، فمحاولة الشعر توسيع الإمكانيات الروحية للغة هي بالذات محاولة للخروج من شرنقة هذه الحدود . إن اللغة كمين ، ربما ضيق ، لكنه يخفي لجة لا يمكن لأحد أن يزعم استكشافه لها تماماً .

كارلو سواريس

« محاولة » توسيع إمكانيات اللغة ؟ لا جواب .
الجواب هو القصيدة .

جورج طيميليس

الشعر لغة . هي ذي كينونته . من ثم ، ينبغي له أن يوسع إمكانيات اللغة الروحية ويتوسيعها ، يتسع بنفسه ، ويشعر فضاءه اللامنتهي . لذلك ، غالباً ما يواجه الشاعر عقبات اللغة المنبئة ، محاولاً التعبير عما يتعذر التعبير عنه . لكن ، وبما أن الشعر قول ، قول اللامقول ، فيجب عليه أن يقوله ، وأن ينمي كلغة وباللغة مناطق نفوذه بحثاً عن المستحيل .

جاك ماري لافون

على القصيدة أن تتسع لتكون بحثاً مفتوحاً على إلحاح الوجود ، حتى ولو كانت معرفة هذا النفس عمر حتى بالرحلة إلى أعماق الهاوية ، والشعر يدرك بوضوح هذا الإلحاح ، ويفارقه بلغته الخاصة ، خارج كل جدلية ، لغة هي بمثابة « زبور وجودي » ، لكنه « روحي » خاصة ، على الشعراء والناشرين أن يبادروا من الآن إلى إعطائه قيمته السابقة .

القديمة قد انتهت . أن أفكر (أن أكتب) يعني أن أبذل جهداً مادياً لا روحياً . وإذا كنتم منشئين بكلمة « روح » ، سأقول لكم إن اللغة هي الروح . إنها في انخلافها تخلق الروح ، تعيد اكتشافه . هذه اللغة التي تصنع الأساطير والآلهة ، هي القدسي كله إذا شتم التأكد من سلطان اللغة ، حسبكم التفكير في اسمكم : في الطريقة التي يمكن بها أن يلغي وجودكم ويحولكم إلى كلمة . لكن ، من يواجه السلب والالغاء ؟

جان بير رو

الشعر لا يحاول ، إنه كائن وفاعل ، إنه لا يتوسع ، بل يكشف ذاته في نفس الوقت الذي ينخلق فيه . إنه يخلق الحياة بعد كل حياة .

ميشيل مانول

توسيع الإمكانيات الروحية للغة : هو ذا دور الشعر وشره ومستقبله الوحيد .

جان دوني فليب

ما الذي تقصدونه بروحية اللغة ؟ ليس الشاعر القس الإنجيلي SAINT — JEAN ، لأنها فضيحة بالنسبة إليه أن تتحول اللغة إلى كرسي رسولي . الشاعر لا يكون إلا باللغة . لكنه يمت هذه اللغة الاجتماعية المفروضة ، الخائنة ، الكاذبة . . .

جان بول روسي

لكل لغة حدودها معها يكن تراؤها . وهذا ما يحسه الشاعر بمرارة أحياناً . لكنها حدود وهمية ما دامت

شارلوط كالميس

إذا تجسّد الشعر، وتطابق مع الكون معبراً عنه،
كان حتماً شعراً روحياً .

شارل اوطران

يمكن لـ « تفكيك » اللغة المبنية (التي لا ينبغي
« تدميرها ») أن يصلح لإقامة علاقات جديدة بين
الشعر واللغة . ومع ذلك يجب أن نظل مقتنعين بأن
اللغة هي أولاً أداة للتواصل قبل أن تكون أداة
للبحث . والحال أن الشعر بالذات بحث قبل أن
يكون ، بالمعنى الدقيق والمحدود للكلمة ، تواصل .
ينبغي إذن تعيين حدود هذا البحث حتى نوقع العتبة
التي بعدها ، يؤدي البحث منطقياً إلى التواصل (بما أن
الشعر، مهما تكن « حقايقه » و « هلوساته » لا ينجون
اللغة أبداً ، بل هي وحدها التي قد تحوّه) .

لعل الحديث هنا عن « الإمكانيات الروحية » للغة
يشير الى تجارب تريح فيها الميتافيزيقيا ما يغمره
الشعر . والواقع أن اللغة ، مثل الشعر ، تغور
بجذورها في أعماق الانسان . بل تبدو ، في
لحظات ما ، أنها نتيجة وعلامة للتحوّلات الشكلية التي
تقتضيها أو تعانها . إنها تنمو ، تخفف صرخة الفرح
أو الغضب ، تدبر النوح ، تبث السم المدعو فكرياً ،
وتتحول إلى مؤيد للفلسفة والعلم والسياسة بعد أن
كانت سنداً للشعر . من سم + قدور الشعر محدد بدقة
سلفاً ، على الأقل في إطار المغامرة الشخصية للشاعر .
إن الأمر يتعلق بالنوص إلى أعماق المتلفظ لتخفيف
الصراع أو تدبير النواح أو الزخرفة ، لكن دون أن
تكون الزخرفة من أجل الزخرف ، دون أن يكون
التدبير من أجل الإيهام بالتفكير ، دون أن يكون

هوبير جوان

روحية ؟ ردوا إلينا الكلمات الخادعة الجميلة التي
تلعب كالخصي في شفافية الجداول . ثقيلة هي
وخفيفة ، حارة وباردة ، مظلمة ومضيئة : إنها أجرام
متحركة ، وهذا كاف .

روبير - لوسيان جيرات

ليس شاعراً من لا يوسع ، ولو قليلاً ، الإمكانيات
الروحية للغة . إن على الشعر أن ينفخ في الكلمات
« نفخات روح إضافية » ، أن يرتاد اللايقول وراء
حدود النثر ، أن يفاجيء البرق ويكشف عن
الجملة ...

جاك فوزيتا

الشعر ، جوهر ، يوسع هذه الإمكانيات ، إنه ،
مثل الأدب ، « سراب اللغة » ، بتعبير Roland
Barthes . فهو يندرج ضمن حركة المغامرة والانفتاح
والتجديد المتعدد الأبعاد الطبيعية ، ويحتضن مجالات
مختلفة ومتحركة . لذلك ، لا شيء يكون غريباً عليه
في « زمنه التجريبي والصوري في آن واحد » ، كما قال
Michel Foucault .

فلورونس فوكوير

ليست اللغة سوى تجسيد مؤقت للروح ، ومن
ثم ، يمكن للشعر أن يتوقف عند اللغة . إنه الإنسان
بكامله ما ينبغي « توسيعه » اليوم . إن الإنسان يقرأ
قصيدة حين يرغب في ذلك ويأمكن الشعر أن يساعده
على التغيير ، لأنه روح وعاطفة (ولا يكون متكلفاً) ،
وأن يبه لحظة استثنائية تلتحم فيها العاطفة والعقل .

في صمته الشامل مثل الهواء الطلق، إمكانات اللغة الروحية. حيث، تكون كل كلمة مرصودة - للحفر أكثر مما هي مرصودة للتوسيع.

السؤال العاشر

« هل تعتقدون أن السريالية أكبر حركة شعرية في القرن العشرين؟ وما موقفكم منها؟ »

بيير دانيو

ترى هل أحن إلى السريالية؟ يؤمني أن أعتقد بصيغة الماضي عن هذه الحركة التي انتميت إليها. أعتقد أنني ما زلت وفيًا لها، رغم - بل وخاصة - أنني أجادل في أهميتها أحياناً فالأسئلة التي طرحتها هي أسئلتنا بالذات، هنا والآن. لكننا، كما قال ذلك BRETON بحق، في غني عن النتائج التي تتخذ قدوة. لسنا في حاجة إلى نقط الاستدلال، إلى الآباء الاوصياء، وهذا لن أكل من ترديده إلى أولئك الذين يتخذون الآن من MARX و REUD أنصاف آلهة. لقد أصبحت السريالية دوغماية بالنسبة لعدد كبير من الشعراء. غير أن لها تأثيراً سرياً دائماً. التسمية لا تهم إذا كانت الروح مستمرة. والحال أن روح السريالية مستمرة، بعيداً عن أشكال التقليد. لن أستهجد أي شاعر: فكل واحد حر في التقاط الحركات الجديدة. أرفض إذن سؤالكم العاشر لأنه يفترض ترتيباً فليس هناك بعد أي ترتيب، ولا يجب أن يكون هناك ترتيب: « أجمع متاعي في شقوق الصخر ».

أيدمون هومو

هل نحن سرياليون؟ بمعنى ما، هذا أمر بدهي. لكن الامتنان الذي أحس به نحو السريالية ينصرف إلى

التخفيف من أجل تقليد وتعزيم الانحلال والتفتيح. بهذه الصفة، لا تكون ممارسة الشعر سوى محاولة لتوسيع ثروات اللغة. أما « الروحية »، فهي، مادياً، أمر بدهي.

بير دانيو

كل هدم للنظام فرصة مؤاتية لا لـ « توسيع » الإمكانات الروحية للغة كما قلتم - لأن صفة الروحية تعيدنا إلى تلك الثنائية التي يريد البعض بواسطتها خنق جزء من كيانات - بل مؤاتية لاكتشاف وإغناء كل ملكاتنا. إن على لغتنا أن تبادر إلى الإنصات إلى الجسد المقموع. لكن أندر الشعراء الذين يفعلون!

برونو دوروشي

لعل أحد أهم واجبات الشعر أن يوسع، من حقبة إلى أخرى، الإمكانات الروحية للغة. ونظراً لتخليه عن هذا الواجب، آل إلى الانهيار، وانحبس في الزخرف، حيث أصبحت للقافية ولحسنات أخرى أهمية أكثر من أهمية اتحاد الشكل والمضمون. والنتيجة هو شكل خالص بدون موضوع، شكل يشهد على آخر حدود الحقارة التي أدركها الإنسان بعد اغتيال الروح. على الشعر أن يمزق الحجب، أن ينفذ الغبار العريق، أن يحول الخدس إلى أهم وسائل الروح، أن يمدد اللغة وأن يعيد لها كافة إمكاناتها، حيث يصبح الاستلزام الشعري سلطة والسلطة معرفة.

جيرار بوشولبي

الكلمة مقدسة أصلاً. إن الشاعر اليوم يهدر أكثر مما ينظم الشعر، عليه إذن أن يصمت وأن يستغل،

شارل اوطران

لا ينبغي التقليل من أهمية « التعبيرية » ، حتى ولو بدا أن أثرها ضعيف ومتأخر . كما ينبغي الإقرار بأن السريالية وجدت مرتعها المفضل في الفن التشكيلي ، حيث إن الرسامين عبروا أكثر من غيرهم عن أحسن ما في هذه الحركة . ويتعين الاعتراف أخيراً بأن الدادائية قد ذللت أهم الصعاب في طريق السريالية .

لكن السريالية ، ورغم بعض مواقف التشهير الأخيرة ، تبقى أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، لا بأعمالها المنجزة أساساً ، بل ربما بالفضول الذي أثارته ، والخفايا التي كشفت عنها ، والأمزجة التي شحذتها - مع احتمال القذف بكل ذلك خارج مدارها أو قبول الطلاق . حتى أولئك الشعراء الذين أفاقوا مؤخراً ، أو لم يعيشوا مغامرة هذه الحركة العظيمة ، يعرفون ما هم مدينون به إلى السريالية .

جاك بالمانس

السريالية حركة يُعاني في تقديرها ، حشدت حول بعض المواهب الأصيلة ثلاثة آلاف نَباح ومُحَلِّ . ولا شك في أن القرن المقبل سيحسب لكل شيء حسابه ، وسيحمل معه بعض المفاجآت علمياً بأن القرن العشرين لم ينته بعد .

ميشيل بلوك

السريالية حركة هامة في القرن العشرين . وكل اتجاه شعري أو أدبي أو فني (هذا الاستفتاء خير دليل على ذلك) يتحدد بالنسبة إلى هذه الحركة . أما موقفنا منها ، فموقف التأييد . يليق فقط بأن تنموقع بالنسبة لما كانت السريالية ولما خلفته . فلا يتعلق الأمر

أهواء وتولعات أخرى كثيرة ، بحيث لا أظن أنني أنتمي إلى الحركة التي تلت الدادائية وطبعتها بتوجه مخالف للشخصانية ، التي اعتبرها أساسية بالنسبة لحياتي ولإشراف رمزية باروكية جدوية . إن المدارس الأدبية لا تعني شيئاً بالقياس إلى التفاني في الشعر . . . لا أصدق أن سريالية BRETON . أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، « لكن الظاهر أنها أعطت الرمزية دلالة جديدة ، وأن رعشات الرومانسية في القرن الماضي تجددت نفسها في تعارض حي مع المستقبلية والتكعيبية والبشائية ضمن ما أسميه « ثورة اللاجوازي » .

جان بير لوسبور

حفرت السريالية القبر لنوع من الشعر ، وربما للشعر عامة ، الذي لم يستطع بعد أن ينهض وما دامت السريالية قد خربت كل شيء ، فلا أكن لها أي حقد . يلزمنا إذن أن نعاود الانطلاق من العدم وأن نبحث عن آفاق أخرى ، وإلا فلنمت بدورنا .

ج - ب - بال

تاريخياً ، نشأت السريالية في وقت بلغ فيه سحق المجتمع للإنسان ذروته (مجاز ١٩١٤ - ١٩١٨ الطفرة الصناعية والأزمة الاقتصادية ، ظهور المجتمعات الفاشية ، ظفر المجتمع البرجوازي الخ) . بهذا المعنى ، فهي إذن ذات دور تاريخي ، حيث أثبتت حضور الشعر في وجه القمع وجسدت أحد أشكال يقظة الإنسان المتمرد . أما أن تكون السريالية أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، فهذه مسألة زائفة . يخفيها أنها « كانت » ، وأثبتت كينونتها كبرهان إضافي على استمرار الصراع من أجل الحياة .

في الكواليس، جهة GEORGES BATAILLE خاصة و « حقه للشعر ».

شارلوط كاليس

ليست هناك بالنسبة لي، أنا الشاعرة، أية حركة شعرية كبرى، سرالية أو غيرها. هناك فقط أولية الشعر، واحداً وغير قابل للتجزئة، الشعر الذي يتجسد خلال التاريخ في مصائر فردية.

جاك فوزينا

الروح السريالية غريزية في الإنسان منذ غابر الأزمان، وأشكال الكتابة التي يمكن أن تنتمي إلى السريالية سائدة في كل الآداب: عند القدماء في القرون الوسطى، عند الرومانسيين في الشرق كما في الغرب. لقد باشر NERVAL التعبير، وابتكر APOLLINAIRE الكلمة، واستغلها BRETON فأدرجها في نسق خاص، مضيفاً إليها بعداً سياسياً ذا قيمة أكيدة، لكن الروح السريالية تتجاوز بذلك إطار الأدب، فهي تفوق بجذوره في أعماق معارف ظلت إلى حينئذ مستعصية على العلم، كالفلسفة وعلم النفس والميتافيزيقا. بل إن الحركة نفسها، وهي من تدبير عقل عنك، ستغري الناس والأذهان وتقهر اللامبالاة، إنها ما تزال تخصب حياتنا الأدبية، وإذا استنفدت الأشكال والأساليب التي ترتبط بها أو تستوحىها، فإن الشعلة الأصلية ستدوم أبداً الدهر، لأن القرينة السريالية جزء من طبيعة الإنسان الجوهري الخالدة.

روبير - لوسيان جيرار

تعتبر السريالية بحق أكبر حركة في القرن

بتخليدها كما كانت بشكل ديني، أو بالتقيد الدقيق بمبادئها، أو بالخروج إلى الشارع وإطلاق النار على الناس حتى تكون سرياليين (يجوز ذلك فقط في حالة الرغبة في فعل ذلك. إن كل شاعر - كل إنسان - جدير به (أخيراً) أن يختار طريقه الخاص بعيداً عن كل

إرهاب، أيّاً كان شكله، حتى ولو كان إرهاب السريالية.

بيير بوجوت

أكيد أن السريالية تهيمن على قرننا، مثلها هيمنت الكلاسيكية والرومانسية على قرون خلت نحن جميعاً سوراليون بقدر ما لم يكن السرياليون قطعاً سرياليين. أقصد أنهم لم يكونوا يخضعون إلا صدفة لقواعد الكتابة التقليدية التي هي بداية كل إلهام، لا نهايته.

موريس بورج

ستظل السريالية إحدى أهم لحظات التاريخ الأدبي، ولا يمكن إلا أن تأمل أن يكشف كل شاعر شاب هذه الحركة في بداية مسيرته الإبداعية، شريطة أن يتجاوزها، أن يتحرر منها. إن الإضافة السريالية، رغم أنها ما زالت ذات أهمية في وقتنا الراهن، تنتمي مع ذلك إلى الماضي، شئنا ذلك أم أبيتناه.

برنار فويل

لا أعتقد ذلك. لقد استطاعت السريالية أن تحتكر واجهة « المسرح » الشعري. أما الشعر، فقد استمر

مسيرة ينبغي إذن لانغالي في تقدير آلية اللغة وتلقائيتها، اللتين تفتتحان الباب على الهذيان اللغوي والغموض والتجريد.

ميشيل مانول

يجب أن يكون الإنسان سراليا ليحبب عن هذا السؤال. إن عبادة اللاشعور واعتناق الفكر والانقياد الأعمى وراء سرابات الخيل والبحث عن الغريب ونوعا من الذاتية الفوضوية - إن كل هذا يشكل بالنسبة لمن يعتبر نفسه واضحا خليطا معقدا جد محير.

اندري بوتيبون

كان بإمكان السريالية أن تكون فعلا أكبر حركة شعرية في القرن العشرين لو أنها في سعيها إلى تجاوزة الواقع المادي الملموس، عرفت كيف تعبر عن مثل أعلى، عن رؤيا، عن إشرافة داخلية سامية بقدر ماهي معتدلة ومضيئة.

مطليوس كاسطانوس دو ميديسيس

هناك السريالية والسرياليون ثم سليلو السريالية فالبيشرون بها المتقدمون عليها، مما يعني أن السريالية، كحركة معينة ضمت أشخاصا معينين (مقبولين أو مطرودين أو معترف بهم الخ) في مكان وزمان معينين، هي بدون شك إحدى أكبر الحركات الشعرية والفنية، لأنها كشفت عن هذه الحقيقة، وهي أن الشعر دوما سريالي وجزئيا. وبما أن الشعر يكشف عن وأبعاده الوجود، وبما أن اللاشعور وما - تحت - الشعور والحلم جزء من هذه الأبعاد...

العشرين، وإذا كانت سريالية « الكتابة التلقائية » قد أثارت ما أثارت من ضجة، فإن فضلها الرائع يتمثل في تحليدها لروح « الرمزية » التي كانت قد ابتذلت كحركة، حيث جددتها بنقلها إلى أغوار ما تحت الشعور، ومن ثم يتمثل في توسيع آفاق التعبير الشعري.

لكن سرياليين حين تدرك الريشة جدار العقل!

هوبر جوان

السريالية حررت جملة من الأشياء، اللغة، الحلم، بعض مناطق اللاشعور الخ. سيأتي لاحقاً وقت يجدي فيه كثيراً أن نعيد هذه الحيوانات إلى ألقاصها.

جاك ماري لافون

لا يتعلق الأمر مطلقاً بالاكتمال بتعريف معين للشعر، بل بالبحث عن طريقة جديدة للوجود في الكون، في هذا الكون حيث تنبت من مناطق الشعور الباطن (أي ما تحت الشعور) إمكانات خارقة وغريبة تخص العقل والغرائز. هذه الإمكانيات هي ما تحلله السريالية. وإذا كانت الذات، بحكم أصلها شبه الواعي، لا عقلانية، ومن ثم فهي للإنسان حياة ثانية، فإن تمثيلها يبقى متاسكاً رغم تأثرها بقوانين التلقائية واللاإرادية.

أما موقفنا من السريالية فواضح أننا نريد انطلاقا من شكل مفتوح على اللغز وعلى التناغم السري للأشياء، أن نستخرج من شعورنا الباطن أصداء لحساسيتنا، لكننا نرى من الحبث الإذعان لتلقائية لا وجود لها لا في الشعور ولا في ما تحت الشعور، فالإنسان ليس آلة

وهذه بالذات حالة السريالية فهي أكثر طائفية وتعصبا من الأسرة والوطن والدين ، هذه الأنظمة التي سعت إلى تخريبها بكل ضراوة .

إن حواريتها يحضون لها الولاء والإخلاص بشكل استبدادي يسمح لهم بأن يطردوا من العشيرة كل عنصر مشوش وغفل بالنظام .

إنها باختصار نزعة جماعية ضمن نزعة جماعية . وكل هذا يتنافى مع مبدئها المشهور : «إعتاق الفكر» . إن السريالية ، بتنظيمها لعملية استكشاف اللاشعور (الغريزي في كل شاعر) ، قد فجرت يناهض السهولة والابتسار . وهذا ما يفسر تدفق قطعان الشعراء المزورين في أنحاء الأرض في إغارات عارمة . إنهم همج الأزمة الحديثة !

أما موقف الشاعر من هذه الحركة ، فهو أن يكون سرياليا أو غير سريالي في آن واحد .

جان دوني فيليب

لا أعتقد ذلك ، ولا تربطني بهذا النوع من الممارسة المدعو سريالية أية رابطة (شريطة ألا نخلط بين السريالية والتلقائية) .

بيير بيط ميشلود

ليس مدحا دائما أن نقول عن حركة شعرية ما إنها فرضت أو تفرض نفسها كأكبر حركات قربها ، إن «حركة» تتحول إلى نظام سرعان ماتكف عن الحركة ، وتتحول إلى أجزاء وخلايا ، معا يجعلنا إذن أمام بدعة طائفية ، مع ما يفرضه ذلك من تعصب ومحدودية .



من الشرق والغرب

ليس موضوع هذه الدراسة هو نظرية الحكم عند هذين المفكرين ، بل قسما من الاطار العام لهذه النظرية عندهما . ويقوم إطار تصوراتها النظرية في عدد من المفاهيم التي كانت عندهما ، وعند عدد من غيرهما من معاصريها ، كانت لازوال في مرحلة الاقتراح ، ولهذا فلانجد عندهما تعريفات دقيقة ، وانما سيكون علينا أن نبحث عن معانيها التقريرية بوضعها في سياقها وبالاتعانة بدراسة مقارنة لها مع بعضها البعض . لذلك فان تلك « المفاهيم » تستحق على الأدة أن تسمى « اصطلاحات » ، لأن المؤلفين اللذين ندرسها لم يحددها ، الا فيها قل ، تحديدا كافيا يصل بها الى مرتبة « المفهوم » . ويسرى هذا حتى على الاصطلاحات المأخوذة من التراث الاسلامي ، لأنها جميعا ستأخذ في التحول في عصر رفاعة ، وخير الدين قبله ، وعلى أيديهما وأيدي غيرهما .

خير الدين التونسي (١٨٢٥ - ١٨٨٩ م)

يمكن أن نقسم المصطلحات السياسية الداخلة في اطار موضوعنا عند خير الدين التونسي في « مقدمة » كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » (تونس ، ١٨٦٧ م) الى نوعين : الأول مصطلحات تخص اطار الحكم في عمومته ، والثاني مصطلحات تخص طبيعة المادة البشرية للحكم ، أي للحكومين .

ونجد في النوع الأول المصطلحات التالية : الدين ، الاسلام ، الأمة ، الأمة الاسلامية ، المملكة ، الدولة ، الملك ، البلاد ، الوطن ، الجنس ، وقد نضيف اليها تعبير « الجماعة » ، واستعمال أداة الجمع للمتكلم : « نحن » ، وهو منتشر الى حد ما عند التونسي .

الأمة والوطن والمواطن
عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي

عزت قرفي

« الملك » ، أي السلطة السياسية ، إلى الاسلام مباشرة ، فيقول : « ملك الإسلام مؤسس على الشرع الذي من أصوله . . وجوب المشورة وتغيير المنكر .^(١) » ولكن المصطلح الأهم بين هذه الثلاثة هو من غير شك « الأمة الاسلامية » .

ولاعزو أن يظهر هذا التعبير منذ الصفحة الأولى في فاتحة الكتاب^(٢) فإن هدف المؤلف ، كما يقول في أول المقدمة ، هو الحديث عن « الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الاسلامية وتنمية أسباب تقدمها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتقعيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويض سائر الصناعات ، ونفي أسباب البطالة . وأساس جميع ذلك حسن الامارة^(٣) » وخير الدين التونسي يضع أمام هذه الأمة الاسلامية ، التي لا يعرفها بعد في هذه الصفحات ، كيانا يعين على تحديدها ، هو الأمة الافرنجية^(٤) .^(٥) وقد يدلنا استخدام هذا التعبير الأخير ، وهو يحد ذاته عائم إلى درجة السذاجة ، على أن مصطلح « الأمة » كان يستخدم عند خير الدين في مثل هذه الاستعمالات استخداما عاما جدا ، وفيه يدل على قوم يجمعهم شيء ما ، قد يكون الدين الواحد ، وقد يكون محض أنهم « الآخر » بإزاء قوم آخرين . ويعود هذا الاستخدام

ومن الطبيعي أن يكون إطار الحكم دينيا عند خير الدين التونسي ، على الأقل من الوجهة الرسمية ، لأنه كان الوزير العثماني ، سواء في تونس قبل صدور كتابه أو في الأستانة من بعد صدور الكتاب ، حيث كان صدرا أعظم عام ١٨٧٩ ، وكان السلطان العثماني ينتجه إلى التأكيد على صفته الدينية كخليفة .

هناك ثلاثة مصطلحات دينية هي : الدين ، الاسلام ، الأمة الاسلامية . والمصطلح الأخير هو بالطبع أهمها وأكثرها استعمالا عنده وأكثرها « اصطلاحية » . ومع ذلك فإنا نجد المصطلحين الآخرين يظهران ويعودان عنده فهو يرى مثلا أن التنظيمات السياسية (أي الدستور) والأخذ بالعدل وإطلاق الحرية ، كل هذا سيقوم به السلطان العثماني بمعمونة رجال دولته وعليلاتها المتعاضدين على انجاح مصالح الدين والوطن^(٦) ، كما أن قوة الدين أحد أهداف الدولة^(٧) . وهو يذكر حديثا نبويا يجعل من العدل وسيلة لعز الدين وصلاح السلطان معا .^(٨) وهو يخصص أحيانا ، فيذكر الاسلام على التحديد باعتباره الإطار العام للسياسة والسلوك الاجتماعي ، فيتحدث مثلا عن « حماية بيضة الاسلام »^(٩) ويسمي عنصري الحكم ، أي الحاكم والمحكوم ، على التوالي : « أمراء الاسلام »^(١٠) و « أهل الاسلام »^(١١) كما أنه ينسب فكرة

(١) المقدمة ، ص ٣٧ (يستكون الإشارة إلى طبة ١٨٦٧م) .

(٢) المقدمة ، ص ١٥ .

(٣) المقدمة ، ص ١٠ .

(٤) المقدمة ، ص ٤ .

(٥) المقدمة ، ص ٥ .

(٦) المقدمة ، ص ٤٤ .

(٧) المقدمة ، ص ٣٢ .

(٨) المقدمة ، ص ٣ .

(٩) ص ٥ .

(١٠) ص ٦ ، وتقرن ص ٤٤ .

مجموع السكان في إطار نظام ما للحكم ، وفي هذه الحالة قد تكون الأمة مرادفة « للوعية »^(١٣) كما قد تكون مرادفة للمملكة^(١٤) ، حيث نراه يستخدم الاصطلاح الثاني في مكان الأول . وأخيراً فالتا نجد التونسي وقد خلغ على « الأمة » ، معنى الجباية^(١٥) التي تسير على أسس الاسلام والتي « ظهرت للعيان (على أثر ظهور النبي وجمعه لقبائل العرب أمة واحدة كما يقول) أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج في أسبانيا الى نهر الفانج في الهند »^(١٦) وهنا نلاحظ أنه يعتبر أن الأمة الاسلامية أوسع امتدادا وأعم من قبائل العرب بعد تكوينهم أمة واحدة . وعلى أي حال فإنه هنا يترجم عن الفرنسية) ، نقول نجده وقد خلغ على « الأمة » بهذا المعنى بعض صفات « الذات » فهي وحدة واحدة حيث أن لها ماضيا وحاضرا ومستقبلا^(١٧) ، وهي « نحن »^(١٨) في مقابل « هم » أي الأمة الافرنجية^(١٩) ، وهي ككل ذات تستطيع أولا تستطيع^(٢٠) ، وهي تريد استرجاع مجدها^(٢١) ، ولاخرج أن تحتاج الى غيرها^(٢٢) ، وهي ذات العمران والثروة

الى معنى تقليدي . فبرى بعض القدماء أن « الأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما : دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد ، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أم اختيارا »^(٢٣) .

ولكن التونسي يبدو مستخدما اصطلاح « الأمة » في معان أقوى وأكثر تحديدا . فهو يستخدمها أحيانا لتكون دالة على وحدة جنسية ، حين يقول مثلا : « أمة الفرس »^(٢٤) ، أو « النبي الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة »^(٢٥) ، وإن كان في هذا القول الأخير يترجم عن الفرنسية (ولاياتي ذكر العرب عنده في العادة الا في ترجمات مباشرة عن مؤلفين فرنسيين يذكرهم) . وهو يستخدمها أحيانا أخرى لتدل على مجموعة سياسية واضحة المعالم ، حين يتحدث عن « الأمة الفرنسية »^(٢٦) ، أو عن « الأمة الرومانية »^(٢٧) ، وإن كان هذا التعبير الأخير يصعب أن يكون أخذه عن المصادر الفرنسية حيث المستخدم عادة هو « الشعب الروماني » . وهو أحيانا أخرى يقصد بها

(١١) انظر مادة « أمة » في دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، جزء ٤ .

(١٢) المقدمة ، ص ٨٦ .

(١٣) ص ٢٨٦ .

(١٤) ص ١٩ .

(١٥) ص ٧٣ .

(١٦) ص ٦٧ .

(١٧) ص ٧ .

(١٨) قارن ص ١٧ .

(١٩) ص ٢٨ .

(٢٠) يقول مثلا : « ما كانت عليه وآلت اليه الأمة الاسلامية وما سيؤول اليه امرها في المستقبل ص ٢ . وانظر ايضا الصفحات ٤ ، ٥ ، ٤٤ .

(٢١) ص ٣ .

(٢٢) ص ٦ ، ١٠ .

(٢٣) يقول مثلا : « عدم قبليّة الأمة لتدلتها » ، ص ٤٣ .

(٢٤) ص ٤ ، ٥ .

(٢٥) ص ٧ .

والقوة في السابق^(٢٦)، والتي تحترم الأصول الشرعية^(٢٧)، بل هي كأنها إنسان لها حقوق تخص الحفاظ على النفس والعرض والمال^(٢٨)، كما أنها ذات مصالح ونفع، وتريد دوام الاستقلال عن الغير^(٢٩). في هذه الذات، التي يجمعها شيثان: مصالحها وتدبير سياستها^(٣٠)، «يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال عليه الصلاة والسلام: المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وكما قال ﷺ: المؤمنون كالجسد الواحد»^(٣١).

ونتقل الآن إلى النصف الثاني من النوع الأول للمصطلحات، وهو الذي يضم: المملكة، الدولة، الملك، البلاد، الوطن. وقد ضمننا هذه الكلمات معا إما لأنها ذات طابع سياسي بالمعنى الدقيق (المملكة، الدولة، الملك)، وإما لأنها ذات كيان مادي يمكن تعيينه (البلاد، الوطن) ويبدو أن «المملكة» تدل على مجموع الكيان السياسي الذي يضم الحاكم والمحكوم معا^(٣٢)، وإن كان التأكيد هو على العنصر المحكوم أو «الملوك»، سواء أكان الأهالي (أو الرعايا أو السكان) أم الأرض ذاتها^(٣٣).

ويستخدم غير الدين اصطلاح «المملكة» معظم الوقت للدلالة على أجزاء محددة هي «مالك» الدولة^(٣٤)، ومع ذلك فإنه أحيانا ما يستخدمه للدلالة على الدولة ذاتها^(٣٥) وعلى الأمة أيضا^(٣٦).

أما «الدولة» فإنها تدل عند غير الدين على مانسميه باسم «الهيئة الحاكمة» كما يظهر من النص الجامع التالي: تصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية لاعتبار مصلحة الدولة والرعية.. واغتنم ولاية الممالك البعيدة الفرصة في الامتناع عن الانقياد لأوامر الدولة.. والتجأ كثير من أهل الذمة إلى الاحتجاج بالأجانب لأن الإنسان إذا انقطع أمره من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله يسهل عليه الاحتجاج بمن يراه قادرا على حمايته.. خصوصا من لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد في الجنس والديانة»^(٣٧). وتشير النصوص إلى أنه يستخدم تعبير «الملك» للدلالة على السلطة السياسية من الناحية المجردة^(٣٨)، حيث يقول صراحة: «الملك نظام بعضه الجند»^(٣٩). وقد لا يكون تعبير «البلاد» اصطلاحا على الدقة، ولكن ظهوره يتكرر عند غير الدين^(٤٠).

(٢٦) ص ٢٢.

(٢٧) ص ٢١.

(٢٨) تارن إلفينج ٣٤، ٨٦.

(٢٩) ص ٤٩.

(٣٠) ص ١٧.

(٣١) ص ٤٠ - ٤١.

(٣٢) مثلا، ص ١٨، ٤٨، ٧٥.

(٣٣) ص ٣٤.

(٣٤) ص ٣٣.

(٣٥) ص ٣٣.

(٣٦) ص ٧.

(٣٧) ص ٣٣.

(٣٨) ص ١٣، ٣٢.

(٣٩) ص ٢١.

(٤٠) مثلا ص ٧.

إن الجديد حقاً في « المقدمة » هو تلك اللهجة التي لا تخلو من مسحة عاطفية ، والتي يحيط بها خير الدين التونسي استعماله لكلمة « الوطن » ، مرتين أو ثلاثاً . إنه يتحدث ، ومنذ بداية « المقدمة » ، عن « المحبة لخير الوطن »^(٤١) ، ويشير الى طاعة الملك ومعبدة الوطن^(٤٢) ، ثم تعلقو الثيرة عاطفيا حين يشير خير الدين التونسي الى خطر المدنية الغربية على العالم الاسلامي ، حيث يشبه هذا الخطر بسيل جامع يهدد بترطيم كل ما يحيط به ، ثم يضيف بأن هذه صورة عذبة و لمحبة الوطن^(٤٣) . أخيراً ، فإن كلمة « الوطن » تظهر مرتين في الصفحة الأخيرة من « المقدمة » ، حيث يظهر واضحا أن تعبير « النصح المحب لخير الوطن » يشير الى خير الدين نفسه ، وهو الذي كان يؤمل أن يكون بكتابته « للمقدمة » قد أدى واجبه باعطاء النصح والمشورة « لدولته ووطنه »^(٤٤) (ولنلاحظ أن « الوطن » في هذا التعبير ينبغي أن يمتد ليشمل مجموع الأقاليم العثمانية ، بل وما وراءها من كل مكان يعيش فيه مسلمون)^(٤٥) .

أما النوع الثاني من مصطلحات خير الدين التونسي فهو يخص المنصر البشري ، أو ما يمكن تسميته في إطار تصوراته السياسية بالبنية التحتية للنظام السياسي ، وهي مصطلحات : الرعية ، الرعايا ،

وتتوقف قليلا عند تعبير « الوطن » على قلم خير الدين التونسي . وهنا أيضا لا نجد تحديدا صريحا من جانب المؤلف لمغزى ذلك التعبير ، وعلينا أن نحاول التوصل الى معنى أو معاني الاصطلاح بطريق غير مباشر . ويبدو أن « الوطن » في « المقدمة » يدل على هذا الكيان الموضوعي المتعين الذي هو « مجال الاجتماع المشترك »^(٤٦) ، ثم هو كذلك هذا الكائن الجمعي الذي يجمع الكائنات الفردية « لأبناء الوطن »^(٤٧) ، وهو على كل حال ، وعلى الأقل ، مكان السكن . وهناك شيء مؤكد بشأن تعبير « الوطن » ؛ أنه يختلف عن الدين ، من حيث أن الدين ذو طبيعة معنوية ، بينما « الوطن » ذو طبيعة مادية^(٤٨) . ومن جهة أخرى ، فإن « الوطن » يختلف عن الدولة ، من حيث أنه الكيان الذي تقوم بعملها من اطاره ، ومن هذا المنظور ، فإن لفظ « الوطن » يمكن أن يعني عند خير الدين التونسي مجموع السكان^(٤٩) ، بل هو يحتل أحيانا عنده مكان لفظ « للمملكة »^(٥٠) . ومن الصعب أن نضع أيدينا على مايميز ما بين « الأمة » و « الوطن » في « المقدمة » ، الا أنه يبدو أن « الوطن » كيان ذو طابع سلبي وقابل للخضوع ، بينما يشير اصطلاح « الأمة » الى كيان قادر على الفعل ، وقد رأينا أن الأول ذو طبيعة مادية ، ويشكل السكان فيه عنصرا جوهريا ، بينما « الأمة » كيان معنوي .

(٤١) ص ٣٣ ، ٤٨ .

(٤٢) ص ٤٨ ، ٨٩ .

(٤٣) ص ٣٧ .

(٤٤) ص ١٤ ، ٨٩ .

(٤٥) ص ٢٠ ، ١٨ .

(٤٦) ص ١٣ .

(٤٧) ص ١٥ .

(٤٨) ص ٥٠ .

(٤٩) ص ٨٩ .

(٥٠) لاحظ في التعبير المشار اليه ازدواجية الؤلام ما بين سياسي ودني ، لأن الوطن هنا قد يعني كل لرض المسلمين .

رعيا الدولة، الأهالي، أهل المملكة، السكان، العامة، العباد، والعبد وعبيد الله، والمؤمنون.

ويمكن تقسيم هذه المصطلحات الى ثلاثة أقسام: قسم ذي طابع ديني واضح، وقسم مأخوذ عن التراث ولكنه يبدأ في اكتساب مضمون مدني محايّد بعض الشيء، وقسم مأخوذ فيها يبدو عن المصطلح الفرنسي في القرن التاسع عشر الميلادي. أما القسم الأول فإنه يضم كلمات: العباد والعبد وعبيد الله، والمؤمن والمؤمنون. والكلمتان الأخيرتان تأتيان معا وفي موضع وحيد في كل «مقدمة» كتاب خير الدين^(١)، وهو لا يوردهما إلا بمناسبة الاستشهاد بحديث نبوي. وعلى ذلك فإن اصطلاح «المؤمنين» يفتني تماما من المصطلح السياسي عنده. أما «عبيد الله» فلا يذكر هو الآخر إلا مرة واحدة^(٢)، وفي إطار من السخرية بمن يريدون استبعاد من لا سيد لهم إلا الله. أما كلمات «العباد» و«العبيد» و«العبد»، فإن الثالثة منها لا تذكر إلا مرة واحدة^(٣)، ونادرا ما تستخدم الأولى^(٤). ويأتي عدم استخدام «العباد» كثيرا من أن المقابل لها، وهو «الرعية» و«الرعايا» اللذان يأتیان من المصطلح التقليدي، يفتيان معناها،

ويزيدان في طابعهما المحايد الى حد ما. وهاتان الكلمتان هما بالفعل أكثر الاصطلاحات المذكورة استعمالا على قلم خير الدين التونسي، وربما كان «الرعية» أسبقية على «الرعايا»، لأنه إذا كانت صفحات المقدمة تجعلها متساويتين في المعنى في كثير من المواضع^(٥)، إلا أن «الرعية» تمتاز بأنها تساوي «العبيد»^(٦)، وتساوي «الأمة»^(٧) و«الأهالي»^(٨) وتساوي^(٩)، «العامة»^(١٠).

وفيما يخص المصطلحات التي يبدو أن خير الدين أخذها عن المصطلح الفرنسي أو عن مصطلح «تخليص الأبريز» لرفاعة الطهطاوي والذي يعرفه التونسي^(١١)، فرمما كان أكثرها استحفاقا بالاهتمام هو «العامة»، الذي يدل على معنى «الجمهور»، بل قد يؤدي معنى «الشعب» حين يأخذه المؤلف من مصادر فرنسية^(١٢). ولكن كلمة «العامة» قد تؤخذ بمعناها العادي^(١٣)، وهو محقر الى درجة ما، أو هو سمي صراحة. فهو يقول مثلا عن التنظيمات السياسية الجديدة في الدولة العثمانية إن «العامة في مبدأ الأمر أنكرت تلك التنظيمات انكارا كلياً حتى ظهر في بعض جهات المملكة مبادئ الاضطراب»، والسبب هو أن

(١) ص ٤١.

(٢) ص ١٠.

(٣) ص ١٠.

(٤) ص ١٠.

(٥) مثلا ص ٨٥.

(٦) ص ٢١.

(٧) ص ١٧.

(٨) ص ٨٥.

(٩) ص ٣٤.

(١٠) ص ٦٩، وهو يسمى الطهطاوي «بالعالم البار».

(١١) يقول «الأهالي يتصفون طائفة من أهل المرفة المرونة، تسمى عند الأوربيين نواب العامة، وعندها يأهل الخلق والعبد»، ص ٧٥.

(١٢) ص ٣٤، ٨٨.

هم المواطنون ، وبهذا تأكيد تقرب بالفعل من القول بأن الدولة هي التي في خدمة المواطن ، وأنه أساس ، وهي فرع . ولكن كل هذا لم يكن موقف التونسي ، ولم يكن يمكن أن يكون موقفه ، كما لم يكن يمكن أن يكون موقف النظرية السياسية التي تدور كلها حول الإمامة ، وبالتالي حول الحاكم ، وتدور حول الدولة وليس حول المحكومين ، الذين هم مجرد رعية ورعايا ، والذين كانت ترى فيهم إما مؤمنين وإما أهل ذمة فالرعايا في المحل الأول ينتمون الى دين ما ويعاملون على أساس انتسابهم الديني ، فالأصل هو الانتفاء الديني ، وليس الانتفاء السياسي أو الوطني كما سيظهر شيئا فشيئا مع رفاة الطهطاوي .

وقد سبق أن أشرنا الى أن التونسي لا يفكر الا للدولة العشائية ، وبالتالي فإنه لا يفكر لما نسميه « الشعب » ، وحتى حين يذكر الرعايا والاهالي والسكان ، فإنه يذكرهم من أجل التنبيه على بعض حقوقهم ، نعم ، ولكن على الأخص من أجل التنبيه على واجباتهم في العمل وتعضيد الدولة بشئ السبل ، فالدولة هي الأساس وهي بؤرة الاهتمام . لقد كان من الطبيعي أن يكون خير الدين التونسي جمعي النظرة وليس فرديا ، « وجمعيته » هي من وجهة نظر الدولة وليس من وجهة نظر المجتمع ذاته . فهو يتكلم عن الأمة وعن العباد ، ولكن لا مكان عنده للأفراد من حيث هم كائنات مستقلة الإرادة من مجموعهم تكون اتجاهات الأمة ، إنما الأمة عنده هي ذلك الكائن الجمعي القاهر والسابق في وجوده وجوده على الأفراد والمستقل عنهم ، بل هو متجه وموجههم . وقد سبق أن ألمحنا الى أن مفهوم « الدولة » يسيطر على مفهوم الأمة ،

بعض الولاة « دسوا للعامة من قول الزور والغش مايفترهم منها »^(٣٧) . كما أنه يعود في نص آخر ليستخدم تعبير « العامة » و « جفاة الأهالي » في سطرين متتالين^(٣٨) .

ويظهر من كل ما سبق أن خير الدين التونسي يجدد في المصطلح السياسي ، اما باستخدام اصطلاحات جديدة واما باعادة تقويم مصطلحات قديمة ، وذلك في نفس الوقت الذي نشهد فيه عنده استمرارا للتراث الاصطلاحي الرئيسي في نظرية الإمامة الاسلامية . والسؤال الآن هو : هل يوجد في مصطلح خير الدين التونسي وفي نظام فكره ، إن أمكن استخدام هذا التعبير ، مكان لما يقابل مصطلحنا الحالي « المواطن » ؟

يظهر من استعراضنا لأهم مصطلحات خير الدين التونسي أن أقربها ظاهريا الى كلمة « مواطن » هو تعبير « حب الوطن » ، ولكننا رأينا مدى خصوصية هذا التعبير الى حد لا يجعل منه اصطلاحا بالمعنى المعتاد ، كما أشرنا الى أنه يدل في الواقع على خير الدين التونسي نفسه . فالنتيجة الأولى اذن هي أنه لا يوجد في مصطلح التونسي مقابل لاصطلاح « المواطن » . ولكن النتيجة الثانية أهم بكثير ، ويمكن وضعها على النحو التالي : لم يكن من الممكن أن يظهر عند خير الدين التونسي مقابل لمصطلح « المواطن » . ذلك أن هذا المفهوم هو مفهوم فردي في المحل الأول ، ومكانه نظرية سياسية تأخذ بتقديم الفرد ، وبأن الشعب هو مصدر السلطات ، وأن هدف التنظيم السياسي هو خدمة أعضاء المجتمع ، بحيث أن « الدولة » مفهوم تابع لمفهوم المجتمع الذي يتكون في النهاية من أفراد ،

(٣٧) ص ٢٤ .

(٣٨) ص ٨٨ .

وكان الأمة الحققة هي متأثره سلطة الملك عن ذاتها . وهكذا فلا مكان عند التونسي للنظرة الفردية ولامكان للمفهوم الفرد ولالفهوم المواطن .

صحيح أنه يتم أحيانا بالرعابا في « مفردهم وجمهورهم »^(٦٥) ، وبالناس بعامه أي مايقرب من « الشخص »^(٦٦) ، ولكن ذلك الانسان ليس المواطن على أي حال . ان ذلك الانسان الذي يتحدث عنه خير الدين انما هو بالكلية « رعية » ، ولن نقول عبدا وعبدا^(٦٧) ، وليس مواطنا ، أي أن التونسي ينظر اليه من وجهة نظر الحاكم ، وليس في ذاته ، ولاحتى من وجهة علاقته مع زملائه الآخرين (وهو مايميز بالضرورة مفهوم المواطنة ، فالمواطن مواطن بالقياس الى آخرين ، أما الرعية فانها كذلك بالقياس الى الحاكم) . ان من أساسيات النظرة الدينية أن تكون جمية لافردية ، ولهذا فان خير الدين يتمنى أن « يكون الجميع كالشخص الواحد »^(٦٨) ، أي أن تمحق الفروق الفردية الى أقصى حد ، بحيث لايبقى الا الكائن الجمعي . ان فكرة المواطنة تتضمن فكرة المبادرة الفردية وتتضمن النظرة ابتداء من أسفل التكوين السياسي الى أعلاه . ولكن ما أبعد المبادرة الفردية عن جوهر النظرية السياسية التقليدية ، فحتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيكون في النهاية ، ليس في يد أول مار في الطرقات ، بل في يد أهل الحل والعقد ، وهم قلة تابعة للحاكم في واقع الأمر ، الا من ندر ، وستكون وظيفتهم فرض كفاية لافرض عين ، حيث يقول التونسي ، وهو بصدد الحديث عن

النظم الأوربية : « الاهالي يتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروعة تسمى عند الأوربايين بمجلس نواب العامة ، وعندنا بأهل الحل والعقد ، وان لم يكونوا منتخبين من الاهالي . ذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية ، وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقي . واذا تمينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص »^(٦٩) .

ومن جهة أخرى ، فان النظرية التقليدية لاتبدأ من أسفل السلم السياسي ، أي من القاعدة السياسية التي هي البشر أعضاء المجموعة ، بل من أعلاه ، أي من الأمة ومن الدولة ومن الامام أووالي الحاكم ، بل هي تبدأ في الواقع من أعلى من ذلك : من الألوهية ذاتها التي وضعت الشريعة المقدسة ، بحيث أن القول « بالأمة » في إطار النظرية التقليدية يفقد كثيرا من مضمونه ، لأن تلك « الأمة » ليست مصدر السلطات ، بل هي الجسد الذي تنفذ عليه وفيه أفعال السلطة .

رعاة رافع الطهطاوي

(١٨٠١ - ١٨٧٢ م)

١ - ماهي المشكلة ؟

يمكن أن نقول ان المشكلة الكبرى التي أراد رعاة الطهطاوي معالجتها هي مشكلة التنظيم الاجتماعي الجديد الذي يريد اقتراحه على « أهل وطنه » بما يناسب احتياجات العصر ، التي لاتتمثل في ضرورة

(٦٥) من ٤٣ .

(٦٦) مثلا : « حفظ حقوق الانسان في نفسه وعرضه وماله » .

(٦٧) من ١٠ ، ٢١ .

(٦٨) من ٤٠ .

(٦٩) من ٧٥ .

العام عند الطهطاوي ، ومفهومي الأمة والوطن على الأخص ، نشير الى أن فكر رفاة ما هو الا لحظة على طريق تكون المصطلح العربي الحديث والفكر المستعرب الحديث . واللحظة الطهطاوية ذاتها لحظة متحركة ، « فالتخليص » يقف وحده وعلى حدة أحيانا كثيرة ، وفي « المناهج » ذاتها لحظات يحس القارئ أن بعضها يشكل تحريبا أو يشكل قفزة بالقياس الى البعض الآخر ، كما أن دراسة المصطلح الطهطاوي لن تكتمل الا بالتنبية الى فحص عدة أشياء معا ، الى جوار كتبه الرئيسية (تخليص الأبريز في تلخيص باريز ، ١٨٣٤ ، مناهج الآداب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، ١٨٦٩ ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، ١٨٧١) وهي :

- ١ - ترجماته من الفرنسية وترجمات تلامذته .
- ٢ - الأصول الفرنسية التي يحتمل أن يكون الطهطاوي قد استقى منها مواضيع مؤلفاته .
- ٣ - كتاباته الأخرى في التاريخ والمسائل الدينية وغيرها . ونشير كذلك الى أن دراسة الاصطلاح عند الطهطاوي ينبغي أن تتم بعد التنبيه الى أهدافه العامة كمفكر ، وإلى نوع ثقافته السياسية بعامة ، وإلى طبيعة حركتي أهل مصر من جهة والولاة العلويين (وخاصة محمد علي وإسماعيل) من جهة أخرى ، وإلى اجتماع أغراض الطرفين في وضوح حول انتزاع مصر شيئا فشيئا من قبضة السيطرة العثمانية ، حتى لو كانت اسمية .

٢ - المصطلح السياسي عند الطهطاوي

يمكن أن نقسم التعبيرات ذات الطابع الاصطلاحي عند رفاة الطهطاوي وفي كتبه الثلاثة المشار إليها الى

حاكاة أوربا وحسب ، بل وكذلك في ضرورة الوقوف في وجهها . ويناسب تصورات الطهطاوي الشخصية ، التي توصل إليها بما شاهد وقرأ عن فرنسا ، ويتأمله في كل ذلك وفي تاريخ مصر وبلاد الاسلام وفي حال الانسان بصفة عامة ومكانه في الكون^(١)

والفكر السياسي جزء من الفكر الاجتماعي ، ولهذا كان تناول الطهطاوي لأفكار مثل الأمة والوطن ذا طبيعة سياسية واجتماعية ، خاصة وأن المنتشر في التقليد النظري الاسلامي ، والذي قبله الطهطاوي واعيا ومجددا في مضمونه ، هو أن الغاية من السياسة (وان كانوا قد يقولون «الولاية» أو «الحكم» أو «التدبير») هي رعاية أعضاء المجتمع (وكانوا يقولون «الرعية» و «الرعايا» ، ويقول هو «الأهالي» و «الهيئة الاجتماعية» و «الجمعية» ...) . ولا ينحصر الجهد الهام الذي أتى به الطهطاوي في مضمون لم تألفه الأفكار ، وإن غلف بعبارة تبدو أحيانا تقليدية ، ولا في أسلوب في التصور والتعبير وترتيب في العرض تبدو من ورائه فطنة تجسد من خلال رفاة رقابة النظرة عند شعب عايش التاريخ كله وبقي فوقه ، بل يظهر التجديد أيضا في أن رفاة الطهطاوي حدد لنفسه ، وربما منذ «تخليص الأبريز» ذاته ، الجمهور الذي يتحدث إليه ، والأمة التي يفكر لها ، والوطن الذي ينبغي نفعه : انه أهل مصر والأمة التي تقيم في هذا الوطن . وعلى هذا فلاجمال عنده للحديث الى «المؤمنين» عامة ولا الى أهل ديار الاسلام وممالكه ، الا في النادر وقياما بواجبات أقرب الى مراعاة الخواطر منها إلى شيء أي آخر .

وقبل أن ندخل في تفصيل الاصطلاح السياسي

(١) انظر مثلا «تخليص الأبريز» ، ١٨٤٩ ، ص ٦٠ - وستكون كل إشاراتنا الى كتبه الى الطبعات الأخيرة الأصلية في حياة الطهطاوي ذاتها .

مجموعات ثلاث . المجموعة الأولى تخص أعم الأطر للاجتماع الانساني ، وفيها نجد : الخلق ، الجمعية التأسيسية ، التأسس العام ، وقد تضم اليها كلمات : الانسان والشخص والجنسية .

المجموعة الثانية تخص الاطار الفوقي للتنظيم السياسي ، وفيها نجد : الدين ، الاسلام ، يد الاسلام ، أمم الاسلام ، بمالك الاسلام ، ديار الاسلام ، البلاد الاسلامية ، الدولة المصرية ، الحكومة المصرية ، مصر ، القطر المصري ، بلاد مصر ، الديار المصرية ، الأقطار المصرية ، بر مصر ، الدولة ، المملكة ، السلطنة ، الملك ، النظام المدني ، الأمة .

المجموعة الثالثة تخص الاطار التحتي للتنظيم السياسي : الرعية ، أبناء الرعية ، عموم الرعية ، الرعايا ، الملة ، الجمعية ، جمعية المملكة ، أعضاء الجمعية ، أفراد الجمعية ، الهيئة الاجتماعية ، الأهالي ، أهالي المملكة ، أبناء الأهالي ، الأهلية ، الوطنية ، أبناء الوطن ، أهل الوطن ، أهل الاستيطان ، أهل مصر ، الرأي العمومي ، السواد الأعظم ، العامة ، الناس ، الوطن ، البلد ، الشخص من الاهالي ، الوطني ، البلدي ، المستوطن ، المستوطنين ، الأمة ، الأمة الواحدة ، الأمة المصرية .

وأهم ملاحظات على الفور ، وبالمقارنة مع خير الدين التونسي ، هو وفرة الاصطلاح الطهطاوي من جهة ، وبعده الى حد كبير نسبيا عن المنهل الديني

التقليدي للمصطلح ، من جهة أخرى ، فمعظم الكلمات التي ذكرناها هي كلمات «عصرية» . وستفحص أهم اصطلاحات الطهطاوي ، وعلى الأخص «الأمة» و«الوطن» ، في حينها بالتفصيل ، وسنشير خلال سيرنا الى بعض من المصطلحات الأخرى مما يناسب المقام .

٣- من تصور ديني عام الى تصور مدني حول طبيعة الاجتماع وأهدافه

قبل أن نأخذ في النظر الى موقف الطهطاوي من الأمة والوطن ، يحسن أن نشير الى الاتجاه العام له ، فهو مرحلة انتقال واعية من التصور الديني الى التصور المدني أو العلماني لطبيعة الاجتماع وأهدافه . والطهطاوي منظم الفكر ، يحاول قدر جهده ادخال الجزء في الكل ، ولذلك فانه يعاود الكلام عن «الخلق» ككل وعن البشر في مجموعهم (٣٠ مكرر) . ومهما يكن من رجوعه الى صياغات وأطر دينية ، فان المغزي العلماني واضح ومؤكد ومنذ «التخليص» ذاته . ولم يكن من الممكن للطهطاوي أن يبتعد عن النموذج الديني التقليدي مرة واحدة ولا صراحة ، وانما هو يفعل ذلك ضمنا وعمليا ، مع الاعتراف بأساسيات دينية من وقت لآخر (مثل التأكيد على أن الانسان مخلوق لئله وأن الاله هو الذي يأمره وينهاه (٣١) ، أو بأساسيات في الثقافة التقليدية (مثل تقسيم الانسان الى جسم وعقل وتفضيل الثاني على الأول (٣٢) ، بل هو كثيرا ما يستعين بالفكرة الدينية لتأييد مقصد علماني .

(٣٠) مكرر انظر وتخلص الأبريز ، ص ٥ - ٦ ، ١٩ ، والتامج ، ص ٦ ، ١٤ ، «الرشد الأمين» ، ص ٢٢ وما بعدها ، وخاصة ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣١) «الرشد الأمين» ، ١٨٦٩ ، ص ١٥ .

(٣٢) «الرشد الأمين» ، ص ٢٥ .

الأمة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي .

٩- ومن أهم مظاهر ذلك تأكيده المتكرر على وجوب توفر عنصر «المبادرة» عند الأماهي في ميدان «المنافع» ، دون انتظار لما تفعله السلطة .

١٠- وهو يدعو الى وجوب إيجابية الحكومة في ميدان المنافع العامة ، وذلك بالنظر الى سلبية الحكم المملوكي في ميدان أداء وظائف الحكومة المركزية

١١- وربما كان الطهطاوي يستحق في القرن التاسع عشر الميلادي لقب «مفكر المستقبل» ، فنظره الأول ينصب على المستقبل لا على الماضي .

١٢- وهو لذلك يرفض صراحة احترام التقليد لمجرد أنه التقليد ، ويدعو الى الاجتهاد ، أي الى التجديد .

١٣- ولذلك فإنه يعلي أيضا من شأن الفكر العقلي الى جوار الفكر الديني .

١٤- ونجد عند رفاعة الطهطاوي حسا شديدا بأهمية الجباعة ، وربما كان هذا تمهيدا هاما في إطار ثقافة تتحدث كثيرا عن المؤمنين كجباعة ولكنها لا تضع في العمل أي تنظيم فعلي للحركة الاجتماعية للجباعة من حيث هي جماعة .

١٥- وقد تظهر الدراسة الدقيقة للفكر السياسي عند الطهطاوي أنه يقدم للمجتمع على الدولة نحو ما .

١٦- ومن حيث الفرد الانساني ، فإن رفاعة هو من أول من أكدوا على أنه عنصر المجتمع الحقيقي .

١٧- وعلى الأقل فإنه واضح الاهتمام بكرامة الشخص الانساني^(٣١) .

ونشير الآن بانجاز كبير الى أهم مظاهر التجديد العلماني في نظرة الطهطاوي الى طبيعة الاجتماع وأهدافه :

١- يؤكد الطهطاوي ، في داخل الصياغة الدينية لتصور مكان الانسان في الكون ، على أن الاجتماع الانساني ظاهرة «طبيعية»^(٣٢) .

٢- يصبح هدف الاجتماع الانساني عند رفاعة هو السعادة التي يرد ذكرها مرارا عنده ، مثلا : «الجمعة التأسيسية ماثلة الى الحصول على السعادة»^(٣٣) .

٣- ويتصل بالتأكيد على السعادة التأكيد على أهمية الثروة ، ولأنهم أهمية هذا التجديد الا بالنظر الى اتجاهات الدعاوى التصوفية الى نبذ الاهتمام بالدنيا ، والتي سادت خلال العصر العثماني كله ولمصلحة الطبقات السائدة والمسيطرة .

٤- ويتصل بهذا وذاك هجوم الطهطاوي على الكسل ودعوته للعمل .

٥- وهو يؤكد أيضا على فكرة المصلحة وعلى وجوب اتخاذها مرشدا الى جوار أوامر الدين .

٦- وربما كان الطهطاوي أول من وعى فكرة «التقدم» في عالم الكتابة بالعربية ، ويتصل بهذا تأكيده على فكرة «البهضة» أيضا^(٣٤) .

وهو لهذا يأخذ جانب فكرة «الحركة» ضد فكرة السكون بصفة عامة .

٨- ويؤكد في ميدان العلاقات الاجتماعية على مايسمى اليوم بالجانب الديناميكي في الحركة الاجتماعية .

(٣٢) المرشد الامين ، ص ٢٩ ، ٥٨ ، ٢٨ .

(٣٣) المرشد الامين ، ص ٢٩ .

(٣٤) متابع الألبان العربية ، ١٨٧٢ ، ص ١٣ .

(٣٥) مثلا «المرشد الامين» ، ص ١٦٨ .

١٨ - ونشير أخيراً الى وجود إشارات قليلة عند الطهطاوي ، ولكنها واضحة جداً ، وتنبئ باهتمامه بالطبيعة الخارجية ، وبأن علاقة الإنسان معها أساسية . وكان إهمال الطبيعة من أهم مميزات الثقافة التقليدية .

٤ - وحدة الاجتماع الأساسية

يمكن تلخيص أهم مظاهر التجديد عند الطهطاوي بخصوص هذا الموضوع في النقاط الثلاث التالية :

١ - يفتني عنده عملياً ، أو يتوارى على الأقل ، مفهوم «الأمة الإسلامية» .

٢ - ويحل محله ما يمكن تسميته بمفهوم «الأمة المدنية» .

٣ - ولكن مفهوم «الأمة» متصوراً على الطريقة المدنية لا يحتل المكانة الأولى في نظام الطهطاوي ، بل يأتي أولاً ومفهوم «الوطن» .

وما هو ذو دلالة عظيمة أن كلا التعبيرين ، «الأمة» و«الوطن» ، لا يظهرا على الإطلاق في «تخليص الأبريز» ، بل تظهر وحسب تعبيرات مثل «الرعية» و«المللة» و«أهل مصر» و«أهل الاستيطان» .

ويستخدم الطهطاوي ، في كتابيه الآخرين ، تعبير «الأمة» أحياناً في أعم معانيه المتأخوذة عن التراث ، كما يظهر مثلاً في الآية القرآنية : «ولو شاء ربك لجلع الناس أمة واحدة» . ولكن الغالب أنه يستعملها بمعنى

المجموعة السكانية التي ترتبط برباط السكن المشترك على الأخص ، فهي تؤدي معنى «النوع الانساني في مصر» الذي يستخدمه حرفياً^(١٧) (وإن كان هذا التعبير يأتي في إطار نص مترجم عن الفرنسية يشبه رفاعة ليرد على مجمل قضيته) ، أو هي مساوية «للملة» ، حيث نراه يقول «الأمة المصرية»^(١٨) (وهذه هي المرة الوحيدة على ما نعرف التي يأتي فيها هذا التعبير في كتبه الثلاثة الرئيسية) ، بعد أن قال «المللة المصرية»^(١٩) و«أبناء الاوطان»^(٢٠) . وربما كان التعريف الصريح الوحيد للأمة عنده هو ما يظهر في قوله : «الهيئة المجتمعة يعني الأمة بتأملها»^(٢١) . ولكن يبدو أن المعنى الأغلب عند الطهطاوي هو هذا المعنى الأخير : «أبناء الوطن» ، حيث يربط بين أهم الاصطلاحات عنده في هذين النصين الجامعين من «المرشد الأمين» : «قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائماً متحدون في اللسان وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد والانقياد الى شريعة واحدة وسياسة واحدة... فكان الوطن انما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم ، فليكن أيضاً محلاً للسعادة المشتركة بينهم ، فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة...»^(٢٢)

«المللة في عرف السياسة كالجنس : جماعة الناس السائدة في بلدة واحدة تتكلم بلسان واحد وأخلاقها واحدة وعواظها متحدة ، ومتقادة غالباً لأحكام واحدة وتسمى بالأهالي والرعية والجنس وأبناء الوطن .

(١٧) «مناجم الألب» ، ص ١٩٥ .

(١٨) «مناجم الألب» ، ص ١٦٥ .

(١٩) «مناجم الألب» ، ص ١٦٢ .

(٢٠) «نفس المرجع» ، ص ١٦٣ .

(٢١) «المرشد الأمين» ، ص ٦ ، راجع أيضاً «مناجم الألب» ، ص ٦٠ ، ٨٣ ، ٢١٥ .

(٢٢) «المرشد الأمين» ، ص ٩٣ .

تعبير مثل «الأخوة الوطنية»^(٨٥)، ومثل «العائلة الواحدة»^(٨٦).

ولكن الطهطاوي يبدو أحيانا وكأنه يريد أن يجعل من الوطن رابطة السكان المرتبطين برباط الجنس . فيقول مثلا في المناهج : «الملة المتحدنة التي تسمى باسم دينها وجنسها تتميز عن غيرها»^(٨٧)، كما يقول نفس الكتاب صراحة مرتين : «علة الضم الجنسية» ، وهو بسبيل رفض أن يكون لفرنسا زعم التدخل لإصلاح شئون مصر على ما أراد بونايرت أن يقنع المصريين ، وكما يقول فرنسيون من بعده .^(٨٨) وعلى هذا فإن رابطة الوطن بصفة عامة هي إما السكن (أو «المنزلية» كما يقول رفاة) ، وإما الجنس ، وقد يجتمعان معا كما يظهر في هذا النص الهام : «مايتمسك به أهل الاسلام من عبة الدين والتولع بحياته عما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة يسمونه (أى الأوروبيون) عبة الوطن . على أنه عندنا معشر الإسلام حب الوطن شعبة من شعب الإيمان وحماية الدين يجمع الأركان . فكل مملكة إسلامية وطن لجميع من فيها من الاسلام ، فهي جامعة للدين والوطنية ، فحمايتها واجبة على بنها من هاتين الحثيتين ، وانما جرت العادة بالاتصاف على الدين لقوة أهميته مع إرادة الوطن . وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصي محضة

وينبغي أن تكون الأمة المستحقة لأن تتصرف بهذه الصفات وتتلقب بهذه الاسماء ذات شهامة وشجاعة وذكاء ، ويميل إلى حب المجد والفخار وشرف العرض ، تحب حريتها وتتولى بقوة رئيس دولتها وتقاد لقوانين مملكتها وسياساتها . ولا جائز أن تستغني الأمة عن رئيس يحسن سياساتها وتدير مصالحها ، فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية» .^(٨٩)

والوطن كما يظهر من هذين النصين هو المواطن في المحل الأول ، وقد ظهر في «التخليص» تعبير «أهل الاستيطان»^(٩٠) . ويعرف «المُرشد الأمين» مفهوم الوطن تعريفا صريحا فيقول : «الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ومنه خرج وجمع أسرته ومقطع سرتة وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاه هواؤه ونسيمه»^(٩١) . كما يربط «مناهج الآداب» بين الوطن والمواطن صراحة : «ولاسيا إذا كان المواطن منبت العز والسعادة ... كديار مصر فهي أعز الأوطان لبنها»^(٩٢) . ويدل على معنى المواطن قوله أيضا : «الأمة المقيمة في الوطن»^(٩٣) ، ويؤكد هذا تعبيره المتكرر : «أهل الوطن» و «أبناء الوطن» . ولكن رابطة الوطن ليست محض الناتج من إضافة فرد الى فرد ، بل هي تؤدي الى كيان جديد حاول الطهطاوي استكشافه في

(٨٣) المُرشد الأمين ، ص ٩٥-٩٦ .

(٨٤) تخلص الأبريز ، ص ٥٢ .

(٨٥) المُرشد الأمين ، ص ٩٠ .

(٨٦) «مناهج الآداب» ، ص ١١ .

(٨٧) المُرشد الأمين ، ص ١٢٤ .

(٨٨) «مناهج الآداب» ، ص ٦٦ .

(٨٩) المُرشد الأمين ، ص ٩٣ .

(٩٠) «مناهج الآداب» ، ص ٦ .

(٩١) «مناهج الآداب» ، ص ١٩٦ .

(٩٢) نفس المرجع ، ص ١٩٥-١٩٦ .

لمجرد الجنسية والمنزلة، كالفنسي والبياتي والمصري والشامي، مع أن الوطن يستوي فيه النوع الانساني^(٩٢).

وينبغي أن نفهم هذا الموقف على ضوء حركة مصر في عصر اسماعيل حيث ظهرت إرادة الوطنية التي يجمع فيها المصري «الفلاح» والمصري المستترك (أتراك، شركس...)، والمصري المسلم والقبطي واليهودي.

وفي بعض النصوص النادرة يستخدم الطهطاوي كلمة «الوطن» لتدل على تصور جديد ويختلف يؤدي معنى «الذات القومية» كما قد نقول اليوم، ومن ذلك مثلا قول الطهطاوي عن المنافع أن «بها يترقى الوطن»^(٩٣)، وكان المتبادر أن يقال «بها يترقى أهل الوطن». ونشير أخيرا إلى عني الطهطاوي بالصراع العميق، وإن كان نادرا ما يظهر على السطح مباشرة تفاديا للمجابهة، بين الوطن والدين، وهو ما يظهر من نص «المرشد الأمين» المذكور. ونلاحظ أن الطهطاوي لا يختار بين الحدين، بل يجمع بينهما، وإن كان الحد الذي يدافع عنه هو الوطن، لأنه هو المفهوم الجليد. يقول: جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها (من مكارم الأخلاق) يجب على أعضاء الوطن في

حقوق بعضهم على بعض، لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية. فيجب أدبا (على) من يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه^(٩٤).

وكما أشرنا من قبل فإن الجديد حقا عند الطهطاوي هو التحول من مفهوم الأمة الدينية إلى الأمة المدنية وإلى مفهوم الوطن، ولكن ربما كان التجديد الأعظم هو تأكيده العظيم على مفهوم «مصر». وهو يستخدم تعبيرات «بلاد مصر» و«الأقطار المصرية» و«مملكة مصر» و«القطر المصري» و«البلاد المصرية»، ولكنه يستخدم كذلك «مصر» بإطلاق وأحيانا ما يقول «مصرنا». ومصر «وطن شريف»^(٩٥)، وهي وأعر الأوطان^(٩٦)، وهي «أم لساكنيها»^(٩٧) و«ديار مصر سبقت جميع الأمم بالمآثر الغربية»، وهي «فائقة في المآثر جاهلية وإسلاما ولها أسبقية التمدن قديما وحديثا، والآن تنافس الممالك الأخرى في الفنون والصنائع»^(٩٨)، حيث اجتمعت لها وسيلتا التمدن، وهما: «تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية»^(٩٩) و«المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية، وعلاماته الثلاث التي هي: «حسن الإدارة الملكية والسياسة العسكرية ومعرفة الألوهية»^(١٠٠) وهي

(٩٣) المرشد الأمين، ص ١٢٤-١٢٥.

(٩٤) «مناجى الألباب»، ص ١٦-١٧.

(٩٥) «مناجى الألباب»، ص ٦٦-٦٧. ولي ترجمة الدكتور أنور عبدالمك في كتابه الفرنسي *Ideologie et renaissance national*، باريس، ١٩٦٩، ص ٢٢٧ لهذا النص ما يعطى معنى أن الأخوة الوطنية أعلى وأقوى من الأخوة الدينية، وواضح أن هذا ليس هو المقصود، وبعبارة البس هو ترجمة سريعة غير دقيقة لتعبير «فضلا من».

(٩٦) المرشد الأمين، ص ٩١-٩٢.

(٩٧) «مناجى الألباب»، ص ١١.

(٩٨) المصدر السابق.

(٩٩) «مناجى الألباب المصرية»، على التوالي: ص ٨٣، ص ١٥-١٦.

(١٠٠) «مناجى الألباب»، ص ٦٠-٦١.

(١٠١) نفس المرجع، ص ١١٨.

كالوصي على مصر وعلى جميع الرعية (ص ١٥٥) ،
وضعت الأمة المصرية ... (ص ١٦٥) ، ومطمح
نظر مصر الآن التبصر في تكميل وسائل التمدن ،
(ص ٢٣٠) ، وغير ذلك من التعابير .

٥ - العنصر البشري

يختفي تماما عند الطهطاوي ، ومنذ كتابه الأول ،
تعبير «المؤمن» و«المؤمنين» ، اللهم الا في نصوص دينية
تكاد تنحصر في حديثين للرسول (صل الله عليه
وسلم) «المؤمن أخو المؤمن» ، و«المؤمن للمؤمنين
كاليتيم المرصوص ...» ، وهذه النصوص الدينية
لا تذكر إلا في إطار أخلاقي وليس في إطار سياسي على
الإطلاق . وقد سبق أن أشرنا إلى أهم اصطلاحات
الطهطاوي في هذا الميدان ، وأظهرها عنده : «الرعية»
وعلى الأخص «الأهالي» الذي يتصدر اصطلاحات
كتابه «المُرشد الأمين» و«مناهج الألباب المصرية» في
جلتها ومنظورا اليها من هذه الزاوية . ولكن ربما كان
الجديد في مصطلح الطهطاوي هو الكلمات المتصلة
بمفهوم «الوطن» ، فتجد عنده : «أهل الاستيطان» منذ
وتخليص الأبريز»^(١٠٦) ، «أهل الوطن» و«بناء الوطنية»
و«الأهلية» ، «اصطلاحا «المتوطن» و«المتوطنين» ،
وان لم يذكرنا الا نادرا^(١٠٧) ، ولا يظهر عنده بعد لفظة
«الموطن» . ويظهر عنده أيضا ، في «مناهج الألباب

بلد العلم والحكمة»^(١٠٨) ، وكانت دولتها القديمة دولة
فاصلة^(١٠٩) ، وعادلة^(١١٠) ، وعترسة مستنيرة
بالمعارف .^(١١١) وهي «بر البركة»^(١١٢) وفيها «خزائن
الأرض»^(١١٣) وهي مستحقة بر بنينا ، «الذين هم
أرباب قرائح ذكية وحافظتهم قوية ، متى قصدوا شيئا
تعلموه في أقرب وقت وزمان ، وكم قام على قابليتهم
واستعدادهم لعظائم الأمور أعظم برهان»^(١١٤) .

ومن المعروف أن رفاة الطهطاوي هو أول مكتشف
مصري حديث لتاريخ مصر القديم ، وذلك منذ كتابه
الأول ذاته ، «تخلص الأبريز» . ولكن أهم ما يميزه في
هذا الصدد هو أنه يضيف إلى ذلك إحساسا بامتداد
مصر المتصل عبر التاريخ ، وفي الماضي والمستقبل ، كما
تشهد بذلك كتبه الثلاثة وغيرها . وربما كان قمة
مشاركاته في هذا الميدان تصويره لمصر وكأنها ذات
ترتفع فوق مفهوم الوطن ومفهوم الأهالي ، وإن كان
لا يتحدث إلا مرة واحدة ، كما أشرنا ، عن «الأمة
المصرية» . ومن التعابير التي نجدها في «مناهج
الألباب المصرية» والتي قد تشهد على وجود تصور لمصر
ذاتنا عنده : «عاد لمصر عزها القديم»^(١١٥) («مناهج
الألباب» ، ص ٢) ، وكان «محمد علي» من أعظم
الأعوان والأنصار لمصر في رفع التكاليف الشاقة ...
فقصص إعادة فضيلة مصر على سائر الأمصار
(ص ٣٠) ، «القوة الحاكمة العمومية ... هي ...

(١٠٢) نفسه ، ص ١١ .

(١٠٣) نفسه ، ص ١٢٣ .

(١٠٤) نفسه ، ص ١١٩ .

(١٠٥) نفسه ، ص ١٢٠ .

(١٠٦) نفسه ، ص ١١ .

(١٠٧) نفسه ، ص ١٢ .

(١٠٨) «مناهج الألباب» ، ص ١٩٥ .

(١٠٩) تخلص الأبريز ، ص ١٠٩ .

(١١٠) «مناهج الألباب» ، ص ٩ ، ٢٢٢ .

من مفكري الأمة الإسلامية في العصر الحديث، وهما يتسيدان مجال الفكر المكتوب باللغة العربية حتى عام ١٩٧٨ - ١٩٧٩ على التقريب، بغیر أن يكون لها منافس حقيقي في ذلك المجال على الإطلاق.

السبب الثاني والمكمل والمقابل للسبب الأول في نفس الوقت، هو أنها، رغم الصفة الإسلامية التي لا يمكن أن تنكر لها معا (ونشير هنا الى رفاعة على الأخص)، يمثلان مرحلة أو محاولة من محاولات الانعتاق من إسار التقليد الإسلامي، إما جزئيا مع خير الدين، وإما الى حد كبير مع رفاعة).

السبب الثالث هو أنها كاتبان مقروءان ومؤثران، سواء على مستوى توجيه الفكر أو توجيه العمل، وعلى مستوى الصياغة أو مستوى المضمون. وقد يكون هناك الى جوارهما من المعاصرين، في الفترة التي أشرنا اليها، كتاب آخرون، ولكنهم قد يفتقرون الى طابع الفكر المنظم أو الى الأهمية الفعلية عند القارئين بالعربية في بلاد الاسلام، فلا يعتد بهم حتى وإن كانت كتبهم قد نقلت الى لغات أوروبية في حينها.

السبب الرابع هو أن خير الدين ورفاعة يجتمعان في أشياء ويختلفان في أشياء أخرى، وهما يظهران نموذجين للمفكر الكاتب باللغة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي: نموذج المهتم ببلاد الاسلام أولا وبالذلة الإسلامية. ونموذج المهتم بأمة معينة على الطريقة الحديثة وبالوطن الذي تنتمي اليه.

المصرية، تعبير جديد هو «الرأى العمومي»^(١١١). وبصفة عامة فإن اصطلاحات الطهطاوي في هذا الميدان تتبند بشكل واضح عن التأثير الديني التقليدي، اللهم إلا مع عبارات مثل «الرعية» و«العباد» (وهو تعبير لا يذكر الا نادرا^(١١٢)). ويتميز كتاب «المرشد الأمين» بالحديث عن «الوطني»، فيقول في نص هام: «ابن الوطن المتأصل به أو المنتجع اليه الذي توطن به واتخذ موطننا ينسب اليه تارة الى اسمه، فيقال مصري مثلا، أو الى الأهل، فيقال أهلي، أو الى الوطن، فيقال وطني، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده»^(١١٣).

ولكن علينا أن نلاحظ أن الطهطاوي كثيرا ما يلجأ الى استخدام تعبير «الانسان» بصفة عامة، كما هو الحال مثلا في الفصل الثاني من الباب الرابع في «المرشد الأمين»، كما بدأ في استخدام تعبيرات جديدة مثل «كل شخص من الأهالي»^(١١٤) أو «كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية»^(١١٥) أو «جميع أعضاء الجمعية»^(١١٦). والطهطاوي في كل هذا هو بحق مستودع لتجريب المصطلحات، وسيقوم جيل تال بالاختيار بين مقترحاته بعد تعديل عليها وإضافات.

الطهطاوي والتونسي

نظرة مقارنة

لقد جمعنا بين رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي لأكثر من سبب. الأول أنها يكونان معا الجيل الأول

(١١١) «مناهل الألبان»، ص ٢٣٦.

(١١٢) المرشد الأمين، ص ١٧٨.

(١١٣) المرشد الأمين، ص ٩٤.

(١١٤) «مناهل الألبان»، ص ٦١.

(١١٥) «مناهل الألبان»، ص ٦٢.

(١١٦) نفس المرجع، ص ٦٠.

(١١٧) نفسه، ص ٦١.

الهدف . لأن الهدف السياسي والاجتماعي واضح عند رفاة وعند خير الدين ، وهو عندهما معا : التحديث من القوة (وان كان الاختلاف بينهما سيظهر عند طلب : تحديث ماذا ؟ وقوة من ؟) وهناك ضرورة يتفقان عليها ، وهي : إعادة النظر في مفاهيم التقليد بصفة عامة ، وضرورة الأخذ في الفصل بين ماهو ديني وماهو زمني ، ولن يأخذ هذا عندهما صورة المجابهة ، ولكن يصبح من الواضح أن أصول السياسة الشرعية لا تستمر هي كل شيء ، وبأخذ مفهوم قد يسمى «السياسة المدنية» أو «العقلية» أو «البوليتقاء» أو غير ذلك من الأسماء التي تظهر عند الطهطاوي والتونسي ، يأخذ في الظهور اعتقاد على مفهوم مقبول من ذات التقليد ، وهو مفهوم «المصلحة» . كذلك فإن النظر السياسي يتغير أفقه بشكل جوهري بعد إضافة مفهوم السياسة المدنية الى مفهوم السياسة الشرعية ، وازدواج هذا المفهوم الأخير الى مكان الإطار العام جدا لا أكثر ، وكأنه موجه أخلاقي ولا يزيد . يتغير أفق النظر السياسي لأنه يوسع من دائرة نظرية الحكم ليضم اليها المحكومين (على اختلاف تسمياتهم) الى الحاكم ، وليطالب بمشاركتهم الفعلية لا الاسمية في الحكم (على اختلاف في درجة المشاركة وطبيعتها) ، بعد أن كانت النظرية التقليدية لا تنظر عمليا الا الى الحاكم لتصبح وحسب نظرية في «الامامة» .

ومن جهة أخرى يتغير أفق النظر السياسي ليدخل وظائف جديدة على مهام الحاكم أهمها الرعاية الإيجابية لنفع مجموع المحكومين ، والتي تظهر في طلب نشر العمران والمعارف وتشجيع الأهالي على ذلك النشر الى جانب دور السلطة الحاكمة . وليس أدل على ثورية هذا التغير من أن النظرية التقليدية لم تكن ترى من

وهناك سبب آخر ، وهو أنها مؤلفان يعرف كل منهما الآخر ككتائب ، فخير الدين يشير الى «تخليص الابريز»^(١١٨) والطهطاوي يشير ثلاث مرات على الأقل الى «أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك» ، ويظهر أن كلا منهما يكن كثيرا من الود الفكري والاعجاب للآخر .

ولكن ربما كان الدافع الأساسي وراء اختيارنا لهما هو أنها يشكلان معا مرحلة من مراحل ثلاث سيمر بها ، ليس الاصطلاح السياسي وحسب ، بل وكذلك اتجاه الأفكار في العالم الاسلامي الحديث بشأن مسائل الأمة والوطن وأعضاء المجتمع ودورهم السياسي . المرحلة الأولى هي التي نحن بصدها مع رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي ، ونسميها مرحلة «الاقتراح» ، حيث تبقى عند المفكر عناصر متعددة من التراث ويقدم هو عديدا غيرها ، متأثرا على الأخص بالتصورات الأوروبية ، ولكن الأمور قليلا ما تأخذ في هذه المرحلة شكلا محددا ونهائيا . المرحلة الثانية هي مرحلة «التجريب» ، وهي التي مرت بها الكتابة الفكرية باللغة العربية خلال الأعوام التالية على ١٨٧٨ م ، وخاصة ما بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ م في مصر ، حيث ظهر عدد وفير من الكتاب ، أهمهم في ميدان الفكر السياسي أديب اسحق وعبدالله النديم ومحمد عبده وحسين الرافعي ، وسيأخذون في انتقاء بعض المصطلحات دون غيرها والتركيز عليها . والمرحلة الثالثة هي مرحلة الاستقرار النسبي للمصطلح السياسي ، وهي التي سيصل اليها قاسم أمين ، وعلى الأخص أحمد لطفي السيد في كتاباته خلال أعوام ١٩٠٧-١٩١٤ م .

ولكن مرحلة «الاقتراح» لاتعني بالضرورة غموض

والتي هدفها هو «المصلحة العمومية». ومن المهم أن نلاحظ اختفاء اصطلاح «الجماعة» عموماً عند الاثنين، بينما كان اصطلاحاً تقليدياً رئيسياً.

ويرتبط بالانتقال من الإطار الديني إلى الإطار المدني ما لاحظنا من اختفاء تعبير «المؤمن» و«المؤمنين» من المصطلح السياسي، فهذا أمر طبيعي حيث يصبح المجتمع ذا تنظيم يهدف إلى مصلحة العموم وإسعاد الأهلالي، فليس عضو الهيئة الاجتماعية عضواً فيها من حيث هو مؤمن بدينين بدين الإسلام، بل من حيث هو مشارك عامل في نشاط الجماعة. واختفاء مفهوم «المؤمنين» عند كل من رفاعة وخير الدين أسباب أخرى بعد ذلك متباينة. فرفاعة، باتجاهه الشخصي كمصري ومتابعاً لاتجاه حاكم مصر في وقته، لا يهتم إلا بأهل المجموعة «الوطنية» التي تعيش في البلاد المصرية، وهو يدعو دعوة قوية إلى التسامح الديني، بل وإلى التعايش الديني. أما خير الدين فإنه كان يفكر كرجل سياسة، وكانت المشكلة الكبرى للسياسة العثمانية في عصره هي خطر نزاع ممتلكاتها التي يسكنها غير المسلمين من تحت سيطرتها، فكان من الطبيعي أن يؤكد خير الدين على الرعوية للدولة وليس الانتماء الديني.

وهذا ينقلنا إلى تفسير غياب مصطلح «المواطن» عند رفاعة وعند خير الدين على السواء. ونشير أولاً إلى أنه من الخطأ منهجياً أن نبدأ بوضع مصطلح لنبحث في وجوده أو غيابه، إنما المهم هو البحث في «المفهوم»، وهذا يغير كثيراً من وجهة النظر. فالواقع أنه إذا كانت لفظة «المواطن» ذاتها لا تظهر عند خير الدين أو

واجبات الحاكم العمل الإيجابي على إسعاد أعضاء المجتمع، بل قصرت مهمته على واجبات ذات طابع سلبي واضح وهو أداء الأمانات إلى أهلها والقضاء بين الناس بالعدل، كما أنها لم تكن ترى من دور للرعية إلا الطاعة.

ويظهر هذا الموقف على أوضح شكل وأقصاه من أن ابن تيمية يقيم كل رسالته في «السياسة الشرعية» لإصلاح الراعي والرعية، على آية الأمراء التي تقول: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل... يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». ويقول ابن تيمية صراحة: «إذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، فهذاان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة»^(١١٨).

ويرى الفارسي لكتابات خير الدين ورفاعة، على الأخص، اهتمامها بتحويل «الرعية» من جسد لا يتحرك بمبادرة منه إلى كيان عضوي فاعل، على اختلاف بينها بالطبع في المضمون وفي الدرجة والهدف.

وهناك اتفاق بين الاثنين على أن غاية الاجتماع هو السعادة، والسعادة في هذه الدنيا، وهذا مفهوم جديد تماماً وثورى بالقياس إلى مفاهيم التقليد،^(١١٩) وهو يدل على أن الإطار العام للفكر السياسي والاجتماعي يصبح الإنسان في واقع الأمر حتى وإن ظهر على مستوى التصريح غير ذلك. وهما يشعران شعوراً قوياً بفكرة المجموع البشري، ولكنهما لا تأخذ عندهما إلا شيئاً فشيئاً شكل الجماعة المنظمة في حركة الحياة الفعلية

(١١٨) ابن تيمية، «السياسة الشرعية»، ص ١٦ من طبعة دار الشعب، ١٩٧١.

(١١٩) صحيح أنه كان هناك دائماً حديث عن رسامة الدارين، ولكنه كان مجرد كلام، وانتفى الأمر منذ سيادة العصر التصولي إلى الاهتمام بالسعادة في الدار الآخرة وحسب.

الأمة والوطن والمواطن عند رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي .

الطبيعي أن يكتفي مفهوم «المواطن» أو ما يقابله عند خير الدين التونسي .

أما الطهطاوي ، فإن اهتمامه ينتج إلى المجتمع ككل ، ومجتمعه كان يتم بالفعل ، ومنذ الحملة الفرنسية ، بمنصر «الأهالي» ، من حيث هم كيان مستقل عن الحاكم ، سواء أكان بونابرت أم محمد علي نفسه ، حيث إن الذي عينه إنما هم ممثلو الأهالي ، أم عند سعيد فيما ذكره عنه عرابي^(١١) ، أو عند إسمايل الذي أنشأ عام ١٨٦٦ مجلس شورى النواب . ومن جهة أخرى ، من جهة الأهالي ذاتهم ، فإن كل تاريخ مصر في عمر رفاة الطهطاوي هو تاريخ تدرج العنصر المصري في الدخول إلى الوظائف العامة بأشكالها . ومن جهة ثالثة ، هي جهة رفاة نفسه ، فإنه كان هو ذاته نموذج والشخص من الأهالي ، أو «الوطني» الذي فرض نفسه على الهيئة المدبرة لأمر المجتمع ، وكلها كانت من غير المصريين في بداية حكم محمد علي . لهذا كله كان من الطبيعي أن يتم الطهطاوي ، ليس «بالجمعية» ككل وحسب ، بل وكذلك بأعضاء الجمعية ، ومن هنا بأفرادها ، حتى يصل إلى مفهوم «الوطني» ليحدد له حقوقه وواجباته ، وهذه الأخيرة تنصب على ضرورة إسداء النفع «للأخوة الوطنية» .

ب- والملاحظة الثانية هي استدارك مباشر لخصمون هذه السطور الأخيرة فحتى إذا كان هناك عند رفاة الطهطاوي ما يقابل كلمة «المواطن» ، فإن هذه المقابلات لاتدل في الواقع على «مفهوم» تلك الكلمة كما يفهم اليوم ، وفي إطار التنظيمات السياسية المأخوذة عن الغرب . فالمواطن هو العنصر الأول والحقيقي في النظام السياسي الغربي ، وهو مع غيره من المواطنين

الطهطاوي ، فإنه تظهر تعبيرات تقرب منها ، مثل «المستوطن» ، «أهل الاستيطان» ، «فرد من أفراد الجمعية» ، «الوطني» ، «البلدية» ، وهذه كلها تظهر عند رفاة الطهطاوي ، كما تظهر عند خير الدين بتعبير «حسب الوطن» .

ومع ذلك فإن المهم ليس ظهور التعبير ، بل مضمونه . وهنا نلاحظ ملاحظتين أساسيتين :

أ- إذا كان هناك ما يقابل اصطلاح «المواطن» عند رفاة الطهطاوي وبصيغة المفرد ، فإنه ليس هناك ما يقابله عند خير الدين على الإطلاق ، لأن التونسي يستخدم دائما صيغة الجمع عند الحديث عن المحكومين ، فهو لم يتوصل بعد إلى صياغة مفهوم «الفرد» الذي يشارك على نحو مافي حركة الجماعة ، إنما هو دائم الحديث عن الأمة والرعية والرعايا وأهل المملكة وما شابه . أما تعبير «حسب الوطن» الذي أشرنا إليه فمعن الواضح من السياق ، كما أشرنا في مكانه ، إلى أنه يدل على خير الدين التونسي في حديثه عن نفسه ، وليس مصطلحا سياسيا على مايلدو .

كيف نفسر هذا الموقف ؟ من الواضح أن السبب يكمن في طبيعة نظرية الحكم عند خير الدين التونسي ، فهي أساسا نظرية في الدولة ، وهي ثانيا نظرية ترى أن شئون الحكم من اختصاص الإمام في المحل الأول ، وإلى جانبه الوزراء وفتة أهل الرأي أو الشورى في المحل الثاني ، والشورى فرض كفاية لا فرض عين ، فيكفي أن تقوم بها قلة ، وهي في هذا تنوب عن الأمة كلها . وفي هذا الاطار لا مجال لاشتراك كل الرعية وكل فرد . ولذلك كان من

(١٢٠) أحمد عرابي ، وكشف السائر عن سر الأسرار في النهضة المصرية للشهيرة بالثورة العرابية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ١٥-١٨ .

ونأتي الآن إلى جوهر الفروق بين رفاعة وخير الدين في الميدان الذي يخص هذه الدراسة . وربما تعود الفروق التفصيلية إلى أخرى تخص : الإطار والانتباه والهدف والسبل واليعد التاريخي .

وقد أشرنا من قبل إلى اختلاف إطار فكر كل منهما : فالتونسي رجل دولة ومفكر يهتم بنظرية الحكم ، ويرى أن إصلاح الدولة هو مفتاح إصلاح حال الأمة الإسلامية . أما الطهطاوي فهو رجل من الأهالي المصريين يهتم بوطنه ، وإطارة هو إصلاح المجتمع ككل بما فيه من حاكم ومحكوم . وربما كانت عناوين كتبها دالة بذاتها على اختلاف الإطار عند كل منهما .

والحق أن أساس كل الاختلافات بين الاثنين يقع في الاختلاف بشأن المسألة الثانية : الانتباه . فليس عجيبا ألا يذكر خير الدين اسم تونس في كل مقدمته الا مرتين «الديار التونسية» و«القطر الأفريقي»^(١٢١) ، وعل نحو عرضي لا لذاتها ، بينما تمتلئ كتب رفاعة باسم مصر وفكرة الوطن ويتمجيدهما . إن خير الدين ينتمي في الواقع إلى ثقافته ، بينما ينتمي رفاعة إلى أرض وقوم . لقد كان خير الدين مملوكا شركسيا ، ولم يصل إلى تونس الا في سن السابعة عشرة وعاش في قصر باي تونس . فارتباطه الأول هو بالثقافة التي تروى عليها في تركيا وفي تونس ، وهي الثقافة الإسلامية ، وبالدولة التي ربه ليكون خادما لها ، وهي الدولة العثمانية . ولهذا سيظل خير الدين التونسي واضعا نصب عينيه طوال «مقدمته» وطوال حياته العملية على السواء مصلحة الدولة العثمانية ، وبالتالي مصالح المجموعة

مصدر السلطات السياسية كلها . أما في تصور رفاعة الطهطاوي كما يدل عليه كتاب «المنهاج» ، فإن وظائف أعضاء «الجمعية» تحد بحدود المنافع العامة أي المشروعات الاقتصادية على الأخص . أما الدور الإيجابي في الفعل السياسي فإن الطهطاوي لا يزال يخصص به الحاكم وحده . ويكفي هنا أن نشير إلى أوضح نصوص «منهاج الألباب المصرية» حيث يقول الطهطاوي : «الملك كالروح والرعية كالجسد ، ولا قوام للجسد الا بروحه ، ولكن من لطف الله تعالى بعباده أجرى عاداته في كل زمان أن ينصب في الأرض من ينصف المظلوم من الظالم ويردع أهل الفساد عن المظالم ، ويصنع للرعية جميع المصالح ، ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح . فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمراني إلى قوتين عظيمتين : إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدائرة للمفاسد ، وثانيتهما القوة المحكومة ، وهي القوة الأهلية المحرزة لكفال الحرية المنتمة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ووجود كسبه وتحصيل سعاده دنيا وأخرى»^(١٢٢)

ونشير أخيرا إلى أن انسحاب «المؤمن» و«المؤمنين» من الاصطلاح السياسي لا يقابله التأكيد على (اصطلاحات أخرى كتلك التي أشرنا إليها) فحسب بل وكذلك ظهور نغمة جديدة تماما على الثقافة التقليدية ، وهي اهتمام كل من رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي على السواء بـ «الإنسان» بصفة عامة ، أي بما يسمى أحيانا مفهوم «البشرية» مجردا عن نسبة دينية محددة .

(١٢١) «منهاج الألباب» ، ص ٢٢٤ .

(١٢٢) «القدمية» ، مل التوال : ص ٤٢ ، ٤٤ .

ويؤدي هذا بدوره الى اختلاف في الأولوية التي يوليها كل منها الى الأمة والدولة : فنجد أن هناك عند رفاة هدفا أساسيا ، وإن يكن ضمينا غير صريح ، فهو فصل مصر عن الإطار العثماني ، بينما نرى أن من الأهداف الأساسية عند خير الدين هدف تقوية الدولة العثمانية وإبقاء سيطرتها ، ليس على الأقطار الإسلامية الخاضعة لها وحسب ، بل وكذلك على تلك غير الإسلامية . وبيننا نجد أن رفاة يهدف في الواقع ، وإن لم يذكر هذا صراحة ، إلى إيجاد كيان يقابل الدولة بل ويوازنها ، وهو كيان الوطن أو الهيئة الاجتماعية أو نقول أننا بينما نجد رفاة على هذا الموقف ، فإن خير الدين كان يرى بالطبع أن الأولوية للدولة على أقطارها ، وهو لا يعترف بنسبة الأمة إلى الجماعة الإسلامية ولا يعقل أن يقول مثلا «الأمة المصرية» . ونقول باختصار : إن الدولة عند خير الدين فوق الأمة ، بينما الأمة والوطن عند رفاة يقفان في مجابهة الدولة ، إن لم نقل فوقها أو ضدها .

ويؤدي الاختلاف في الانتهاء أخيرا إلى اختلاف في

البشرية التي تحكمها أو ترغب في احتكار تهيئها ، وهي الأمة الإسلامية . أما رفاة الطهطاوي ، فإنه بالرغم من مديحه لوالي مصر ، إلا أنه يظهر في «تخليص الأبريز» مثلا لأهالي مصر وليس لواليتها ، وهو يتحدث عن فرنسا وباريز ناظرا إليها بعين ، وعينه الأخرى دوما على مصر ، ولا ينسى أن يذكر في تأثير واضح «وطنه الخصوصي» ، وهو مدينة طهطا بجوار سوهاج في صعيد مصر ، ويتألم لنفيه في عهد عباس الأول إلى السودان ، لأن ذلك معناه حرمانه من نفع وطنه^(١٣١) .

واختلاف الانتهاء يؤدي إلى اختلاف الهدف . إن هدف خير الدين هو تقوية الدولة العثمانية لتستطيع مجابهة الدول الأوروبية والمحافظة على أملاكها ، أما هدف رفاة فهو إعادة تنظيم المجتمع المصري دولة ونظاما وناسا ووعيا وفكرا وأخلاقا وعادات ، وهذا كما أشرنا ، هو الموضوع الحقيقي لكافة كتاباته ، ومنذ «تخليص الأبريز» ذاته .

وننتج عن الاختلاف في الهدف اختلاف في تشخيص الوسيلة : فمن الطبيعي أن يرى خير الدين أن وسيلة إعادة القوة إلى الدولة العثمانية هي إعادة تشكيل التنظيمات السياسية ، بينما يرى رفاة أن وسيلة «النهوض بالوطن»^(١٣٢) وإرجاع مصر إلى سالف مجدها هو قيام أعضاء الهيئة الاجتماعية بواجبات الأخوة الوطنية وقيام الحكومة والأهالي على السواء بتنشيط المنافع العمومية .

(١٣٣) «منافع الألبان» ، ص ١٧٦ ، ١٨٦ .

(١٣٤) «نفس المرجع» ، ص ١٦٥ .

(١٣٥) «منافع الألبان» ، ص ١٦٥ .

(١٣٦) «منافع الألبان» ، ص ٣٣٤ ، «الرشد الأمين» ، ص ٦٢-٦١ .

(١٣٧) «منافع الألبان» ، ص ٢٤٠-٢٤٥ .

شئون المجتمع ، وإلى إضافتها مفهوم السياسة المدنية إلى مفهوم السياسة الشرعية ، وإلى اختفاء مفهوم «المؤمنين» عندهما ، وإلى اتجاه خير الدين نحو إعلاء الدولة على الأمة ، واتجاه رفاة إلى إعلاء الأمة والوطن على الدولة ، بعد كل هذا ، هل يمكن القول إنها أرادا إعلاء الدولة من جهة والأمة والوطن من جهة أخرى على الدين ؟

الاجابة الواضحة هي بالنفي ، فسيظل مفهوم «الأمة الاسلامية» مفهوما أساسيا في فكر خير الدين ، وسيظل مفهوم «الاخوة الاسلامية» قائما وفعالا في فكر رفاة الطهطاوي ، ولن يمتحن هذا المفهوم عنده لصالح مفهوم «الاخوة الوطنية» ، بل سيبقى الاثنان جنبا لجنب . ومهما بعد الفكر المصري الحديث ، لدواعي الحاجة الوقتية ، عن الإشارة إلى البعد الاسلامي ، فانه يقيه دائما في أفقه وهويي على نحو ما أن الانتساب الاسلامي قوة له .

طبيعة «البعد التاريخي» الذي يدور فيه فكر كل من خير الدين ورفاة . فمن الواضح أن خير الدين لا يستطيع النظر إلى أبعد من الدولة الاسلامية الاولى ، كما أنه ، لإحساسه بمدى الخطر المحدق بالدولة العثمانية ، يركز على الحاضر ونادرا ما يجعل المستقبل بؤرة اهتمام رئيسية عنده . أما رفاة فمن الواضح أنه لا يفكر للحاضر بل للمستقبل ، كما أنه يتعدى ببصره مصر الحديثة إلى كل عصورها السابقة ويمجد عصرها القديم على الأخص تمجيذا شديدا . وهذا أمر طبيعي : لأن مصر ذات تاريخية وحضارية وسكانية يسهل تتبّع ماضيها ، وليس الحال كذلك مع الدولة العثمانية .

بعد كل هذا ، وبعد الإشارة إلى الاختلافات القوية بين خير الدين التونسي ، مفكرا إسلاميا للدولة العثمانية ، ورفاة الطهطاوي ، مفكرا مصريا مسلما للوطن المصري ، وإلى اتفاقهما مع ذلك على ضرورة الفصل بين العنصر الديني والعنصر الزمني في إدارة



صَدْر حَدِيثًا

يدور الموضوع الرئيسي للكتاب حول عدم مشاركة الشعب المصري بالقرار السياسي ، وإن مصر قد عانت من الاحتلال الأجنبي بكل أنواعه ، ولم تحظ بحكم وطني إلا بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، كما لم يسمح بقيام الأحزاب وتعددتها إلا في فترة الليبرالية ما بين ١٩٢٢ - ١٩٥٢ والفترة الأخيرة .

استعرض الكتاب تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامي حتى حكم مبارك ، ويتألف من سبعة فصول ، ويقع في ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

فتح مصر :

سيطرت الجيوش العربية على مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة عمرو بن العاص في عام ٦٣٩ م ، وكان المواطنون إذ ذاك من المسيحيين الذين أطلق عليهم الأقباط ، وبدأ التحول إلى الإسلام كما هاجرت قبائل عربية إلى مصر أثناء وبعد الفتح .

كان فتح مصر سهلاً وتعاون المواطنون مع الفاتحين بسبب معاناتهم من الحكم البيزنطي . لقد استعرض هذا الفصل معلومات تاريخية معروفة كمدخل لتاريخ مصر الحديث . تحدث فيها عن وضع مصر في عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين وذكرت المؤلفة بأن أقباط مصر اليوم يشكلون ١٠٪ من السكان ، وأشارت إلى الصراع حول الخلافة والصراع حول المذهب الشيعي ، كذلك استعرض وضع مصر في العصورين العباسي والعثماني .

المهم في الفصل الأول هو أن المؤلفة قد ذكرت بأن المؤرخين لتاريخ مصر لم يهتموا بعامة الناس وركزوا

تاريخ مختصر لمصر الحديثة *

تأليف : عفاف لطيف السيد مارسوت
عرض وتحليل : عبد المالك التميمي

قسم التاريخ - جامعة الكويت

* AFAF — LUTIF AL-SAYID MARSOT : A SHORT HISTORY OF MODERN EGYPT ; CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, CAMBRIDGE, 1985

أراضيهم على حدود أراضي الممالك. وكان الممالك في ذلك الوقت قد فقدوا قوتهم عسكريا، وسيطر العثمانيون على شمال بلاد الشام والعراق وسقط التحالف الفارسي المملوكي لمواجهة العثمانيين فهزم العثمانيون الفرس ومن ثم الممالك في مصر عام ١٥١٧م .

العصر العثماني في مصر :

عين السلطان العثماني محمد علي واليا على مصر عام ١٨٠٥ وهو من أصل ألباني أو كردي ، واستقل بمصر يحكم باسم العثمانيين حتى عام ١٨٤٨ ، وبدأ عملية تحديث وتطوير مصر . ويمكن تقسيم حكمه الى فترتين : ففي الفترة الأولى اهتم بترسيخ حكمه والقضاء على الممالك ، والثانية تركزت على البناء والتوسع الاقتصادي والعسكري ، وعمل على إقامة سلطة مركزية وضعت القوانين فنشأت التجارة في عهده .

بعد استقرار وضع محمد علي في مصر بدأ وضع خطته الاقتصادية والعسكرية ، وما تحقق في عهده في هذين المجالين يدل على أن محمد علي كان عقلية قد سبقت زمانها في مثل هذه المجتمعات . فإنتاجاته الأساسية كانت كبيرة ، وأصبح لمصر قوة اقتصادية وعسكرية هامة في المنطقة في عهده . كما اهتم بالزراعة لبس للاكتفاء الذاتي فحسب بل وللتصدير ، وبدأ في إدخال الصناعة الحديثة الى مصر ، كما بدأ في بناء الجيش وتقويته وتسلحه تسليحا حديثا كما قام ببناء القوة البحرية . وكان التصنيع منذ البداية قد تركز على الصناعات الحربية حتى تتمكن مصر من الاعتماد على نفسها عسكريا . كما أقام صناعات النسيج باستعمال القطن المصري المحلي . وعندما بدأ الإنتاج الصناعي

على الحكام والحكومات فهناك الاحتفالات الخاصة بارتفاع منسوب المياه في النيل ، والتجارة في عهد الاثنيديين وكيف كان المواطنون يدفعون الضرائب العالية للطبقة الغنية . وفي القرن العاشر جاء الفاطميون إلى الحكم في مصر وانقسم العالم الإسلامي إلى سنة وشيعة في مصر مدة قرنين من الزمان حتى ١١٧١م .

العصر المملوكي ١٢٥٠م - ١٥١٦م :

لقد واجه الممالك خطر تقدم المغول بقيادة هولاكو الذي دمر بغداد ، وأنهى حكم العباسيين في عام ١٢٥٨م في شرق العالم الإسلامي ، وقد تمكن الممالك بقيادة الظاهر بيبرس من هزيمة المغول في بلاد الشام في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس مؤسس الدولة المملوكية وبعده جاء قلاوون الذي أكمل مهمة سابعه في الانتصار على المغول. أما حلفاؤه فقد دب الصراع بينهم وأدى إلى ضعف الممالك .

وفي بداية القرن الرابع عشر انتشر مرض الطاعون في مصر ، وأودى بحياة الكثيرين من السكان ، وساد التخلف والضعف مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على المستوى الاجتماعي والاقتصادي ، وأصبح وضعها خطيرا لنقص المواد الأساسية و ضعف قوة العمل . ويرجع القريزي سبب ذلك التدهور الى صراع وفساد الحكام الذين قادوا البلاد الى ذلك الوضع وعدم الاستقرار والحروب الاقتصادية . إن هذا الوضع المتردي أتاح للقوى الطامعة الخارجية وخاصة المغول مهاجمة مصر ولكنهم لم يتمكنوا من احتلالها .

مع نهاية القرن الخامس عشر ظهر العثمانيون كقوة عسكرية كبيرة ، وتوسعوا في أوروبا وآسيا وأصبحت

علي لم يكونوا في مستواه من حيث المهارة السياسية والقوة، وأضعف ذلك مصر فالخديوي عباس أراد أن يعود الى الدولة العثمانية كما حاول الخديوي اسماعيل المحافظة على استقلال مصر عن العثمانيين لكنه أتاح الفرصة للتغلغل الغربي في مسألة مشروع حفر قناة السويس والديون التي غرقت فيها مصر، وأدت إلى احتلالها من قبل بريطانيا عام ١٨٨٢م .

لقد كانت فترة الخديوي اسماعيل مهمة في ١٨٦٣م - ١٨٧٩م رغم عدم امتدادها لأكثر من ست عشرة سنة .

وقد سعى بعض ملاك الأراضي في أواخر أيام الخديوي اسماعيل لتشريع دستور يمنحهم الحماية والضمان، وتولى الخديوي توفير السلطة وشجع أولئك الملوك لتحقيق مطلبهم . في ذلك الوقت ظهر جمال الدين الأفغاني وبدأ نشاطه في مصر وخارجها مطالبا بالنهضة والإصلاح الديني، وكان فكره وتياره سياسيا فقد طالب بحركة دستورية تستفيد من تطور الغرب والاعتماد على الشباب في النشاط الفكري الصحفي لطرح أفكار ليبرالية متتورة، وكان لنشاطه تأثير حيث أدى إلى تكوين الجماعات والاتجاهات السياسية في مصر التي تقابل بالتحور والإصلاح .

ولم ترع كل من بريطانيا وفرنسا لما كان يجري في مصر فقد أرسلتا أسطوليهما إلى الاسكندرية، وافتعلتا بعض الحوادث الفردية في المدينة لتكون مبررا لتدخل خارجي بحجة حماية الجاليات الأجنبية وحقوق الدول الأوربية في قناة السويس .

الاحتلال البريطاني :

نزلت القوات البريطانية في الاسكندرية وتقدمت

كان لابد من إيجاد الاسواق لتصريفه، ووضع برنامجا للتوسع العسكري على طرق التجارة التقليدية حتى وصل إلى الحجاز في الجزيرة العربية عندما طلب السلطان مساعدة محمد علي للقضاء على ثورة الوهابيين ضد السلطة العثمانية، وكان السلطان العثماني يأمل إما في القضاء على محمد علي أو القضاء على الوهابيين والأمر في كلتا الحالتين لصالحه. وتمكن محمد علي من هزيمة الوهابيين عام ١٨١٨م ولكن ذلك لايمنى انتهاء الحركة الوهابية، وأقدم محمد علي على احتلال السودان لتأمين وضعه في مصر والاستفادة من تجارها وأصبح قوة يمشاها السلطان العثماني .

وبدأت محاولات السلطة العثمانية إضعاف محمد علي عن طريق إضعاف جيشه وعدم دعمه بالرجال والمال لكنه تمكن من بنائه على أسس عصرية وبناء قاعدة اقتصادية أصبح معها قادرا على الاعتدال على نفسه . وتحسنت الزراعة لكن التوسع في الأراضي والتطور الصناعي قد خلق مشكلات ذات طابع سياسي واقتصادي في إدارة هذه المناطق وتوفير الجيش اللازم للدفاع عنها، وكان دخول محمد علي وابنه ابراهيم باشا في حروب عديدة في الحجاز والسودان وكويت وقبرص والشام قد استنزفت طاقات مصر وقد امتدت من ١٨١١ حتى ١٨٤٠ .

وتركز سعي محمد علي على الاستقلال الاقتصادي والعسكري في مصر عن الدولة العثمانية مع الإبقاء على الاتصال الثقافي معها . وكان الغرب يتحرك باتجاه استعمار بلدان الشرق ويخطط للتغلغل في الامبراطورية العثمانية كما بدأ باحتلال بعض الاقطار العربية مثل الجزائر وعدن . فقدت بريطانيا اتفاقية مع الامبراطورية العثمانية في الوقت الذي بدأ فيه الصراع العسكري بين المصريين والعثمانيين . لكن خلفاء محمد

وأثناء الحرب العالمية الأولى كانت معاناة الفلاحين والعاملين في الحكومة كبيرة بسبب ارتفاع الاسعار ، ونقص المواد الغذائية ، ولما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية عام ١٩١٤ واستمر الوجود العسكري والسياسي البريطاني في مصر بعد الحرب رغم مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون في حق الشعوب في تقرير المصير ، كان لابد من النضال من أجل تحقيق الاستقلال ، فقامت ثورة سعد زغلول عام ١٩١٩ ، واعتقل ونفي الى مالطة وعاد الى البلاد . ووجدت السلطات البريطانية أنه لابد من بعض التنازلات في عام ١٩٢٢ لتهدئة الشعب وضمان وجود ومصالح بريطانيا في مصر ، جاء ذلك التوجه مواكبا لسياسة الانتداب التي اقترها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ وفرضت على أقطر المشرق العربي .

التجربة الليبرالية ١٩٢٢ - ١٩٥٢ :

في بداية العشرينات طرحت السلطات البريطانية مسألة الاستقلال السياسي لمصر وقيدتها في معاهدة عام ١٩٢٢ تضمنت أربعة بنود أساسية هي : الدفاع عن مصر ضد أي عدوان خارجي ، أمن الاتصالات في الامبراطورية البريطانية والمقصود هنا ضرورة السيطرة على قناة السويس لتحقيق هذا الغرض ، ثم حماية المصالح الأجنبية في مصر ، وأخيرا حماية الأقليات فيها . وتقرر اجراء انتخابات في البلاد ، ولعب سعد زغلول وزملاؤه الذين كانوا أعضاء في حزب الأمة دورا سياسيا في دفع الأوضاع لتحقيق مكاسب دستورية في عهد الملك فؤاد . جرت الانتخابات للبرلمان في يناير ١٩٢٤ ، وحصل حزب الوفد على الأغلبية الساحقة من المقاعد ، وأصبح سعد زغلول رئيسا للوزارة ، وهو أول فلاح مصري يصل الى هذا المنصب . وكانت هناك خلافات بينه وبين الملك حول الدستور فكان

الى القاهرة والسويس والاسماعيلية ، وطلب الحديوي اسمايل من تلك القوات أن وافق على احتلالها لمصر لتثبيت سلطته ، وتم احتلال مصر عام ١٨٨٢ واستمر حتى عام ١٩٥٤ م .

وكانت ثورة أحمد عرابي قد بدأت بعد الاحتلال مباشرة ، وقضى الانجليز عليها ، ولمدة عشر سنوات بعد القضاء على ثورة عرابي لم يكن هناك ما يشير الى تحرك الحركة الوطنية المصرية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت العود البريطانية باقامة نظام دستوري ديمقراطي في مصر تثار في تلك الفترة ، وأن بريطانيا ستقود البلاد لأن الشعب المصري ، كما ادعت بريطانيا ، غير قادر على قيادة نفسه وحفظ حقوق الدول الأخرى في مصر .

وفي نفس الوقت الذي قامت به ثورة عرابي في مصر قامت ثورة المهدي في السودان الذي كان قد احتله محمد علي . وخلق ذلك ضغطا مضاعفا على الاستعمار البريطاني في وادي النيل . اكتشف المصريون ان بريطانيا لم تنف بوعدها ، وظهر مصطفى كامل ليقود المقاومة ضد الوجود الاستعماري ، ويحرض الناس على الثورة ، ويحرك الجماهير للنهوض الوطني والتحرر ، وكان قد بدأ نشاطه في فرنسا ثم انتقل الى مصر . ومع بداية القرن العشرين تمكنت بريطانيا من تحويل الاقتصاد المصري الى تابع لاقتصادها بعد أن استقرت أوضاعها وركزت اهتمامها على أن يكون القطن المصدر الأساسي الذي تستفيد منه صناعات النسيج البريطانية ، وقد بدأ الفلاحون يتلمذون من تحويل منتجاتهم للتصدير الخارجي ، وجاءت معركة دنشواي والمذبحة التي ارتكبتها القوات البريطانية في عام ١٩٠٦ بسبب مقتل ضابط بريطاني تحرك الشعور الوطني وتبلور الوعي الوطني ضد الوجود الاستعماري .

الأراضي الذين كان لهم نشاط سياسي عملوا من أجل مصالحهم ولم يقفوا إلى جانب الفلاحين لأنهم كانوا يخشون على امتيازاتهم إذا خالفوا السياسة البريطانية ، وكانت النتيجة أن انضمت الحركة الوطنية المصرية آنذاك الدعم الشعبي الواسع ولم تكن الدعوة إلى الاستقلال مرتبطة بقضية اجتماعية واقتصادية واضحة . لقد اتهم المثقفون المصريون الاحتلال البريطاني بأمرين أساسيين : الأول ، إبقاء الشعب المصري أميا ، وغير متعلم ، والثاني ، قتل الصناعة المصرية من أجل تطور زراعي محدد بزراعة القطن والحبوب لصالح السوق البريطانية للتصدير . ومنذ ثورة ١٩١٩ حتى الحرب العالمية الثانية كانت المرأة المصرية تلعب دورا في تحرر المرأة وفي الوعي الوطني وأبرز تلك النساء حينها كانت هدى شعراوي .

وعاد الوفد مرة ثانية للسلطة في منتصف الثلاثينات بعد فوزه في الانتخابات وتحالفت الأحزاب لتطلب من السلطات البريطانية التفاوض بشأن المعاهدة المصرية البريطانية واستجابات بريطانيا ولكن معاهدة ١٩٣٦ م لم تغير من جوهر معاهدة ١٩٢٢ م .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية تعرضت مصر لتدخل عسكري ألماني بريطاني وجرت معركة العلمين الشهيرة في مصر بين الانجليز والألمان ، وانعكست تلك الحرب على الوضع في مصر فشدت المواد الغذائية ، وارتفعت الأسعار لأن تلك المواد كانت توجه للجيش البريطاني في مصر . وبعد توقيع الاتفاق لإنهاء القتال ظهر الجنود الانجليز في شوارع الاسكندرية وأسواقها وسواحلها بصورة استفزازية . وفي عام ١٩٤٢ م عاد الوفد للحكم في ظل معارضة قوية للوجود البريطاني ، واستمر الوفد في الحكم لأن السلطات البريطانية كانت تريد ذلك .

زغلول يسعى لتطبيق مواد الدستور وتقييد نفوذ الملك ، وهدد بالعنف إذا لم يلتزم الملك بسلطة البرلمان ، وسعى زغلول لاتفاقية مع بريطانيا تلغى بنود المعاهدة السابق ذكرها وتحرر مصر من تدخل بريطانيا في شئونها . لقد كانت العشرينات سنوات النشاط الوطني وتكوين الأحزاب السياسية ولما لم يستطع سعد زغلول تحقيق برنامجهم قدم استقالته بسبب ضغط السلطات البريطانية عليه ، وعلق البرلمان . توفي سعد زغلول عام ١٩٢٧ ، وتولى النحاس زعامة الوفد وأطيح بحكومة الوفد عام ١٩٢٩ ، وأصبحت الحكومة بيد الأقلية البرلمانية ولذلك لم تكن شعبية ولم تستمر طويلا . وبعد انتهاء فترة إيقاف البرلمان عادت الانتخابات وعاد الوفد إلى الساحة السياسية مرة أخرى ، وحصل على الأغلبية ، وعين النحاس رئيسا للوزارة لمدة عدة أشهر استقال بعدها وعرف المصريون أنه كانت هناك ثلاثة أسس للسياسة البريطانية في بلادهم هي : أن السلطات البريطانية تدعم الملك لأنها هي التي عينته ملكا ، ثم إن الخطوات التي تتخذ في مصر يجب أن تكون مع المسؤولين البريطانيين وليس مع المصريين لضمان مصالح بريطانيا فيها ، والأساس الثالث هو أن الحكومة المصرية تبقى ما دامت متعاونة مع السلطات البريطانية .

ومع نمو الحركة الوطنية المصرية في الثلاثينات نتيجة لتطور الوعي السياسي وللظروف الاقتصادية والممارسات البريطانية فإن مؤشرات تطور الأوضاع في مصر كانت تشير إلى تطور حقيقي لولا الحرب العالمية الثانية وظروف المستعمرات تحت النفوذ الغربي فيها .

لم تحقق وزارة صديقي في الثلاثينات أي تقدم في المجال الاقتصادي لأنه من الطبقة الاقطاعية ، ولم يساعد عامة الناس والطبقات الفقيرة . إن ملاك

المؤلفة أن رئيس الوزراء المصري ووزرائه لم يكن لديهم علم بدخول مصر الحرب وقد قرأوا الخبر في الصحف دون علمهم ، ولم تذكر الأدلة على ذلك . فالمعروف أن الدول المؤسسة للجامعة العربية ومصر واحدة منها قد اتخذت قرارا بعد اجتماعها في لبنان بدخول الحرب ضد الحركة الصهيونية في فلسطين بعد رفض الدول العربية لمشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ م .

دخل الجيش المصري حرب فلسطين وكان السلاح قديما والجيش ضعيفا ، وكانت النتيجة كارثة لأن حالة الجيوش العربية الأخرى كانت مماثلة . وكانت حرب فلسطين تحربة غنية للجيش المصري وللأحزاب السياسية التي أرسلت المتطوعين للمشاركة في حرب فلسطين . وهزمت الجيوش العربية . إن الحرب في فلسطين قد كشفت حقيقة الأوضاع السياسية في مصر ، وفساد الملكية وتصرفاتها بأموال الشعب وقاد ذلك الى تدمير عام .

في عام ١٩٥٠ عاد حزب الوفد للسلطة في الانتخابات ، وكانت مهمته الأساسية إيجاد حل لجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس . وجرى في عام ١٩٥١ تعديل المعاهدة المصرية السودانية بجعل الملك ملكا على البلدين . في ذلك الوقت بدأت العمليات القذافية المصرية ضد القواعد البريطانية في قناة السويس لفرض الجلاء البريطاني بالقوة .

وفي ٢٥ يناير ١٩٥٢ قامت القوات البريطانية بتطويق مركز شرطة الاسماعيلية . ولما رفضت الشرطة الاستسلام ضربت المدفعية المركز وقتلت وجرحت العديد من أفرادها ، وبدأ بعدها حريق القاهرة بحرق النوادي والمؤسسات المالية البريطانية والأجنبية . إن حريق القاهرة كان شبيها بحريق الاسكندرية الذي سبقه بسبعين سنة ، وكان نقطة تحول في التاريخ

دخلت مصر الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية ، ومرة أخرى ظهرت مسألة جلاء القوات البريطانية ، وطالب مجلس الأمن مصر وبريطانيا بالتفاوض بشأن الموضوع . إن المعاهدة البريطانية المصرية تنص على بقاء القوات البريطانية في مصر لمدة عشرين سنة ولم تر بريطانيا مبررا لتغييرها .

وفيما يتعلق بالسودان ، فالمفترض بموجب الاتفاقية أن يصبح تحت إدارة مصرية ولكنه أصبح تحت إدارة بريطانية . طالب المصريون بوحدة مصر والسودان ، ولكن السودانيين طالبوا باستقلال بلادهم .

بدأت المشكلة بين السلطات البريطانية والوفد مع معاهدة ١٩٣٦م ومع ثورة فلسطين في تلك السنة ضد الهجرة الصهيونية الى فلسطين . لقد تظاهرت حكومة النحاس بحماس للقضية الفلسطينية منادية العرب لعمل يوقف المؤامرة الصهيونية ، ولكن الأوامر البريطانية قد صدرت في مصر بعدم اتخاذ أية خطوات لمساعدة الفلسطينيين ، وأمرت بعدم السماح للقادة الفلسطينيين بالحديث عن قضيتهم شعبيا في مصر . وكانت السلطات البريطانية تلمح بأن أي نشاط ضد السياسة البريطانية سيعرقل الجهود لمراجعة المعاهدة .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت حزب الاخوان المسلمين الذي طرح نفسه بديلا للوفد في مصر وتفاعل مع القضية الفلسطينية بسبب ضياع بيت المقدس . وعندما أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين عام ١٩٤٨ قامت الحرب بين العرب واليهود ، وكانت مصر من الدول العربية التي شاركت في تلك الحرب ولم يكن جيشها مهيا لدخول أية حرب ، وليس لديه أسلحة حديثة لأنه كان تحت قيادة الجيش البريطاني في مصر .

وحول دخول الجيش المصري حرب فلسطين تذكر

الأساسية هي تحرير مصر من السيطرة البريطانية ، وكان ذلك مطلباً شعبياً منذ ثورة ١٩١٩ ، ولم يكن لدى المجلس أي تصور حول المسائل الأخرى عدا ما حدده في مبادئ الثورة الأساسية خاصة بمسألة السلطة هل تسلم للمدنيين أم تبقى بيد العسكريين . لم يسمح الحكم الجديد بعمل الأحزاب ولم يسلمها أي دور بعد الثورة لاعتقاده بأن بريطانيا والملكية قد استخدمتا هذه الأحزاب في المرحلة السابقة على الثورة . وتولى العسكريون المناصب القيادية ، وبدأوا يتعلمون من خلال التجربة العملية .

وكان هناك اتجاهان في مجلس قيادة الثورة ، اتجاه كان يريد حكومة برلمانية ، تزعمه محمد نجيب ، واتجاه كان يريد حكماً مباشراً بيد العسكريين وتزعمه عبدالناصر . وانتصر اتجاه عبدالناصر وأزعجت الجماعة الأخرى ، وتولى مجلس قيادة الثورة مسئولية الحكم ، وحظر العمل الحزبي لاعتقاده بأن أي انتخابات حرة في تلك المرحلة ستعبد الأحزاب القديمة بأغلبية وتسيطر على السلطة ، وتعود البلاد إلى ما كانت عليه قبل الثورة .

جدد نشاط السياسيين القدماء ، وحدد القانون ملكيتهم ، وانتهى تأثير الأغنياء على السلطة ، وحدد قانون ملكية الأرض بـ ٢٠٠ فدان للشخص ، وكسر هذا القانون قوة كبار الملاك ونفوذهم . ولتوسيع قاعدة الملكية للفلاحين صدر قانون جديد فيما يعد حدد الملكية بـ ٥٠ فداناً .

تعرض عبدالناصر في أكتوبر عام ١٩٥٤ لمحاولة اغتيال وهو يلقي خطاباً جماهيرياً في الاسكندرية قبل أن حزب الاخوان المسلمين قام بها . لقد ساعد الاخوان المسلمون الضباط الاحرار في الثورة ، وتوقعوا مشاركة في الحكم ، ولما قرر الضباط عدم مشاركة حزب الاخوان في السلطة لاعتقادهم بأن مشاركة الاخوان في

المصري المعاصر بأن أنهى الفترة الليبرالية في مصر ، وكان الجيش دائماً مؤسسة مساعدة للنظام الملكي ، ولم يكن يتدخل في السياسة لكن اشترك الجيش المصري في حرب فلسطين ادى الى تغيير ذلك . وفجأة يقع انقلاب عسكري في مساء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وينجح ، وبعد ثلاثة أيام يغادر الملك مصر بصورة نهائية .

عهد عبد الناصر ١٩٥٢ - ١٩٧٠ :

للمرة الأولى منذ أكثر من ألفي سنة تحكم مصر من قبل مصريين عندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ . وحصل هذا الحكم على تأييد أغلبية الشعب المصري وعزل الملك دون أن يقف أحد الى جانبه .

إن نهاية الملكية كانت تعني نهاية التدخل البريطاني في سياسة مصر الداخلية ، فقد كان للسلطات البريطانية تأثير على الملك في تغيير الحكومات . أصبح المواطنون يشعرون بعد الثورة بأن الضباط الوطنيين يريدون اصلاح احوال البلاد .

لقد دخل معظم الضباط الاحرار الكلية العسكرية بعد معاهدة ١٩٣٦ وأغلبهم قد تخرجوا في نفس الوقت ، وخدموا معا في الجيش وهم أصدقاء ، بالإضافة الى أنهم رفاق في الجيش . بدأوا تنظيمهم مبكراً وهم لا يزالون ضغارا في رتبهم العسكرية ، وكانت لهم علاقات مع التنظيمات السياسية في البلاد للاستفادة من خبرتها وفكرها فالتحق جمال عبد الناصر بحزب الاخوان المسلمين فترة من الزمن ، والتحق آخرون بحزب مصر الفتاة وفريق ثالث التحق بالتنظيمات اليسارية ، وبقي قليل منهم خارج إطار هذه التنظيمات .

تكون مجلس قيادة الثورة من ضباط كانوا يتمتعون للطبقة الوسطى والفقيرة ، ورأى المجلس أن مهمته

إعلامية عليه وعلى الاستعمار الرجعية ، وكانت الجماهير العربية التي عانت من الاستعمار الغربي طويلاً تظهر حماساً شديداً في تأييد عبدالناصر وبخاصة بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ م .

لقد وجد عبدالناصر في الرئيس تيتو رئيس يوغسلافيا ، وجواهرلال نهرو رئيس وزراء الهند أفضل الاتجاهات والقيادات العالمية التي يمكن الاستفادة من خبرتها وتجربتها السياسية والتعاون معها . وجه هؤلاء القادة مع الرئيس الأندونيسي سوكارنو الدعوة لمؤتمر دول عدم الانحياز الذي عقد في باندونج في ابريل عام ١٩٥٥ ، وبرز عبدالناصر منذ ذلك الوقت كقائد بارز من قادة العالم الثالث ، في الوقت الذي بدأت فيه دول العالم الثالث تأخذ استقلالها ، وتتخلص من الاستعمار . واعتبرت الدول الغربية ذلك الاتجاه خروجاً على سياساتها وخطراً على مصالحها ، ولكن دول العالم الثالث اعتبرت أن اتجاهها المستقل يعني الاستقلال عن سياسة العسكريين ، والتعامل معهم على قدم المساواة . غضبت الولايات المتحدة الأمريكية لمشاركة مصر في مؤتمر عدم الانحياز واعتبرت من لم ينحز لها منحازاً للاتحاد السوفيتي ، وأصبح عبدالناصر قائداً خارج حدود بلاده منذ مؤتمر باندونج ، ولكن مصر لا تزال غير قادرة على مواجهة اسرائيل .

فرضت القوى الغربية حظراً على تصدير السلاح الى مصر ، وأصبحت الكتلة الشرقية هي المصدر الوحيد للحصول على السلاح فاتجه عبدالناصر الى الاتحاد السوفيتي وحصل على السلاح من تشيكوسلوفاكيا .

انزعجت اسرائيل نتيجة استقلال مصر عن بريطانيا ، وحاولت القيام بأعمال تخريب عن طريق عملائها في القاهرة لكنها فشلت ، ثم قامت في بداية عام ١٩٥٥ بهجوم على قطاع غزة أدى الى استشهاد عدد من المصريين والفلسطينيين . لقد نجحت صفقة الأسلحة

السلطة تعني السيطرة على الثورة والتخلص من الضباط الأحرار ، تقرر إبعادهم عنها . عندها بدأ الحزب عمله السري ضد عبدالناصر ، ولكن عبدالناصر أصبح قوة لا يمكن زحزحتها أو التأثير عليها . وبدأت العمليات الفدائية المصرية ضد القاعدة البريطانية في القناة قبل التفاوض بشأن الجلاء ، وشكلت ضغطاً على بريطانيا في الوقت الذي كان العداء الشعبي ضد الاستعمار يتصاعد مطالباً بالجلاء ، وبدأت المباحثات بين مصر وبريطانيا بشأن الجلاء عن قناة السويس في أبريل عام ١٩٥٣ . وتعطلت المحادثات وعادت ثانية حتى تم الاتفاق على الجلاء في أكتوبر ١٩٥٤ على أن يتم في يونيو ١٩٥٦ م .

وفي ظل هذه الظروف سمح بإجراء انتخابات عامة في السودان عام ١٩٥٣ م ، وحددت مدة ثلاث سنوات كمرحلة انتقالية لاختيار ما إذا كان السودان يرغب في الوحدة مع مصر أو الاستقلال . لقد حاولت بريطانيا التأثير على الوضع في السودان للحصول على الاستقلال وليس الوحدة مع مصر ، وقرر السودانيون الاستقلال عام ١٩٥٦ م .

أصبح الحكم في مصر قويا بعد معركته مع بريطانيا من أجل الجلاء والاستقلال ، وبدأ في حل المشكلات الاقتصادية في البلاد ، واعتقد السياسيون المصريون بأنهم القادة الطبيعيون لأمة العربية والعالم الاسلامي .

كانت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد أدت الى ميلاد أحلاف عسكرية ، واعتقدت الولايات المتحدة الأمريكية بأن تلك الأحلاف وسيلة لتطويق الاتحاد السوفيتي . وتتكون تلك الأحلاف من الدول الصديقة للولايات المتحدة . فقام حلف الناتو ، وتتكون حلف بغداد ، ورفضت مصر الالتحاق بهذين الحلفين ، وبدأت حملة ضد حلف بغداد والمطالبة بخروج العراق منه ، وشنت مصر حملة

العربية وبخاصة سوريا . تحركت القوى السياسية القومية في سوريا مطالبة بالوحدة لنزع وصول الشيوعيين الى السلطة ، ولتحقيق الهدف القومي الذي طالما تطلع اليه السوريون . وفي يناير ١٩٥٨ ، دعت سوريا عبدالناصر للوحدة ، وكان عبدالناصر لا يريد التعجل في تحقيق الوحدة القومية إلا أن الشعب السوري كان يضغط ولم يكن يستطيع تأخير قيامها . وقامت الجمهورية العربية المتحدة ، ودخلت اليمن الاتحاد . لقد تم حظر الأحزاب في سوريا بما فيها حزب البعث الذي طالب بالوحدة ، كما حدث في مصر ، ولكن الوحدة فشلت بعد ثلاث سنوات من قيامها . ووضع دستور جديد لدولة الوحدة ، وانتخب عبدالناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، وأصبح هناك تنظيم سياسي واحد في دولة الوحدة هو الاتحاد القومي . ان البناء الاقتصادي والاجتماعي لسوريا كان يختلف عن مصر ، فالذي يرضي بعض قطاعات المجتمع في أحدهما لا يرضي القطاعات الأخرى في البلد الآخر ، وبخاصة الطبقة التجارية السورية والحرفيين .

ولم يعط الوقت الكافي لدراسة المجتمع في دولة الوحدة لوضع السياسات الملائمة لحل مشكلاته إضافة إلى أن المصريين قد اتهموا بأنهم كانوا يقودون سوريا دون مشاركة حقيقية للسوريين في السلطة أو في الجيش .

لقد صدمت الطبقات المستفيدة في سوريا من القرارات الاشتراكية التي صدرت في يونيو ١٩٦١م ، والتي حولت الأعمال الخاصة الى قطاع عام بيد الدولة ، ثم قام انقلاب في سوريا فصلها عن الوحدة ، وأدى التجربة . وأدى هذا الحادث الى قيام الاتحاد الاشتراكي في مصر عام ١٩٦٢ بعد انتهاء تجربة الاتحاد القومي .

تم انتخاب مجلس الشعب الجديد في مصر عام ١٩٦٤ على أن يكون نصف أعضائه من العمال والفلاحين ، وكان تأثيره في الحياة السياسية في مصر

التشبيكية الى مصر فزاد غضب الولايات المتحدة وفي نفس الوقت وضعت مصر خطة بناء السد العالي رمز الاستقلال الاقتصادي والذي كان من المنتظر أن يضاعف مساحة الأرض المزروعة ، ويوفر طاقة كهربائية للصناعة . وكان البنك الدولي أكثر من يستطيع تمويل مثل هذا المشروع فرفض تمويله ، فقرر عبدالناصر تأمين قناة السويس بتأييد قوى من الشعب المصري ، انزعجت بريطانيا وفرنسا وازدادت مخاوف اسرائيل من قوة عبدالناصر وسياسته التحررية .

وبدأت بريطانيا تصعيد الموقف باتهامها لعبدالناصر بأنه هتلر آخر يهدد مصالح الغرب ، وبخاصة بعد رفض عبدالناصر حضور مؤتمر دعت له الدول الغربية لمناقشة مسألة قناة السويس . وبسرعة أصبح عبدالناصر بطلاً وطنياً وقومياً ، وبطلاً للعالم الثالث ، وادعى الغرب بأن مصر غير قادرة على إدارة القناة مما سيعرض مصالحه للخطر ، ولكن المصريين نجحوا في إدارتها بعد تأميمها ، وبدأ العدوان الثلاثي على مصر من اسرائيل وفرنسا وبريطانيا في أكتوبر ١٩٥٦م .

واعتقدوا بأن الهجوم سيؤدي الى الاطاحة بعبدالناصر ، والمجيء بشخص آخر يحكم مصر تنفق اتجاهاته مع مصالح الغرب ومعاد للضباط الأحرار ، ولكن تلك الحسابات لم تتحقق وصمد عبدالناصر ، ووقف المصريون والعرب جميعاً معه حتى انتصر وفشل العدوان وافتتحت القناة للملاحة الدولية في مارس ١٩٥٧م .

وكانت إدارة القناة بنجاح تمثل تحدي الشعب المصري للاستعمار الغربي ، ونتيجة حرب السويس خرج من مصر عدد من الأجانب الذين عاشوا فيها فترة زمنية طويلة وتركو استثماراتهم خوفاً من التأميم . وأصبح عبدالناصر منذ ذلك التاريخ بطلاً قومياً للعرب ، فوقف الشعب العربي معه وطلب بالوحدة

عليه بالمبادرة في الهجوم لكنه رفض وأعلن أنه أبلغ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بأنه لن يكون البادئ في الحرب . وفجأة وصل الملك حسين القاهرة في نهاية مايو ١٩٦٧ ووقع اتفاقاً عسكرياً مع مصر ، وأصبح الهجومها لمواجهة عسكرية ، وفي ٥ يونيو هاجمت اسرائيل بصورة مفاجئة المطارات المصرية وشلت الطيران المصري وأصبحت البلاد مفتوحة للجيش الاسرائيلي .

واستطاع الجيش الاسرائيلي أن يهزم الجيش المصري في سيناء ويصل الى قناة السويس ، واحتل مرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية للاردن ، وكان ثلاثة أرباع الطيران المصري قد تم تدميره ، وقتل ١٢,٠٠٠ رجل ، واتضح ضعف تدريب الجيش المصري في الميدان . وحدث أن نقل بعض الضباط قبل الحرب الى مواقع مدنية . وعندما قامت الحرب دعوا للالتحاق بالجيش وسلموا قيادة وحدات فيه ، وبصورة سريعة ، كما أن ميزانية الجيش قد خفضت في تلك السنة ، وحدثت الهزيمة .

كانت هزيمة ١٩٦٧ هي بداية النهاية لعبد الناصر ، لقد صدم وشعبه بما حصل فقدم استقالته ، وخلال دقائق بعد الاستقالة خرجت الجماهير الى الشوارع في مصر وفي العواصم العربية تطالبه بالعدول عنها والبقاء في السلطة ، فعدل عنها ، وأصبح موقف عبد الناصر على المستوى المحلي والدولي أضعف مما كان عليه قبل الحرب . تحمل عبد الناصر المسؤولية في البداية ، ومن ثم حمل قادة الجيش والطيران المسؤولية . فقدم عبد الحكيم عامر استقالته كقائد للجيش وكذلك فعل آخرون احتجاجاً على موقف عبد الناصر ، وكانت احتجاجات عامر تتركز بأن اللوم يقع على عبد الناصر لعدم استدعاء الجيش المصري من اليمن قبل الحرب ، ودعا إلى ضرورة الابتعاد عن الاتحاد السوفيتي الذي لم ينقذ

محدوداً جداً حيث كان معظم أعضائه يرافقون على قرارات الحكومة بدون مناقشة . وشعر عدد كبير من المصريين بأن تلك التغييرات لا تعبر حقيقة عن إرادة الشعب ، وكانت بعض العناصر في السلطة تحارب المشاركة الشعبية الحقيقية لتحفظ لنفسها بالسلطة . وكان الهدف الأساسي لقيام الاتحاد الاشتراكي العربي هو أن يكون وسيلة للمشاركة الشعبية ، وفشل لسبب بسيط وهو أن السلطة كانت تسعى للسيطرة عليه ، ولم يكن صوت الشعب الحقيقي . وشعر عبد الناصر في منتصف الستينات بأن نفوذ عبد الحكيم عامر أصبح قوياً في الجيش ، وبدأ بتشكك في أمره ، وأصبحت المخابرات مؤسسة قوية لأحداث التوازن مع الجيش ، وبدأت بحاربة واعتقال الشيوعيين والاخوان المسلمين وكل الذين يشك في أمرهم ، ووضعت الجماعات في مواجهة بعضها البعض لتحقيق التوازن السياسي ، وأخفيت كثير من المعلومات عن عبد الناصر . وبدلاً من أن يوجه هذا الوضع لتوحيد الجبهة الداخلية عمل على التفرقة والخوف . وفي عام ١٩٦٦ كان هناك كلام عن اسرائيل بأنها تطور سلاحها النووي ، وفي تلك السنة كونت مصر وسوريا قيادة عسكرية واحدة رغم الخلافات بينها ، وحدثت عدة حوادث على الحدود بين سوريا واسرائيل ، وتحركت القوات المصرية والسورية الى الحدود ، وأبلغ الاتحاد السوفيتي مصر بأن اسرائيل حركت قواتها باتجاه سوريا لاحتلالها ومن ثم احتلال مصر . وكان بعض القادة العرب يريدون التخلص من عبد الناصر ، وكانت اسرائيل تريد الحرب عام ١٩٦٧ لأن وضعها العسكري كان جيداً ، وثقف معها الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن المستقبل قد لا يكون لصالحها ان لم تحض الآن حرباً تحقق فيها نصراً أهم ما فيه إسقاط عبد الناصر .

وكان مستشارو عبد الناصر من العسكريين قد أشاروا

وقفها ولكنه دفع حياته حيث أبهتته الأزمات والأمراض فمات في نهاية سبتمبر ١٩٧٠م .

وعمت مصر والأقطار العربية موجة من الحزن . وبدأت مرحلة جديدة بعد وفاته حيث وجه نقد لاذع لأوضاع البلاد . وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية بحكم منصبه ، وباختصار فإن الحكم الجديد لم يسمح بمشاركة شعبية حقيقية في الحكم وادعى أنه يحكم باسم الشعب بينما أدبرت سياسة البلاد بواسطة مجموعة صغيرة من البيروقراطيين وأصحاب المصالح ، ومنذ ذلك التاريخ لم يرغب عبدالناصر كزعيم وطني عن الشعب المصري رغم كل الانتقادات لفترة حكمه . ولم يكن أحد من الذين خلفوا عبدالناصر له نفس قوة الشخصية والتأثير في مصر والعالم العربي والعالم الخارجي . وجاء السادات ليعلم أنه سيطلق الحريات ويبحث عن علاقات متينة مع العرب ، وبدأت مرحلة العداء للناصرية طوال عهد السادات .

منذ ١٩٧٠ حتى الآن

في عام ١٩٧٣ وبعد اجتماع ثلاثي بين السادات والأسد والملك حسين تقرر الهجوم على إسرائيل لاسترجاع الأراضي العربية التي احتلتها ، وكان السادات قد أعلن عام ١٩٧١ بأنه عام الحسم . ومنذ حرب ١٩٦٧ أعيد بناء الجيش المصري بتدريب وتسليح سوفيتي . وفي أكتوبر ١٩٧٣ ، وفي يوم احتفال إسرائيل بالذكرى (كيبور) بدأ الهجوم المصري السوري على إسرائيل ، وعبرت القوات المصرية قناة السويس الى سيناء ، ولكن الجيش الإسرائيلي اخترق الدفاعات المصرية وأحدث الثغرة وعبر القناة ، وبدأت المفاوضات التي أدت الى مضاينة الأرض بالسلام ، ودرعت الولايات المتحدة هذه المفاوضات ، واستعادت مصر سيناء مقابل توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ والتي

الموقف الخ . . . وشعر عبدالناصر بخطر الوضع وكانت هناك مجموعة قد قررت التحرك ضد عبدالناصر ، واستطاعت أن تقنع عامر بذلك . وقبل أن يتحركوا اعتقل عبدالناصر عبدالحكيم عامر وبعد اسبوعين انتحر عامر . وقد أدانت المحكمة بعض الجنرالات وبرأت آخرين ممن كانوا سبباً في الهزيمة ، وكان رد فعل الناس عنيفاً بأن الأحكام كانت ضعيفة وغيبية للأمال ، وخرجت المظاهرات الطلابية والعمالية في القاهرة . ولا متصاص النعمة ظهرت في الحياة العامة في مصر إشاعات منها ظهور السيدة العذراء فوق إحدى الكنائس ، وكان آلاف الناس يذهبون ليلاً الى الكنيسة ويبقون حتى الصباح في انتظار رؤية العذراء . وكانت موجة دينية قد اجتاحت البلاد في الوسط الاسلامي والمسيحي تقول بأنه رغم الهزيمة فإن الله مع المصريين وان الإصلاح الديني والصحة الدينية هما طريق النصر .

وأصبح الاقتصاد المصري منذ عام ١٩٦٧ منهاراً ، وفقد الجيش المصري ٨٠٪ من قوته وتجهيزاته ، كما أصبحت مصر بحاجة الى الدعم ، وأبدت العربية السعودية استعدادها لدفع تكاليف إعادة بناء الجيش المصري مقابل انسحاب الجيش المصري من اليمن .

رفضت إسرائيل الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها في الحرب وتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ ، وبدأت حرب الاستنزاف . وقبلت مصر في يوليو ١٩٧٠ وقف حرب الاستنزاف ، وفي نفس الوقت بدأت موجة اختطاف الطائرات الاسرائيلية من قبل إحدى فصائل المقاومة الفلسطينية ، وخاف الملك حسين من أن مثل هذه النشاطات قد تعرض حكمه للخطر ، فوجه جيشه ضد المخيمات الفلسطينية في الأردن ، ودمرها فيما يسمى «بأيلول الأسود» وتحرك عبدالناصر لوقف المذبحة ، ودعا الى مؤتمر للغة العربية واستطاع

وكثيرة في مصر ، وفي دور الوثائق العالمية . وبما يؤسف له أن الباحثة اعتمدت على المؤلفات فقط في مصادرها فلمعالجة التاريخ المعاصر يجب أن تعتمد على الوثائق ولا أصبحت معالجة سياسية وليست تاريخية .

أما مسألة التوثيق للمعلومات في الكتاب ومصادرها فإن المؤلفة قد اعتمدت منهجاً لا يجزم الكتاب والقراء كثيراً ، ذلك أنها ذكرت في نهاية كتابها بعض المصادر المختارة دون أن توثق المعلومات التاريخية التي ناقشتها بلذكر مصادرها وذكر المعلومات الكاملة عن كل منها .

وأشارت المؤلفة في الفصل الأول من كتابها بأن المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مصر قد ركزوا على الحكماء بدون كتابة تاريخ الناس ، وكان منهجاً في الكتاب يختلف عن أولئك الكتاب ، لكنها قد صبغت تاريخ مصر الحديث بالصبغة السياسية ، وإن معالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية قد جاءت بين الحين والآخر بصورة عابرة ولم يتم التركيز عليها .

مع ذلك فالكتاب يقدم لنا مادة علمية موضوعية هامة ، وإن المنهج المتبع في الكتاب منهج التحليل الاستقرائي ، ونادراً ما نجد مثل هذه الكتابات الجادة في زحمة سيادة المدرسة الوصفية والاختيارية في كتابة التاريخ ، وقد كشفت الدراسة الكثير من ملاحظات تاريخ مصر الحديث والمعاصر والتي شابهها الغموض والتشويه أحياناً .

وكون الكتاب باللغة الانجليزية فإنه يقدم صورة جيدة للكتابة التاريخية العلمية في وطننا العربي بالمنهج التحليلي الذي تعاملت معه المؤلفة . وإن هذا الكتاب جدير بالترجمة الى اللغة العربية ليكون إضافة علمية إلى قراء العربية الذين أزهقتهم الكتابات المكررة والاختيارية التي تبعد عن تفسير الأحداث التاريخية .

قيدت مصر فترة زمنية طويلة ، وعزلتها عن الدول العربية بعد زيارة مشهورة قام بها السادات الى اسرائيل .

لقد كان حكم عبدالناصر وحكم السادات أوتوقراطياً وقد أدارا البلاد من خلال جماعات صغيرة ، ولكن لكل منهما شخصيته وقدراته وأعماله المختلفة . وكانت سياسة الباب المقترح التي انتهجها السادات قد أدت الى تمكن الاستثمارات الأجنبية من مصر ، وإلى نمو طبقة ثرية استغلت الاقتصاد المصري ، وتفاقم الأزمة الاقتصادية في مصر .

قتل السادات على يد جماعة دينية أصولية ، وخلفه حسني مبارك الذي ورث تركمة سياسية واقتصادية كبيرة ، فكانت أمامه مسألة الحريات العامة في البلاد وسمح للنشاط الحزبي ، ومسألة عودة مصر الى مكانتها في العالم العربي ، ومواجهة المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها مصر ، والعلاقات الاسرائيلية المصرية طبقاً لاتفاقية كامب ديفيد التي أصبحت تواجه أزمة منذ الغزو الاسرائيلي للبنان في صيف ١٩٨٢ م .

ملاحظات عامة

إن عنوان الكتاب قد حدد به « ملخص تاريخ مصر الحديث » والمحتوى يستعرض تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامي الى وقتنا الحاضر . صحيح ان معالجة موضوع تاريخ مصر الحديث يتطلب خلفية تاريخية مختصرة ، لكن يتضح من استعراضنا لموضوعات الكتاب أن المؤلفة لم تلتزم بالعنوان الذي حددته للكتاب ، كذلك استمرت في بحثها في التاريخ المعاصر .

ولما كان التاريخ الحديث والمعاصر يعتمد أساساً على الوثائق فإن وثائق تاريخ مصر الحديث والمعاصر متوفرة

هبت على أوروبا في القرن التاسع عشر ربح شرقية قوية ، فتمتدًا تأكد الأوروبي من قوته وتفوقه قام بفرض نفسه على بقية الأمم لاستعمارها ، تحت ستار تمديدها ، ذلك الستار الذي استعمله كل المستعمرين منذ فجر التاريخ أمثال الإسكندر المقدوني .

وقامت فرنسا ، مدفوعة بمشكلاتها الداخلية السياسية والاقتصادية ، بحروب استعمارية كثيرة ، إلا أن أهمها كانت الحرب لاستعمار « الجزائر » ، التي قررت تحويلها الى محافظة أو ولاية تابعة لها .

وكانت الرومانسية في صعودها ، وطفانيها : شعريا ، وتصويريا ، بل وسياسيا . فلا غرو أن يلعب شاتوبريان Chateaubriand ولامارتين Lamartine وفكتور هوغو Victor Hugo دورا أساسيا هاما وكلهم شعراء مشاهير . وما زاد الرغبة في استعمار الشرق ، كتابات الرحالة من ماركو بولو Marco polo حتى فولني Volney .

كل هذه الأمور مجتمعة دفعت بالساسة الفرنسيين الى ارسال جيش الى الجزائر عام ١٨٣٢ م .

كانت الجزائر تابعة للسلطنة في تركيا العثمانية ، وكان فيها حاكم تركي منذ أن طرد الأتراك الأسبان من وهران . ولكن بسبب بعد العاصمة استانبول ، كانت سلطة الباشا التركي لا تمتد الى مدينة الجزائر نفسها (دار السلطان) ، بينما ظلت وهران وقسطنطين وغيرها مستقلة تماما . أما القبائل البدوية في الصحراء فلم يكن عليها سلطان قط ، تعيش كما تعيش القبائل العربية في الصحراء السورية ، أو في نجد بالحجاز .

وكان من بين الجنرالات الذين ذهبوا اليها الجنرال أوجين دوما E . Daumas الذي ولد عام ١٨٠٣ ، ودخل مدرسة الفروسية العليا العسكرية في مدينة

خيلول لصحرى والكبرى
مع تعليقات لأمير عبد القادر

تأليف : الجنرال أوجين دوما
عرض وتحليل : سليمان قطاية

سومور Saumur ووصل الى الجزائر عام ١٨٣٥ . وكان يحكمها آنذاك الجنرال بيجو Bugeaud الذي عهد اليه بمسؤولية « الشكليات العربية » .

والواقع ان الفرنسيين ، رغم اطلاعهم وعلمهم وقوتهم ، كانوا يجهلون الكثير عن عادات وطباع وأخلاق وتاريخ وجغرافية الجزائر . ولكن ، وكالعادة في مثل هذه الاحوال ، كان هناك خونة لتقديم كل مايلزم المستعمر من معلومات . وهكذا بفضل خيانة الأمير مصطفى^(١) (الذي لايزال أكبر مستشفى في الجزائر يحمل اسمه) الذي قتله رجال قبائل القيلات ، والأمير يوسف ، اللذين كانا يكرهان الأمير عبد القادر تمكن الفرنسيون من استعمار البلاد ولكن بعد معارك رهيبة استمرت حتى عام ١٨٤٣ ، وذلك عندما اكتشف الفرنسيون معقل الأمير عبد القادر في سبالا بفضل الخائن يوسف الذي أخبر الجنرال دوق دومال Duc d'Aumale فقاد الجيش الفرنسي مع رجاله حتى وصلوا الى عين تاقينه . عندئذ هجم عليها بغتة بثلاثمائة فارس فرنسي مدججين بالسلاح ، فقاتل عبد القادر ورجاله قتال الأشاوس ... ثم انسحبوا الى المغرب ، فتبعهم يوسف ومن ورائه رجاله والجيش الفرنسي فوقعت معركة ايزلي ISLEY التي انكسر بها جيش عبد القادر ، فذهب متجها نحو سيدي ابراهيم فطارده يوسف وأخذه أسيرا وعاد فقدمه الى الجنرال لاموريسر Lamauriciere ، ولكنه رفض إيقاف القتال الا ضمن شروط احترم الفرنسيون معظمها .

اضطرت أن أبداً بهذه المقدمة كي أفسر كيف أن كتاب الجنرال دومال مؤلف من كتاباته ومن ملاحظات الأمير عبد القادر الجزائري .

أعشى دوما شطرا كبيرا من حياته العسكرية في الصحراء الكبرى يتعامل مع القبائل العربية فيها ، تارة كمعسكري مستعمر ، وتارة أخرى كممنظم اداري ، وبخاصة كرجل علم فضولي أعجب بالبدو وحياتهم فدرسها بدقة متناهية وتفصيل مذهلة فوضعها في كتب عديدة وصف فيها البدو وحياتهم ، وكان آخرها كتاب كرسه للحصان العربي اسماه : « خيول الصحراء الكبرى » .

وبتأثير الرومانسية التي كان الجنرال مشعبا بها ، جذبته حياة الصحراء بمغامراتها ، وغرائبها ، وسحرها ، وصعوبة الحياة فيها ، ورجالها ونسائها ... فاهتم بها اهتماما كبيرا .

وبعد استسلام الأمير ، ترك مع عائلته وحاشيته ليعيش كما يريد في قصر أمبواز Amboise على شاطئ نهر اللوار ، بينما عاد الجنرال دوما الى باريس . ونشر كتابه ، فلاقى استحسانا ونجاحا كبيرين جدا ، لأنه كان يتجاوب مع الشوق الشديد ، والفضول الكبير الذي كان يشعر به كل اوروبي نحو كل ما هو شرقي . عندئذ ، أراد الجنرال أن يستفيد من علم الأمير ، الذي اشتهر كفارس ممتاز ، وكشاعر ومثقف ، بل انه كتب كتابا عن الحيل^(٢) . فأرسل نسخة من الكتاب الى القومندان بواسونيه Boissonnier الذي كان مسؤولا عن قصر أمبواز ، راجيا أن يترجم الكتاب ويفرق بالعربية على الأمير ، وان تسجل ملاحظاته عليه . وهكذا كان .

وصدر الكتاب في طبعته الثانية عام ١٨٥٣ أي بعد ستة تقريرا من الطبعة الاولى التي نفلت . وترجمته الى الألمانية والاسبانية دليل على اهميته القصوى .

(١) الذي منحه الفرنسيون فيها بعد لقب جنرال مكافأ له .

(٢) « عقد الأجياد في الصافات الجياد » طبع في القاهرة عام ١٣٣١ هـ - و في دمشق ١٩٦٣ .

الشرقي (يقصد تهجين الخيول الأوروبية بخيول عربية) هو المبدأ الذي يجب ان نلجأ اليه وبأسرع مايمكن ونظرا للفائدة المجنية من أمثال هذه الدراسات ، فلقد أوعزت وزارة الزراعة الى أحد المختصين لترجمة مخطوط عربي قديم قل من عرفه وهو موجود في المكتبة الوطنية بباريس وأرغب من وزارة الحرب أن تطبعه وتشره ايضا ، وذلك بهدف دفع عجلة تقدم العلوم الخيلية »

ويقول الثاني : « ان كتابكم يسمح بادراك الأسباب الحقيقية للكمال الذي وصل اليه الحصان بين أيدي اولاد اسماعيل (العرب) . ومن المفضل ان تطبع وزارة الحرب كتابكم وتشره على جميع مربى الخيول لانهم سيجدون فيه معلومات مفيدة جدا ... »

ويقول الجنرال ب . ديكايري B. De Carriere الذي كان رئيس سلاح الفرسان في وزارة الحرب : « ان للعرب في تربية الخيل وترويضها أفكارا ذات صحة لايمكن انكارها لأنها ثمرة خبرة تقليدية . . وحصانهم هو الجدير بالمعارة والقادر على الجري سريعا لمسافات طويلة . وما ان هذه الخيول موجودة على امتداد مناطقنا (كذا) في افريقيا لذا يجب إيجادها ولو كلف ذلك البحث عنها في آخر حدود الصحارى . انها خدمة اضافية لجيشنا في افريقيا ، لاننا اذا نقلناه على أرضنا ، تصبح هذه الخيول القيمة ، ذات عرق محلي صاف ... »

وتتبعها رسالة من الجنرال إيكسلمانس Exelmans ، ثم رسالة في عشر صفحات طوال للجنرال مونج Monge ، ثم الكونت دو غويون De Guyon ثم من ناظر المراتب الملكية هويل Huel ، وأخيرة وهي أهمها من الكونت دور Le Conte D'Aure قائد مدرسة

كل هذا يدلنا على قيمة هذا الكتاب التاريخي والعلمي .

وفي عام ١٩٨٦ أعيد نشره تصويرا على الاوفست ، فنال النجاح نفسه ، ولاتزال بعض الاقلام في فرنسا نفسها تعلق وتشرح وتفتد حتى الآن .

والكتاب من القطع المتوسط مؤلف من ٤٨٠ صفحة لاصور ولارسم فيها ، ماعدا الغلاف حيث ترى لوحة ملونة لفنان فرنسي ثابوي القيمة من الذين يسمون « المستشرقين » Orientalistes وهو الفريد دو درو A. De Dreux وهي تمثل حصان الأمير وإلى جانبه سائسه ، وكلبه .

ويتألف الكتاب من جزأين ، الأول : ويحتوي على ١٥ فصلا ، مكرسة لعلم الخيل Hippologie وينتهي بترجمات لمقتطفات من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية وقصائد شعرية منها قصيدة مترجمة للأمير .

والثاني يحتوي على ١٤ فصلا تصف الحياة في الصحراء كالغزو ، والحروب ، والصيد ، والعادات الخ ...

يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية « إن الاستقبال الحامسي الذي لاقته الطبعة الأولى في فرنسا وخارجها ، لكتاب «خيول الصحراء الكبرى» جعلت من الضروري إعادة طبعته ، بعد عام تقريبا ... »

ثم ينشر بضعة رسائل من بين الكثير مما وصله ، منها رسالة من الجنرال اودينوت Oudinot ، بل من الجنرال دولا موريسير DE La Mauriciere نفسه .

يقول الأول : « إن الرجال الذين كرسوا أنفسهم لدراسة علم الخيل يعترفون اليوم أن إدخال الدم

العرب، هذا الشعب الذي قلت معرفتنا به قبلا . والذي يجب علينا أن ندرسه كي نتعلم كيف نسيطر عليه (١) كنت من عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩ ، فنصّل فرنسا في مسكرة عند الأمير عبد القادر ، ثم مكلفا بالأمور العربية في ولاية وهران ، وأخيرا مديرا مركزيا للأمور العربية في الجزائر تحت امرة حكومة السيد المارشال دوق ديسلي Le Duc D'Isley كل هذه الأمور جعلتني على اتصال وثيق بالرؤساء العرب وبعائلاتهم الكبيرة . تعلمت لغتهم ، وبفضل المعلومات التي أمدوني بها استطعت ان أنشر بشكل متتال : « الصحراء الجزائرية » و « الصحراء الكبرى » و « منطقة القبائل الكبرى » وهي كتب أدت بعض الخدمات لفرنسا ، لأنها ألقت الأضواء على مسائل عسكرية ، وتجارية هامة .

ولقد وجدت أن دراسة الخيول العربية تشكل تمة لأبحاثي السابقة ، لذا كانت موضع أبحاث دقيقة ... أردت أن أتحقق من كل مايقال عن العرب ، من الناحية الخيلية ، بنفسي ، بعيني ، وليس عن طريق الكتب ، بل عبر الرجال .

فالكتاب اذن عبارة عن مختصر لمشاهداتي الشخصية ، ومصاداتي مع العرب من كل طبقة ، من أمراء الخيم حتى الخيال البسيط الذين ، كما يقولون هم أنفسهم ، لا صنعتهم الا « العيش من المهاز » ... والآن ، أحتاط فأقول : لست هنا لأقول : هذا جيد ، وذلك سيء ، أقول ، وبكل بساطة : جيد وسيء ، هذا مايفعله العرب .

ويعلق الأمير عبد القادر فيقول : لقد ألف كثير من العلماء المسلمين ، عددا ضخما من الكتب يذكرون فيها بشكل مفصل كل مواضيع الخيل : صفاتها ،

الفرسان ، الذي يعد حتى اليوم أفضل استاذ في الفروسية عند الفرنسيين وصاحب مؤلفات تعد أعمدة الفروسية الغربية ، والذي كان يسمى في مدرسة الفرسان « الإله الكبير » . يقول دور : « ... ان كتابكم أيها الجنرال لايجتوي الا على وثائق قيمة ، وإذا كان التواضع يدفعكم للقول : إنني لا أقول بأن هذا جيد وذلك سيء ، بل أصف مقالته ومايفعله العرب ، فاسمحوا لي أن أحييكم ، بدون اي خوف من أن أكذب من قبل رجال خيل عمليين فعلا ، الا في بعض الحالات الشاذة ، كل ما في كتابكم جيد ، بل جيد جدا ، وعق حق الحقيقة .

ويعد التأمل والتعليق والشرح لهذه الوثائق ، يصبح اعتقادنا كاملا بأنه يجب أن نؤمن بأفكار ومفاهيم ، وتجارب شعب كل حياته ودينه موجودة في الحصان الذي عرف كيف يحفظ له بنبه وصفاته الاساسي . أما في اوروبا ... فكل الرجال الذين يربون الخيول على أفضل شكل ، والذين يصلون الى درجة عليا في ذلك يطبقون عمليا بل ويحدون حدو المبادئ العربية في كل شيء ... » ويختتم رسالته (٦ صفحات) بقوله : « توجد أحيانا ثورات سعيدة ، منها تلك التي سببها كتابكم ... » والكونت دور هو القائل : « أنصح كل الفرسان في فرنسا بأن يكونوا التلاميذ المخلصين للفروسية العربية . »

ويبدأ الجزء الأول بتمهيد يقول فيه « ... إن أهمية الدراسات الماثلة (لدراسي) تكمن في صحة المعلومات . لذا ، يجب على أن أعرف باليتابع التي استقيت منها هذه المعلومات . لقد أمضيت في افريقيا ستة عشر عاما ، حيث نفذت مهمات ، أو شغلت مناصب سمحت لي بأن أكون على علاقة وثيقة مع

أعز مكان في الدن سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب
وبني الفصل بقصيدة لشاعر مجهول مطلعها :

حصاني سيد الخيل

أزرق كالحمام في الظل ...

وتستمر القصيدة لثلاثين بيتاً صفحتان كاملة .
وأخر تعليق للمؤلف عليها قوله : « لا يمكن للأعرابي
أن يستمر إلا في حياة مزدوجة : حصانه وهو نفسه »

بعد هذا المدخل الشعري ، ينتقل المؤلف إلى علم
الخيل ، فيبدأ بدراسة أنواع الخيول ويدقق في وصف
الحصان العربي الذي يسمى في المغرب : الحر Hor ،
وربما كان أصل كلمة Horas الفرنسية والتي تعني
المربط ، بينما يسمى في الشرق الأصيل أو العتيق .

ويقول بأن الأنواع القيمة في القسم الغربي من
الصحراء الكبرى ، ثلاثة : الحيمور ، وأبو الغارب ،
والمرازيق .

وأن الكثير من القبائل تربئها بشكل طبيعي وجيد
مثال : بني حميدان ، وأولاد سيدي الشيخ ، وأولاد
يعقوب ، والعمورين .. الخ .

ويستمر في وصف كل جنس بدقة متناهية ثملاً لثاني
عشرة صفحة ، حتى يصل إلى الفصل المسمى ،
الفحل ، وفيه يذكر طريقة النزو ، والحمل ،
والوضع ، والقطام بالدقة العلمية المتناهية . ولكن

لأولها ، .. وكل ما هو معروف أن كان جيداً أو كان
سيئاً ، وعن أمراضها وعملها وطريقة معالجتها . منهم
أبو عبيدة ، معاصر هارون الرشيد ، الذي وضع
لوحده خمسين كتاباً عن الخيل ... »^(٣)

وبعد المقدمة يبدأ الكتاب فيصف المؤلف حب
العرب وتعلقهم بالخيل حتى يقول « ... لقد سرت
عجة الحصان في دم العربي ... »

ثم يشرح قيمة الحديث الشريف « الخيل معقود في
نواصيها الخير حتى يوم القيامة » فيقول : « يجب
الشعب العربي : الأجداد ، والسلطة ، والغنى ، فإذا
ما قيل إن كل ذلك معقود في ناصية حصانه ، فمعنى
هذا ربطه بحصانه بوشائج وثيقة : جاذبية الحصان
ومنفعته الشخصية . لقد ذهبت عقبة الرسول ﷺ
إلى أبعد من ذلك أيضاً دون شك فلقد عرف أن
الرسالة التي تركها لشعبه لا يمكن أن تنفذ إلا بواسطة
فرسان شجعان ، وأنه يجب تنمية حب الخيل لديهم ،
مع الإيمان بالدين الإسلامي ، في وقت واحد . »
والنص مشحون بأمثال عامية جزائرية منها قوله :

الخيل للبلاد

والإبل للغلاء

والبقر ، للفقير

أو : جنة الأرض على ظهور الخيل ، وفي مطالعة
الكتب ، أو بين أئدة النساء . ولعلها تحريف لبيت
المتنبي :

(٣) أبو عبيدة معمر بن القتيبي (ولد عام ١١٠ هـ وتوفي عام ٢٠٩ هـ) كتاب : الخيل في تحسين بابا . طبع عام ١٣٥٨ هـ في حيدر أباد الدكن . ويقع في
١٦٣ صفحة من القطع المتوسط

(٤) طبيب فرنسي استعداء كلوت بك مؤسس أي زجل الطبية في القاهرة لمساعدته في التدريس للعمل ، وظل ١٦ سنة في القاهرة . ترجم هذا الكتاب وكتاب اللاهبي والطب
البيروني .

ويصبح هادئا كخروف ، وكالكلب يلحق بصاحبه أينما توجه »

ويذكر المثل المعروف : « الفرس من الفارس ، والمرأة من الرجل »

وبالطبع يصف المؤلف بضعة تدريبات خاصة بالعرب ، نظرا لحياتهم القاسية وتدريباتهم الحربية . من هذه التدريبات : القيامة : ينطلق الفارس بحصانه بأقصى سرعة ثم يجبره على الوقوف مسمرا في الأرض . يبدأ بتوجيهه نحو نهر ، او واد فيخاف الحصان فيقف . ثم يوجهه نحو شجرة او جدار .

- اللطمة : في هذا التمرين ينطلق الفارس بأقصى سرعة ثم يميل بالحصان يمنة او يسرة على زاوية قائمة (٩٠ درجة) ويلطم بيده عنق الفرس بخفة ليوجهه يمنة او يسرة ، شريطة ألا يتوقف عن الجري .

- الناشئة : يدرّب الحصان بحيث يقفز بقائمتيه الأماميتين على حصان العدو فيعض الفارس العدو ويلقيه أرضا ، أو بعض الحصان فيجبره على الحرب . ويقول الجنرال انه رأى في آخر بعض القوافل خيولا عربية تركض وراء البعير المتخلف عن القافلة فتعضه لتجبره على اللحاق بها .

والمعروف أن أفضل حصان سباق في العالم وفي تاريخ الفروسية هو : خسوف Clipse الذي لم يتسر رهانا قط ، وكان عربيا مولودا في إنجلترا ، فكان اذا ماحاول حصان سبته عضه وأجبره على التراجع ! ومن التدريبات : القطاعة ، والسركه ، والفزعة ... الخ ...

لا يذكر التلقيح الاصطناعي ، الذي كان العرب أول من زاوله في الخيل ، ولعل هذه الطريقة لم تكن مستعملة عند قبائل الصحراء الكبرى . الا ان بيرون Peron في مقدمات ترجمته لكتاب « الويل في أمراض الخيل » لأبي المنذر البيطار ، الكتاب المشهور باسم الناصري ، لكونه مهدي الى السلطان الناصري قلاوون ، يذكر ذلك ويقص حادثة طريفة للبرهنة عليها .

وبعد ذلك ينتقل بنا المؤلف ليصف « رياضة » المهر ، أي تعليمه وتدريبه على السرج والخيال . الا انني أجد مايلذكره مختصرا ، كما قاله هو ، لأن المعلومات المذكورة هزيلة اذا ما قورنت ، كما قال الأمير عبد القادر ، بما جاء في كتب البياطرة امثال : تاج الدين صاحب مثلا (١) .

والغريب انه يشرح طويلا طريقة استعمال المهاز (أو الكلاب) الذي يسميه عرب الجزائر « شير » ، والذي نعلمه انه كان قليل الاستعمال عند العرب ، كما يقول للملك المجاهد علي بن داود الرسولي الغساني . في كتابه ، الأقوال الكافية والفصول الشافية (في الخيل) : « ولانستعمل العرب الا للفرس الشמוש » .

ويبدو أن بعض الأعراب بلغت بهم البراعة في استعمال المهاز ، انهم يكتبون به على جلد الحصان ، وهو منطلق جريا ، كلمة « بسم » أي بداية البسملة ، دون أن يجرح الجلد ، بل بحلاقة الشعر . ذكر ذلك بيرون في مقدمة كتابه بينا يقول دوما : ان استعماله يجعل الحصان الشמוש « يبول خوفا من الفارس ،

(٥) كتاب البيطرة للناصح تاج الدين أبي عبدالله محمد بن محمد بن علي (ت ٧٠٧هـ) ج ٢٠ - طبع اولست - معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، فرانكفورت ، ألمانيا العربية ، ١٩٨٤ .

من الغلثنا حملها الينا فارس ألقاها في وجهنا ومضى .
وفيها « الى الجنرال بيجو ، قائد مرافق الجزائر ... تقول
بانكم أمة قوية وقادرة وانه ليس باستطاعتنا مقاتلتكم
وأن الأقوياء هم المحقون . ولكنكم ، رغم هذا ،
تريدون سلب بلد لا تمتلكونه . ثم بما أنكم أغنياء ، ماذا
تريدون أن تفعلوا بشعب ليس لديه سوى الرصاص
ليعطيكُم إياه ؟ بالإضافة إلى أن الله إذا أراد ، فيمكنه
أن يغلب الأقوياء وينصر الضعفاء . تهددوننا أيضا
بإحراق محاصيلنا أو إطعامها لحيولكم وبغالكُم ، كم من
مرة أصبنا بهذه المصيبة قبلا ! فلقد جاءتنا سنون جمل ،
فعرفنا الجوع والمسغبة ، والجراد ، ولكن الله لم يخذلنا ،
لأننا مؤمنون ، والضنك لا يقتل العربي . لن نخضع
لكم أبدا . أنتم أعداء ديننا ، لذا فهذا مستحيل .
ولكن ، إذا أراد العلي القدير ، عقابا لنا على خطايانا ،
وخطايا آبائنا ، أن يصيبنا بهذا البلاء الأعظم ، عندئذ
سنخرج إخراجا كاملا ، ونحن نعتزف بذلك ، اذ علينا
حيثك أن نقدم لكم خيولنا (علامة الاستسلام عند
البدو) رغم علمنا بأنكم لا تحبون إلا الخيول ذات
الأذنان القصيرة ، وأفراسنا لاتلدّها . »

ولقد اضطر رجال هذه القبيلة بعد ذلك إلى
الاستسلام ، كما يقول المؤلف ، إنما بعد عراك عنيف
وعنيد . « ظلوا منذ ذلك الحين أول من كان يطلق
صيححات الحرب والثورة . وهم الذين قتلوا الجنرال
الشجاع (١) مصطفى بن إسماعيل (٢) ، وهم الذين
قتلوا يومازا (أو معزة ؟) وكانوا آخر من استسلم . »

ويقدم المؤلف خلال سبع صفحات أوصاف الفارس
العربي ، أولها الصبر على الجوع والعطش . فإذا لم
يتمكن فلا يكون فارسا في حياته قط . وآخرها : دراسة

ويصف المؤلف بعض الالاماب : كلعبة الخزام التي
يجب على الفارس فيها أن يلتقط - والحصان يعدو
بأقصى سرعة - ثلاثة أحزمة قماشية ملقاة على الأرض
على أبعاد مختلفة . ويصف كذلك لعبة
النیشان .. الخ ..

وهناك قصة يرويها الجنرال عن شجاعة الببدو
الأعراب فيقول :

في عام ١٨٤١ كان المارشال بيجو Bugeaud ذاهبا
مع فرقته من الخيالة إلى « تاغدامت » كي يهدم حصنا
بناه الأمير عبد القادر ، وكان دوما برفقته ، ففسروا
خيالهم في وادي الخزوق ، وهو نهر صغير من روافد
ميتا .

أيقظتهم في الليل طلقة عيار ناري . فقال الجندي
الحارس لدى استجوابه للاستطلاع عن ماهية الأمر :
إنه رأى كتلة من الأعشاب المشوكة تمشي ثم تقف فخاف
أن تكون خدعة . وعندما توقفت الكتلة على بعد عشرة
أمتار من مربط الخيل ، أطلق النار ... وكان في الكتلة
أعرابي يحاول سرقة الخيل فجرح ونقل لاسعافه .
وخطرت للمارشال فكرة ، فترك الجريخ في مكانه مع
رسالة إلى قبائل فليتتا Fleittas^(٦) يقول فيها ان محاولة
التخلص من الجيش الفرنسي بنوع من حرب العصابات
لايجدي ، لأن فرنسا دولة قوية وغنية ، وان عبد القادر
لايستطيع شيئا ضدها ، والامستمرار في التحالف معه
سيجلب على القبائل مصائب لا حصر لها ، وأنه من
الأفضل لها ان تنفصل عن هذا الرجل إذا ما أرادت ألا
تري ، ومنذ الآن ، كل محاصيلها محروقة ! وما إن
ذهبت الفرقة قليلا ، حتى جاء بعض الفرسان العرب
فترجلوا وحلوا الجريخ . وفي اليوم التالي جاءتنا رسالة

(٦) اعلم أنه يعني قبائل الفيلالين .

(٧) يعتمد الحائز الأمير مصطفى الذي قتل رجال عبد القادر في معركة سملا .

طباع وعادات فرسه ، بدقة وعمق ... فلا تغيب عنه لمحة أو فكرة .

وفي التعليق الذي يورده الأمير عبدالقادر بعد هذا الفصل يصف تقنية « التضمير » وهي عملية كانت تحضر بها الأفراس مدة أربعين يوما من أجل السباق ، وهدهدا إذابة الشحم وشد الألياف العضلية فيكون الحيوان على أشد ما يكون ، والفرس المضمرة قادرة على الانطلاق جريا حتى ٢٥ كم .

ثم يصف السباق وأحواله وشروطه ...

ويستمر المؤلف في استعراض مختلف وجوه علم الخيل : من تغذية الى نظافة جسم الحصان ومعلفه ومحبسه ، والاصطبل ، ثم ألوان الحصان والتحجبلات ، والشيات وتفسيرها فيذكر مثلا عربيا :

عجل الأربعة جلاب المنفعة
عجل الشمال مركوب الرجال
عجل اليمين مركوب السلاطين

ثم يفصل كيفية شراء الحصان وانتقائه وامتحانه ، بل ويترجم المحاوراة التي تجري بين البائع والمشتري ثم صفة اليدين علامة عقد البيع . ويؤكد أن العربي لا يزور البيع ، كما يفعل الغربي ، بإعطاء الحصان بعض الأدوية ، بل يعتمد على وصفه الجميل ، ولسانه الطلق لاقتناع المشتري . وينهي الفصل بمعلقة أمرى القيس .

وبعد ذلك فصل خاص بالانعال أو تحديد حوافر الخيل . فيصفها بدقة ويصف البيطار ودكانه وآلته وأدواته ، ثم مكانته الاجتماعية ، إذ كان هو أيضا ، الحداد صانع الأسلحة ، لذا فلا يدفع ضرائب ولا يساهم في الحرب وتظل حصته من المغنم محفوظة ،

ولا يقتل في الحرب الا إذا كان مسلحا يقاتل ، لأن له حصانة ...

ثم فصل التسيريح : فيذكر أقسام السرج العربي واصفا الكلمة العربية أمام الفرنسية بدقة تدهش الأصمعي ، وعلم غاب حتى عن كثير من أساتذة الفروسية والبيطرة العرب اليوم الذي يسمون الرسن بشليق ، والقربوس قنطرة ، ويخلطون بين المقسود والرسن واللجام والشكيمة ... الخ ... ويتحدث الجنرال السرج العربي ويفضله على السرج الهنغاري الذي كان يستعمله سلاح الفرسان في الجيش الفرنسي ويعده له فضائل كثيرة لا يجدها فيه الفرسان العرب اليوم الذين يفضلون السرج الانجليزي ، وهو في رأبي أسوأ السروج (٨) . وينهي الفصل بقوله : « يصل العرب إلى الثقة بالنفس وجودة الركوب على ظهور الخيل بسرعة ، بينما علينا أن نظل أعواما طويلة حتى نحصل في بلادنا على فارس ردي . ويتساءل : « ما السبب رغم أن شبابنا (شباب فرنسا) أقوى وأصحاء ؟ » ويقول المؤلف إن السبب عائد الى التسيريح السيء .

ثم يكرس فصلا طويلا جدا يقع في حوالي ستين صفحة « للبيطرة » فيصف الأمراض مع المصطلحات العربية ، والأدوية مع أسماء الأعشاب بالعربية والفرنسية والوصفات بأقصى مايجب من الدقة .

ما هو مضاد الحكمة ؟ الغضب

ويعلق الأمير عبدالقادر على ذلك بحكمة تقول :

وقد العلم ؟ النسيان

ومضاد الاحسان ؟ امتداح النفس ...

(٨) استعملته إذ أجاد لمائة أنواع من السروج كان العرب يستعملونها .

ويكرس لسرقة كل نوع من الماشية صفحة أو اثنتين يصف « التقنية » فيها . ثم يبدأ بفصول هامة حيث يصف « الصيد » ويقسمه إلى أقسام كثيرة :

صيد النعامة ، والأسد ، والغزال ، وتيس الجبال ، وغيرها . . . مع وصف مذهل من حيث الدقة . وتضرب مثلا بصيد الأسود :

يُضطاد العرب الأسد إما لأنه يتسلط على قرية أو مضرب خيام ، فيلاحظ القوم اختفاء شاة أو حصان أو طفل !! ويسمعون زئيره .

عندئذ يتنادون فيجتمع الرجال من قرى أو قبائل مختلفة .

فيذهب القيافة أولا للتعرف على العرين ، ثم يذهب الجميع سوية . منهم مشاة مسلحون بالبنديقية (ذات الطلقة الواحدة) يقفون في ثلاثة صفوف منسقة . الخلفي منها لمهرة الرماة . وجوهم الفرسان المسلحون أيضا . يقوم رجال النسق الأول بالزعاق والصربخ لحمل الأسد على الخروج ، فإذا لم يفعل أطلقوا بضع رصاصات عليه فإذا جرح جن جنونه واندفع نحوهم بوحشية وشجاعة لامثيل لها ، فيطلقون النار عليه ، ولكنه لا يموت إلا إذا أصيب في رأسه ، فإن لم يقع أطلق النسق الثاني نيرانه ، ثم الثالث ، وهذا نادر جدا . أما إذا جرح وذهب يسرة أو بمنة فينطلق نحوه الفرسان الواحد بعد الآخر ومضى وصل الفارس قربه أطلق على رأسه النار . كذلك إذا خرج عدة أسود في آن واحد . وتدوم المعركة دقائق قليلة ، ويندر أن تقع حوادث كرصاصة طائشة ، أو أن يقع الفارس عن فرسه فيجرحه الأسد^(٩) .

حتى يصل الى : ما ضد الحصان ، وسبب غالبية امراضه ؟ الراحة والبدانة . ثم يتحدث المؤلف عن كيفية الاستفادة من الحصان العربي بالنسبة للحصان الموجود في فرنسا .

وهنا ينتهي القسم الأول ويبدأ الثاني بغناء أو بالأحرى حذاء يغنيه بدو بني ولد يعقوب :

إلى الخارج ، أيها الأجانب ، إلى الخارج

اتركوا زهور مراعيها

لنحلات بلادنا

إلى الخارج ، أيها الأجانب ، إلى الخارج *

ويبدأ بالحدث عن الحياة البدوية فيذكر قول البدو :

« الجمال لمن يدافع عنها ، وقلوب الفتيات لمن يتقن ركوب الخيل » ويصف الغزوات Razzia كما كان يقوم بها العرب قديما ، فيصفها إلى ثلاثة أنواع : منها الطاحة (من فعل طاح أي سقط) ، لأن الفرسان يسقطون على العدو فجأة في الفجر (المفريات صباحا) بحيث تكون « المرأة بلا حزام ، والفارس بلا زعن » وتكون بخمسمائة أو ستمائة فارس . وترجم أنشودة طويلة يقول إنها شعبية تصف حدة القتال الدموي بين القبائل بسبب الحب والغيرة (على العرّض) .

بل إنه يصف الغارات التي لا هدف لها سوى السرقة ، وبخاصة « سرقة الخيول » ويقول إن اللصوص من الأعراب يقولون بأنه « في الشتاء ، تسرق الحيوونات لأن الكلب تحت الخيمة ، وفي الصيف السرقة مما في الخيمة لأن الكلب خارجها » ، ويدعي أن الولي سيدي عبد القادر الجلاي هو شفيع اللصوص ، وذلك لأن معظم اللصوص فقراء والولي هذا يتشفع بهم لأنهم بحاجة ولأنهم يسرقون الأغنياء !

* (ترجمتها من النص الفرنسي إذ ليس لي الفضل النص العربي)

(٩) زار الفنان الفرنسي أوجين دولاكرو Delacroix المغرب عام ١٨٣٢ فدخل لجراة العرب في صيد الأسود ، فنصروا لحيات كثيرة عن هذا الموضوع .

ويتعرض أيضا للبيزرة على الحصان .

وفي فصل خاص يصف الحروب بين القبائل - ويعني بذلك حروبا عنيفة دموية بين عدة قبائل متحالفة بعضها ضد بعض - وليس غارة بسيطة أو غزوة . ويعدد أسبابها وهي : غنم قافلة ، أو شتم نساء القبيلة ، أو رفض السماح بسقاية الماشية ورعيها .

وعند الانطلاقة نحو العدو ، وبينما يكون الشيوخ في هم وغم ، ينطلق الشباب فرحين بالغامرة ، وطلب الأعداء ، منشدين الشعر الحماسي والغرامي . وهنا يترجم الجنرال قصيدة طويلة في ست صفحات لشاعر مجهول مطلعها :

قلبي يلتهب شوقا الى امرأة من حوريات الجنة . . .
ويحتل الوصف حوالي مئة وخمسين صفحة .

ولاعجب لأن ذلك كان يساعد الفرنسيين المستعمرين على تفهم التكتيك الحربي للقبائل العربية ، وكيفية مكافحتها . ثم لانسى أن المؤلف جنرال عسكري تهمة هذه الأمور في الدرجة الأولى ، بل يصل الأمر به في الصفحة ٤١٤ أن يعدد ما يملكه العربي الميسور من عبيد ونساء ومال وخيل ، كذلك ما تحتويه خيمته وقيمتها المالية . ويحتل هذا التعداد الهائل الدقة عشر صفحات كاملة .

اما الفصلان الأخيران ، فالأول مكرس « لرأي عبدالقادر » يقول فيه « عرفنا الأمير عبدالقادر عندما كنت قنصلا لفرنسا في مسكرة (من عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩) ثم عرفته أيضا في طولون عام ١٨٤٧ ، عندما أرسلت في مهمة حين وصوله أرض فرنسا ، واستطعت خلال محادثاتي الكثيرة معه أن أعرف على معلوماته الغزيرة عن كل ما يتعلق بتاريخ بلاده وبخيوها . لذا لم

وثمة طرائق أخرى : فإذا كان العربي مليشا بالأشبال ، وصعب اعراض الأسد ، يذهب بضعة فرسان إلى العربي إذ أن من عادة الأسد وليوته أن يخرجوا بعد الظهر للتجوال فيقفان على رأس تل مطل على مضرب القبيلة ويطلقان زئيرا ترج له الأرض . وخلال غيابها يدخل الفرسان العربي ويكمنون أفواه الأشبال ، لئلا يسمع صراخها الأيوان ، ويهربون بها . وبالطبع فهم يعلنون عن عملهم لكل العرب في مضاربهم وقراهم ممن هم بجوار العربي . عندئذ ينطلق الأسد وليوته بجنون في كل اتجاه ، ويكون الرجال المسلحون في انتظارها .

وثمة من يقتل الأسد للدلالة على شجاعته وعلو همته ، فيضع جثة حيوان في طريق الأسد ، ويبني كوخا صغيرا قبالتها يخفي فيه (يسمى قنرة) مادا سبطانة البارودة فقط ، فيأتي الأسد ويتوقف أمام الجثة ، وعلى الصياد أن يطلق رصاصته الوحيدة بين عيني الأسد وإلا صار طعمة له .

ويقول الجنرال ، مؤلف الكتاب ، إنه تعرف على شيخ عجوز يدعى محمد الموسوي قتل ما ينوف على مئة أسد بطريقة غريبة : كان يذهب إلى العربي ليلا والقمر بدر . فيقف على ركائبي السرج ، وكفل حصانه متوجه نحو العربي ، ويستدير حتى يصبح وجهه مقابل مدخل العربي ، ويصرخ محرضا . فإذا خرج له أسد رماه بطلفته الوحيدة بين عينيه ، فإن أخطأه نكز الفرس فانطلقت به في سرعة بحيث لا يمكن للأسد أن يدركه . فإذا خرج له عدة أسود ، وحتى لو كان أحدهم خلفه ، ضرب الأقرب وهرب .

ثم يتحدث المؤلف عن صيد الضبع ، وصيد الأرنب بالكلب السلوقي ، ويكرس لوصف الكلب واعتناء وجهاء البدو به فصلا طويلا مدهشا .

الطريق جاء البدوي الى باريس هذه المرة ولأى حديقة النباتات فيها مرافقا زوجا من الجمال ، حسب أمر من الجنرال بيليسيه . . . ورغبت في أن أبرهن على ادعائي رغم أن الشامي لم يكن من أولئك « الطلاب الذين يستقنون علمهم من الزوايا » . . . وليس محاربا شهيا . . . كان رجلا من أبسط الناس ، كبا لوكان بالعا متجولا في قرانيا . حسنا ! قلت لمحاوري : أراهن على أنني إذا استجويت ، بالصدفة ، ساكن الصحراء المجهول هذا ، أستطيع أن أسحب من دماغه أغاني تسكر أفضل شعرائنا حتى الثمالة . فقبل الرهان . بدأت الاستجواب بدأ بأغان دينية . . . ثم بعد أن دندن قليلا ، كي يكون الايقاع . بدأ بأغنية طويلة ورتبية مثل أفاق الصحارى .

وبلى ذلك ترجمة لقصيدة تقع في ٢٦ بيتا . ثم يضيف الجنرال قائلا :

« لست أدري ما إذا كنت أبالغ في إظهار جمال هذه الأبيات ، ولكن يبدو لي أن في هذه القطعة من السحر ومن العظمة ما قل أن يوجد ما يماثلها حتى عند شعراء الدول الأكثر تقدما »

ويقول بعد قليل : « يسترحي الشعراء العرب كل وحيمهم من الشيايع نفسها : الدين ، والحرب ، والحب ، والحيل ، وهي تشكل كبل المواضيع التي يتغنون بها ياله من فرق بين هذا الشعر القوي ، الغني في تفاصيله وتطوره ، ولكنه الجذبي في طرائقه ، وبين شعرنا المضطرب ، المذهب ، القلق ، المهووس ، الذي يقلب كل السماوات والأرض كي يجد مواضيع يعالجها بلغتنا المحمومة والمصطنعة ! »

أتردد في أن أطلب إليه رأيه في مادة علمية محضة ، مع أنها ذات أهمية كبرى ، ليس بالنسبة لمستقبل مستوطنينا فحسب ، بل ولستقبل فرنسا كذلك . »

وترجم الرسالة التي أرسلها له الأمير بتاريخ ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٥١م الموافق ٢٣ محرم عام ١٢٦٨هـ بكاملها ، وفيها يجيب عن عدة أسئلة طرحها عليه الجنرال حول مقاومة الحصان العربي للعطش والجوع ، ولماذا يركب العرب خيولهم في أصغر سن ممكنة ، بينما لا يركبها الفرنسيون إلا بعد الرابعة . . . الخ

أما الفصل الأخير فهو مكرس لشخصية غريبة هو « الشميع »^(١٠) Chamby وهو بدوي من قبيلة شمباس (؟) Chambus .

يبدأ المؤلف هذا الفصل بقوله : « إذا كان الشعر عندنا موهبة عدد قليل من الناس ، وميزة بعض العقول النيرة ، وزهرة عطرة ونادرة لا تنبت إلا في أرض معينة ، فهو عند العرب في كل مكان إنه كنز يرتاده الجميع من راعي القطعان الذي يقاتل من أجل قبضة من العشب الذابل ، إلى السيد صاحب الخيمة الكبيرة الذي يجري على حصانه المظم بين أفراد قبيلته . . . يعتقد الكثيرون (من الفرنسيين) الذين لم يتعودوا على العادات الافريقية أو يطلعوا عليها ، أنني كثيرا ما أبالغ فيها أقوله منهم الضابط السيد مولين Mollene الذي كان ، ذات صباح ، في مكتبي في باريس ، يجاجني في مسألة موهبة الشعب العربي الشعرية ، عندما قطعت محادثتنا زيارة غير مرتقبة . كان الشخص الزائر يرتدي البرنس والجاية ، إنه بدوي شامي . . . من أولئك العتاة : لصوص البادية وقطاع

(١٠) رعا كان أصل الكلمة : شامي .

وبعد بضعة أشعار لشامي ، يقول :

« إنه خطأ كبير ، الاعتقاد بأن الإسلام يحبس المرأة في حالة اضطهاد وأنه لا يمكن تحريرها إلا بمجزرات الإيمان المسيحي . فعلى العكس ، احتفظت المرأة المسلمة في قلوب الرجال بتلك المكانة التي كانت للمملكات خلال المبارزات العسكرية للفرسان العشاق ، وعسكري العصور الوسطى »

ويضيف : « استطاع شامي أن ينشد لنا قصيدة تامة ، حيث نجد فيها المرأة موصوفة بشعور عميق من الحنان العاطفي ، والعشق الجنسي مع ذلك الصخب من الصور الحارة التي تنتشر في الشرق في كل أغاني الحب منذ نشيد الأنشيد » .

وترجم قصيدة في ٢١ بيتا ، مطلعها :

لا يمكن لأحد أن يشبه أخوتي إلا بالفرس المجرية .

ويقول المؤلف : إن كلمة أخت عند عرب الصحراء الكبرى تعني : الحفلة . ويقول أيضا : « لا يمكن لأحد أن ينازع مكانة المرأة في قلب المسلم إلا الفرس » وينتهي بقوله : « فكرت ، عندما ذهب شامي ، أن هذا الإنسان التائه يحمل في طياته ردائه أكبر كنزين في العالم : الشعر والحكمة » .

وفي آخر مقطع من الكتاب يقول : « أرغب في أن أعرف عادات بلد أصبح اليوم وإلى الأبد ، مشاركا لبلدنا ، بكل تفاصيله » .

وهنا خان الجنرال التنبؤ بأن ذلك مستحيل ، وأنه كان يحلم . ألم أقل في بداية عرضي إنه كان رومانسيا ؟

ويضيف : « سأحبه لمئات الأسباب » و « إن أكثر ما يبعث الحماسة في النفوس عندنا هو المصلحة ، فهي التي نتحدث ونحاور المخيلة ... »

ويزيد المؤلف فيقول : « في الشعوب الأفريقية ، نجد الرشاقة ، والذكاء ، ويريق الحضارات القديمة ، مزوجة مع قوة الحياة البدائية . هؤلاء الرجال الذين يفضون الوقت تحت الخيم ، ويعيشون مع المهماز والبنديقة ، تعودوا العيش مع شاعرية القرآن الخالد ، ولهم بالنسبة لكل الأمور الإنسانية لقطات مليئة بالنعومة » .

ويقول المؤلف إنه عاد فصادف شامي هذا فحاوره وسأله عن رأيه في باريس وفي الحضارة الفرنسية ومعطياتها ، فمدح البدوي ذلك ولكنه راح يصف صحراء بلغة شاعرية جميلة ، جعلت منها ، على ما يقول الجنرال ، جنة خلاية . وعندما أراد البدوي الذهاب ، ودعه الجنرال ودس في يده قطعة نقدية أخذها البدوي ضاحكا وخرج قائلا :

« ها هو أبوك أنت » مشيرا للقطعة النقدية « أما أبي فهو أبو الجميع * » . وأشار إلى السماء ومضى .

وهكذا ينتهي الكتاب .

وددت لو ترجمت الكثير منه لأقدم للقارئ صورة حية دقيقة عن الحياة العربية البدوية في الصحراء الكبرى ، في أواخر القرن التاسع عشر ... ولكن الذي أودده أكثر ترجمة الكتاب كاملا ... ذات يوم .



* أفن أن الجنرال دوما أساء فهم ما قاله الشامي ، إذ التمس عليه فهم كلمة : وريك ، فالأولى تعني أبوك ، والثانية ريشة سيف الشامي قال له : هذا ريك وهذا ري . لذا كان المسيحيون يسمون إلههم : الأب (والابن والروح القدس) ، فالأمر مختلف عند المسلمين . ولقد وجدت أحفظه أخرى في الكتاب فقول به أن المثل العربي يساوي كيلومتر واحد ، وأخفقه في يساري الضعف .. الخ ..

General Organization Of the Ale
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

العدد التالي من المجلد
العدد الأول - المجلد العشرون
أبريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
مناهج البحث العلمي

ترحب المجلة بإسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- (أ) مناهج البحث العلمى
- (ب) التنمية الإدارية
- (ج) بين العلوم الطبيعية والإنسانية
- (د) الطاقة النووية

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو جماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للأراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبيا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجا معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

ليرة	٥	سوريا	٧	درهم	ليرة الامارات
قريباً	٤٠	القطر	٦	ريال	سعودية
ملياً	٣٠٠	السودان	٤	ريال	عراق
قريباً	٥٠	ليبيا	٥٠٠	فلس	بحرين
قريباً	٥٠٠	مسقط	٥٠٥	ريال	يمن الشمالية
دنانير	٦	الجزائر	٤٠٠	فلس	يمن الجنوبية
مليم	٦٠٠	تونس	٤٠٠	فلس	مراکش
درهم	٧	المغرب	٥٠	ليرة	بنان
			٣٠٠	فلستا	لاردن

لاشتراكات:

بلاد العربية ٥ دنانير

بلاد الاجنبية ٦ دنانير

مول قير الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالته مصرفية خاصة الصاريف الى بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحواله مع اسم وعنوان المشترك الى:

وزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

الشمس
٤٠٠ فلد